www.kotobarabia.com

طائر الشوك

www.kotobarabia.com



أحمد ماضي

طـــائر الشـــوك

رواية

أحمد ماضي

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

- ١ -

يومها كان الاختيار أمامى، ولم يكن القرار بيدى.. عندما انتهينا للتو من مناقشة سؤال: إلى أين سأتجه؟..

كنا.. أنا.. وأبي.. وأمى.. وأخى عبد الهادى..

أمى قالت: يدخل الثانوى..

أخى قال: بلا كلام فارغ.. يختصر الطريق..

أبي لاذ بصمتٍ بدا فيه موافقاً على رأى أخى.. حيث من المؤكد أنه كان يفهم أبعاد هذا الرأى القاطع المتشـنج لعبـد الهادى الهلكان في زراعة الأرض.. هلكان حتى فـي تلـك الأعمال الشاقة التى من الممكن أن يكترى نفـراً لعملهـا.. ولكنه مادام قد أحجم عن الكِراء فذلك معناه أن أجـرة هـذا النفر غير موجودة.. أو أنها بالكاد موجودة ومـن المناسـب توجيهها وجهة أخرى.. أما أمى التى اختارت لـى طريـق المدرسة الثانوية ومن ثم الجامعة.. فإنها إنما كانـت تقـدم الدليل القاطع على أنها مازالت تعيش في الخيال.. وأنهـا لا تريد أن تعترف بفشلها الباهر في إزاحـة صـخرة القسـوة والشيطنة والاستهبال من قلب أخيهـا الوحيـد (شـحاتة).. المتحكم في إرثها.. لقد شفط هذا الإرث في بطنه بإصـرار

وتلذذ وحنكة كنا نظن مصـدرها زوجتـه نعمـات - تلـك المفجوعة التى تندروا بها عندما وجـدوها تأكـل الفسـيخ والبصل في صباحية زواجها -.. التـى ألهمتـه الخطـة.. وتوارت.. ولكنه أجاد التنفيذ وتشديد القبضة على ما بيده من أرض ودكاكين.. وإذا ما بدا لها ذات يوم أنه قد أصبح لينـاً أمام دموع أمى وخالتى.. فتكفيه منها وخزة يعود بعدها إلى صوابه المنشود.. وقبضته المستميتة.. وعندما تعـود أمـى دامعة موجوعة إلى أبى الهادئ المهموم فلا تسمع منه سوى ما سبق أن قاله وسمعته مراراً: لسنا قدرة شحاتة.. فهو كلب مسعور.. استعوضى حقك عند ربـك.. أو ارفعـى عليـه قضية.. "

خالتى صفية - شريكة أمى في نصـف الإرث - أبـت ذلك.. لقد اتبعت سياسة أخرى حيث احتوت خـالى شـحاتة وزوجته المفجوعة نعمات، احتوتهما بالتدخل عن قرب فـي حياتهما.. التداخل والقرب والتقارب.. فما كان من نعمات إلا أن استقطبتها.. وسدت فمها بأطايب طعامها وناولتها بعضـاً مما عندها من كعك وحلوى في العيد.. أو لحم في المواسم.. أو قماش في المناسبات.. وظنت خالتى الهبلة أنها آخذة فـي

اصطياد حقها بالتدريج.. وأرخت لها نعمـات ذلـك الحبـل الواهم.. تسحبه في نعومة وتأتى معها خالتى فـي سلاسـة وهى لا تدري أن آخر الحبل سايب.. ليس به قطعة أرض.. أو دكان على الطريق المسفلت.. أو " بقرتين ثلاثـة " مـن حظيرة جدى المليئة.. المليئة.. ولقد اكتشفت خالتى صفية أن سياسة ملء الفم التى تمارسها نعمـات معهـا.. لـم يكـن المقصود بها أن تنكتم فقط عن طلب الإرث وقسـمة الأرض والمواشى والدكاكين، بل اكتشفت إلـى أى مـدى تحولـت الأفعى من مطلوبة إلى طالبـة.. طالبـة القـرب.. القـرب الفعلى.. أن يتزوج إبراهيم ابن خالتى.. وزميلى عاماً بعـامٍ في الدراسة.. من حنان ابنتها.. وحتى عندما اكتشفت خالتى ذلك وتأكدت أنها دخلت وكر الأفعى وعرين الأسد لم تشأ أن تنسحب معترفة بسذاجة السياسة التى اقتربت بهـا مـنهم.. وعرفت أنها تسحب حبلاً ينتهى برقبة حنان التى تبالغ أمهـا في تقريبها من عمتها.. وتبدو دائماً في أبهى زينتها عنـدما تقابلها خاصة إذا كان برفقتها إبراهيم ذلك الهاف الذي يلـتهم من طعامهم باستخسار، ويحرص كلما ذهـب إلـيهم علـى

تصفيف شعره الناعم الفاحم الكثيف وإسـداله علـى جبهتـه وتثبيته بالفزلين اللامع..

لقد تحول مجرى القضية.. وضِعنا في الأرجـل بسـبب سياسة نعمات.. فأمى لم تجد معها أختها لكى يرفعـا معـاً قضية واحدة ضد خالى شحاتة.. وضعنا في الأرجـل أكثـر عندما ابتلع إبراهيم الطُعم.. لقد أصبح سعيداً بما هو فيـه.. بحنان.. وبطعام أم حنان.. وأصبح يدهس منزل خاله في أى وقت.. بل أصبح لا يكاد يفارقه.. يلهف من خاله ما يريد من فلوس ثمناً لكتب أو ملابس أو طعام يشـتريه بنفسـه مـن السوق، ويخترق الشارع أمامنا حاملاً على صـدره أكيـاس اللحم والفاكهة وكأنه أحد موظفى البندر أصحاب المرتبـات الشهرية.. وكثيراً ما يعود حاملاً بعض ما طبخته أمه هديـة لزوجة خاله..

يومها قلت لإبراهيم بعد أن حصلنا على الإعدادية..

- : ستدخل الثانوى أم المتوسط؟..

وكان رده جاهزاً وسريعاً وقاطعاً بل ومحتداً..

- : متوسط؟.. المتوسط لأصحابه.. ثانوى طبعاً..

وكان ذهولى مكتوماً:

" يابن الكاااااب.. عامل حسابك..

وبصوت يسمعه:

- : والمصاريف؟..

وكان رده بنفس الطريقة السابقة..

- : المصاريف؟.. البركة في ربنا.. وخالى شـحاتة.. ومرات خالى نعمات..

انتهزت فرصة وجود أبى وأخى بالغيط.. تسـللت إلـى أمى.. قلت لها..

- : إبراهيم ابن اختك سيدخل الثانوى.. وخالى شـحاتة حيصرف عليه..

مسحت عرقها بذيل جلبابها.. بدا وجهها مفعماً بـاحمرار وتورد اكتسبته تواً من لهب الفرن..

- : بعد المغرب حاروح لهم.. أنت عارف إن كـل ده عشان يتجوز حنان.. نعمات المفترية مستعجلة على جواز المفعوصة.. ما هي ياما لمحـت لـي عشـان آخدها لك..

ثم رمت في جوف الفرن بعجينة رغيف.. وهتفت بحدة:

- : ربنا ياخدها هي وبنتها..

- ٢ -

لم يسفر مشوارها الذي تلاه مشاوير أخرى عـن شـئ.. خالى شحاتة لم يكن مضطراً إلى الاستجابة لطلب أمى تحت أى سبب.. كيف سيفتح على نفسه باب جهنم إذا وافق علـى تعلمى بالثانوى.. كيف أتمتع بميزة لم يتمتع بها إبـراهيم إلا عندما نصبوه عريس المستقبل لابنتهم ووافق هو على هـذا التنصيب؟.. إن خالى مرتبط بمشروع زوجته نحو إبـراهيم وحنان.. ولسان حاله يقول للناس إننى لا أعطى لإبراهيم من إرث أمه.. فليس لأمه إرث.. إنما أعطيه من مـالى لكونـه سيصبح زوج ابنتى..

لقد حاول – مع تصاعد فكرة التعليم بالثانوى – أن يسد فم أمى بمبلغ تافه من المال.. رفضته أمى.. وثارت.. ثارت في وجهه.. ونقلت ثورتها فوراً إلى وجه خالتى التى حاولت أن تحثها على قبول ما عرضه.. وكانت نعمات الأفعى كامنـة في ركن بعيد.. هادئة.. تعبث بقطعـة حطـب فـي أرض الصالة، وكأنها في وادٍ آخر.. لا شأن لها بما يحـدث مـن خلاف بين أخ وأختين، لقد ضحك باستهتار وأعاد الجنيهات إلى جيبه.. ملوحاً بها في الهواء قبل إعادتها.. بمـا يعنـى "

إسمعى كلامى.. خديهم من السكة أحسن لك ".. ولم تبك أمى قسوته فقط.. بل بكت حاجتها إلـى تلـك الجنيهـات التـى ترفضها بإباء وشمم..

لقد فهم خالى أن ثورة أمى وزعيقها لن يتعدى باب بيته.. وأنها الآن ستضع طرحتها المنهارة على رأسها الموجوعـة ماسحة دموعها بأطراف منديل متكور في صدرها، وتمضى لاهثة دون سلام.. كما يعلم أن أبى مازال متمسكاً بشـموخه وأنفته، وأنه لن ينزل ساحة المطالبة بإرث زوجتـه.. إذ إن فقره لم يشجعه على طلب الستر بإرث أمـى.. ولـو كـان مستوراً لأضفى الستر علينا عزة الطلب.. وبهذا يكون أبى قد واجه خالى بسلاح ناعم رقيق لا يصمد بأى حال تجاه سلاح الغلظة والتحدى..

أما أخى عبد الهادى التعس الهلكـان دائمـاً.. الـذي لا يخاطب الناس إلا رمزاً.. فهو لا يخاطب خاله البتـة مهمـا قابله.. وحتما ستكون المقابلة مستفزة بين شاب مغبر الوجـه مرهق الملامح يحمل فأساً على كتفه، وبين رجل بدين أكرش متورد الوجه نظيف الملابس يحمل قراطيس الفاكهة واللحـم

بين يديه.. فالشاب سوف يقول للرجل وقد نفذت نظراته نحو القراطيس..

" حط ف كرشك.. داهية تسم بدنك "

والرجل سوف يرد بنظرات أخرى..

" موت بغيظك يا عبد الهادى.. "

ودائماً ما يجد عبد الهادى أن الغيظ فـي انتظـاره بـل وجالساً قبالته أمام الطبلية وهو يبتلع لقيمات جافة حتى تنتهى أمه من قلى ثمرة بطاطس في السمن أوثمرة باذنجـان فـي الزيت أو بيضتين يتم سلقهما..

- ٣ -

عندما تحيزت لمدرسة الزراعة لم يكن ذلك من بـاب أى طموح كان يشغلنى.. وإنما لأن أبى قال:

- : اللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش..

وأخى قال:

- : أحسن الوحشين.. بلا صنايع.. بلا زفت..

وأمى قالت:

- : تبقى معاون زراعة.. تركب الكارتة وتلف علـى أرض المصلحة..

وأنا تمتمت:

- : كله واحد..

وكان سهلاً أن أحصل على الدبلوم في ثـلاث سـنوات.. مقابل تعثر إبراهيم ومروره بعديد من المشاكل والخناقات مع خاله وزوجة خاله.. لقد بدأ رذاذ هذه المشاكل يتنـاثر مـن أفواههم إلى آذان الجيران.. ثم إلى آذاننـا.. كانـت البدايـة عندما ضبطوه متلبساً بعلاقة غرامية مع فتاة في طنطا حيث يسكن هناك قريباً من مدرسته.. وإزاء هذا الفعـل كـان رد

الفعل من خالى شحاتة قاسياً إلى درجة كان أقلها حرمانه من المصروف.. وبدأ إبراهيم يعرف طريق الصياغة.. حتى أنه كان يقضى أجازة الصيف بطنطا مع صحبة السـوء التـى انبهر بها ضمن ما انبهر به هناك.. وعندما أبلغنى أحد أبناء قريتى بصوت متعثر ووجه كله كسوف وحرج أنـه شـاهد إبراهيم قرب محطة قطار طنطا يحمل حقيبـة علـى كتفـه وأخرى في يده ويسير خاف أحد المسافرين اخترقنى مسمار من الألم شرخنى من أمعائى حتى حلقى.. تعثـر صـوتى.. وفقدت النطق وهاجمنى خجل جعلنى أدير وجهى وأتحـرك بعيداً عن محدثى.. زاغ بصرى فاهتزت الأشياء..

لقد أخَذَتْ أخبار إبراهيم تترى على آذان الناس.. وجعلت كل من يلوذ بطرفه يسير في نصف ملابسه.. لقد تعامى عما هو فيه.. ولم يعد يرى نفسه في وضعه الوضيع.. لقد سمعنا أنه هبط على خاله في أنصاف الليالي ودار بينهمـا شـجار وصل إلى مسمع البيوت القريبة انتهى بطرده ونيلـه عـدة صفعات.. وكانت الخسارة قلة مقطوشة كسرتها حنان خلفه.. ذلك أنه هددهم بفضح كل أسرارهم.. بل ألمح بشئ فج عـن شرف حنان.. وقيل أنه تسلل من القرية مسافراً إلى طنطا في

جوف الظلام.. ولم يمر على منزلـه.. وقد ثبت صحة ذلك عندما ترتب على هذه الزيارة المريبة زيارة أخرى جـاءت في شكل اقتحام قام به عم عبد القادر وخالتى صـفية والـدا إبراهيم.. لقد عبرا عن قهرهما الشديد لما آل إليه حال ابنهما بهياج صادر وصياح مجنون طالبت فيه خالتى صفية بحقهـا في الإرث، وتوقعنا أن يعرج موكبهما الثائر الحـزين علـى منزلنا الهادئ المستكين لننضم إليهما فـي مواجهـة خـالى شحاتة.. إلا أن ما حدث كان عكس ذلك تماماً.. فقد راقبـت نعمات الثعبانة مدى اتصال خالتى صفية بنا.. وعندما تأكدت أن ذلك لم يحدث سارعت ذات ليلـة بزيارتنـا دون سـابق تمهيد.. يومها كنت خارج المنزل، دخلـت فوجـدتها لابـدة بجانب أمى.. أمامهما الوابور المشتعل يحمل براد الشـاي.. أبى كان بعيداً عنهما في الصالة.. ابتسم وهو يرى انطباعات وجهى لمرآها.. وتحرجى وهي تتلقفنـى بـين أحضـانها.. وكأننى شممت في أنفاسها رائحة الفسـيخ والبصـل الـذي التهمته يوم الصباحية عندما راحت تكيل لي قبلات مبعثـرة تصاحبها كلمات الثناء عن أدبي وشطارتى وسمعتى الطيبة.. تلقيت كل ذلك في صمت المستسلم.. وعدت إلى جوار أبـى

جالساً في صمت أشد.. أما أمى فقد شاركتنا في هـدوءٍ ران على رءوسنا.. وتسربت من خلاله إلى أسماعنا حديثها عـن إبراهيم.. راحت تلعنه.. وتلعن أباه.. متحفظة في سب خالتى صفية حتى لا تغضب أمى.. وعندما سحبنى والدى من يدى، وخرجنا من الصالة إلى الخلاء ظننته يبعدنى أو يبعد نفسـه عن مهالك التدخل لرد الإهانة عن خالتى وزوجها.. إلا أنـه اتجه صوب الغيط.. حيث أخى هناك يعمل.. حتى بعـد أن لمحنا واصل العمل.. ولما ناداه أبى جاءنا في تمهل آخذاً في مسح التراب من كفيه في ملابسه المشمورة حتى ركبتيه.. ثم عبر إلينا قافزاً جدول المياه الضيق الفـائض بمائـه فـوق الحواف.. وحين اقترب منا.. كان أبى قد جلـس القرفصـاء على بقعة خضراء معشوشبة ففعلنا مثله.. ولم يمتد بنا صمت التساؤل غير المعلن.. فقد سارع أبى ببدء الحديث..

- بادرنى متسائلاً:

: تعرف تروح طنطا لإبراهيم عبد القادر؟..

سرى قلق في جذع أخى عبد الهادى.. مط رقبته للأمـام متهيأ لفتح فمه.. أشار له أبى بباطن كفه أن يصمت.. عادت رقبته لوضعها.. ولكن حلت في نظراته الحيرة..

- واصل أبى:

خالكم ومراته بيلعبوا لعبة مش مفهومة.. مطلـوب اننـا نكـون طـرف ضـد خـالتكم صـفية وعمكـم عبـد القادر............ وطبعاً..

طبعاً يا أبي.. أنت فهمـت أن هنـاك لعبـة.. اشـتدت الخصومة.. وخرج الطرفان عن حدود اللياقة.. وبعد أن كنا كماً مهملاً لدى كليهما.. فقد بات انضـمامنا لطـرفٍ مـنهم مطلباً منشوداً.. شحاتة ونعمات يريدان الإمساك بنا.. ولكـن كعصا يؤدبان بها إبراهيم وأهله.. وفـي النهايـة أو قـرب النهاية يلقيان بنا على قارعة الطريق شـأن أى عصـا أدت مهمتها وتكسرت.. وربما يحدث ذلك قبل إنهاء المهمة ذلـك إذا عادت المياه إلى مجاريها وعـاد إبـراهيم رافعـاً كـف الضراعة.. مؤنباً نفسه على الملأ.. نادماً على ما بدر منـه من إهانة لحنان بالقول والفعل.. قابلاً أن يتخلى عن الإقامـة بطنطا ما دام قد فشل في الدراسة.. وليعترف بالأمر الواقع.. ويعود.. فربما يحصل على الثانوية العامة متقدماً لهـا مـن منزلـه.. وذلك بعد أن يتقدم لحنان في منزلها.. ويتزوجهـا ويعيش بينهم.. أما خالتى صفية وزوجها عبد القـادر فهمـا

بلاشك يريدان الإمساك بنا أيضاً.. وإذا كانا قد تأخرا في ذلك أو لم يقْدِما على ذلك حتى الآن فإن هذا بفعل الخجل الـذى يعتريهما من جراء تخليهما عنا في السنوات الماضية وحبهما لمصلحتمها العابرة، مصلحة الحصول على الفتات من وليمة حافلة يحق لهما شرعاً الإمساك بربع زمامها.. لقد ألهاهمـا ملء البطن عن التحيز لصوت العقل.. ولم يعقلا أن الحسـبة في قضيتنا هي واحد زائد واحد يساوى عشرة وليس اثنين.. وأننا بدونهما أصبحنا واحداً زائد صفر وساوينا صفراً وليس واحداً.. وها هى الدوائر تدور.. وها هو المغتصب يتـوارى ويبحث عن ورقة توت أخرى يستر بها عورته.. ترى مـن مِن الطرفين أشد احتياجاً لنا عن الآخر؟.. خالى المستهبل أم خالتى الهبلة.. أرى أنه خالى المستهبل والأفعى زوجته فكل ماليهما من ممتلكات بحاجة إلى حمايـة.. وسـمعتهما فـي طريقها إلى مزيد من التلوث.. والشماتة ستفقأ عيونهم صبح مساء.. الإرث المحتل بحاجة إلى حماية.. نصـف الأرض المحتلة، نصف الدكاكين المحتل.. نصف الماشـية ونصـف المنزل المستولى عليهما.. أما سمعة حنان فهذا مـا لا قِبـل لهما في التفريط فيه.. ليس لكونها ابنتهمـا الوحيـدة ولكـن

لشعورهما أن كل ما يفعلانه ويحصدانه مـن مـال بـالحق والباطل إنما لإسعادها وتأمين مستقبلها.. ولو كان لهما بنـت أخرى لاختاراني عريساً لها.. فإنما اختـارا إبـراهيم دون غيره حتى لا يتركا لها في مستقبل أيامها مصدراً للإزعاج.. فهو أولى بها لينعم بإرثه وإرثها.. وزيتنا في دقيقنا..

عندما قالت لي أمي إن نعمات ألمحـت لهـا ذات يـوم بترشيحها لشخصي عريساً لحنان.. تأملـت هـذا العـرض لحظياً.. ما فحواه؟.. هل كانت بحاجة إلى رفض صريح أو مستتر ليتسنى لها معاقبة أمي بتأكيد حرمانها من الإرث ومن ثم مداعبة خالتي صفية واحتضانها وابنها دفعة واحـدة؟.. أم هل كانت بحاجة فعلاً إلى تحييد عقل أبي وأمـي واتزانهمـا وبعثرة فكرة استخدام المنطق في الحصـول علـى الإرث.. وذلك بتكاتف صفية ونجية - اسم أمي – ومواجهة شقيقيهما الجشع وإحراجه في المحاكم..؟..

أغلب الظن أنها كانت تصبو إلى فكـرة التحييـد.. وأن دهاءها لم يخنها عندما فكرت في ذلك.. وأن ما خانها هـو تمسك أمي بالتعقل.. وتمسك أبي بالتعفف.. وها هي تسـقط في بئر الهبل الذي تسكنه خالتي..

أفقت على صوت عبد الهادى يحاول تعديل رأى أبى..

- : وفيها إيه يابا لما يعملونا عصابة.. نضـرب بيهـا خالتى وجوز خالتى.. نضرب دول ونرجع نضـرب دول.. ما هم كلهم ولاد كلب...

أطرق أبي.. وزم شفتيه وكأنه يتأمـل رأيـاً حكيمـاً يثيـر البهجة.. حتى خلت أن أبى قد تنازل عن فرمانه الطويل في وجوب إنقاذ إبراهيم وعدم الرضوخ للـدعوة المريبـة مـن نعمات وزوجها.. و.. و..

" ا يلعنك يا عبد الهادي.. معقول.. هـذا الـرأى السـريع الصريح الملئ بالدهاء.. يخرب بيتك.. دا انت ولا اليهـود.. نضرب دول.. وبعدين نضرب دول.. صحيح الغـل مـالى قلبك.."

إلا أن الشرود الذي أخذ أبى والذي فسرته خطـأ بأنـه فجوة زمنية للتخلى عن رأيه وتبنى رأى عبد الهادي.. اتضح أنه لم يكن كذلك، بل كانت لحظة التقاط أنفاس ينتقـى فيهـا لعبد الهادي بعض ألفاظ التأنيب والتوبيخ الملائمة والتى مـن شأنها ألا تجرح شعوره بالقدر الكافى أمـامى.. فقـد كـان

الرجل يحمل لولده الأكبر الشعور الكافى بالتقدير لمجهـوده والاحترام لانطوائه النبيل..

- : أنا عارف اللي ف مخك يا عبد الهادى.. لن تبـرد نارك إلا بالأرض؟، ودكان من دكاكين جـدك اللـى على الأسفلت.. فرق كبير بين إنك تكـون عصـابة تخويف وإنك تكون سيف حق.. إحنا كـان ممكـن نعمل كده من زمان ونهاود شحاتة.. حتى لغاية كرم أخوك ماياخد شهادة عالية.. على الأقـل هـو كـان ممكن يكسبهم أكتر من الحمار إبراهيم بن خالتـه.. اللى فضحهم وفضح نفسه..

وابتلع عبد الهادى رأيه المرفوض.. ولاذ بصـمت مـن أذهلته نتيجة الرسوب.. ولم يكن أبى بحديثه الأخير يعـرى عبد الهادى.. ويكشفه أمام نفسه.. فكل القرية تعلم أنه بنـار إرث أمه.. ولم يمنعه من التصدى للاستيلاء عليه – وليس المطالبة به – سوى رغبة أبى في العيش بسلام والابتعاد عن الفضائح.. فإن إثارة شحاتة شئ يتمنـاه شـحاتة نفسـه.. إذ سيبدو كالمدافع عن ثروته الشخصية التي تعب في تكوينهـا بنفسه في حياة والده.. حيث كان يعيش مع جدى بقية حياتـه

بعد تزويجه لابنتيه صفية ونجية... قيل إن جدى مـا كـاد يحس بارتياح لفشله في خلق رجل عظيم من ولده الأصـغر شحاتة حين صدمه سلوك شحاتة بالمـدارس.. بـل سـلوكه بالشارع والمقهى وملعب الكرة وأتـوبيس الطلبـة.. كـان مشروعاً فاضحاً لصايع عظيم.. لا مانع عنده أن يرد لأبيـه الصاع صاعين كلاماً.. إن لم يكن فعلاً أمام ضيوفه الأجلاء في منظرتهم الفسيحة ذات الأرائك المخملية.. ولـذلك فـإن جدى هذا لم يفقد وقاره عندما تزوج سراً فـي بلـد بعيـد.. وعندما أفصح بذلك السر وهو على فراش المـرض حملـوا جميعاً له العذر.. فإنه لم يكن بقادر على فعل ذلك تحت سقف واحد يجمعه بولده شحاتة.. لقد أسر بذلك لأبى حيث كان كلّ منهما يكن للآخر حباً عظيماً.. وقد اختار أن يمـوت قـرب ابنتيه.. بل وبين يدى أمى.. التى أوفت بوعدها له أن تكـرم وفادة زوجته عند حضورها للعـزاء.. وألا تجعـل شـحاتة يتمكن منها.. فقد أشيع أنه وهبها بعض ماله حتى لا تـدخل مع ولده في منازعات مالية بعد وفاته.. لقد كانت تأتى هـذه السيدة الجليلة برفقة ولدها اليافع من زوج سابق ترملت بـه لزيارة زوجها المريض في مواعيد كانـت تختارهـا أمـى

وينفذها أبي.. إنها نفس المواعيد التى يذهب فيها شحاتة إلى مكان بعيد.. لإحضار طبيب بسيارة خاصـة، أو لإحضـار نتيجة تحاليل كانت قد تمت منذ أيـام.. ومعـروف موعـد استلامها سلفاً.. تقول أمى: إن أباها قـد أحسـن الاختيـار بزواجه من تلك السيدة الخلوقة التى ينم جمالها الحالى عـن جمال كان طاغياً ولاشك في شبابها.. وأن اكتنـاز جسـدها البض وبشرتها الناعمة المتوردة لتشير إلى سنوات من الرغد الهنىء عاشتها منذ الطفولة.. أما لسانها العف وحديثها المفعم بالطيبة والإيمان ليشير أنها تربت في بيت أصيل..

إن هذه السنوات التى أعطى جدى نفسه فيها لهذه السيدة، والتى كثيراً ما كان يتغيب بسببها عن البلد ناقلاً بعض نشاطه وبعض أعماله إلى موطنه الجديد.. أصـبحت هـي الحجـة الدامغة لدى شحاتة لمن يسأله عن إرث أبيه.. رغم أنه مبرر واهٍ لكونه لم يكن سوى طالب فاشل في تلك الفترة.. بل كان ماكينة تفرم كل ما تصله من أموال في سـهرات الحشـيش ومواقعة راقصات الأفراح العابرات في جو القرية..

لم يلق كلام أبى رواجاً لدى عبد الهادى.. الـذي عـادت رقبته تحكى قلقه وتوتره ورغبته في إثناء أبي عن موقفـه..

ولما صار الحديث سجالاً أعلن عبد الهادى دعوته أن يلعـب مع شحاتة ونعمات بطريقتهما.. وأنه لابد من التخلـى عـن سياستنا الحالية.. وأنه لا مفر من التمسكن حتى التمكن.. بل لابد من توسيع الفجوة بين الجميع.. والحصـول علـى أى شئ.. " أى شئ يا عالم.. دا الدكان على الأسـفلت بالشـئ الفلانى.. والأرض في ظهر الدكاكين بتنباع بالمتر.. بـلاش طيبة زيادة عن اللزوم يابا.. الناس بيضحكوا علينا.."

تجاهله أبي.. عاد يتابع صمتى بنظراته.. وسؤال لم ينطق به يقول لى: ما رأيك؟..

كانت هناك مشاعر دفينة حيرتنى وحرت بها.. فأنا أميـل ما أكون لرأى وسياسة أبي.. إلا أننى لا أطيق اسمى خـالى شحاتة وزوجته، فهما سبب حرمانى من التعليم الجـامعى.. أما إبراهيم عبد القادر فقد تحولـت مشـاعرى نحـوه مـن الازدراء به.. إلى استهجان سلوكه.. إلى الإشفاق عليـه، إذ تأكد لي في النهاية أنه ضحية علاقة قرابة مهزوزة لا تستند إلى حرارة الدم بقدر استنادها إلى قـوة المصـلحة.. ومـن يستحوذ على من؟.. ومن يهزم من؟..

لقد اضطر أن يحبس نفسه في سجنهم الناعم، وعندما أتيحت له لحظة تحرر كان من السهل أن يمزق خيوطهم الهشة التى كان يعلم يقينا أنها خيوط.. وكانوا يظنونها أغلالاً.. لقد صاع وضاع.. ويبدو لى أنه غير نادم على ذلك.. فتلك في نظره هي الحرية، وشتان بينها وبين الأسر.. أسر اللقمة.. أسر الكسوة والسيجارة وكوب الشاي.. لقد لاقت دعوة أبى وقعاً في نفسى.. فعلاً.. لماذا لا نبحث عن إبراهيم؟.. لا مجال لتوسيع الفجوة.. فلنمد جسراً من التفاهم أقل ما يمكن أن يوصلنا إليه هو أن نعيد إبراهيم إلى أهله.. وإلى عقله..

- ٤ -

لم يكن لظهورى المفاجئ أمام إبراهيم عبد القادر أى وقع في نفسه.. عندما خرج من غرفته الوطيئة على سـطح أحد منازل كفر ستوتة.. مشدوداً لنداء متكرر عالى النبـرة.. يا إبراهيم.. يا إبراهيم.. إبراهيم يا عبد القـادر.. كنـا فـي الصباح الباكر.. وقد اخترت ذلك عمداً حتى أضمن وجـوده بمسكنه.. وهذا ما نصحنى به من دلنى عليه، لقد نصـحنى أيضاً - أو بالأحرى طلب منى - ألا يعرف إبراهيم اسم من دلّـه على مسكنه، إذ يبدو أن إبراهيم قد كّون لنفسـه حيـاة مستقلة وعالماً متفرداً يعيشه راضياً أو مضطراً.. قانعـاً أو مغلوباً على أمره، إلا أنه في كلتا الحالتين لا يريده أن يكون محل اطلاع الآخرين.. وقد تأكدت من ذلك من كمية الحرج التى غرق فيها الدليل، وهو يصف لي المكان، وكيف تسـنى له أن يعرفه.. ففى ميدان الساعة وعند خروجه مـن عيـادة أحد الأطباء شاهد دليلنا ذاك جمهرة مـن النـاس يتقـدمهم شرطى ممسكاً بشاب، في حين يتشبث أحد المواطنين بذراع إبراهيم.. ويقوم مواطن آخر بمرافقة صبى وضح من الحال التى هو عليها والدماء التى تنزف من وجهه أنه ضحية علقة

ساخنة من إبراهيم والشاب الآخر.. وأن الموكب برمته فـي طريقه إلى قسم الشرطة.. حاول إبراهيم أن يتجاهل ابن بلده الذي تعرف عليه إلا أن الآخر وبشهامة الفلاحين تقدم منـه، وفرض نفسه عليه مؤكداً أنه لن يتركه على هذا الوضع مهما حدث مما حدا بإبراهيم أن يقبل بشهامة هذا الرجل بسـرور جاء تدريجياً وهم في الطريق.. وقد وجد صاحبنا لنفسه دوراً هاماً في سير القضية، أهمها إحضار بطاقة إبراهيم الشخصية من مسكنه الذي وصفه له.. (وفيه مفتاح مع واحـدة سـاكنة جارى اسمها أم يسرية.. خذه منها بأمارة اتفاقكم إمبارح على حصوله على الجمعية تالت واحد.. يعنى الشـهر الجـاي.. وعرفها إنه عاوز البطاقة علشان حاشهد على كتـب كتـاب واحد صاحبى في سبرباي.. ومفيش داعى تعرفها إنى حباتْ في القسم).. وعاد صاحبنا له بالبطاقة وبـبعض المـأكولات التى ذهل وهو يحملها من عطاء أم يسـرية حيـث عرفـت المرأة أنه لا كتب كتاب ولا سبرباي.. وإنما الموضوع فيـه قسم.. (هو الواد المضروب عنده حوالى ١٦ سنة؟..) ولـم يجب الدليل.. فلديه رسالة محددة إلا أن المرأة ضربت بهـا عرض الحائط وهى تتحدث معه ومع نفسها.. وهى تخطـو

من حجرته إلى حجرتها ومن حجرتها إلى حجرته لإحضـار البطاقة مرة ثم بطانية مرة أخرى.. ثم تجمع بعض الطعـام من هنا وهناك بإصرار وثقة أكدها ووافـق عليهـا الـدليل بمجرد صمته المذهول وذهوله الصامت.. والمرأة تتحـدث وهي تعمل بهمة واضعة لصاحبنا كرسياً بين الغرفتين أخـذ يتابعها من جلسته عليه بظهره المشدود عن آخـره لاصـقاً بظهر الكرسي شابكاً ذراعيه للخلف.. محركاً رأسـه يمنـة ويسرة مع خطوات المرأة متأملاً قميصـها المشـدود علـى جسدها المكتنـز والذي يقرأ تفاصيله خلسة كلما مرت ببقعة الشمس الآخذة في الانسحاب نحو الغروب من فرجة واسـعة بين الغرفتين..

وعندما حكى لإبراهيم ما حدث عنـدما عـاد إليـه بالبطاقة والبطانية والطعام.. ابتسم في هـدوء وهـو يعبـث بشاربه القصير.. متأملاً محدثه بنظرة سفلية باحثاً فيها عـن حقيقة انطباعه عما شاهده اليوم..

- : مين عجمى ده.. اللي الست قالت إنه أبـو الولـد المضروب..؟..

- : ما تاخدش ف بالك.. دا راجل بلطجى واكل علينا فلوس وهربان مننا.. بس حنلاقيه.. (بنت الحـرام.. هى كمان عرفت لوحدها، إحنا ضربنا مين؟..)
- : ومين صاحبك اللي معاك ده؟.. هو اللي ضـرب الولد.. ولا أنت؟..
- : ما تاخدش ف بالك.. صاحبى ده واد مجدع.. ابن ناس برضه زينا.. بس الزمن جار عليه.. هو اللـي إدى الواد بشلة.. بس أنا حاعترف على نفسي..

وبعد لحظة أطلق فلاحنا المذهول سؤاله الذي لابد منه..

- : ومين الست دي.. يا أستاذ إبراهيم..؟..

أجابه وهو ينظر إلى بعيد:

- : ما قلت لك يا حاج ما تاخدش ف بالك..آهى واحدة ست والسلام..

ومع ذلك لم يتركه الرجل.. حتـى ودعـه علـى بـاب التخشيبة التى دخلها إبراهيم لينام ليلته حتـى يعـرض فـي الصباح على النيابة.. دخلها بوثوق من سـبق لـه خـوض التجربة مراراً وتكراراً.. هكذا كان إبراهيم في نظر الرجل.. العساكر والصولات وبعض المساجين.. كلهـم يعرفونـه..

ولأنه بلطجى جميل الشكل.. شهم فـي تعاملـه مـع كـل المحيطين.. فقد شق طريقه في القسم بهدوء.. وكأن ما فعله وما يفعله أمر عادى بل أمر مسلّم به..

لم أَلْقَ عند دليلنا الراوى ذهولاً وأنا أسمع منه.. فقد راق له أن ينساق في الحكْى.. والوصف والتأمـل وذكِـر كـل صغيرة.. إذ راح يروى هذه الواقعة بكل تفاصيلها لشخصى ولأول مرة بعد أن أخذ منى الأمان رغم أنه أعطى لإبراهيم الوعد في أنه لن يروى لأحد ما رآه قط..وكان رد إبراهيم:

- : مش مهم تقول أو ماتقولشي.. المهم مافيش حد يعرف سكنى..

ولأنى أقنعت دليلنا بمدى الأهمية المترتبة على زيـارتى لإبراهيم فقد خرج عن صمته.. موصياً إياى بما أوصى به.. بل وناصحاً لشخصى بالابتعاد عن إثارة إبراهيم..

- : شوف انت إذا كان عجمى البلطجى هربان منه؟..

قلت للرجل:

- : لك حق.. لو بلطجى خايف منه؟.. يبقـى هو صاحب الوصف اللي بيقول (أكبر بلطجى)..

كان أغلب السكان نياماً في غرفهم المتناثرة على السطح.. بعضهم أطل من بابه بفعل الفضول مسحوبين من مخـادعهم على إثر ندائى المتكرر وأنا أقف في الساحة التـى تجتمـع حولها الغرف.. لم أكن أعرف الغرفة بالتحديد قبل وصولى.. بل لم أكن أعرف أصلاً ماذا سأفعل وما هو المطلوب منى.. ما قاله والدى هو عبارة عن أمر لا يحتمل أى تفاصـيل.." روح هات إبراهيم ابن خالتك ".. وكأن إبراهيم هذا طفل كان تائهاً وأخبرونا بمكانه لدى من عثروا عليه.. لم أشأ أن أقص لوالدى أو لأخى عبد الهادى ما سمعته عن إبراهيم.. فما لدى من تفاصيل مذهلة ومقبضة كان كافياً لإجبار والـدى علـى التخلى عن دعوته الطيبة واتجاهه الودى في معالجة الأمر.. فقد كان التخلى في حد ذاته أماناً لي وتحاشياً من الاصـطدام بشخصية إبراهيم الجديدة.. وأنا في نظر أبى الوديع الذي لا يهش ولا ينش.. ولا قبل لي بمواجهة ذلك التمساح الجريح.. ولهذا فقد كفيت على الخبر ماجوراً حتى يتسنى لـي القيـام بالمهمة التى ازددتُ شغفاً في القيام بها لأطلّع علـى مولـد إبراهيم الجديد.. عاقداً الأمل على حسن استقباله لي.. ولـم أعقد أملاً بالطبع في نجاح مهمتى مقدماً.. بالرغم من أننى لم

أكن ضمن من يمكن أن يكون قد وضعهم إبراهيم في قائمـة الأعداء.. فتاريخي معه كان ناصعاً.. وهو الذي لم يشأ خلال دراستنا أن يقترب منى بالقدر الذي يؤكد أننـا أبنـاء خالـة وأصدقاء.. فقد اختار لنفسه أصدقاء من بيوت أخرى يـذاكر معهم أو يلهو معهم تحت غطاء اسمه المذاكرة.. يـرد لهـم الإهانة ويردون لـه الإهانـة.. يخاصـمهم ويصـالحونه.. ويخاصمونه ويصالحهم.. ويبدو أننى بطبيعة تحفظ ومحافظة أبى وميله الدائم للاعتدال في التعامـل وعـدم الاعتـراف بالمذاكرة المشتركة وأن لكـل شـئ وقتـه.. اللعـب.. أو المذاكرة.. أو العمل في الحقل.. وضعت جداراً سـداً أمـام رغبة إبراهيم في مصادقتى هذا لو كانت لديه رغبة فـي أن أكون ضمن أصدقائه.. لم أكن أحمل له أى كراهية أو عـدم تقدير.. بل يبدو أننى حاولت أن أجعله يقترب منى ونحن في الصف الثانى الإعدادى.. وأقدمت على عمـل شـئ غيـر مشهور ولا متداول - حتى الآن- بين أبنـاء القـرى مـن الطلبة.. فرغم أنى لم أسمع عن صديق منهم أهـدى الآخـر شيئاً بمناسبة عيد ميلاده إلا أننى أقدمت على ذلـك.. ولـم يكلفنى الأمر سوى باقة من الورد صنعها لي بستانى حديقـة

تفتيش الزراعة بعد أن منحته خمسة قروش وأوصيته بعمـل باقة ورد جميلة.. يومها لففتها في نصف فرخ شفاف ملون.. واضعاً بطاقة صغيرة بين الورود.. (أخـى إبـراهيم عبـد القادر.. كل سنة وانت طيـب.. اليـوم ١٢ سـبتمبر عيـد ميلادك)..

كان من المهم أن أكتب الفقـرة الأخيـرة لكـى يتـذكر المناسبة.. أرسلتها مع طفل من منزل يجاوره.. ذهب الطفل ولم يعد.. تذكرت أننى لم أكلفه سوى بالذهاب.. ولم أشـأ أن أطلب منه أن يعود ليبلغنى بشئ.. اضطررت أن أبحث عن الطفل في اليوم التالى.. لأسأله في غير اهتمام عن وصـول الرسالة.. سمعتنى أمه وأنا أحاول أن أجذب منه ما يطمئننى عن حسن انطباع إبراهيم لهديتى.. كان الطفل مؤدباً.. لم يشأ أن ينقل لي الكلمة التى قالها إبراهيم فور تسلمه للـورد.. إذ قال لخالتى صفية..

- : شايفة هيافة كرم ابن نجية أختك.. باعـت لي صحبة ورد هدية عشان عيد ميلادى النهـاردة.. زي بتوع الأفلام.. والنبى الجدع ده فاضي..

اتضح لي أن الطفل قالها لأمه نقلاً عن إبـراهيم.. ولمـا شاهدت المرأة حيرتى مع طفلها الذي لم يحمـل لـي كلمـة واحدة من إبراهيم.. حكت لأمى ما حدث.. ضاحكة من فعل التلاميذ مع بعض.. وكأنها تسلّى أمى بواقعة طريفة.. إلا أن أمى لم تأخذ الموقف بهذا المأخذ السطحى بل ذهبـت إلـى أختها صفية ووبختها على سفالة ابنها وقلة أدبه.. وأنها يجب أن تربيه أفضل من ذلك.. بأن تجعله يحضر إلـى منزلـى شاكراً حلاوة مشاعرى تجاهه.. وتفكيرى البرئ الطيب فـي إدخال السرور على نفسه.. وقد تضايقت من أمـى.. لأنهـا أفسدت موقفى النبيل.. حيث كنت واثقـاً أن إبـراهيم كـان سيشكرنى ولو بكلمة واحدة عندما يقابلنى رغم مـا قالـه.. وهكذا أصبحت باقة الورد سبباً في حدوث سوء فهم وتفاهم.. بدلاً من حدوث مزيد من الفهم والتفاهم..

وها أنا أتذكر موقفاً آخر يؤكد لي أن إبـراهيم سيحسـن استقبالى.. وربما يفتح لي صدره.. حيث حدث أن قلت فـي حقه كلاماً طيباً أمام عدة أشخاص.. ونقله له أحدهم.. ذلـك عندما قام واحد منهم بعقد مقارنة بـين شخصـى وشـخص إبراهيم.. فخوراً بما وصلت إليه بحصـولى علـى دبلـوم

الزراعة دون رسوب ولا عاماً واحداً.. وقرب حصولى على وظيفة.. وتعثر إبراهيم في الثانوية العامة.. فأصـبح كمـن رقص على السلم.. وكان يتحدث عن إبـراهيم بنـوع مـن الشماتة.. إلا أننى لم أطق هذا وأسكته بهدوء مؤكداً لـه أن إبراهيم ذكى.. " ولو وضع الشهادة في رأسه سيحصل عليها بأكبر مجموع.. ولو ظروفه لم تساعده اليوم فغداً ستساعده.. ورغم حصولى على الدبلوم إلا أننى كنت أتمنـى أن أكـون مكانه.. لأنى في يوم من الأيام سـأدخل الجامعـة ".. وقـد عرفت أن هذا الكلام الطيب قد وصله، إذ إنه عندما قـابلنى في الطريق ذات مرة بعد هذا الحديث سلم علـي بحـرارة.. وكنا في أجازة الصيف.. وطلب منى أن أذهب معهم لساحة المركز لمشاهدته في ماتش كرة بـين بلـدنا وبـين فريـق منافس.. وقد ذهبت فعلاً واستمتعت بأدائه الجميل في لعـب الكرة حيث كان مهاجماً خطيراً يعمل له الفريق الآخر كـل حساب.. ولما كانوا يوزعون زجاجات الكولا المحدودة العدد بين الشوطين جاءنى مسرعاً بزجاجة قاطعاً عرض الملعـب لمكان جلوسي بين الجمهـور.. (... إشـرب دى يـا ابـن خالتى..)

ها هى امرأة تطل من شباك غرفتها.. تأملـت شخصـى لحظياً ثم واربت الشـباك تأدبـاً.. حتـى لا يثيـر إغلاقـه اشمئزازى.. أكيد دي أم يسرية.. بيضاء مستديرة الوجه ذات ملامح دقيقة، شعرها الناعم لم يقلل من جماله كونه منكوشاً.. وعيناها الناصعتان المستديرتان لم يقلل من حلاوتهما كونهـا أفاقت من نومها الآن على صوت ندائى..

عندما انطلق ندائى مرة ثانية عادت وأطلت مـن الفتحـة المواربة وأشارت لي - دون أن تنبس بكلمة واحدة - علـى باب غرفة إبراهيم حتى أتقدم للطرق عليـه.. هـززت لهـا رأسى شاكراً.. وعند لحظة تقدمى نحو الباب سمعت صوت معالجة فتحه من الداخل.. وعندما أخذ الباب فـي الانفتـاح تدريجياً محدثاً صريراً ناعماً أغلقت المـرأة شـباكها دفعـة واحدة.. وظهر إبراهيم متلفعاً بفوطة قديمة حول رأسه سـتر بها وجهه كله ما عدا عينيه ليتقى لفحة برد من الممكـن أن ينالها مع خروجه المفاجئ في هذا الجو القارس..

- ٥ -

تحرك للداخل.. فتحركت خلفه.. رافعاً بيمناى الكرتونـة الموثقة بحبال رفيعة والحافلة بما تيسر من خبز طرى وجبن وأرز مطبوخ ودجاج محمر وبيض مسلوق وعسل نحل..

لم أجد ما أجلس عليه سوى طرف مرتبة متآكلة وضعت على الأرض فوق ورق مـن الكرتـون المقـوى.. جلـس بجواري.. تأمل الكرتونة.. ألقى ببصره نحوى مبتسماً مـن خلاف الفوطة التى راح يفرك بها عينيه..

- : زيارة من البلد.. عشت يا كرم عشت.. حـط دي ورا ضهرك..

رفع الوسادة الوحيدة التي تمكن منهـا العـرق والسـواد ووضعها خلفى..

- : عرفت مكانى إزاى؟

ابتسمت: - بطريقتى..

تكشرت ملامحه..

- : هو الجبان محمد أبو إبراهيم.. إنت مـا لكـش أي طريقة...

لذت بصمت المطعون.. ليست لي أى طريقـة.. يعنـى مازلت في نظره هايف.. داخلنى حزن وليد.. ربمـا علـى

صورتى في نظره.. وربما لحدته في إلقاء العبارة الأخيرة.. لم أشأ أن يتمكن منى الضيق حتى لا أفسد مهمتى بنفسى..

- : يعنى يا إبراهيم مش عايزنا نسأل عليك..؟..

- : تسألوا علي ولا تتفرجوا علي؟..

- : إحنا أهلك يا إبراهيم.. ومش ممكن نتفرج عليك..

- : أنا ماليش أهل.. ومش ممكن برضه أكون فرجة..

- : زيارتى مصيرية.. ومهمة.. أنا وأبويا وأخويا اتفقنا عليها مع بعض.. لازم ترجع البلد..

- : وا يا سيدى أبوك شهم.. وأخوك عبـد الهـادى غلبان.. ومع ذلك متشكرين.. بس عـاوزنى أرجـع البلد ليه؟..

- : لأمك وأبوك وتشوف مستقبلك من جديد؟..

- : أمى؟.. أوريها وشى إزاى.. أبويا؟.. أسـلم عليـه إزاى؟.. دي خجلانة منـى.. وده مصـدوم فـي.. وأشوف مستقبلى إزاى والغول اللـي اسـمه خـالى شحاتة مكوش على كل حاجة حتى على مصـيرنا.. يطلعنا من الجنة.. ويودينا النار بمزاجه..

قلت بصوت خفيض واهن متردد:

- : أنتم يا إبراهيم اللي حبستم نفسكم في جنتـه ومـا كانتش جنة ولا حاجة.. وافقتم تاخدوا الفتافيت..

رد مهاجماً:

- : إحنا وقدرنا ناخد فتافيت.. طيب أنتم أخدتُم إيه..؟..

- : أشرف لنا مانخدش حاجـة.. ولا نطلـب حاجـة باستعطاف.. وموقفنا معروف..

قال بسخرية:

- : موقفكم؟.. السكوت.. دا موقف؟..

- : صمت المضطر.. الخوف من الفضايح..

استهيفنى مرة أخرى..

- : فضايح؟.. واللى إحنا فيه ده مش فضايح؟..

زدت له العيار:

- : الفضايح دي بينكم وبين بعـض.. وسـببها طبعـاً حضرتك.. وانهيارك المفاجئ..

- : قصدك انهيارى التدريجي..

- : أهو انهيار.. وبس..

يبدو أننى نجحت وكنت نداً له في رد الهجوم فقد صمت.. صمت طويلاً.. ثم ردد بأسى..

- : نصيبى..

- : ندمان؟.. لو ندمان يبقى أنت على الطريق الصح..

- : مش ندمان..

- : تبقى مكابر..

- : ولا مكابر..

- : أمال إيه..

- : أنا مستمتع بحريتى.. بصـياعتى.. بصـعلكتى.. بقراري أن أنام على الرصيف ده أو على الكرسي ده في القهوة دى.. مبسوط إنى رحت لخالى وتفيت في وشه وضربنى قلمين.. مبسوط إنى اتخلصـت مـن جوازة على غير إرادتى..

- : معقول يا إبراهيم.. أنت مش كنت بتحب حنان؟..

- : مش عارف.. حتى لو كان فيه حـب.. كفايـة إن إرادتى فيه كانت موجهة..

- : لو كان حب بصحيح.. كنت اتحمل عشانه..

- : حاولت.. حاولت أدى لنفسي صورة الشخص القوى أمامهم.. فشلت.. والسبب إن إديهم أعلى من إيدى.. آخذ منهم عشان أديهم.. حاولت أستمد قوتى من كسر قوتهم.. حاولت أدوس رقبتهم بجزمتـى.. حاولـت اغتصب حنان.. هربت منى.. وفضحتنى.. مالـك.. منزعج ليه؟.. مافيش حاجة ممكن أخبيها دلوقت.. أنا مش باقي على حاجة.. ولا عاوزنى ألـبس طاقيـة وأقف عريان في ميدان عام؟..
- : عشان كده انت عايرتهم بشرف بنتهم؟.. معقول يا إبراهم.. مش دى من لحمنا..

لاذ بصمت النادم..

أطرق طويلاً.. وأخذ يردد في هدوء وهو يهـز رأسـه أسفاً.. كلمات من أغنية معلنة..

زي غيرنا ما باع

نبيع

عمر الهوى.. وعهده..

زي قلبي ما ضاع

تضيع

كل القلوب.. بعده

هتفت:

- : جبار..

- : أيوه جبار.. ولسه ماشى ف طريق طويـل مـش عارف آخره.. فيه غول بيكبر جوايا..بس.. مشكلتى الفلوس.. الفلوس هي اللي حتقوينى..

- : بتحارب مين؟.. وإيه سلاحك؟..

- : بحارب الزمن.. عندى الدافع لحرب طويلة مـش عارف مصيرها..

- : بدون خطة؟..

- : مش محتاج لخطة.. خطتـى إنـى أفضـل أكـره الجميع.. لازم أهين نفسي عشـان كُرهـى للجميـع يزيد..

- : دى بيسموها في الحرب.. تعبئة..

- : ممكن.. عشان كده عاجبنى جـداً الشـعار اللـي صدعونا بيه اليومين دول.. ما أخذ بالقوة لا يسـترد إلا بالقوة..

- : بس أنت من غير سلاح..

- : حقدى على الجميع.. هو سلاحى.. حتحـالف مـع الشيطان..

- : بس أنا جاي اتحالف معاك بسـلاح تـانى.. انـت عارف إن إحنا مش شياطين..

- : عشان كده أسلحتكم ما تعجبنـيش.. أسـلحتكم مـا تفتحش خرم إبره في جبهة شحاتة الغول..

- : والمطلوب؟..

- : طلبكم مش عندى.. عشان كده أنـا بابحـث عـن شيطان اتحالف معاه..

- : اعتبرنى هذا الشيطان..

- : مش حتتحول فجأة من ملاك لشيطان.. من مسكين لجبار.. من أفندى محترم معاه شـهادة لبلطجـى.. حتكون أضحوكة..

- يوضع سره في أضعف خلقه..

- : مادمت بتعترف بضعفك.. يبقـى حتجيـب القـوة منين؟..

- :.........

- : ما بتردش ليه.. فاقد الشئ لا يعطيه يا ابن خالتى.. هات لنا شوية أكل من كرتونتـك دي.. لغايـة مـا أوضب لك الشاي..

وقهقه أمام عجزى عن مواصلة الحوار معه حتى بـدت أسنانه البيضاء اللامعة.. واتجه متحركاً بمقعدته نحو الـركن القريب.. حيث وابور الغاز وصينية الشاي والبراد الغرقـى في بحر من القذارة.. تأفف لحظة.. والتفـت ناحيـة البـاب الموارب ثم رفع عقيرته بنداء حاد طويل:

- : يا يسرية.. يسرية..

وكأنها كانت تقف على البـاب.. حضـرت طفلـة فـي العاشرة.. نظيفة الهندام ولكنهـا تسـير حافيـة.. حتـى أن خطواتها راحت تطرقع فوق البلاط وهي تتجه نحونا.. عندما وقفت بحلق الباب.. أشار لها على عدة الشاي فاتجهت فوراً نحو ركن الغرفة.. وأخذت تحمل البراد وصينية الأكواب في كومة واحدة احتضنتها ما بين ذراعهـا الأيسـر وصـدرها الصغير.. ثم خرجت بعد أن غرزت بصـرها فـي عمـق

الكرتونة المفتوحة التـى لاح منهـا وجـه بـرام الأرز ذو الاحمرار الفاقع.. وأفخاذ الدجاجات الأكثر احمراراً..

جاكت البيجامة القديم لم يكن هو المعلـق بعنايـة علـى الشماعة ولكنه كان يحمى أسفله بدلـه كاملة.. رمادية اللون ذات فتحتين على الأجناب بالجاكت.. حتى القميص الأبـيض ورباط العنق – المربوط - ذو اللون الأحمر المـنغّم بـالبقع البيضاء أخذا مكانها في نفس اللفة على الشماعة.. تخلـص من سترة نومه وألقاها على حبل ممتد بين ركنـين.. فبـدا غياره الداخلى متسخاً ومثقوباً في بعض الأماكن.. عاد فلبس بنطلون البيجامة فقط وتحرك مسرعاً إلى خارج الغرفة وعاد بعد قليل ورذاذ الماء يتساقط من وجهه ومن خصلة شـعره الملقاة على جبهته.. بحث عن شئ كالفوطة ربت بها علـى وجهه ثم ألقاها من غير عناية.. وبعد لحظات كـان أفنـدياً كامل الأناقة بحذائه الأسود اللامع.. وراح يهذب شعره الطيع جاذباً مقدمته بالمشط مربتاً عليها براحته في حنو أمام مـرآة في حجم الكراسة مثبتة بميل خفيف على الحائط في مستوى قامته..

أشار لى: هيا بنا..

أفقت من مراقبتى الصامتة له، مبدياً إعجابي بأناقتـه.. إذ مد لى يده جاذباً إياي من جلستى على المرتبة متمتماً..

- : شياكة إيه يا كـرم؟.. دي البدلـة الوحيـدة اللـي حيلتنا..

وعند الباب.. تنحنح بصوت عالٍ.. واتجه نحو غرفـة أم يسرية.. ونقر الشباك بظاهر سبابته المنثنية.. فانفتح نصـف الشباك.. فاختفت رأسه داخل الفتحة.. ثم امتدت يده وعنـدما أخرجها إلى جيبه مباشرة كان قد دس عملة ورقية تناولهـا حالاً من المرأة.. ثم تلا ذلك بعض الهمس.. خرجت علـى إثره يسرية متجهة إلى غرفة إبراهيم فأفسحتُ لهـا مجـالاً للدخول لتخرج بعد قليل حاملة الكرتونة بما فيها من طعام لم يمس.. وبقايا ما أكلناه قبل قليل.. وكان الهمس مازال يـدور بينهما إلا أن أذنى لم تلتقط سوى كلمة (ابن خالتى).. التـى ربما شاء أن ينطقها عالية كسراً للهمس الذي زاد عن حـده وحتى لا يثير ارتيابى وهو يعلم أننى أقف خلفه بخطـوات.. وعندما أوشك على الانصراف عادت رأسه إلـى الخلـف.. ورفع عقيرته بتحية وداع.. طيب.. مع السلامة.. ثم استدار في رشاقة مشيراً لي أن أتبعه.. وقبل أن أتحرك خلفه كـان

نصف الشباك قد أغلق على المرأة.. التى وضح أنها تعمدت التحشم والتحجب في وجود ضيف جارها العزيز..

- ٦ -

كان الصمت يجمعنا وأنا أتحرك تارة خلفه وتارة بجواره مخترقين حارات تسلمنا إلى شوارع معتدلة ثم حارات أخرى ثم ميادين صغيرة راحت تمتلئ بدبيب الحياة مع ضحى يـوم جديد.. ووصلنا في النهاية إلى مقهى صغير انتهى عماله تواً من ترويقه وبث النظافة في أرجائه وبامتداد رصيفه العـامر بالكراسى والمناضد..

احتل إبراهيم كرسياً حول منضدة صغيرة على الرصيف المبلل بقطرات المياه ونشارة الخشب.. فاحتللـت الكرسـى الآخر المواجه له.. وقبل أن نلتقط أنفاسنا على المقاعد جـاء الجرسون فسأل إبراهيم بلهجة مؤدبة..

- : نبعت نجيب فطار إيه النهارده يا أستاذ إبراهيم؟..

رفع إبراهيم يديه في الهواء ثم وضعها على بطنه علامة الشبع.. وأطلق حمداً على ذلك الشبع..

- : أول مرة أفطر في البيت النهاردة.. كرم ابن خالتى جاب لي الزيارة بتاع كل أسبوع.. وحاف على آكـل

منها.. فطير وعسل وقشطة.. رغم أن أنا ماليش تُقل على الحاجات دي..

تراجع الجرسون خطوة للخلف بتأدب..

- : ربنا يزيدك من نعيمـه.. نجيـب شـاي بقـى؟.. بحليب؟..

لم يرد على السؤال الأخير.. ولكنه أشـار علـى وهـو يقدمنى للجرسون:

- : نسيت أقول لك.. كرم ابن خـالتى " طالـب فـي هندسة القاهرة " أبوه من الأعيان.. بإذن ا بعد مـا يخلّص البكالوريوس باباه حيسفره إيطاليـا.. ياخـد الدكتوراه..

هتف رجل بدين من بعيد:

- : أنعم وأكرم يا إبراهيم بيه.. ربنا يديم العز..

حياه إبراهيم:

- : شكراً يا معلم.. صباحك فُل.. اتنين شاي يا بنـى.. بس الشاي بتاعى.. من غير حليب..

يبدو أن فكى قد تدلى من الذهول.. وأن حنجرتى تحجـر فيها الكلام.. وأن عينى زاغ فيهما البصر.. وأنا أرى وأسمع

هذا الحوار بين إبراهيم والجرسون والمعلم صاحب المقهـى على مرأى ومسمع من الرواد محـدودى العـدد فـي هـذا الصباح.. فإبراهيم ابن خالتى الذي جئت مسرعاً لانتشاله من المهانة بعد أن علمت أنه يلتقط رزقه من حمل الحقائب على المحطة ليس سوى الأستاذ إبراهيم الآن.. أو إبراهيم بيـه.. وأن إبراهيم ابن خالتى الذي شاهده أحـد بلـدياتنا يخـوض معركة مع بعض البلطجية استخدم فيهـا قبضـته ورأسـه ووضع حداً سريعاً في هذه المعركة مع خصومه عندما فروا أمام شراسته ليس سوى ذلك الأفندى المهنـدم ذى الـرأس المتوج بهالة الشعر اللامع المتماسك الجميل.. وأن الاحترام الذى عومل به من الجرسون والمعلم والرواد فور دخوله بي إلى المقهى ليجعلنى أتساءل: لماذا كل هذا الاحترام؟.. أو ما هى حقيقة الأرضية التـى بنـى عليهـا إبـراهيم قواعـده الرصينة..؟.. ثم ما هذا الفشْر الذي قدمنى به إلى النـاس؟: طالب الهندسة.. وأبى من الأعيان وسأحصل على الدكتوراه من إيطاليا.. إشمعنى إيطاليا يعنى..؟.. الشائع أن الدارسـين يذهبون إلى روسيا أو المجر أو ما شابه.. هل هو يعرف أن أمريكا صعبة فاختار إيطاليا ليجعلنى أنعم على يديـه ببلـد

أوروبى فاخر أفضل من تلك البلاد الشيوعية التى ربمـا لا يحبها؟.. أمرك غريب يا إبراهيم يا ابن عبد القـادر.. منـذ متى ونحن نطلق على آبائنا كلمـة بابـا.. (بابـاه حيسـفره إيطاليا).. ا   يخرب بيتك.. لو أبوك محمد يوسـف سـمع الكلام ده.. على طول حيقول: يا كرم يا بنى.. إبراهيم ابـن خالتك بقى نصاب.. إبعد عنه..

- : سرحت ف إيه؟.. اشرب الشاي..

- : هه.. هو الشاي جه..؟

- : نعم؟.. دا انت مش هنا خالص..

مددت يدى بشكل روتينى ورحت أتناول رشفات من كوب الشاي محاولاً طرد الأسئلة التى تراكمت حول رأسى والتفت كالعمامة.. وكان قد قرأ علامات الاستغراب على وجهـى.. فقرر إشفاقاً بى أن يطردها فهمس لي:

- : مالك متّاخـد كـده؟.. أول مـرة تشـوفنى فـاتح سدرى؟.. ما تحطّش في بالك.. أنا بارد لك الزيارة..

لم أفهم ما يقصده ولم تكن لدى الوسيلة لأحصل منه على أى توضيح فيكفى أنه قد همس لي مرة.. وليس من المعقول أن أسأله همساً.. ثم يجيب همساً أمام رواد المقهـى الـذين

راحوا يتزايدون.. والذين أضاف وصول أعـدادهم الجديـدة إلى معلوماتى حقيقة مؤكدة هو أن إبراهيم عبد القادر أصبح في طنطا أحد الشخصيات المعروفة وإن شـئت فقـل أحـد الشخصيات اللامعة.. فمع وصول أى قادم جديد تنهال تحاياه على إبراهيم الذي يقابلها مرة بـالحبور والصـوت العـالى المرح.. ومرة بالرزانة والصوت الوقور الهـادئ.. ومـرة بالعبوس واللا اهتمام.. مما جعلنى أعرف طبيعة العلاقة بين إبراهيم وبين صاحب التحية القادم إلى المقهى تواً.. وأعرف أيضاً أن علاقاته مع هؤلاء الناس ليست على وتيرة واحدة.. ولكن كان من السهل أن أعرف رجاله.. فهم هؤلاء.. الـذين تحلّقوا حوله في صمت وتـأتى لهـم طلبـاتهم المعروفـة للجرسون – أيضاً – في صمت والذين لا يفتأ إبـراهيم فـي محاورتهم بين الحين والآخر في همس ثم يعود إلى شيشـته التى لا يحبها.. ولكنه أتى بها على سبيل المنظرة والوجاهـة لرسم دور المعلم الحقيقي.. وكثيراً ما قام مع واحـدٍ مـنهم وابتعد به قليلاً عن مجال المقهى وظلا في حديث طويل ثـم عادا إلى جلستهما مرة أخرى.. مما أعطانى وأعطـى مـن

شاهد هذا الانفراد المقصود إحساساً بمدى سـرية وأهميـة موضوعاته..

أحسست تفاهة مهمتى.. وضآلة مشروعى.. ومدى حسن نية أبى الذي فكّر في لحظة نفس مشرقة في انتشال (الـواد الغلبان إبراهيم ابن أبوك عبد القادر) وإعادته إلـى البلـد.. اتضح لي أن الغلبان ليس سوى أبى.. وأنا.. فأبى نفسه لـو جاء الآن وجلس بجوار إبراهيم عبد القادر في المقهى فلـن يلتفت إليه أحد.. وربما ينادى أبى علـى الجرسـون مـرة واثنتين وثلاثا حتى يهتم بالحضور إليـه خاصـة إذا كـان المقهى مزدحماً.. وليقارن المرء ذلك بتلك الإشارات الملكية التى يبـديها إبـراهيم لمـن حولـه فيتحركـون.. ومـنهم الجرسونات..

انتهزت لحظة قيامه لعمل محادثة جانبية مع أحد معارفـه بعيداً على الرصيف وقبل عودته قابلته مسرعاً.. ووجـدتنى أتحدث معه هذه المرة بنوع من التقدير.. وكأنه شخص جديد بالنسبة لي.. ولم أجد تفسيراً لذلك عنـدما اختليـت بنفسـى مسترجعاً تلك الزيارة الخاطفة التى اقتحمت فيها ذلك العـالم الغامض لإبراهيم عبد القادر.. هل هو الخوف من صـورة

الباطجي التي أضيفت إلى رصيد معرفتى به؟.. هـل هـو التقدير المفاجئ لعمق تجربة لم يـزد عمرهـا عـن بضـع سنوات..؟.. هل هو التضاؤل الحقيقي الـذي راح يغمرنـى كشاب في عمره اختار أن يمشى " جنـب الحـيط " مـؤْثراً السلامة في الدنيا.. وبالتالى.. في الآخرة؟..؟..

قلت له وأنا أختار كلماتى..

- : أستاذ إبراهيم..؟

ألقى بكفه فوق كتفى ضاحكاً.. ولم يجعلنى أكمل سؤالى..

- : أستاذ إيه يا مدهول..؟.. إنت هتعمـل زي العـالم التعبانة اللي بيأستذونى.. ولا إيه؟..

هذه الكلمات جعلتنى أتخلص من حيرتى في شأنه.. فعدت إلى طبيعتى معه.. طبيعة العلاقة التى لا يحكمهـا خـوف.. أوتكلاف..

- : بصراحة يا ابن خالتى أنا من ساعة ما قابلتك وأنا مِتْدهوِلْ فعلاً.. أنا مش فاهم حاجة..

رفع عقيرته بنداء مفاجئ:

- : يا مغاورى.. كرسيين وترابيزة هنا..

لقد اختار أن يعقد معى اجتماعاً منفرداً بعيداً عن الناس.. وبعد لحظات كان مغاوري الجرسون قد جهز لنا ركناً رائقاً على الرصيف لم ينس فيه أن يضع مفرشـاً مـن النسـيج الأبيض على المنضدة.. ويحول للأستاذ شيشته التى يقـبض على ذراعها الآن ويحدثنى.. كما لو كان هو أخى الأكبـر.. أجل.. الأكبر.. وبسنوات عديدة..

- : عاوز تفهم إيه يا كرم يا ابن خالتى..؟ وإيه اللـى خلاّك متدهول من ساعة ما قابلتنى.. الموضوع مش محتاج دهولة.. هـي دي حيـاتى.. الحيـاة اللـي بتختارنى لغاية أنا ما اختارها..

ضربت كفاً بكف وكأننى أبله:

- : ودى كمان يا ابن خالتى أنا مش فاهمها.. هو انت يا ابنى فيلسوف؟.. قول لي كلام أفهمه.. تختـارنى واختارها..؟..

- : يعنى لازم أوضح لك إن أنا عمـرى مـا كنـت حاختار أشتغل عند –قصدى- مع واحدة ست.. يبقى هي دي الحياة اللي بتختارنى.. دا مش اختيارى..

وكان لابد أن أظهر فراستى وأسبقه في ذكر اسم الست التي يعمل معها:

- : وطبعاً الست هي أم يسرية..؟..

فنظر إلى باستهجان:

- : لا طبعاً.. أم يسرية دى شغّالة عندها زيى.. أو تقدر تقول هي اللي وصلتنى لغاية عندها... عشان مش من السهل إن حد يوصل لها.. بس أم يسرية بتعزنى.. ولما عرفت حاجات كتيرة عنى وصلتها للمعلمة الكبيرة.. فطلبت تشوفنى.. يوم ما رحت لها.. أم يسرية دبرت لي البدلة الجديدة دي.. والجزمة دي.. وعملت مقابلة مع المعلمة جت في السليم..

سألته في بلاهة.. حتى يستمر في الحديث:

- : واشتغلت معاها على طول؟..

أجابنى بالنفى الذي يحقّر توقعاتى:

- : لا طبعاً.. الناس دول ما يشغّلوش حد إلا لما يحطوه تحت الاختبار.. كلفتنى بكام مهمة كده.. ربنا

وفقنى وسديت فيهم.. مليت مخها.. آهي الأيـام دي شوية.. شوية.. بتحطنى على راس الشغل..

حاولت أن أسأله عن طبيعة العمل الذي تجذبه إليه المعلمة فلم يطاوعنى لسانى.. فمن الممكـن أن يكـون العمـل لـه حساسية خاصة مما سيجعله في حرج من ذكر تفاصيله لي.. ويكفى أنه أخذته اللعثمة وهو يختار أحد لفظين: " عند أو مع " هل هو يعمل " عند " هذه الست؟.. أو " مع " هذه الست؟..

في أول الأمر خانه لسانه فذكر الحقيقة فقال " عند ".. وما لبث أن عاد إلى الكذب فقال "مع ".. وهناك فرق كبير بـين الخادم والشريك..

وجدت نفسي أدخل في موضوع مختلف تماماً..

- : إبراهيم يا ابن خالتى.. إنت واد حلو وشكلك حلـو وجسمك رياضى.. والستات بيحبوا الشبان اللي زيك كده.. إوعى يابن خالتى رجليك تيجى معاهم..

سألنى وعلى فمه ابتسامة خبيثة:

- : قصدك مين..؟..

- : أم يسرية مثلاً.. أو المعلمة..

تنهد.. وأشاح بوجهه بعيداً وهو يتأمل الطريق..

- : المعلمة؟.. يا ريت..

عادت إلى البلاهة بشكل مكثف:

- : يعنى انت بترسم عليها؟..

- : لغاية دلوقتى أنا عامل نفسي أهبل.. جبت لها فلوس متأخرة عند زباين وبعتّها مع أم يسرية.. ما رحـتش بنفسي.. تُقل يعنى.. وبانظم لها الشغل مـع شـوية تاكسجية جبتهم جداد وبقيت مسئول عـنهم.. وكـل الأخبار دي باوصلها مع أم يسرية.. ونفس الوضع أم يسرية بتجيب لي التعليمات..

- : وأم يسرية حتفضل مرسال بينـك وبينهـا لغايـة إمتى؟..

- : لغاية هي ما تزهق..

- : مين؟.. أم يسرية؟..

- : لا طبعاً.. المعلمة.. لما هتزهق حتطلبنى بنفسها..

- : هي متجوزة؟.. قصدى المعلمة..

- : لأ.. أرملة.. وف عز شبابها.. بس قمر.. قمر..

- : دا أنت يا إبراهيم داخل على موضوع كبير..

- : إنت يا كرم جاي لي في وقت خطير.. السـت دي حتعمل لي قيمة كبيرة.. كـل النـاس عرفـوا انهـا اختارتنى زي سكرتير ليها.. تشهيلاتى.. مخلّصاتى.. الخبر اف طنطا.. أروح وكالة الخضـار والفاكهـة أخاص لها شغل كل الناس يوسعولى الطريق.. أروح موقف التاكسيات.. كله.. تعظيمات.. سلامات.. لقيت نفسي باخلّص الشغل في كلمتين.. بقيت أجيب الناس على القهوة.. شوية في القهوة.. شوية في الوكالـة.. شوية في الموقف بتاع التكسيات.. شوية عند موقف اللوارى..

- : هي عندها لوارى كمان؟..

- : مش باقول اك.. غنية جداً.. باقول إيه يا كرم..

- : اتفضل يا إبراهيم..

- : ما تتجوز حنان بنت خالك شحاتة..

أخذنى الانزعاج على هذا التحول المفاجئ في الحـديث.. فبعد أن كان هو محور الحديث والتساؤلات.. سأصـبح أنـا محوره الجديد..

واجهته بغضب وحزن في آنٍ واحد:

- : وإيه اللي فكّرك دلوقتى يا إبراهيم؟.. وإيـه اللـي خلاّك تختارلى حنان إنت شايف إن مقامى هو إنـى ألم الفضلات من وراك..

بدا كأنه منزعج:

- : ليه هي حنان بنت خالنـا فضـلات..؟.. إخـص عليك.. إنت ناسي إنها كانت حتبقى مراتى؟.. لـولا الظروف.. ولولا إن أبوها طماع.. وأمها زبالة..

- : وتهرب إنت من الطمع والزبالة وترمينى فيهم؟..

- : وإنت مالك يا عبيط بأبوها وأمها؟.. ما يروحوا في ستين داهية.. خش على البنت يا أهبل.. كُلْ مخها.. إتجوزها.. نام على الثروة.. أنا اتحرقـت خـلاص بالنسبة لهم.. إنت الوحيد المناسب ليهم دلوقت.. أنـا من غير ما أقصد مهدت لك جو عمرك ما تحلم بيه.. يعنى إنت لو ضربتهم بالجزمـة مـش حيتكلمـوا.. ليه؟.. عشان جوازتك لو باظت عمـر حنـان مـا حتتجوز.. وهما عارفين كده.. وخايفين عليها.. هى دى فرصتك.. يا حمار..

قال كلمته الأخيرة بنوع من السوقية وقد ألقى كفه علـى كتفي مداعباً.. ثم أكمل:

- : إوعى بقى تقول لي حب وكلام فارغ.. أنـا كنـت فاكر إن فيه حاجة إسمها حب.. وقاعد هيمان مع عبد الحليم لغاية ما عرفت إن المصلحة فـوق الحـب.. ولقيت المعادلة التايهة اللي الناس بيبحثـوا عنهـا.. عرفت إن الواحد لازم فعـلاً يحـب.. بـس يحـب مصلحته.. المصلحة.. أولاً.. وأخيراً.. كـل حاجـة بالمقابل.. مافيش حاجة بدون مقابل.. أنـا احتـرت أردلك الزيارة اللي إنت جايبها معاك إزاى؟.. قلـت أردها لك بطريقة تانية.. قصدت أفخّـم فيـك قـدام الناس..

قاطعته:

- : بذمتك ده تفخيم ولا فشر يودينا فْ داهية..

نظر إلى باستغراب:

- : داهية؟.. إيه اللى حيوديك في داهية..؟..

- : إفرض واحد من اللى قاعدين له ابن أو أخ في كلية الهندسة جامعة القاهرة.. وسألنى عليه.. مش كده حنطلع كدابين؟.. يرضيك نطلع كدابين؟..

نظر إلي باستغراب مرة أخرى..

- : أولاً.. مافيش حد من الجرابيع دول عنده ابن أو أخ في الهندسة.. انسى الموضوع ده..

ثانياً: لو حتى حد فيهم حيسألك على طالب معين يبقى حمار.. لأن مش شرط إن كل طلبة الهندسة يعرفوا بعض..

ثالثاً: وإيه يعنى لما نطلع كدابين؟.. ما الناس كلهم بيكدبوا على بعض.. وعايشين في أمان ا .. الراجل اللي وصفاك بيتى أنا محلّفه على المصحف.. ما يقول لحد على بيتى.. وأنا قاصد أأكد عليه يحافظ على السر.. لأن أنا عارف إن كل ما أكدت عليه معناه إن السر له قيمة كبيرة.. ومن الصعب دلوقت على واحد حاسس بالتفاهة إنه يحافظ على سر له قيمة كبيرة.. لازم السر ده يقوله للناس عشان يحس إنه هو له قيمة.. عشان كده

توقعت إنك أول واحد حيزورنى علـى العنـوان اللـي الراجل عرفه.. وحلّفته ما يقوله لحد..

التقط أنفاسه ثم أكمل:

- : بص يا كرم يا ابن خالتى.. طول ما أنت وأبـوك بتوزنوا الأمـور بـالمللى والجـرام عمركـو مـا حتتقدموا.. أبوك دخّلك مدرسـة الزراعـة وخـدت الدبلوم عشان تبقى مشرف وتركب الحنطور.. طيب لو الزراعة فيها حنطور واحد.. وفيه اتنين موظفين.. إنت بالدبلوم.. وواحد مهندس بالبكالوريوس.. مـين بقى اللي حيستلم الحنطور؟.. طبعاً المهندس.. يبقـى الأمل اللي أبوك رسمه قدامك.. ضاع فـي غمضـة عين.. لأنه أمل عبيط.. أمل حمار.. أمل طوله نص متر.. فيه في الدنيا أمل طوله نُص متر؟..

بدا الحزن على وجهى إزاء هذه اللهجة القاسية التى ينتقد بها إبراهيم سياستى أنا وأبي في الحيـاة.. السياسـة التـى يلخصها في أننا إناس سطحيون لا نفكر.. وننظر فقط تحـت أقدامنا ولا نقتحم الحياة.. ولا نحب المغـامرة والمقـامرة.. وهو يرى أن الحياة لا تـأتى هكـذا طواعيـة للمتخـاذلين

والسائرين نياماً.. ولكنها تأتى لمـن يقتحمهـا.. ويأخـذها بالذراع ولا يطلبها بالأمنيات.. وتذكر واقعته التى انخلعـت لها قلوبنا ونحن صغار.. عندما شاهدنا طرداً من نحل العسل يجتمع في كومة واحدة أعلى شجرة كازورينا عالية.. وقفنـا نتحسر من لؤم هذا النحل الذي تعمد أن يجتمع فـي أعلـى القمة حتى لا يطوله أحد.. إلا أن إبراهيم كان له رأى آخر.. " لو كان النحل شاطر أنا أشطر منه..".. ثم أفهمنا أن هـذا النحل جبان وغبى.. جبان لأنه هرب من الناس.. وغبى لأنه نام على فرع ضعيف من السهل أن يكسره ويقـبض علـى النحل كله مرة واحدة..

لقد صعد إبراهيم بكل جسارة ونحن نصفق له.. ولكنا بعد قليل كنا نصرخ من أجله بعد أن هاجمه النحل وراح يلدغه.. واجتمع الناس أسفل الشجرة يشاهدون فضيحة إبراهيم عبـد القادر متلقياً اللدغات أثناء هبوطه ببطء وحذر وهو يشـاهد والده في انتظاره مع الناس ممسكاً بعصا التأديـب الشـهيرة وهو يردد لنا:" هو قال لكم إن النحل غبـى؟.. طيـب هـو هياكل علقة دلوقت عشان هو اللى غبى.. مفيش حد بيصطاد النحل بالنهار.. النحل بيصطادوه بالليل ".. إبراهيم لا يحـب

البحار الهادئة.. ذات الأمواج الرقيقة.. إنه يحـب الأمـواج العاتية والعواصف الهائجة.. إبراهيم لا يعرف معنى كلمـة العيب.. ما هو العيب؟.. سؤال لا يستطيع إبراهيم أن يجيبك عنه.. هو فقط يعرف السر.. ويعرف الكتمان.. تلك إحـدى وسائله في التحرك بوضـوح.. فالفانلـة المثقوبـة تحـت القميص.. هى سر لن يعرفـه أحـد إلا إذا خلـع القمـيص بنفسه.. وهو لن يفعل ذلك.. إذن فلا توجد فانلة مثقوبة بـل وقذرة تحت هذه البدلة الأنيقة.. وهـو راح إلـى شـباك أم يسرية وهمس لها ببعض الكلمات تناول على إثرهـا عـدة جنيهات وضعها في جيبه.. وبعد لحظات أتت يسرية فحملَتْ الكرتونة بما فيها من أطايـب الطعـام وذهبـت بهـا إلـى غرفتها..... ما هى طبيعة العلاقة هنا؟.. هل مـا حـدث أن إبراهيم باع الزيارة بعدة جنيهات فوراً وبلا تفكير؟.. يبدو أن هناك سراً.. بينه وبين هذه السيدة.. وإن كانت طبيعة إبراهيم لا تقترن بشيئين: الخجل والعيب فها هو يحمل حقيبة مسافر في العلن لأنه مفلس ولا يملك مالاً لطعامه وسجائره.. فعـل هذا علناً أمام الناس ورغم أنف الحمالين المحترفين لأنه في حرصه على ارتداء ثوب الزعامة قرر ألا يكون عالة علـى

الآخرين حتى لا يكسروا عينه.. لذا فكـم شـاهد جمهـور المحطة شاباً جميلاً يحمل حقيبة سيدة عجوز ويمشى خلفهـا يحادثها بلطف.. أو قُفةً لفلاحة عليلة الصحة يمازحهـا فـي دلال.. هذا الشاب هو إبراهيم عبد القادر.. ابن خالتى.. الذي أسمع منه الآن تحليلاً غريباً للحالة المثلى التى يجب أن أكون عليها مع حنان ابنة خالى شحاتة.. فأنا لن أتقدم ماديـاً فـي حياتى بأى حال من الأحوال بهـذا الـدبلوم التعبـان الـذي حصلت عليه.. ولا يجب أن أحلم في أى وقـت بـأن يـدى جبريل ستلمس قلب خالى شحاتة بالحب المفاجئ لأختيه نجية (أمى) وصفية (أم إبراهيم) ويمنحهما إرثهما السجين في بطن الحوت منذ وفاة الجد غريباً عند زوجته الثانية.. كما لا يجب أن أحلم بأنى سأتزوج زيجة محترمة من بنت ناس محترمين وأنا لا أملك الإمكانيات لذلك خاصة وأن أخى الأكبـر عبـد الهادى لم يتزوج حتى الآن.. إذن فما دامت كـل أحلامـى بالثراء والزواج مقطوعة وليس لها تفسير فيجب أن نهـرب من الأحلام إلى الواقع.. وماذا يقول الواقع؟..

الواقع يقول إن حنان بنت خالى جميلة.. ومعجبانية ولكن هل شرفها في محنة؟..

إبراهيم يقول إن شرفها محفوظ إذا حدثت مبادرة صـلح بينه وبين خاله شحاتة وزوجته نعمات وتعـود الميـاه إلـى مجاريها.. فسوف ينسى الناس أي حديث عبيط قاله إبـراهيم عن ابنة خاله في لحظة غضب.. ولكن هل إذا أحجم إبراهيم عن هذا الصلح سيظل شرف حنان مرهوناً بهـذا الإحجـام وتحت رحمة الرضا الذي يمنحه إبراهيم أو لا يمنحه لهم؟..

لا أحد يقول ذلك.. خاصة أن إبراهيم لم يتمكن من الغدر بحنان بسلبها عذريتها.. وكيف يمكـن لكلمـات طائشـة أن توقف حال بنت جميلة وغنية فـي قريـة.. ولكنـه غبـاء الفلاحين..

إبراهيم يقول: " يا أخى حتى لو أنا فعلاً كنت ذئباً وسلبت عذرية حنان.. وهربت.. فإن تقدمك للـزواج منهـا إنقـاذاً لشرف الأسرة لن يكون حلاً إجتماعياً وعائلياً مرضياً فقـط بقدر ما هو موقف دينى وإسلامى عالى الأداء بديع الوجهـة يبعث على الشموخ والفخر.." وانتهى إبراهيم إلـى حكمـة معلنة قالها لي وهو يحذرنى من الدمار إن لم آخذ بها..

انظر إلى مصلحتك..

حنان فرصتك الأخيرة..

حنان فرصتك الوحيدة..

تزوجها فوراً مادامت أمها تسعى إلى هذا.. ومادام أبوها يقف كالفأر الغارق في المياه خلف أمها التى أصبحت جريحة النفس والفؤاد..افرض شروطك.. واضـربهم بالحـذاء ولا ترحمهم.. خذ حنان في أحضانك باهتمام حقيقي.. ولا أقـول بحب.. وسوف تكون حنان مفتاحك إلى الثـروة الضـائعة.. ثروة أمى وأمك ومعهما ثروة خالى الحيوان..

دعك من حكمة أبيك العتيقـة.. وحماقـة أخيـك عبـد الهادى.. وانصرف إلى مصلحتك دون خجل..

ابدأ فوراً في جذب حنان ناحيتك حتى تبدو وكأن الميـل الطبيعى نحوها جاء من داخلك ولم يأتِ بدعوة من أمها..

لا تذكر اسمى أمامها كثيراً..

إذا ذكرت اسمى أمامها فعبر دائماً عن احترامك لي فهى تحبنى.. وسوف يتحول حبها إليك تدريجياً..

ويا سيدى.. لو لم تدخل حنان قلبك.. فتزوج عليها.. أو اعشق عليها.. أمامك كل الخيارات.. ولكن.. لا تتوقف..

وتذكرت واقعة طرد النحل الذى أكل فيها علقة فقلت له:

- : يعنى لازم اتحمل لسع النحل وأطلع الشجرة والناس تتفرج على وأنا بانضرب.. كل ده عشان العسل..

فضحك عالياً وهو يتذكر هذه الحادثة في حياته ثم فاجأنى بشئ لم أعرفه من قبل وهو أنه بعد هذه العلقة الساخنة كـان يجد نفسه ينسحب ليلاً وبطريقة عفويـة ليصـعد الأشـجار العالية دون أن يراه أحد.. ويجلس على قمم الأشـجار فـي ارتياح عجيب.. ثم اعترف لي أنه لم يتخل عن تلك الهوايـة إلا بعد كثرة حديث الناس عن شيطان يعتلى الأشـجار لـيلاً ويلقى عليهم الطوب.. لحظتها سألته:

- : هو الشيطان ده.. كان إنت؟..

فأجاب بهدوء: - الشيطان ده.. كان أنا..

- ٧ -

كان آخر ما قاله لي قبل أن أودعه منذ سنوات طويلة:

لا تتوقف..

يومها توقفت بضع لحظات أمام شقيقه الأصغر كمال الذي كان يعرف أننى كنت أقوم بمهمة البحث عن إبـراهيم فـي طنطا ومن ثم إعادته إلى القرية.. يومها سألنى كمال:

- : إيه أخبار إبراهيم..؟..

ويومها أجبته بجملة واحدة ثم انصرفت من أمامه..

- : إنسوا إبراهيم خالص..

ولعلهم نسوه..

ولكنى لم أَنْسه..

فقد ذهبت إليه خامل النفس والروح حاملاً مهمة نبيلة هي إعادته إلى القرية.. وعدت من عنده متمرد النفس والـروح حاملاً إصراراً جديداً هو أن أخلع جلباب القـروى السـاذج الذي يحسب الأمور بحسابات البلاهة والتشـكك والخـوف والتخوف.. القروى السائر دوماً بجانب الحائط مثقلاً بكـرة من الحديد في أرجله يتحرك بها في بطء ويخشى أن ينطلـق

نحو حدود – هو في الأصل - يتمناها ويخشى السقوط وهو في طريقه إليها..

لقد فجر إبراهيم في داخلى بركاناً من الغضب والتمـرد.. الغضب لاستسلامنا للواقع المرير الذي يحيطنـا.. ورغبـة التمرد على هذا الواقع المفروض علينـا ولا نحـرك معـه ساكناً..

فتشت في داخلى عن حنان فوجدتها تحتل ركنـاً بريئـاً تجلس فيه بهدوء وحزن.. فتشت عنها في الواقـع فوجـدتها تستسلم لسجن اختياري في أركان منـزلهم الفسـيح.. تهـتم بزينتها دون مبالغة.. وتلجأ إلى المذاكرة دون سعى ملح نحو التفوق.. فهى تعيد استذكار دروس العام الأول الثانوى بعـد رسوبها فيه..

اتفقت مع نفسي أن تكون خطتى هو ألا أكـون صـاحب خطة.. ولكنى اتفقت معها أن أكون صاحب هدف.. وهـدفى هو التغيير.. أن أتغير أنا.. وبالتالى سـتتغير الأشـياء مـن حولى.. فلأدع قاربى يمخر عباب البحر.. فهـو الآن علـى سطح الماء.. وهذا يكفينى.. ومادام الأمر كذلك فمن المؤكـد أننى سأواجه الأحداث.. أواجه التيـارات.. أواجـه تقلبـات

البحر.. هذا لأننى الآن.. في الماء.. وبالأمس كنـت علـى الشاطئ..

لقد كنت أخشى الضير.. وأنا غارق في سلام الجبنـاء.. وهادئ في دعة الكسالى..

كم جاءت حنان مع أمها لتسهر في منزلنا.. كانت تتعثـر في خجلها وهي داخلة.. ثم تتعثر فيه وهي خارجة.. والسبب أننى كنت لا أقيم وزناً لوجودها بيننا.. ولا أهتم بها.. وأتعمد أمام أبى وأخى وأمى ألا أسهر بينهم ومعهم.. وقد كان هـذا السلوك مترتباً على ما أود إظهاره من حذر السمكة أن تتلقى طُعم الصياد..

أما الآن وقد قررت أن تتغير المواقف فأصبح أنا الصياد وتصبح هي السمكة فقد جلست أنتظر إلقاء الطعم من لـديهم حتى أصطادهم به..

وجاءت مع أمها بعد طول انتظار.. جاءت وهي لا تعلـم أننى في انتظارها.. جاءتا وفي نيتهما طرح سؤال عابر عن زيارتى لإبراهيم.. وطرح سؤال آخر عن كلمتى المقتضـبة لأخيه كمال:

- : إنسوا إبراهيم خالص!!

تعمدت ألا أبدأ بالاقتراب.. ولكـن تعمـدت أن أقتـرب بالشكل الذي يسمح لنعمات المفترية بمناداتى.. ولو كان فـي هذا المسلك ما يوحى بالتخطيط.. فهو ليس تخطيطاً قدر مـا هو إعطاء الفرصة للطرف الآخر أن تبدأ الخطة من عنده.. يبدأ بالشكل التلقائي الذي لا يعلم سوى أنه تلقائي ومـن ثـم فعلى أنا – الصياد الجديد – أن أجذب الخيط..

قالت لي في دلال أنثوى بارع:

- : وهو يعنى اللي يروح طنطا لحبايبه.. ينسى بقيـة الحبايب..

قلت لها وأنا أجلس بجوار حنان:

- : اللي ف طنطا حبايبى.. واللى هنا حبايبى أكتـر.. معقول أنساكم يا مـرات خـالى.. دا انتـو الخيـر والبركة..

لعلها لم تكن مستعدة لهذا الغزل المفاجئ.. وهذا اللسـان الطري المعسول.. فألجمتها المفاجأة.. فتلجلجـت وراحـت تبحث عن مدخل جديد للحديث أمام هذا الفتح العظيم..

- : طول عمرك يا كرم.. صاحب كـرم.. ا يـرحم صحبة الورد اللي أنت عملتها له في عيد مـيلاده.. وكسفك.. وقعد يأَلس عليك..

تذكرت وصيته أن ألجأ إلى مديحه أمام حنان لأنها تحبـه وستظل فترة طويلة صريعة هذا الحب حتى تشفى منه بحب آخر.. ومن المؤكد أننى سأكون صاحب هذا الحب الجديـد فيما لو بدوت أمامها نبيلاً شهماً شاكراً حامـداً لكـل أفعـال إبراهيم المشينة..

- : مين قال إنه كسفنى.. إبراهيم جدع وراجل وابـن بلد.. ورجعلى الهدية بهدية أحسن منها.. حتى اسألى أمى.. الميداليا اللى عليها صورة عبد الحليم حافظ.. مش هو اللى جابها لي هدية..؟

ولأن أمى رأت هذه الميداليا معى.. وهي لا تعلـم أننـى اشتريتها من مصروفي وقتها.. فهى من الممكن أن تعتقد أنها هديته لي..

قالت أمي ببراءة: هي دي اللي جابهالك؟..

فرددت فوراً: أيوه.. وشكرنى علـى الـورد.. إبـراهيم بيحبنى.. وأنا بحبه..

تهلل وجه حنان بفرحـة مفاجئـة.. لا أدرى إن كانـت فرحتها نابعة من استحسانها لموقفى الحالى في الدفاع عـن حبيبها إبراهيم الخائن؟.. أم لأنها وجدت شيئاً طيبـاً يقولـه شخص ما عن إبراهيم الذي لا توجه إليه في غيابـه سـوى اللعنات؟.. أم لكلا الموقفين معاً..؟

ولأن سير الحديث كان إيجابيـاً وفـي صـالح إبـراهيم وبالشكل الذي لم تتوقعه حنان وأمها فقد تـاه الكـلام علـى لسانيهما ولم يجدا سبيلاً إلى الدخول في هجوم عليه هما دائماً على استعداد لشنه بمناسبة وبدون مناسبة.. ليس كرهاً فيـه قدر ما هو إظهار للحب لي خاصة عندما تعقد المقارنة بينى وبينه.. المقارنة في الأخلاق وفي التصرفات وفي الانتمـاء للمنزل والقرية.. تلك الأشياء التى أحببتها ثم انتابنى شـعور بعدم جدواها بعد أن قـام إبـراهيم بتعريتـى وتسـطيحى.. بسببها..

وكأننى تقمصت شخصية إبراهيم المغامر الفشّار.. فرحت أحكى لهم أشياء غير موجودة في حياته.. فهو بقدرة قادر قد تزوج سيدة تملك المال والسيارات.. وهي لكونها تكبره سـنّاً فقد جعلت منه زوجاً وابناً تتعهده بالرعاية وتصر أن ينـال

شهادته الثانوية هذا العام ويدخل أعلى الكليات مثـل الطـب والهندسة..

تساءلت نعمات والحسرة تعرج في كلماتها..

- : يعنى إبراهيم حيبقى دكتور.. أو مهندس؟..

أجبتها:

- : وأنا كمان..

شهقت:

- : وإنت كمان؟.. يعنى إيه؟..

- : يعنى حابدأ أذاكر الثانوية العامـة منـازل وآخـد الثانوية وأدخل الجامعة.. إنت في سنة إيه يا حنان يا بنت خالى..؟..

قالت حنان:

- : في أولى ثانوى.. باعيد أولى ثانوى السنة دي..

- : خلاص يبقى حاذاكر معاكى سنة بسنة.. وحنـنجح كل سنة مع بعض.. وندخل الكلية مع بعـض.. إيـه رأيك؟..

كادت نعمات أن يغمى عليها من فرط الفرحة.. ونسـيت كل ما قلته عن زواج إبراهيم وارتباطه بسيدة تكبره سـنّاً.. فإبراهيم الآن لا يعنيها في شئ.. ولكن ما يعنيها هـو هـذا الكلام الذي قلته الآن.. وهذا التقرب المفاجئ لابنتها حنان.. وهذا العهد الذي قطعته على نفسي وعليها أن نذاكر معـاً.. وندخل الجامعة معاً.. ولعلى فعلت معها ما يفعله الملاكمون في الحلبة.. فقبل أن يصرع أحدهما الآخر يناوله قبضة تعمل على تدويخه.. (تلك القبضة كانت خبر زواج إبراهيم).. ثـم يعاجله بالقبضة القاضية التى يرتمى بها أرضاً (تلك القبضة كانت خبر استعدادي لمرافقة حنان طيلة سنوات دراسـتها).. لقد أخرسها الخبر.. فلجأت إلى صمت الـذهول.. ولعلهـا كانت تفكر فيما تسديه إلى من مكافـأة بعـد ذلـك النصـر المفاجئ الذي عثَرتْ عليه بعد أن وفـرت عليهـا مشـواراً طويلاً كانت ستقطعه من أجل العثور على مدخل لهذا النصر الذي كان غائماً..

لقد انسحبت أمى من الجلسة عائدة إلى جلسة أبى وأخـى في الغرفة المجاورة.. يصاحبها ذهولها مما سمعته منى مـن

أقوال تسمعها لأول مرة عن إبراهيم.. ثم من خطط طرحتُها عن نفسى ورغبتى في الدراسة الثانوية ثم الجامعية...

وما إن استدعانى أبي للتحدث معه بعـد انصـراف حنان وأمها حتى وجدت علامات الاسـتغراب تحتـل كـل ملامحه..

- : صحيح اللي والدتك بتقوله ده؟..

- : أيوه صحيح.. وأنا من فضلك عايزك بكره تـروح تخطب لي حنان.. بنت خالى شحاتة..

- ٨ -

كلهم نسوا إبراهيم.. وأنا أيضاً.. ولكنـى دومـاً أتـذكر نصائحه.. كلماته.. فلسفته: لا تتوقف.. المهم أن تفعل شيئاً.. السكون قاتل.. الركود مميت.. لا تضع كلمة العيب أمامـك وتتعبد فيها وتخشاها وتموت بسببها.. لا تكن سلبياً.. لا تزن كل شئ بالمللى والجرام.. دعك من فلسفة أبيك التى أخنـى عليها الزمن ومن يأس أخيك الذي خضـع للقهـر.. فـأبوك رفض الدخول في صراع مع خالك على إرث أمك مسـجلاً موقفاً نبيلاً محتواه أنه لا يسعى للثراء من أرض زوجتـه.. وكانت النتيجة أن ترك كل الثراء لشحاتة الغـول ونعمـات المفترية.. يأكلون منه اللحـم والـدجاج والسـمك وأطايـب الطعام.. وأنتم تجلسون رهن نصف كيلو من اللحم كل أسبوع حسب ما تسمح به ميزانيتكم المرهقة.. أين النبل هنـا فـي موقف أبيك؟.. إنه عبط وسذاجة ومحاولـة فاشـلة للتمسـح بالفضيلة.. فمن قال إن التعفف عن طلب الحـق فضـيلة؟.. ومن قال إن الترفع عن ثراء يسعى إليك فضيلة؟.. اهرب يا كرم من بلاهة أهلك.. فقد تحولت أيها الحاصل على الـدبلوم المقدس إلى شخص أبله يستمد بلاهته من بلاهة أهله..

لقد نجحتُ في مسعاي.. وأنا الآن أكاد أكون الآمر الناهي في منزل خالى شحاتة.. لقد تحولت الخطبة إلى عقد قـران بعد أن مهدت لذاك بخبثى الجديد.. فأنا أذهـب للاسـتذكار معها.. والسهر عندها في حجرتها.. وما كان ذاك ليرضـى خالى المقروص من تجربة إبراهيم ابن أخته صفية.. ومـن يدرى فلعل كرم ابن اخته نجية ذاك الهادئ الوديع يحمل في داخله فرعوناً لا ندريه.. ويسئ إلى حنان مثلما أساء إليهـا إبراهيم..

لقد تسلل إلى أمى ذات ليلة.. حاملاً معه ما لذ وطاب من الأطعمة والملابس.. وهمس لها بعد أن تلقت هداياه..

- : مش واجب برضه نكتب كتاب حنان وكرم.. فيهـا إيه لما نقول للناس إن دخوله عندنا وسهره ومذاكرته معاها.. شرعى؟..

- : وماله يا خويا.. اللي انت شايفه..

وفي جلستى مع حنان كنت أبحث عن الحب.. وتـداخلنى الغيرة فأنا لم أنس أنها كانت تحب إبراهيم.. ولذا فقد كنـت أراقب موت إبراهيم في قلبها طيلة السنوات التى قضـيناها معاً ساهرين للحصول على الثانوية العامة.. ورغم تأكدى أنه

أصبح نسياً منسياً بالنسبة لها فلم تأخذنى الشجاعة أن أسـعى إليه في طنطا للتعرف على أخباره.. فأنا لـم أتخيـل نـوع المقابلة التى يمكن أن أقابله بها بعد أن أصبحت رجلاً جديداً من صنعه وشخصاً مختلفاً نَبتَ من بنـات أفكـاره.. لعلهـا المكابرة والتنكر لصاحب الفضل.. أو لعله الإحساس بالضآلة بجانب ابن خالتى الذي يملك قدرات نفسية وجسـدية يحسـد عليها.. قدرات من المؤكد أننى لا أملكها.. والدليل أن حياتى تغيرت بعد تحول وجدانى ألم بي على إثر كلماته.. لقد كـان ملهمى.. وصاحب نظرية اختراعى من جديد.. ولكن لمـاذا أتعمد تجاهله في الواقع رغم أنه يعـيش بـداخلى.. طيلـة الوقت..؟.. لست أدرى..

لقد أحدث الصلح زلزالاً في منزلنا.. فقد أعقبـه انفتـاح ملحوظ لصنبور الخير.. وبادر خالي شحاته بتسليمنا الجـزء الذي سمحت به نفسه من أرضنا المحتلة.. فقبلناها شـاكرين بعد اتفاق عائلى محتواه أن هذه القطعة هـي أول الغيـث.. ويجب أن نقبل أرضنا المنقوصة الآن تمهيداً للحصول علـى أرضنا الكاملة في المستقبل..

وكان زواج أخى عبد الهادى هو أول الثمار اليانعة التـى جنيناها من شجرة الخير التى نبتت على شاطئ المصالحة.. وكان حفل زواجه فرصة سانحة لخالى شحاتة يـرى فيهـا بنفسه كيف تستقيم الحياة عندما يستقيم العدل ويعود الحق إلى أصحابه.. ومن المؤكد أنه كان يرنو بعين الخجل إلى هؤلاء الذين يجلسون على الشاطئ الآخر تعرج في قلوبهم الحسرة لأنه طردهم وخرجوا من جنته عندما انشقوا عليه وخدشـوا هيبته.. فها هو عبد القادر سلامة زوج خالتى صـفية يـدفع ثمن تمرد ولده إبراهيم على خاله شحاتة في لحظـة طـيش مرمغ فيها سمعته وشرفه في الطين.. وها نحن بالتالي نجنى ثمار مساندة هذا الشرف والعمل على إنقاذه.. بصرف النظر عن كون هذه المساندة كانت خالصة لوجه ا أم أنها كانـت طريقاً إلى منفعة توجهنا إلى الحصـول عليهـا مـع سـبق الإصرار..

أما حصولى على الثانوية العامة أنا وحنان وبمجموع عالٍ في نفس العام فقد كانت ثمرة جديدة قطفناها نحن آل يوسف من شجرة المصالحة التى مازالت يانعة تلقى بظلالها علـى عروتنا الوثقى.. وكان استعدادى لدخول جامعة الإسـكندرية

أنا وحنان وبكلية الهندسة يختلف عن أي استعداد آخر يقـوم به أمثالنا من الطلبة.. فالعادة تقضى أن يقوم الأهل بتجهيـز غرفة واحدة في مسكن ما لطالبهم.. أو حجز سرير ما فـي إحدى غرف المدينة الجامعية لهذا الطالب.. أما نحـن فقـد استقر الرأى أن يجهزوا لنا منزلاً للزوجية.. في حالة غيـر مسبوقة نقوم فيها بالدراسة بالقرب من شاطئ الـزواج.. أو حالة ارتبطنا فيها بالزواج على مقربة من شاطئ الدراسة..

وبدلاً من أن أخوض ما يخوضه باقى الطلبة مـن بحـث مضنٍ عن حجرة رخيصة أزودها بسـرير مفـرد ومكتـب صغير أقضى بهم وعليهم سنواتى الخمس في الكلية.. بـدلاً من حدوث هذا وجدتنى مع خالى وزوجته وزوجتى حنـان نبحث عن شقة مناسبة ستكون هي شقة العمر التى نأتى فيها بالشهادة.. ثم نأتى فيها بالأولاد.. ووقع اختيارنا على شـقة نرى منها البحر على شاطئ الشاطبى وقد نرى منها مبنـى الكلية إذا ما صعدنا إلى سطح العمارة ذات الأدوار الاثنـى عشر..

وبعد عدة أيام من بدء الدراسة.. وبينما كنت أتناول مـع حنان بعض السندوتشات في استراحة ما بين المحاضـرات اهتزت يدى وهي تقترب من فمى بالسندوتش وهتفت ذاهلاً..

- : حنان.. حنان.. إنت شايفة اللي أنا شايفه ده..؟..

- : شايف إيه؟..

- : بصى كويس.. مين اللي واقف مع البنتين هناك؟..

- : يا خرابى.. معقول دا إبراهيم ابن خـالتى الخـالق الناطق..

- : مش الخالق الناطق.. دا هو إبـراهيم فعـلاً داري وشك قبل ما يشوفنا.. ياللا بينا..

وسحبتها من يدها مهرولاً نحو باب الكلية..

- : فيه إيه يا كرم.. رايح فين؟..

- : رايح البيت.. أنا ضربات قلبي مـش مظبوطـة.. وحاسس بدوخة.. لازم نروح دلوقـت.. تاكسـى.. تاكسى..

وزججت بها في التاكسى.. وألقيت بنفسى إلى جوارهـا.. وأسندت رأسى على مسند الكرسى مغمضاً عينى تماماً عازفاً

عن الحديث.. وحنان تربت بيدها على ركبتـى بـين آونـة وأخرى عازفة هي الأخرى عن الحديث خجلاً مـن سـائق التاكسي.. وعند باب العمارة تركتها تدفع الحساب وأسرعتُ إلى باب المصعد حيث أسرعتْ هي خلفى.. وفي المصـعد أخذَنَا نفس الصمت.. ونفس اللهاث.. وكأن شبحاً مخيفاً كان يطاردنا..

وعندما ألقينا بأنفسنا على أقرب مقعدين في الصالة وبعـد أن هدأت أنفاسنا قليلاً.. سألتنى حنان:

- : لو هو إبراهيم عبد القادر فعلاً.. حتعمل إيه؟..
- : مش عارف.. بس لازم أكون فـي طنطـا بكـره الصبح.. من الساعة تسعة صباحاً.. لازم..
- : ليه..؟..
- : مش عارف..

- ٩ -

في القطار كان عقلى يعمل – وأنا في طريقي إلى طنطـا – على استرجاع خريطة الشوارع التى سرت فيها منذ أكثر من ثلاث سنوات من ميدان المحطة إلى مسكن إبـراهيم وأم يسرية في حي كفر ستوتة.. ثم كان يعمل بـنفس اعتصـار الذاكرة على تذكر اسم المقهى ومكانه في شـارع الجـلاء.. وكان صوت حنان يطاردنى وهي تحاول إخراجي من همى وتحاول أن تضفى شيئاً من عدم الأهمية على ظهور إبراهيم فجأة في حياتنا.. بل تحاول أن تقلل من أهمية إبراهيم نفسـه كشخص مارق هجر الأهل والقرية وأهمل النـاس فأهملـه الناس.. ولكنى كنت أرى الأمر من زاوية يكتنفها الغمـوض وبحاجة إلى تفسير ووضوح رؤية.. وباءت محاولاتى مـع نفسى بالفشل وأنا أحاول الوقوف في مواجهة هذه المفاجـأة بزاوية مختارة تساعدنى على التقليل من شأن هذا الظهـور المفاجئ لذلك الشيطان المارق.. فمن المؤكد أننا ونحن فـي غمرة السعادة تعمدنا أن ننسى إبراهيم وأصبحنا لا نعلم عنه شيئاً.. حرص هو أن نظل في ذاكرته وأصبح يعلم عنا كـل شئ.. إذ ليس من الممكن أن يقبل إبراهيم أن يحيا على هذه

الأرض وهو في جهالة تامة أو جهالة متعمدة ينفصل بها عن موطنه وأهله مهما تنكر له هذا الوطن وأهمله هؤلاء الأهل.. إنها ليست طبيعة إبراهيم المتنمر المتآمر الذي يحمـل فـي وجهه جمالاً ووسامة وفي قلبه تمرداً وجهامة.. إنها ليسـت طبيعة إبراهيم ذلك الميكافيللى البارع في استخدام المواقـف والناس ويفرض سياسته المعلنة: الغاية تبرر الوسيلة.. بكـل ما يملكه من ذكاء يتقد به عقله وقـوة تكمـن فـي جسـمه الرياضى وجسارته التى تدفعه دفعاً أن يلقـى بنفسـه نحـو الخطر بتلذذ شديد.. إنه الموهوب فأهمل مواهبه.. والمطلوب فتنكر لطالبه.. إبراهيم لاعب الكرة الفنان السريع لم يلتفـت لموهبته تلك ولم تشغله لحظـة فكـرة الاسـتجابة لـدعوة الانضمام إلى فِرقْ بعض الأندية التى ألحت في طلبه.. لقـد أهمل ذلك ونسى أنه أهمل ذلك لسبب واحد قاله لي.. لم أحلم أبداً أن أكون لاعباً..

إبراهيم له صوت جميـل.. جـرب الغنـاء بـه أمامنـا فأطربنا.. وتقدم إلى الميكروفون في أحـد الأفـراح فملـك القلوب والأفئدة وهو يغنى لمطربه المفضل عبد الحليم حافظ أغنيته الناعمة الحزينة.. " ظالم.. وكمان رايح تشكى " قالوا

له اذهب إلى الإذاعة لتجرى اختباراً بها فسوف يعتمدونك.. وتتفتح أمامك دروب المجد.. قال لهم: حاضر.. ولم يذهب.. وتناسى الذهاب.. ونسى أنه تناسى الذهاب.. والسبب أنه كما قاله لي أيضاً:" لم أحلم أبداً أن أكون مطرباً ".. ولم يحلم أن يكون طبيباً.. ولم يحلم أن يكون مهندساً.. ولم يحلم أن يكون أي شئ.. هو فقط يسعى نحو حلم غامض لا يدريه.. يحيـا يومه فقط لينتظر به الغد.. ومع ذلـك فهـو يقـتحم الحيـاة بجسارة الأشداء.. وكأنه يسجل لنفسه أمـام النـاس ذكـرى صعوده من قاع اليأس إلى قمة الأمل.. وانطلاقه مـن نفـق الظلام إلى صرح النور..

من أنت يا إبراهيم؟.. قل لي بربك.. من أنت؟..

ليلتها لم أنم.. حتى أن حنان قد أخذها الضيق فسألتنى:

- : إنت سارح في إيه؟..

- : حيكون في إيه يا حنان؟.. في إبراهيم طبعاً.. إحنا ما صدقنا نكون اتنين وتالتنا السعادة.. إبراهيم وهـو جنبنا حيخلى سعادتنا في خطـر.. حتكـون سـعادة منقوصة..

- : طبعاً لك حق تخاف منه.. بس خوفك ده هو اللـي حيخلى سعادتنا منقوصة مـش إبـراهيم هـو اللـي حيخليها كدة لأن المفروض إن هو في حاله.. واحنـا في حالنا.. هو راجل متجوز وله بيته.. وإنت راجل متجوز ولك بيتك..

- : هو متجوز..؟.. مين قال لك كده..؟..

- : إنت.. إنت اللي قلت لنا من ثلاث سنين إنه اتجوز واحدة غنية عندها عربيات..

- : أنا قلت كده؟.. مش ممكن..

اعتدلت حنان في مواجهتى وقد تغيرت ملامحها وبـدت عليها معالم الذهول..

- : يعنى إيه مش ممكن..؟.. إياك كمان تكون ناسـى اللي قلته عن إن الست اللي اتجوزها بتصرف عليـه عشان يدخل كلية الطب.. أو كلية الهندسة..

- : آه.. آه.. افتكرت..

استنكرت لهجتى المتعثرة..

- : افتكرت؟.. هي دي حاجة تتنسى؟.. جرى لك إيه يا كرم؟.. دا إنت متلخبط خالص..

- : صحيح.. صحيح.. لك حق.. أنا متلخبط فعلاً..

وتذكرت المثل الذي يقول: لو كنت كذوباً.. كن ذَكـوراً.. وأنا أطلقت كذبة طارئة فعلاً منذ حوالى ثلاث سنوات ولأنها كذبة فقد نسيتها تماماً.. ولكنهم لم ينسوها.. بل تعاملوا مـع إبراهيم بنسيانه تماماً بناء على هذه الكذبة.. فهو قد خرج عن طوعهم.. وفضحهم.. وذهب إلى بعيد فتزوج امرأة تكبره في السن فأخذته منهم إلى الأبد.. إذن فليس له إلا أن يظل طـى النسيان.. هذا ما يستحقه..

يا إلهى.. ما الذي جعلنى أطلق هذه الكذبة يومها؟.. هـل كنت قد تخيلت ما يمكن أن يحدث من علاقـة عميقـة بـين إبراهيم وبين المعلمة صاحبة السيارات وأعمـال التجـارة.. علاقة حتماً ستنتهى بالزواج فأعلنتها قبل أن تحدث.. أو قبل أن أتأكد أنها حدثت؟.. "ربما ".. هل تركت العنـان لعقلـى الباطن أن يتخيل أحداث الزمن القادم فحولت الخيال إلى واقع مسرعاً ومتسرعاً حتى أقضى على البقية الباقية من ذكـرى إبراهيم في نفوسهم؟.. "ربما... ".. هل كان تـوقعى سـليماً

لمستقبلٍ سيصل إلى إبراهيم أو يصل إليه إبراهيم مع ظهور بوادر نعيم جاءه في شكل سيدة استطعتُ - في جلسة واحدة ووحيدة - أن أستشف مدى ما يمكن أن تفعله هذه السيدة من انتشال تاريخي لشابٍ حتماً سيدخل مزاجها وتسـتقطعه مـن الدنيا لنفسها؟.. " ربما... "

ولكن ما الذي جعلنى أحدد لهم يومها الكليات " الوهمية " التى تسعى هذه السيدة " وهماً " لإلحاق إبراهيم بهـا؟.. لقـد حددت كليتين: الطب.. أو الهندسة..

إذن فالهدوء الذي قابلت به حنان ظهور إبراهيم في الكلية مرجعه إلى تأكدها أن إبراهيم يرفل في ثياب الجامعة بإحدى الكليات بناء على ما قلته أنا عن ذلك.. وأن ظهوره في كلية الهندسة ليس بالشئ الغريب وهي تعلم أنه يسعى إلى ذلك منذ زمن بعيد.. بناء على ما قلته أنا عن ذلك..

تصببت عرقاً بعد خروجي شبه مهزوم من حـواري مع حنان.. الحوار الذي كنت فيه طرفاً ضعيفاً خاوى الذاكرة منزوياً في ركن الحيرة متلقياً لذعاتها ولكزاتها التى لخّصت موقفى وشكلى في كلمة مؤدبة:

(جرى لك إيه يا كرم. دا أنت متلخبط خالص..)

المشكلة الآن تكمن في نوع الأخبار التى أسعى للحصول عليها عن إبراهيم.. فحنان سوف تتأكد أن ما قلته لهم منـذ ثلاث سنوات كان نوعاً من الكذب المقصود الذي أردت بـه أن أبعد إبراهيم عن ذاكرتهم وأجعلهم يكرهونه.. ثم ينسونه.. لكون هذه الكراهية وهذا النسيان هما مفتاح دخولى إلى قلب حنان ومنزل نعمات وثروة خالى شحاتة..

هل يمكننى أن أقول لها إن إبراهيم في هذا الوقـت كـان عدواً لدوداً مطلوباً منكم حياً أو ميتاً بسـبب إسـاءته لكـم ولشرفك أنت بالذات يا حنان.. فماذا كان يهمكم إن كان قـد تزوج أو لم يتزوج..؟..!! وهنا يمكنها أن تقول لي: " ومـا شأنك أنت بعداوتنا مع إبراهيم.. لقد جئنا لكم ليلتها لنعـرف عنوانه حتى نذهب إليه لنرغمه على العودة ونعطيه كل مـا يطلب مقابل إتمام الزواج بي.. ولكنك أفسدت هذا المشروع بكذبتك الشنعاء ".. ويمكنها أن تضـيف عبـارة مختصـرة تلخص بها كل حديثها اللائم:

" لقد تزوجتنى يا كرم.. بكذبة.. "

فهل يمكننى أن أرد عليها قائلاً:

" لذا فأنت يا حنان أكبر كذبة في حياتى!! "؟

- ١٠ -

كان يعرف الامكانيات الأنثوية الكامنـة فـي شخصـية عنايات التى ألتقى بها وبصحبتها ابنتها يسرية فـي موقـف استدعى أن يستخدم فيه شهامته وقبضته وانتهى بأن أصـبح ضيفها في غرفة السطوح تلك الليلة.. ورغم الرغبة الملحـة التى قرأها في عين عنايات بعد أن نامت يسرية إلا أنه تعالى على الموقف واكتفى بواجب الضيافة وتلقّى كلمات الشكر لما أسداه لها من حماية ضد بلطجى السلخانة الذي كان يطاردها دون هوادة.. فأوقفه عند حده.. ولقد تعرفت عنايات فيما بعد على الإمكانيات الذكورية الكامنة في شخص هـذا الشـاب اليافع الجميل الجرئ الذي يحاول الحصول علـى الثانويـة العامة للعام الثانى دون أمل في ذلك لتسرب الوقت من بـين أصابعه في أحضـان النسـاء وملاعـب الكـرة وحفـلات الأفراح.. وأرصفة المقاهى.. لقد راهن كل منهما على الآخر حتى أنها انتهزت فرصة خلو غرفة بجوار غرفتهـا علـى السطوح فاستأجرتها له.. وكان العنوان النبيل لهذه السـكنى هو أن يبتعد عن أصدقاء السوء ويتفرغ للمذاكرة.. ولا يحمل هم إعداد الطعام لنفسه إذ أنها ستقوم بذلك ضـمن مهامهـا

اليومية التى تقوم فيها بقسمة وقتها بين بيتين مـن البيـوت الراقية تجهز لهما كافة متطلبات المطبخ والولائم..

كان أحد هذين البيتين بيت المعلمة هدى الشيتانى زوجـة المعلم زكريا شاهين الذي رحل عن زوجتـه الشـابة منـذ سنوات قليلة وترك لها عالماً زاخراً بالعمل والثراء.. وطفلاً صغيراً.. هو الذي أنقذها من براثن أسرة زكريا التى لم تقتنع بعد بتلك الشرعية التى تعطى لهدى كل هذا المال من أجـل هذا الطفل المفعوص!!..

هدى الجميلة الراقية الملتزمة تـدير أعمالهـا بطريقتهـا وبتدخل مباشر منها على مرأى من النـاس دون أن تسـمح لبشر أن يهمس حولها همسة تتيح لذوى القلوب المريضة أن يحولوها إلى إشاعة.. ومن ثم إلى إساءة.. ولـذا فخطواتهـا محسوبة.. وبرنامجها معروف.. وزياراتها بصـحبة طفلهـا لمختلف العائلات من الأقارب.. أيضاً معلنة.. إلا أنها كلمـا تصاعد الألم بداخلها في المواقف التى تستدعى وقوف رجل بجانبها تهمس لنفسها " بكره محمد زكريا يكبر.. ويبقى هـو راجلى.. ".. ولكن هذا الهمس لم يدم طويلاً مع اتساع رقعة مشاكلها في العمل..ومع ازدياد عدد الطامعين حولها..ومـع

حرب خفية يشنها أهل زوجها ضدها بعد أن احتقـرت أحـد عروضهم للاقتران بأحد أشقاء زوجها الراحل ليس لأنه يملك زوجة وأربعة أبناء ولكن لأنه منذ شاهدته في منـزل أهـل زوجها "لا ينزل لها من زور "..

حكت لها عنايات عن إبراهيم عبد القادر الشـاب النابـه القوى الذي يمت لها بصلة قرابة والذي يحميها هي وابنتهـا في هذه المدينة وأنها مستعدة لتكليفه بأى مهام تطلبها السـيدة هدى وأنه سيكون رهن إشارتها في أي وقت لأنه لا يرفض لها طلباً..

في بادئ الأمر لم تعر هدى انتباهـاً لحـديث طباختهـا عنايات عن قريبها ذلك الذي حفظت اسمه – إبـراهيم عبـد القادر – فما أكثر الرجال الذين يتمنون خدمتها.. وما أكثـر هؤلاء الذين يلقون بأنفسهم تحت قـدميها.. ولكنهـا لمحـت إبراهيم من خلف خصاص النافذة وهو يودع عنايات أسـفل العمارة قبل أن تصعد هي وابنتها قاصدة شـقتها، وعنـدما ظلت للحظات تراقبه وهو يداعب يسرية بنوع مـن الخفـة والشقاوة أحست أن هذا الشاب فيما لو دخل شـقتها مرافقـاً لعنايات لكونه قريبها لن يدع مجالاً لأى همس حولها.. " ذلك

الشئ الذي تتجنبه وتخشاه من تلك العيـون الكثيـرة التـى تصوب نحوها فحصاً ومراقبة ".. وبما أنها بحاجة إلى مـن يستذكر لمحمد ولدها دروسه فإن إبراهيم هذا هو الشـخص المناسب..

لقد أعلنت هدى عن رغبتها في جلـب أحـد المدرسـين لولدها.. قالت ذلك أمام خادمتها متعمدة وهي تعلم أن هـدى ستطرح الآن وفوراً اسم قريبها إبراهيم عبد القادر.. وهذا ما حدث.. وفي نفس الليلة كان إبراهيم يستمع إلى هذا العرض الذي أتت به عنايات.. وقد أعقب العرض حديثٌ طويلٌ عن هدى الشيتانى تلك السنيورة التـى يرتمـى الرجـال تحـت أقدامها.. وكيف ستُفتح له أبواب السعد فيمـا لـو اختارتـه لخدمتها بدءاً من التدريس لولدها الصغير.. وكيف يجـب أن يكون على مستوى هذه المسـئولية مـن الأدب والتواضـع وغض الطرف متخلياً عن شقاوته ودناءته وحبـه للنسـاء.. فهدى هذه شئ آخر.. شئ مختلف تماماً..

- : واوعى عينك تزوغ عليها..
- : وافرضى هي عينها اللي زاغت على..
- : أدبحك.. وا أدبحك..

- : تدبحينى هو انتى مراتى..؟..

- : أكتر من مراتك.. هو يعنى ناقص غير الورقة..

- : عارف إنك هتموتى على الورقة دى.. بعينك.. كان غيرك أشطر..

ولم تدر عنايات أنها كانت تضع نهايتها بنفسـها عنـدما قدمت فتاها الأثير وفارس جماح أنوثتها الهادرة إلى سـيدتها هدى.. فقد اصطحبته معها ذات صباح مختالاً في بدلة جديدة وحذاء لامع جديد ورباط عنق أنيق وكلها من هداياها إليه..

ولقد سعدت هدى بقدومه.. وانبهرت لمرآه.. وقدمت لـه الشاي بنفسها.. وجعلته ينتظر حتى حضـور ولـدها مـن المدرسة.. وعندما حان موعد الغداء شاركها فيـه مسـتمتعاً بطعام من إعداد عشيقته عنايات.. وجاء محمد ليجد رجلاً في منزلهم.. أنيقاً.. خفيفاً.. مرحاً.. وكان من السهل أن تنعقـد بينهما صداقة سريعة لم يتوان محمد بسببها في إحضار كتبه وكراساته لعرضها أمام ضيفهم الجديد.. ولم يملّ ذلك الوقت الذي مر سريعاً رغم طوله وهو يتلقى توجيهات فـي كـل الدروس دون أن يجد في ملامح وجه ضيفه سمات المدرسين

الذين يضعون قناع الشراسة على وجوههم أمام الأولاد كلما أمكن ذلك..

وكان أن اقترح محمد على والدته:

- : يا ريت يا ماما عمو ييجى يذاكر معايا كل يوم..

- : حاضر يا حبيبى..

واختار إبراهيم أن تكون زياراته لدروس محمد يوماً بعد يوم.. واختار بخبث بدا غير مقصود أن يكون يومه هو اليوم الذي تقضيه عنايات في خدمة الأسرة الأخرى.. وهكذا كان يمكنهما أن يتبادلا ليلاً الحديث عن أخبار هدى.. فكل منهما يراها في اليوم الذى لا يراها الآخر فيه..

لقد صار متيماً بسيدته الجديدة.. ويراها دائماً بـين يديـه دون أن يذكّر نفسه أنه الآن يحتضن عنايات اللدنة الجائعـة دوماً.. ولم يكن يدرى أنه في الجانب الآخر قد نفذت سهامه في قلب سيدته التى نجحت حتى الآن في مـواراة عطشـها الذي طال.. وجوعها الذي تخفيه يدل بدا كالشمم..

ومن خلال التليفونات التـى تسـتقبلها هـدى وترسـلها للآخرين على مسمع منـه تعـرف إبـراهيم علـى أغلـب مشاكلها.. وتعرف على مشكلة أرقت سيدته فراح يدرس كل

جوانبها بعيداً عنها.. فهناك أسرة تعمل في العقـارات كـان عائلها قد قام بتأجير الدور الأرضى بإحدى عمارته للمرحوم زكريا شاهين الذي لم يمهله القدر أن يجهـز هـذا الـدور لتجارته.. وظل مغلقاً عدة سنوات بعد وفاته وتقـوم هـدى بتسديد قيمة إيجاره الشهرى بانتظام.. إلا أن الورثـة وبعـد وفاة عائلهم طمعوا في إعادة هذا الدور إلى حوزتهم مادامت هدى لم تستخدمه ولن تستخدمه.. ففاوضوها فـي إعادتـه.. فرفضت.. هددوها.. فلم تستجب.. فمـا كـان مـنهم إلا أن اقتحموا المكان وألقوا فيه ببعض بضـاعتهم ليشـيروا إلـى أنفسهم أمام السلطات إنهـم يمتلكـون المكـان.. " وعلـى المتضرر اللجوء إلى القضاء "..

لقد شاهد إبراهيم هلعها مما حدث.. ولم يحرك سـاكناً.. وسمع استغاثتها بمن يغيثها فقيل لها: لا حـل.. مـا دامـوا يضعون أيديهم على المكان.. يمكنك اللجوء إلى القضـاء.. وأمامك عمر كامل حتى يحكم لك القضاء بعودة هذا الحـق إليك والى ولدك الصغير..

لقد عقد إبراهيم النية وبيتها لشن حملـة إجراميـة ضـد هؤلاء الغاصبين.. وأعد العدة اللازمة لشن حملته متمثلة في

جلب عدد هائل من الغوغاء والصـياع.. ومجموعـة مـن الأقفال الجديدة.. وبعـض السـيارات والأسـلحة البيضـاء لمداهمة المكان ليلاً وكسر أقفاله.. وإلقاء محتوياته بالخارج.. ووضع مفروشات جديدة من ممتلكات هدى والإبقـاء علـى بعض هؤلاء الغوغاء داخل المحل وكأنهم يعملون فيه.. كـل ذلك حتى تأتى النيابة وتثبت امتلاك المكان فعلياً لصـاحبته هدى الشيتانى..

كل ما فعله إبراهيم بعد إعداد العدة أن ذهب إلى سـيدته في منتصف الليل طارقاً بابها في جرأة جعلتها تقابله بشـهقة استغراب متوهمة أن يكون قد حدث لقريبته عنايـات أمـر سئ.. ولكنها وجدته يطلب منها مفاتيح المحـلات الأخـرى لينقل منها بعض المنقولات يزود به محلها المغتصب.. وألقى أمامها بخطته السريعة طالباً منها أن تنظر من الشباك لترى حجم الحملة التى أعدها في سبيل رد عقارها إليها.. وطلـب منها أن تلحق به بعد ساعة واحدة لتقف على رأس المكـان أمام السلطات..

ولقد كانت معركة شرسة بين إبراهيم عبد القادر ورجاله المأجورين.. وبين الورثة الـذين فوجئـوا بأشـيائهم فـي

الشارع.. وممتلكات هدى ورجالها في الداخل وهـي علـى رأسهم تقف في شموخ تتلقى زغاريد الجيران والأحبة الذين كانوا في الأصل لا يطيقون هؤلاء الورثة..

لم يلتفت إبراهيم لإصابته والدماء التى على قميصه وراح يكمل خطته في الاتصال بالشرطة والنيابة وعمل المـذكرات التى تحفظ لهدى حقها.. ولم يكن من الممكـن فـي نهايـة المعركة أن تترك فارسها يذهب إلى منزله ملطخـاً بالـدماء فألحت عليه أن يلتقط أنفاسه لديها ويبدل ملابسـه.. إلا أنـه إمعاناً في النبل والشجاعة والتمهل في تلقى المكافأة أصر هو الآخر ألا يصعد معها إلى شقتها بهذا المنظر.. وتركها تصعد بمفردها وهو يعلم أنها كانت تحمله معها في قلبها.. فهذا هو الشاب الذي أثار إعجابها في صمت كاد أن يفقد حياته أمامها في معركة اختار لها الزمان والمكان دفاعاً عـن حقوقهـا.. وعندما نامت.. كانت صورته هي آخر ما أغمضت عينيهـا عليه وهي تتساءل..

" إبراهيم عبد القادر.. من أنت..؟ "

لقد أحس بما يملكه من مشاعر خبيثة.. وذكاء حـاد.. أن هدى قد وضعته في المكان الذى يتمناه في قلبها.. وأنه لـن

يمر وقت طويل حتى يبوح أحدهما للآخر بمـا لديـه مـن مشاعر جياشة.. فقرر أن يستعد لذلك.. ولن يكون الاستعداد إلا بحرق ورقة عنايات استعداداً للتفرغ لقدوم هدى..

رسم بعض علامات الخوف والاستغراب علـى وجهـه وتقدم إليها في اللحظة المناسبة:

- : عنايات..

- : نعم..

- : إنت فهمتى هدى هانم إن أنا وانت قرايب؟..

- : أيوه.. لازم تفهم إننا قرايب عشان ما تشْكش فـي حاجة..

- : بس هي خلاص شكت فينا.. فيه حد عرفهـا كـل حاجة عننا..

خبطت بيدها على صدرها..

- : يا دهوتى.. عرفت إزاى؟..

- : بعد ما كنت حاموت بسببها وأنا برجعلها المحـل.. الست شكرتنى صحيح.. بس قالت لـي كلمـة أنـا احترت فيها..

- : كلمة إيه..؟

- : قالت يا خسارة يا إبراهيم.. إنت بطل وشهم بـس الحلو ما يكملاش قلت لها يعنى إيه يا هانم.. قالت لي: إنت عارف وأنا عارفة..

- : يبقى كلامك صح.. فيه حد فتن علينـا.. حنعمـل إيه؟..

وهنا تقدم إبراهيم بخطة عمله..

- : أنا حتجوزك شرعى.. وما دمتى بقيتـى مراتـى حتبطلى شغل عندها وعند غيرها.. تفضلى في البيت كام شهر واوعى تخليها تشوفك.. وأنـا حاتصـرف معاها..

لقد تلهت عنايات في فرحتها بالارتباط الشـرعى بفتاهـا الجميل.. ونسيت أن تحلل أى عبارة من عباراته – أو تناست ذلك – ولكنها استجابت لمطالبه الأولى كزوج له الحق في أن يأمرها وعليها واجب طاعته.. ولم تكن تعلم أنه يحتفظ بها – وبهذه القوة – حتى إذا فشلت خطته في استمالة هدى عاد إلى مخدعه المنتظر أو تخلص منه على حد سواء..

وبعدها بادر فأبلغ هدى أن عنايات قد وقعت تحت ضغط - وصل إلى حد التهديد - من أخيها الذي عاد من السفر فمنعها من العمل في البيوت وأنه قد قام بترحيلها قسراً إلى البلد..

لقد أحس أن هذا الخبر قد لاقي استحساناً لدى هدى.. وأحست هدى نفسها بارتياح لذلك – لا تعلم سببه -..

وراح إبراهيم يواصل تنفيذ خطته: الاهتمام الشديد بأعمال سيدته وإحراز نتائج متقدمة بعد أن دانت له دولتها واستمد هيبته من واقعة إعادة عقارها المغتصب إليها كما استمدها من اتجاه هدى المعلن أمام الناس بإطلاق يد موظفها - الجديد المخلص - في كل أمورها.. ثم ارتداء ثوب البلاهة في تجاهلها كأنثى فائرة..

لقد كان يتعمد أن يختفى عنها أياماً ليرى وقْع ذلك في نفسها وهو يعلم أن وسيلتها في مخاطبته عن بعد قد انعدمت بعد رحيل عنايات.. وعندما يعود هادئاً رزيناً يسارع بالبحث في عينيها – خلسة – عن أثر غيابه.. وتأتيه الإجابة الشافية..

لقد علت أحاديث العيون حتى تخطـت حـاجز الرمـز واقتربت من حدود اللهفة المعلنة.. ولم يبق إلا الاقتـراب.. وهنا قرر أن يزورها في منزلها فجأة وعلى غير موعد

لقد اختار أن يكون ميعاد زيارته في الضحى.. بعد التأكد من أنها بمفردها في المنزل.. فما إن وجدته أمامهـا حتـى تلقفته في أحضانها بشوق بالغ.. فبادلها الاحتضان بنهم شديد وظلا في عناق ساخن حتى أوشك الانفجار أن يفرض نفسـه عليهما.. وأوشكت الغيبوبة أن تجرهما إلى السرير الذي افتقد هزة الرجولة منذ زمن بعيد.. وفي تلـك اللحظـة تراجـع إبراهيم.. وراح يرتب هندامه.. ويرتب كتلة شعره الكثيفة.. وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة مبتعداً عنها:

- : هدى.. مافيش داعى نغلط.. إنت أكبر من كـده.. وأنا كمان.. وبعدين لو بدأنا في الموضوع ده.. مش حننتهى.. وممكن عنايات تكشفنا.. تعمل لي مصيبة..

- : مصيبة..؟.. هي مالها بـ

فقاطعها: للأسف هي مراتى.. ومتسألنيش ليـه؟.. كنـت مضطر.. ظروفي رمتنى فْ طريقها.. ورمتها في طريقى..

إنسى الموضوع ده.. لأن أنا نفسى مكسـوف منـه.. بـس اطمنى العقد اللي بينى وبينها.. عرفى..

لاحقته: يعنى ممكن تطلقها..؟..

أجابها: ممكن طبعاً.. بس الموضوع محتاج تخطيط..

سألته: نخطط لإيه؟..

أجابها: يا إما نبعدها عن طريقنا.. أو نبعـد إحنـا عـن طريقها.. عشان ماتشنّعش علينا.. عنايات شرسة وبتحبنى.. ومش ممكن تستغنى عنى.. بس يا ترى إنت مستعدة تاخدينى في الحلال؟..

ولأنها منذ لحظات كانت مستعدة أن تأخذه في الحـرام.. فقد نكست رأسها إلى أسفل متأملة ما بين قدميها من فراغ.. وأجابت..

- : أيوه.. ودلوقت حالاً..

- ١١ -

لقد احترقت ورقة عنايات التى أفهمها إبراهيم أن السـيدة هدى لم تنطل عليها لعبة عقد القران.. وأنهـا تأكـدت مـن تورط ربيبتها عنايات في الكذب والخيانة.. وأن دخولها إلى منزلها مرة أخرى معناه خروجها منه متلبسة بجناية.. علـى الأقل ستكون جريمة سرقة مجوهرات ربة المنزل.. ولذا فقد استجابت لنصيحته أن تختفى من أمام أنظار سيدتها تماماً..

قرر أن يمضى معها عدة شهور مدعياً البحث عن أعمال أخرى تناسبها.. ناهلاً من عذب رونقها الجديد الذي تختـال فيه والذي بدا عليها منذ أن حصلت منـه علـى (الورقـة) وراحت تهتم بزينتها وملابسها وجسدها وحتـى مفروشـات الغرفة خاصة السرير بملاءاته الجديدة..

وفي الوقت المحدد نصحها أن تعود إلى قريتها.. ووعدها أن يزورها بين وقت وآخر ليطمئن عليها.. فربما يتمكن مع غيابها أن يقنع السيدة هدى بالصفح عنها.. ثم عمد إلى جيبه فأخرج منه نسختها من عقد القران.. وسلمه لها.. وفي هدوء قال لها: "أنت طالق".. ثم عمد إلى جيبه الآخر وأخرج منـه

ورقة أخرى كان قد أعدها سلفا هي ورقة الطـلاق وسـلمها لها..

وعندما انهمرت دموعها.. راح يهدئ من حزنها.. قائلاً:

- : أنا لو منّك أفرح لأنك خرجت مـن عنـد هـدى وتهمتك – بس – هي الكذب.. تهمتك إنك مقلتـيش الحقيقة..

- : حقيقة؟.. حقيقة إيه اللي أنا أقولها؟.. أقول لها إنك كنت عشيقى؟..

- : لا.. بس ما كانش فيه داعى لحكاية إننـا قرايـب دي.. ونسيبها تفهم اللي تفهمه: تفهم إن إحنا حبايب.. إحنا عشاق.. إحنا متجوزين.. عموماً هـي دلوقـت كارهاكى ع الآخر.. ومش طايقة تشوفك.. حاسه إنك خدعتيها.. زي ما اتفقنا إبعدى خالص وروحى البلـد لغاية ما جيلك..

وعندما كانت عنايات في طريقها إلى منفاها بقريتها كـان إبراهيم في طريقه إلى الاسكندرية مع هـدى التـى أقنعهـا بإرسال ولدها محمد إلى إحدى شقيقاتها لمدة أسبوع أو أكثر لتعيش معه الحلم الذي جعلها تتخيله لشهر عسل تنطلق فيـه

بعيداً عن الأعين.. وعندما تحول الحلم إلى حقيقة اكتشـفت هدى كيف أن هذا الشاب الذي جاءها على غير انتظار يحمل في داخله كنوزاً من التجارب والمعرفة.. وأنه أشد ما يكون معرفة بأسرار المرأة عن رجال كثيـرين يضـاعفونه فـي العمر.. فهو طفل في اللهو واللعب والمشاغبة.. وشهم فـي الغيرة وحماية مملكته من نظرات الفضول.. وفحـل يجيـد العزف على أوتار الأنوثة.. حتى أنها لم تخجـل أن تهمـس لنفسها أنها لم تكن تعرف شيئاً عن الجنس قبل الآن.. وأن ما كانت تتلقاه من زوجها الراحل من حب وعطف واهتمام هو الشئ الذي أحدث توازناً نفسياً لديها دون أن تدري أنه كـان الأداء الرقيق المكمل لأداء ليس من المحتم أن يكون رقيقـاً في سرير الزوجية.. لقد هامت بلعبة الجنس حتى أنها كانت تختلق الأعذار للعودة إلى الفندق في منتصف النهار مقترحة أن يتلقيا غداءهما في الغرفة وكانت بدلالها ورغبتها الباديـة تتلقى الوجبة التى أصبحت تحبها معه على السـرير.. قبـل تلقى وجبة الغداء معه على المائدة..

أما عزوفه عن طلب المال.. ومحاولته إثنائها عن المبالغة في شراء الملابس والهدايا له.. فهو الشئ الذي لفت نظرهـا

وجعلها – والفرحة ترقص في قلبها – تتأكد أنه اقترن بهـا لجمالها وأنوثتها وليس من أجل مالها وجاهها..

الآن يستطيع إبراهيم أن يحلم.. وليس المطلوب منه سوى أن يعلن حلمه.. وسوف يناديه مارده الجميل: شبيك لبيـك.. ولذا فقد أسرع إبراهيم بتخيل حياته القادمـة مـع زوجتـه الثرية.. قال لنفسه: ماذا لو أقنعتها أن نؤسس بيتاً للزوجيـة هنا في الاسكندرية؟.. ماذا لو جعلتها تنقل جزءاً من أعمالها هنا في الاسكندرية أقوم بنفسى بالإشراف عليـه؟.. ولعلـى أقنعها بخوض مجال التصدير.. ماذا لو جعلتها تتخيلنى بعـد خمس أو ست سنوات طبيباً أو مهندساً تتشرف به.. وتفخـر بأنى صرت شيئاً كبيراً من صنعها؟..

وعندما قام بطرح مشروعه أمامها لم يحرمه ذكاؤه مـن تدعيمه بالمزايا الكامنة فيه.. فقال لها إنها سـوف تمـارس حياتها الشخصية دون قيود وتنطلق بصحبة شبابها الذي كان حتى أيام قليلة داخل شرنقة التقاليد المظلمة.. وأنهـا عنـدما تقسم وقتها ما بين طنطا والاسكندرية.. فاللافتة التى سترفعها في وجه المتسائلين لا تخلو من وجاهة ومن إقنـاع.. فهـى

اختارت أن تعمل في الاستيراد والتصدير.. وأن وجودها في محيط الميناء شئ لا يثير التساؤل..

ليلتها لم تنم هدى.. رأت نفسها في هذا العالم الجديد الذي صنعه لها إبراهيم في الخيال.. تماماً مثلما رسم لها أيام شهر العسل قبل أن تعيشها في الواقع.. ووجدت نفسها تعثر بنفسها على الإجابة المختفية لسؤال طرحته على نفسها.. كيف يكون إبراهيم هذا متمتعاً بكل هذا الذكاء ويتعثر في الحصول على الثانوية العامة؟.. وكيف سبق له التعثر في سنوات النقل أكثر من مرة..؟ الآن وضح لها أن إبراهيم لم تكن تنقصه الإمكانيات العقلية ولكنها الإمكانيات المادية.. إبراهيم لم يكن ينقصه التركيز.. ولكن ينقصه الاستقرار.. إبراهيم أخذه التشتت والضياع.. والآن يجب أن ينال الهدوء والأمان.. وبما أنه أصبح لي الزوج والرجل والحامى والمدير فأولى بي أن أهيئ له كل هذه العوامل التى تاه طويلاً في البحث عنها وفشل في العثور عليها..

لقد استهلكا جزءاً لا بأس به من الأيام المتبقية من شهر العسل في البحث عن شقة للزوجية.. وفيما بعد استهلك إبراهيم – المستقر – الجزء المتبقى من شهور الدراسة في

حرث مواد شهادته المستعصية..ولأنـه راح يواجـه فكـرة الحصول عليها – هذه المرة – بنوع من الإصرار فقد كـان واثقاً من نفسه غير آبه بالوقت الموازى الذي يصـرفه فـي سبيل تأسيس وتأثيث مكتب زوجته التى لم تأبه هي الأخرى بكثرة التردد عليه في غير مواعيد آخر الاسبوع المتفق عليها فيما بينهما..

وعندما حصل على شهادته من بين المتقدمين لهـا مـن طُلاّب المنازل نظر إلى مجموعه العالى بشئ مـن الزهـو والثقة وقد قال لي فيما بعد أنه تذكر كلمتى الطيبة في حقـه منذ سنوات:

(إبراهيم ذكى.. ولو وضع الشهادة في رأسـه سيحصـل عليها بأكبر مجموع.. ولو ظروفه لم تساعده اليـوم.. فغـداً ستساعده)

- ١٢ -

هل كان إبراهيم كتاباً مقروءاً لإنسـانٍ محـدود الـذكاء مثلى؟.. وكيف تمكنت من قراءته وتخيل ما سـوف يكـون عليه حاله مع سيدته الجديدة التى كان بالكاد يقطع خطواتـه الأولى في مشواره معها؟..

لقد قلت في كذبة عشوائية إنه تزوجها.. قبل أن يتزوجها فعلاً.. وقلت في نفس الكذبة إنها تنفق عليه لتلحقـه بكليـة الطب أو الهندسة.. وهذا ما حدث فعلاً..

لم أكن أقرأ المستقبل فمثلى لا يملك هذه الشفافية.. ولكنى كنت أشوه تاريخ إبراهيم أمام حنان حتى أستولى على مكانه الذي نصحنى هو بالاستيلاء عليه..

وعندما تبين لي أن إبراهيم بوضعه الحـالى هـو نفـس إبراهيم الذي أبلغتُه لحنان تخلصت من الخوف الذي هاجمنى فور رؤيته في حرم الكلية.. الخوف من أن يكون كل ما قلته عنه من إفك لحنان وأمها شـيئا جعلنـى معرضـاً لكشـفى وتعريتى وإحراجى إذا ثبت عدم صحته.. والآن وقد ثبت أنه التطابق بعينه بين ما قلته وبين ما حدث فقـد زال تـوتري وعدت إلى حنان بحالة أخرى غير تلك الحالة التى ودعتنـى

بها وأنا مسافر إلى طنطا.. حالة من الهدوء جعلتنى أشاركها التفكير والبحث.. كيف ستكون شكل العلاقة التـى تربطنـا بإبراهيم وقد جمعنا القدر كلا على حالته.. في هـذا المكـان الذي لم يكن في خيال أحدٍ منا منذ ثلاث سنوات؟..

كانت حنان واقعية وهادئة... كل واحد في حاله.. علاقـة عادية.. لا إقدام على أى فعل.. ولكنه الاستعداد لتكثيـف رد الفعل.. لا زيارات منزلية.. لا حديث في الماضى..

وجدناه يسبقنا بعامين في قسم العمـارة..ولأننـا نرقـب التخصص في الهندسة المدنية فقد داخلنا الارتياح لاخـتلاف الأقسام واختلاف السنوات..

قالت حنان ضاحكة:

- : يعنى حيتخرج قبلنا بسنتين.. هما دول السنتين اللى حنجيب فيهم تقدير..

لقد تعمد أن يكون وجهه بارداً في أول لقاء لنا به رغم أنه قد فوجئ بنا.. فَعِلْمناً بوجوده في الكلية قبـل أن يعلـم هـو بوجودنا معه ساعدنا – نسبياً – أن نبادلـه البرود.. وعلـى غير ما توقعت مضى اللقاء هادئاً دون أن تبدو في حوارنـا أى كلمات منغصة أو إسقاطات لا لزوم لها..

أما ما لم أتوقعه فهو حالة تحاشى مقابلتنا التى يحـرص عليها إبراهيم.. بل حالة تجاهلنا ونحن على بعد أمتار منه..

في بادئ الأمر ولأن اهتمامنا كان يتركز على شخصـه دون التركيز على من يحيطه من زملاء وزميلات فإننا لـم نفحص ماهية هؤلاء الزملاء والزميلات.. ولكنى لاحظـت كما لاحظت حنان أن هناك طالبة لا تفارق إبـراهيم مهمـا تغير عدد وأسماء المحيطين به من زملاء في كل مرة نشاهد فيها جمعهم الذي يتحرك غالباً مصحوباً بالتهريج والصـخب الذي اشتهر به قسم العمارة..

كانت ما تراه حنان من تحركـات وتجمعـات إبـراهيم وصحبته نوعاً من المشاهدة العادية التى تـأتى دون قصـد فحرم الكلية مفتـوح.. وتجمعـات انتظـار المحاضـرات والسكاشن تأتى عفوية في الكوريدور أو عند البوفيه أو فـي شمس الحديقة عندما نكون في الشتاء.. ولكن مالم يأت بدون قصد هو الرغبة في فحص ماهية وحالة تلك الزميلة التى لا تفارق إبراهيم.. فها هي حنان تكتشف أن هذه الطالبة تمتلك سيارة فارهة.. وها هى حنان تكتشف أنها كثيراً ما تخـرج بها من الكلية " الخالية من أي سيارات أخرى للطلبة – إلا

قليلاً – ".. وبصحبتها إبراهيم الذي لا يأتى إلى المحاضرات إلا في كامل أناقته.. وها هي حنان تكتشف (لا أعتقـد أنهـا اكتشفت.. بل سألت).. أن هذه الفتاة من دولة خليجية..

وبدلاً من أن يأخـذنى الانـدهاش مـن تلـك القـرون الاستشعارية التى نبتت في خياشيم حنان والتى راحت تتشمم بها أخبار إبراهيم.. أخذتنى نفس الغرابة لنمو هذه القـرون عندى..

ولأن طلبة العمارة يحملون في دواخلهم ذوائـق الفنـانين فإن تلقائيتهم في التعامل مع كل طلبة الأقسام الآخرى تجعلك قريباً منهم دون مقـدمات ودون تعقيـد.. ولأن مشـاريعهم المعمارية خلال العام الدراسى تتطلب تواجدهم شبه المستمر في الكلية متوغلين دون كلال في جزء كبيـر مـن الليـل.. ساهرين.. يأخذهم الضـحك والتهـريج.. وتنـاول الطعـام والشراب وهم منكبون على لوحات الرسم فإن جانباً كبيـراً من تهريجهم بتناول مغامرات إبراهيم عبد القادر.. القصص التى تتطاير في جو الأتيليه ليلاً.. ويتناثر رذاذها فـي جـو الكلية نهاراً..

أما تكرار الحديث عن قصة زواج إبراهيم عبـد القـادر بزميلته اللبنانية فاطمة معروف فإنه رغم التكرار لـن يمـل راغبى الإعادة من إطلاق صيحات الاستغراب ممـا فعلـه إبراهيم حتى يلتقط هذه الفتاة لنفسه قبل أن يلتقطها غيره..

شاهدها تهبط من سيارة فارهة ومعها سيدة – عرف فيما بعد أنها جدتها.. ثم شاهدها تشير إلـى السـائق بـالعودة.. وتأمره بالرجوع مرة ثانية بعد ساعتين..

- : دخيلك يا مصطفى... لا تتأخر..

ابتسامته الجميلة كانت هي مقدمة التعارف..

- : سواقك ده.. مصرى..؟

- : أيوه.. مصري..

- : من هنا.. من اسكندرية..؟

- : لا.. من القاهرة.. المامى (أمها) رسلته موقت لحين ما يجينا سائق من هنا..

- : المامى مقيمة في مصر.. قصدى في القاهرة..؟..

- : إيوه.. شغلها هناك..

(أومأ لجدتها)-: كنت فاكر إن الهانم.. هي ماما..

قالت الجدة: أنا جدتها لأمها.. عساك بتطيـب خـاطرى وتبغى توهمنى إنى شابة..

- : وليه أطيب خاطرك؟.. إنت شابة فعلاً..

ضحكت الفتاة لهذا الغزل الجميل..

- : حياك.. حياك.. لا تخطف قلب التيته..

استفسرت الجدة..

- : ليش ما نتعرف الأول..؟..

لاحقها فوراً..

- : إبراهيم عبد القادر معيد في قسم العمارة..

هتفت السيدة مخاطبة حفيدتها:

- : شو؟.. العمارة؟.. فاطمـة..؟.. سـامعه.. هـذا.. إستاذك.. حظك بنتى..

ثم موجهة الحديث لهذا المعيد الأنيق اللبق:

فاطمة..

قاطعها: واضح أنها تلميذة في إعدادى عمـارة.. أهـلاً بيها.. وبيكى..

ثم موجهاً الحديث إلى فاطمة:

- : كويس إنى حادخل المحاضرة لكم بدرى.. حنخلّص قبل مصطفى ما يرجع..

ثم بلهجة ضاحكة:

- : أوعدك قدام التيته إنى حاخلّص المحاضرة بـدري بس بشرط..

قالت بلهجة مؤدبة:

- : اتفضل..

- : تقبلوا عزومتى علـى الغـدا.. مجـرد تعـارف واستقبال.. ياللا.. حاختار للهانم ركن جميـل تقعـد فيه.. وبعدين أعرفك على الأتيليه بتاعك..

أسرع فأجلس جدتها في ركن جميل كما وعدها.. وأسرع فأشار لها على مكان تجمع زملائها الجدد.. ثم أسرع ضاحكاً مهرجاً إلى غرفة الأساتذة والمعيدين مقترحاً حالة من حالات التدشين التى يقوم بها الطلبة القدامى لاستقبال الطلبة الجدد.. ولأنه يخترع موقفاً كوميدياً ستضحك عليه الكليـة بتقمصـه دور المعيد.. ولأن حالات التهريج في قسم العمـارة يقـول تاريخها الضاحك أنه حدث ما هو أكثر من ذلك.. فقـد راح

يضاحك د. مجدى وهو يطلب منه بخفة دمه المشـهورة أن يؤجل دخوله المحاضرة الآن حتى ينتهى من تمثيليته..

ولم تجلس فاطمة على مقعدها طويلاً حتى شاهدت معيدها الجميل يدخل مرتدياً ثوب المهابة.. ويغلق الباب خلفـه فـي ثبات ويأخذ مكانه على المنصة صامتاً.. متعمداً أن يطـول صمته حتى تهدأ الأصوات العالية لتلاميذه.. ومـا هـي إلا دقائق حتى كانوا جميعاً قد وقعوا تحت سيطرته.. وتهريجه.. وخفة دمه.. أما الحديث عن المواد فقد كان عابراً.. والحديث عن الأدوات الهندسية المطلوبة فقد كان أيضاً عـابراً.. أمـا الحديث عن المهندس المعماري ودوره في بناء حضارة الدنيا فقد كان مكثفاً.. وأنهى محضارته اللذيذة بقول [قال إنه يحبه]: " لو لم أكن معمارياً.. لتمنيت أن أكون معمارياً.. "

وأنهى المحاضرة..

وعندما خرجوا خلفه.. راح يتمهل حتى تلحق به فاطمة.. وعندما وجدها بجواره همس لها مشيراً إلى البوفيه..

- : تيته هنا.. هاتيها وحصلينى عند البوابة..

وأمام مائدة غداء عامرة في أحد شرفات فندق فلسـطين كانت الجدة تستمع إلى حديث ضاحك ولذيذ من حفيدتها حول

خفة دم أستاذها ومضيفهما إبراهيم عبـد القـادر وإبـراهيم يسرب لهما بين الحين والآخر بعض النصائح..

- : ما فيش داعى للسواق.. سـوقى العربيـة بنفسـك أحسن..

وفي نصيحة أخرى:

- : ما دام كنت ناوية تحولى لهندسة القـاهرة عشـان تبقى جنب ماما فانت كـده حطتينـى فـي اختبـار صعب..

- : ليه؟..

- : لأنك لو أصريتى على التحويل معناه إنى فشلت في إنك تحبى الكلية هنا.. وتحبي اسكندرية كمان؟..

وفي نصيحة ثالثة:

- : ما فيش داعي حد يعرف إننا بقينا أصحاب.. مـن الموقع ده حاقدر أخدمك كتير.. دا طبعاً لـو قبلتـى خدماتى..

هتفت الجدة:

- : شو.. شو إبنى؟.. شو بتقول.. وا إنـت خطفـت قلبي..

رمق فاطمة بنظرة ذات مغزى ليرى أثر هـذا التعبيـر الجميل على وجهها..

فهمست له:

- : وقلبي.. كمان..

مد يده فقبض على كفها.. ونهض من مقعده.. مستأذناً من الجدة..

- : بالإذن يا هانم.. أفرج فاطمة على حدايق المنتزه.. مش حنتأخر عليكى..

وفي جولة بديعة بين الأشجار الباسقة والزهور الرائقـة.. وفي جلسات عفوية فوق الحشائش الخضراء سجلت فاطمـة في ذاكرتها أن يومها الأول الدراسى في الجامعة بمصر لـم يكن يوماً دراسياً بل جاء على غير توقعهـا يومـاً عاطفيـاً رومانسياً حالماً..

- : إيش اللى سويته في.. لخبطت كيانى.. مـا كنـت باتصور إنكم حلوين بها الشكل..

- : قصدك مين؟..

- : المصريين؟..

- : مين لخبط كيان التانى..؟..

- : ما بعرف أستاذ.. كل شـئ إتلخـبط.. حتـى مـا اتذكرت أهاتف ماما أعرف منها ميعاد القطار.. جاية اليوم في المسا..

- : نكلمها من الفندق.. متحملـيش هـم.. يـا تـرى حتكلميها عنى..؟

- : شو أكلمها عنك.. إنت اليوم ضيفنا على العشا..

وفي المساء كان يرتدي أبهى حلله وأربطة عنقـه أمـام هدى التى فهمت منه أنه سيقابل بعض الموردين في صـالة أحد الفنادق.. فراحت تصفف لـه خصـلات الشـعر التـى تباعدت عن زميلاتها في تاج الشعر الرصين الـذي يعلـو رأسه الجميل.. واحتضنته بحنان..

- : ماتتأخرش على..

ثم كانت جلسته الرزينة أمام سيدة الأعمال اللبنانية وابنتها فاطمة وأمها التى ترسل نظراتها المنبهرة إليـه مـن حـين لآخر..

كانت هذه الجلسة فقرة عفوية ومفاجئة في برنامج أسرة لم تخطط لهذه السهرة مع هذه الشخصية الآسرة الهامة.. وبحذر الثعالب راح إبراهيم يلتقط ما يمكن التقاطه من معلومات عن تاريخ هذه الأسرة دون أن يبدى اهتماماً بـ ذلك.. وبفـيض الأبرياء راحت سيدة الأعمال الجميلة العاقلة تسرب بعـض ماليديها إلى إبراهيم تدريجياً إلى أن زاد عيار السرد في جلسة طويلة بالفراندة الفسيحة المطلة على شاطئ جليم..

وكان الذي حصل عليه إبراهيم من معلومات عـن هـذه الأسرة يفرض عليه أن يؤكد لمضيفيه بكل شـهامة قبـل أن ينصرف:

- : على كل حال يا فندم.. اعتبروا إن فاطمة مسـئولة منى.. وفْ رقبتى.. دا طبعاً إن سمحتوا لـى بهـذا الشرف..

وجاءت هتافاتهم خاف حديثه متناثرة:

- : شو.. يكرم عينك.. هالحين صرت واحـد مِنّا..

- ١٣ -

عرف أن أبوها هو السفير اللبنانى فـي دولـة خليجيـة وعرف أن أمها هي طليقته .. وعرف أن خلافهما معاً حول فاطمة قد وصل إلى المحاكم وانتهى باختيار فاطمة أن تعيش مع أمها.. وعرف أن اختيار أمها للحياة فـي مصـر جـاء بتشجيع من أحد السفراء الأفارقة الذي كان يعمل في لبنـان وتعرف عليهم هناك.. ثم اختار الأم زوجة له بعد طلاقهـا من السيد معروف.. وما إن انتقل إلى القاهرة سفيراً لـبلاده بها حتى اصطحب معه الزوجة وأمها وابنتها.. وقد تهيأ لهم الاستقرار في مصر بارتياح تمكنت فيه الأم مـن ممارسـة العمل والتجارة.. وتهيأ فيه لفاطمة الدراسة التى حصلت بها على الثانوية العامة.. ثم الالتحاق بكلية الهندسة..

كل هذه المعلومات عامة وليست هامة بالنسبة لإبـراهيم الذي تجبره خبرته أن يتشمم ما خاف الأخبار.. فهو لم يجـد نفسه منساقاً إلى تأمل كل هذا السيناريو.. ولكنه راح يتأمـل سراً برز بأنفه على خجل خلال الحوار ثم تراجـع بسـرعة إلى جحره الدفين.. لقد أسماه سراً لأن السيدة كادت تطلقه ثم توقفت.. ومادامت أحجمت عن إطلاقه فهو في نظره بيـت

القصيد بالنسبة لـه.. لأنه نقطة الضعف في هذا البناء الذي يبدو متماسكاً وهو ليس كذلك.. وإبراهيم لم يتعود أن يـدق رأسه في حائط صخرى.. فرأسه ثمينة ويخشى على عمرها الافتراضى من الاستهلاك.. ولكنه تعود أن ينْفذ من الثغرات المختفية.. مثلما حاول تحطيم أنف خاله بسلب عذرية ابنتـه في محاوله حمقاء للحصول على أرض أمه المسلوبة وفشل.. بل وتشرد بسبب هذه الواقعة.. ولكنه تمكن من السيطرة على عنايات بأسلوبه الجنسى الرفيع وعبر بها مرحلـة مـا فـي حياته.. ثم عمد إلى نفس المظلة فنشرها حول جسد هـدى.. الأرملة الجائعة لوقود الحياة الشابة.. حتـى عنـدما حطـم عصبة الورثة الذين اغتصبوا عقار صيده الجديـد هـدى.. استند إلى سوء تاريخهم وهشاشة حزمتهم وكراهيـة النـاس لهم..

كان ما يشغله بعد عودته هي المعلومة التى برزت بأنفها ثم تراجعت من بين شفاه سيدة الأعمال اللبنانية.. فقد أبرزت في قولها تقييماً لميزة انتقالها إلى مصر: لتبتعد بابنتها عـن شادى ابن شقيق زوجها الذي فرض نفسـه علـى فاطمـة

بتحريض من عمه ليجبرها على زواج لا ترغبه الأم.. وقـد كان يرغبه الأب ليضمن أن تظل ابنته في حوزته..

الآن.. إبراهيم يملك بين يديه مادة جديدة للعمل.. والعمل القادم من الأهمية بمكان.. فهو تحول إلى الأرقى.. وصعود إلى الأعلى.. فتاة جميلة وثرية تصغره سناً بعد أن جرب كل اللاتى يكبرنه سنّاً.. فتاة يرفرف العز والرونق حولها ويفوح عطر الأنوثة الناعمة والرقى الحالم من أردانها..

هو لا يدري ماذا يريد.. ولكن إرادته سبقت هدفه بكثير.. لقد أطلق رصاصاته فوراً على أجمل طـائر صـادفه فـي الطريق.. وألهمته ذائقته التآمرية في ثوان بسيناريو يصـعب على محترفي التأليف تصميمه في ساعات..

والآن: ماذا عن الخطوة التالية؟..

بادر في الصباح فظهر لهم بكامـل أناقتـه.. إذ وجـدوه أمامهم وهم يخرجون من باب المصعد.. شهقوا من الفرحة.. واتسعت عيونهم استغراباً لهذه الرقة الشديدة التى اسـتخدمها في تبرير حضوره المفاجئ:

- : قلت لنفسي مش ممكن تسـافري مـن غيـر مـا أودعك..

فقد كان يعلم أن سيدة الأعمال ستستقل قطار الساعة التاسعة من محطة سيدى جابر في طريقها إلى القاهرة..

ورغم أنه كان يودعها بمفرده مع ابنتها إلا أن ما خالجها من شعور بالفخر والاعتزاز جعلها تحس أن الاسكندرية كلها كانت في وداعها.. فطريقته في إفساح الطريق لها بين الناس.. أو السير موازياً لها بخطوات كأنها عسكرية وعقيرته الرنانة التى تنادى الجرسون في أرستقراطية آمرة.. والإشارة بإصبع واحد للحمالين الذين بهرهم جمال السيدة وفخامة الرجل وعذوبة البنت فاصطفوا بحقائبها محتجزين لها ممشى خاصاً إلى العربة وكأنها الوحيدة التى ستستقل القطار.. ولأن إبراهيم قد ألقى لكل منهم نصف جنيه كامل فقد كان المقابل أنهم والجرسون صنعوا لها جوقة مبهرة وتشريفة لم يصنعها لها زوجها السفير وهي تستقل القطار من القاهرة..

لقد عادت الأم وهي لا تصدق أن ابنتها التى كانت تضع قدمها على ضفاف الغربة بخوف شديد قد حالفها كل هذا الحظ عندما قابلت هذا الشاب المهذب الجميل المتحضر.. وها هو أول الغيث: توفير وظيفة سائق.. كانوا يظنونها من

ضرورية.. إلا أنه قد ثبت عدم جدواها باعتبار أن التمسـك بها سفه لا لزوم له.. وإعلان صارخ للوجاهة يمكن أن يؤذى الطلبة المحيطين بها بدلاً مـن إبهـارهم.. وهكـذا تحـرك مصطفى السائق في الصباح الباكر.. ليسبق سيدته إلى مكتبها في القاهرة تاركاً السيارة للهانم الصغيرة.

وعندما كان قطار الأم ينهب الأرض متجهاً إلى القاهرة.. كانت فاطمة تدلف بسيارتها بوابة قصر المنتـزة يجاورهـا إبراهيم.. فعند انصرافهما من محطة سيدى جابر بعـد وداع الأم قال لها:

- : ادخلى يمين..

هتفت مصححة -: الكلية في اليسار..

- : عارف.. بس مافيش كلية النهارده..

- : وين بِنْروح..؟..

- : رايحين الجنة..

ظلت صامتة وقد احمر وجهها مـن المفاجـأة.. وظـل الصمت يحتويهما لفترة إلى أن نادته:

- : وجهنى.. أنا ما بعرف الشوارع.. مالك سارح..

هو بالفعل كان سارحاً.. يعيش في ملكوت آخر من صنع خياله.. ملكوت بدأت ملامحه من ذلك الفخذ العاري الملفوف كالمرمر المسكوب منساباً إلى ساق تلمع أضـواء الصـباح على صفحتها الناصعة الموشومة بزهور بيضـاء تُزخـرف جوربها المشدود متعانقاً مع نهاية الجيب القصير.. كان يتأمل هذا الحلم المتجسد أمامه إغراء يأخذ لبه.. وتغسـل نظراتـه ذلك المشهد الملكوتى بدءاً من أطراف الأصـابع المسـتقرة على دواسة البنزين تارة والكوابح تارة أخرى.. وتعلـو بـه النظرات اللهفى من الساق إلى الفخذ ثم الخصر الملفوف في حزام أسود عريض ويعلو ويعلو به التأمل حتى جزيرة البوح المكتوم في صدرها الذي يهتز له قلبه كلما اهتز نهداها..

- : من هنا.. إمسكى الكورنيش للآخر..

- : بدك تروح المنتزه.. عندك حـق.. هـي الجنـة.. صحيح..

" لم تكن قبل الآن هي الجنة.. ولكنهـا أصـبحت كـذلك عندما هبط بين ربوعها هذا الملاك الصغير.. وذلك الجسـد المذهل.. "

وراح فكره المجنون بالجنس يتخيلهـا بـين أحضـانه.. ويصغى إلى أصداء تأوهات عنايات تارة.. وتشنجات هـدى تارة أخرى.. ويتذكر مذاق هذه.. ومذاق تلك.. ثـم يحـاول اجترار الطعم الحلو لمذاقات أخرى لنساء أخريات مررن في طريقه الزاخر بالليالي الحمراء..

ما إن استقر على منضدة منزوية في مواجهة البحر حتى فاجأها:

- : شادى..

اتسعت عيناها دهشة..

- : ماله شادى؟..

- : بتحبيه..؟

- : ما بعرف.. ليش بتسأل؟..

- : لأنى ما نمتش إمبارح.. يا ريت ماما مـا جابـت سيرته..

- : إيش فيك أستاذ؟.. معقول تحب بها السرعة.. إنت ما بتعرفنى لجل تحبنى بها السرعة؟..

لاذ بصمت طويل.. وهـو يقصـد أن يسـتنفر طاقاتهـا العاطفية ليضع يده على حدودها تمهيداً لاتخـاذ رد الفعـل المناسب.. كان يريدها أن تتكلم إذ إن أى حديث سيخرج من فمها سيكون هو البداية لاختراق حصنها.. هـو يتعمـد ألا يعطيها أكثر من هذه الكلمات المفاجئة المكثفة.. ولأن الفتـاة قد صعقتها المفاجأة فعلاً فقد لاذت بصمت برئ.. صمت هي لا تقصد أن تفتعله.. لأنها لا تملك شيئاً أمام ضربات قلبهـا التى تكاد تسمعها..

- : إسمعى..
- : اتفضل إستاذ..
- : كلامك صح.. لازم أعرفك.. انت مش مقتنعة إنى حبيتك بالسرعة دى.. أنـا علشـانك سـبت الكليـة النهاردة.. ومش حاروح الكلية لمدة أسبوع.. وانـت كمان..
- : معقول إستاذ..؟..
- : شوفى يا ستى.. أولاً.. الدراسـة أول أسـبوع أى كلام مافيش دراسة بالمعنى المفهـوم.. ثانيـاً: لمـا الدراسة تدخل في الجد مش حيكـون عنـدك وقـت

تتفسحى وتشوفي اسكندرية.. إيـه رأيـك.. ناخـد الأسبوع ده رحلات.. نفوت على كل الشواطئ لغاية مرسى مطروح.. نفهم بعض.. وتتفسحى؟.. ومـش هتندمى.. مش حتخسرى حاجة.. وموضوع الغيـاب أنا حاتصرف فيه.. حاوصى عليه زملائى كلهم مـن دلوقت..

ثم بعد فترة صمت محسوبة:

- : فاطمة.. (قالها بحنان شديد)

- : نعم.. إستاذ..

- : أنا مش عايز أفرض نفسي عليكـي.. بـس لازم تفهمى إنى لما قابلتك لقيتك فرضـتى نفسـك علـى عمرى.. عمرى كله..

وقبل أن يسمع ردها.. قام فارداً طوله الفارع.. ومد يـده إلى يدها.. فأسلمته كفها الصغير الذي نام في راحته الدافئـة وتوجه بها إلى الحدائق..

- : حنبدأ رحلتنا من دلوقت.. نركب قارب في البحر.. لغاية ميعاد الغدا نروح نتغدى سمك في أبـو قيـر..

وندخل سينما راديو مـن تلاتـه لسـتة.. وبعـدين تروحى..

- : تيتة تقلق على..

- : الساعة تلاتة بالظبط كلّميها في التليفـون.. لأنهـا حتتوقع وصولك السـاعة تلاتـة.. عرفيهـا إنـك حتتأخرى للساعة سبعة..

وقبل أن يسمع رأيها كان قد دفسها في حضنه وهو يسير بها إلى الحدائق الممتدة وقد لف ذراعـه الطويـل فـاحتوى نصفها الأعلى في صـدره العـريض.. وراح يـذرع بهـا الطرقات المعشوشبة جئية وذهاباً.. وفي لحظة ما يقف كأنه تذكر شيئاً..

- : على فكرة.. أنا لما سبتك امبارح الضهر.. رحـت اشتريت لك كل الأدوات الهندسـية.. عنـدى فـي البيت.. بكره أجبها معايا..

الواقع أنه لم يشتر الأدوات الهندسية بـالأمس.. ولكنـه سيبتاعها اليوم.. بعد الخروج من السينما.. ولكنـه يريـد أن يقول لها إنه مارس الاهتمام بها منذ اليوم الأول.. وأنه فـي علاقته بها لا يمارس الحديث عن المشاعر ولكنـه يمـارس

الفعل.. الأداء.. التعبير بالحدث.. يكفى أنـه تـرك عملـه وطلبته من أجل التفرغ لها اليوم.. ويكفى أنه سيترك الكليـة كلها لمدة أسبوع.. من أجل حبيبته..

كانت ضرباته سريعة متوالية منظمة لم يترك فيها مجرد فرصة لصيده الجميل أن يتأمل – حتـى – شـكل الصـياد وسهامه.. وقبل أن يترنح العصفور سـاقطاً علـى الأرض سرعان ما يتلقاه الصياد من يديه في حنـان ودفء ورقـة وعطف.. فتلك هي السهام الأخيرة..

أما شخصية فاطمة.. المرحة.. اللذيذة.. الخفيفـة الـدم.. المنطلقة.. المحبة للحياة.. التى تنفر دوماً من دواعـى الهـم والكآبة فإن ما تملكه هذه الشخصية من براءة واندفاع لـم يتركها كى تجلس مع نفسها طيلة أسبوع المرح مرة واحـدة لتتأمل أبعاد شخصية هذا الشاب الذي أحاطها بأطواق الورود وأثواب الحرير وأنفاس العطور حتى أنها لم تعد ترى إلا ما يضعه أمامها من حب ومرح وشقاوة وأغانٍ ينتقيهـا دائمـاً رومانسية حالمة يظل يتغنى بها بصوته الدافئ وهي سـكرى نَشْوى على عجلة القيادة.. أو ممددة بجواره علـى العشـب

الأخضر.. أو في مواجهته على مائدة الشاى.. لقد قال لهـا وهو يختطفها ويخطف قلبها..

- : هيا بنا إلى الجنة...

وهي تعرف أن الجنان لا تسـكنها الشـياطين.. الجنـان تسكنها الملائكة والقديسون.. إذن فهى الآن في جنة من جنان مصر.. ويجاورها ملاك آسر لم يسبق لها أن رأته.. حتـى في المنام..

كانت تعود في السابعة لتهيئ له الجو أمام جدتها والخادمة أن تستقبله في العاشرة مساء.. وكان هو يعود في السـابعة ليهيئ لنفسه الجو بمكالمات تليفونية مع هدى إلى أن يغـادر في العاشرة مساء..

وفي غرفة مكتبها ذات الباب المفتوح على الصالة وعلى مرأى من الجدة المستقرة أمام جهاز التليفزيون والخادمة التى تروح وتجيئ.. راح يشغلها بالتعرف على بعض الـدروس الخفيفة.. واستعراض استخدام الأدوات الهندسية التى شكرته على اهتمامه بإحضارها لها خصيصاً وكـان الشـكر علـى مرأى ومسمع من الجدة التى بادرت بتوجيه شكر مماثل..

ولأن الخادمة تنصرف إلى منزلها بعد أن تنام الجدة فقـد عرف إبراهيم أن اختلاءه بفاطمة لن يكون إلا بعد أن تنـام جدتها.. ولأنه وقد مضى اليوم الثالث لم يأت من الفعل مـا ينم عن رغبته الدفينة.. الرغبة التى يخطط لها لامتلاك هـذا الجسد الخرافي فإن هذا التأدب لم يلفت نظر فاطمة فقط.. بل أثار استغرابها.. فهى بعد كل هذا العطـاء العـاطفى غيـر المسبوق كانت تتوقع منه لمسة من الإثارة.. أو مجرد قبلـة تتوج كل هذا العطاء الذي طار قلبها فـي أجوائـه مفعمـاً بالسعادة.. ولكن الحاجز الذي يقف عنده فجأة كلما توقعتْ أن يقتحمه لم يكن إلا حاجزاً من صنعه يسميه هو بالهدوء الذي يسبق العاصفة.. وأسمته هي الخجل أو التأدب أو الرغبة في عدم إقحام نفسه على مشاعرها كما صارحها بذلك من قبل..

والفتاة رغم تحررها ووقوعها تحت وطأة السعير الـذي يندلع رويداً رويداً في داخلها وتحاول كتمانـه.. قـررت ألا تكون هي البادئة بتقبيل أستاذها الشاب.. فأولى بها ألا تقتحم مشاعره.. مادام هو يمتلك كل هذا الحرص ألا يقـتحم هـو مشاعرها.. لقد اتفقت على ذلك مع نفسها وهى تظن أنها قد نجحت في قتل رغبتها الدفينة.. ولكنها لم تعلم أن هذه الرغبة

التى تحاول قتلها قد بدا منها في العيون ما يكفـى لأن يعلـم إبراهيم عبد القادر أن ثمرته المأمولة قد نضجت على فرعها المياس..

اقترح عليها السهر في الخارج مع فيلم وعشـاء.. نفـح الخادمة جنيهين قال لها أن تسهر مع الجدة حتى يعودا.. في المصعد عند العودة الثملة بالسهرة الرائقة حدث ما أثارهمـا فقد استقر كفه عفواً على أحد نهديها وهو يستعيد توازنه في الوقوف بجوارها بعد أن زلّت قدمه صدفة.. لحظتها أمسكت به حتى لا يقع.. ووجدت نفسها أمامه على هذا الوضع.. يده ترتكز على نهدها ويدها تضمه إمعاناً في تثبيته حتى لا يقع.. وعندما استعاد توازنه.. وقبل أن يبتعد عنها جذبتـه برفـق ناحيتها ثم طبعت على شفتيه قبلة سريعة.. كل هذا حدث في ثوانٍ معدودة.. وبما يصعب تفسيره.. فهل كان صاحبنا قـد هيأ هذه اللقطة في إخراج متقن؟.. أم أنها عثْـرة حقيقيـة جعلتهما – دون اتفاق- في تلاصق حميم.. أنهتـه هـي – باتفاق – بهذه القبلة الحميمة..؟..

حاول الانصراف بعد أن خطت إلى الشـقة ولـم تجـده خلفها.. ناداها:

- : تصبحى على خير..

التفتت خلفها لتجده مازال هناك على الباب فقفزت في هلع إليه عامدة إلى جذبه من يده إلى الداخل بإصرار فهمت منـه فتحية الخادمة التى تقف في الصالة أنه الكرم ووجوب عـدم المغادرة بهذه الكيفية كالغرباء.. أما هو فقد فهم كل ما اعتمل في داخلها من كبت وإثارة وقلق وتوتر ورغبـة ومشـاعر متناقضة ظلت تعانيها طوال الأيام الماضية..

نادت على فتحية:

- : سوى شـاهى وإتركيـه فـي البلكونـة.. عابـال ماتروش.. انتظرنى إستاذ آخد حمامى.. ما بتـأخر.. فتحية.. سوى الشاهي وروحـى.. شـكراً.. توحـة حبيبتى..

نادى هو أيضاً على فتحية:

- : إعملى شايي بحليب.. الشاي لوحده هيسهرنى وأنا عاوز أنام بدري.. حاشربه وامشى على طول..

لقد ظل كوبا الشاي – أحدهما بحليب!! – علـى حالهمـا حتى الصباح.. لتكتشف فتحية ما يمكـن أن تكتشـفه وهـي تنظف الفراندة..

لقد خرجت فتحية شاكرة أستاذ سـيدتها الأنيـق بعـد أن نفحها جنيها آخر.. وعندما أحاطه الهـدوء إلا مـن شـخير هادئ للجدة التى نامت.. تحرك ناحية الحمام ليسمع صـوت ارتطام مياه الدش بجسد غزاله العارى.. ويشم رائحة بخـار الماء الساخن المشبع برائحة الشامبو المعطر.. ويرى خيـال جسدها المرمرى يتلاعب خاف الزجاج مرتعشاً شاحباً مضبباً بالبخار المتصاعد والنور المرتعش والزجاج الناعس.. هـا هى ترفع ذراعاها تلملم بهما تـاج الشـعر المثقـل بالمـاء المتدفق.. ها هو شبح نهديها النافرين يتقافزان مع حركتهـا الدائمة تحت الدش..

ها هو الماضي يركض نحوه.. ومختلف الـروائح التـى تُذكره بمواقع الجنس في عمـره تـركض نحـوه: رائحـة شراشيب الذرة في حقل الذرة عندما توارى مـع عروسـته الصغيرة بعيداً عن الأعين.. يتذكر نظرة الهلع في عين الفتاة الصغيرة وهي ترى ذلك الشئ المنتصب في جسده.. لم تكن تعلم أن لعبة العروسة والعريس بها إشهار مثل هذا السيف.. فرت مذعورة.. لينهى هو حاجته بقبضة يده.. ها هي رائحة حقل القمح الأخضر تركض نحوه عندما تمكن مـن الفـوز

برضا إمرأة صغيرة جاءت تعمل بالأجرة في حقلهم لتفـوز منه بأجرة جديدة وإختفاء عن العيون طويلاً لأنـه أعجبهـا فناما مكتومى الأنفاس حتى يعاود معها الكرة..ها هى رائحة الطبيخ التى هي دوماً محبوسة في غرفـة عنايـات علـى السطوح.. إنها الخلفية التى تظل في خياشيمه طيلة الوقـت تمازجها تأوهات مكتومة ولكمـات التوجـع علـى صـدره العارى..ها هى رائحة البخور التى تحبهـا هـدى.. والتـى تطلقها من الصالة لتغمر الغرف ومنها غرفة نومها وسريرها الجاهز دوماً لغزوة تجذب فتاها جذباً إليها.. فلتمتزج روائح الذرة والقمح والثوم والبصل والبخور بهذا الشامبو المعطـر النفاذ.. وليشهر سيف الرغبة.. ولتتسع حدقة الفتاة الصـغيرة الهاربة.. وليكن عالمى الجديد هو ذلك البانيو الملئ بالشامبو المعطر.. ولتكن دنياي الجديدة هو ذلـك المرمـر المغلـف بالألق المعطر... نقر الباب نقراً خفيفاً خفيفـاً وراح يهمـس همساً خفيفاً خفيفاً:" فاطمة.. افتحى.. افتحى افتحى.."

لم تصدق ما تسمعه.. واربت الباب لترى وتسمع ما ظنته وهماً.. أستاذها خارج الحمام عارياً تماماً.. سيفه مشهور عن

آخره.. أزاح الباب دون عنف.. ألقت بنفسها عليـه دهشـة وإغماء..

حملها بين يديه وغطس بها في البـانيو لتـزداد فقـاقيع الصابون تصاعداً فوقهما.. ولتنفجر فقاقيع الكبت المحبـوس داخلها عبر آهات محمومة لـذلك السـيف الـذي يشـرخ أحشائها...

كانت تبكى..

ماذا تقول لأستاذها الذى فاجأها برغبته المحمومة.. وقـد كانت ستمهد له بقول صادق عن قصة سقوطها مـع شـادى حتى يتعامل معها منذ أول الأمر كإمرأة..

شادى هو الذي سلبها عذريتها..

شادى هو الذي عاود معها حلقات الجنس كلمـا راق لـه ذلك.. لا كلما راق لها هي ذلك..

شادى الذي تعود أن يفرغ منها بسرعة.. ويهرب.. فكـل لقاءاتهما كانت مسروقة..

شادى الذي لا تراه - الآن – لم يكن رجلاً.. وإنما كـان إبهاماً تافهاً ينتفض برغبة طارئة ثم ينام..

شادى الذي تركزت عليه نقمتها الآن.. لأنه حرمها فرحة أن يكون فتحها عظيماً.. بهذا السيف العظيم.. سيف يمخـر عباب البحر ليصل إلى عمق الأعماق.. سيف محاط بهالات السحاب.. سحاب معطر يحيط جسديهما.. سحاب يفور مـن قاع البانيو.. ويعلو.. يعلو.. ليغمر لون اللحم فـي الأجسـاد ويخفيه تماماً.. ويبدى وهج الرضا في العيون ويعلنه تماماً..

أيتها الأسكندرية..

يا ذات البحر الكبير...

يكفينى منك.. هذا البانيو الصغير..

- ١٤ -

كان كل ما يخشاه إذا واظبت هي علـى الحضـور فـي الأسبوع الأول أن تسمع عن مغامراتـه وشـقاوته ويتبـرع بعضهم بنصيحتها أن تبتعد عنه.. فهو ليس معيداً كما قـال لها.. ولكنه مغامر يحب النساء..

تجاهل أى حديث وتبرير يصدر منها عن كونها لم تكـن عذراء.. كان لسان حاله يقول لها: " لا يهم ".. ولكنـه فـي داخله مقهور.. حزين.. فمتى يتاح له أن يكون هو أول فاتح للقلعة التى يحبها..

عنايات.. أخذها عن زوج سابق وكذلك هدى.. المحاولـة الوحيدة التى كاد أن ينجح بها هي محاولته التى فشلت مـع حنان.. فشلت الغزوة.. وطردوه..

ثم يعود فيتلمس مذاق فاطمة في كيانـه.. ويهتـف: وا حتى لو كانت بغياً.. إنها شئ لا يقارن.. لقد كنت أحتضـن حلماً.. ولن يغادرنى هذا الحلم..

رسم على وجهه علامات الصدمة.. وانتظر أن تأتى هي بفعل ما.. أي فعل.. ولم تجد ما تفعله المسـكينة سـوى أن تتكلم وتتحدث.. وتثرثر.. فهى التى ساءها أن يتحول منزلهم

إلى جحيم في بيروت.. على يدى أهل أمها.. وأهل أبيهـا.. ثم ساءها أن يجد أبوها الزوجة المناسبة وتجد أمها الـزوج المناسب ويحدث ذلك في وقت قصير.. وسـاءها أن تكـون ضيفة: عند أهل أبيها تارة.. وعند أهل أمها تارة أخرى.. ثم عند زوجة أبيها تارة وزوج أمها تارة أخرى.. وكرد فعـل لذنبٍ راح يتحرك في قلب والـديها كانـت فكـرة غمرهـا بالأموال والهدايا والملابس تفرض نفسها عليهما في تنـافس على إرضائها..

وعندما وجدت نفسها تتمتع بكل هذه الحرية انطلقت على سجيتها لتسجل في ذكرياتها حياة عريضة من اللهو والمـرح والانطلاق الذي واكب سنوات المراهقة.. وأصبحت شقاوتها مع الأولاد أمراً لا يثير شبهة السقوط قدر ما يثير خـواطر الرضا بسعادتها ونسيانها مرارة التفكك الأسرى الذي فرض نفسه عليها..

لقد أخفت عنهم سقطتها مع شادى.. وأخفت عنهم الوقـت الذي تختلسه لتنعم معه بتلك اللذة العابرة التى يقطفانهـا ثـم يهرولان..

وعندما تمكن شادى من إقناع والده أن يخطبها له تواكب ذلك مع ظهور قصة انتقال زوج أمها إلـى سـفارة بـلاده بالقاهرة.. فجاءت للأم فرصتها أن ترفض هذه الزيجـة وأن تفلت بابنتها إلى القاهرة..

إنها الأحداث التى تعرف إبراهيم على جانب منها.. ومـا تفعله فاطمة لا يعدو أن يكون سـرداً لا يصـل إلـى حـد الشكوى.. ولما لم يحرك ذلك ساكناً في وجه إبراهيم الـذي مازال مرتدياً قناع التأفف والصمت.. راحت الفتـاة تمهـد لحديث عن شئ ينغص حياتها وتخشى أن تفصح به أمامه.. ولكنه بكل رزانته المرسومة أشار لها ألا تخشى الإفصاح.. فعل ذلك وهو لا يتوقع أكثر من حديث آخر يمتد مع الحديث الأول حول نفس الأحداث.. ولكنها عندما همست بينها وبين نفسها بصوت مسموع:

- : زوج أمى..

تحركت خياشيم الإثارة في نفسه.. فاعتدل فـي جلسـته موحياً لها بأنه كله آذان صاغية.. ليتعرف بعد قليـل علـى ذئب إفريقى آخر حاول اغتصاب بنت زوجته في غيبة مـن

أمها.. ولما لم يتمكن منها ركع تحت أقدامها أن تحتفظ لنفسها بهذا الحادث الذي وقع فيه رغم أنفه تحت وطأة الخمر..

وكان لابد لها أن تحتفظ بهذا السر.. فحياتهـا وأمهـا لا تحتمل معركة جديدة يهدم فيها ذلك المنزل الجديد.. ولكنهـا ظلت في حضن الخوف حتى تمكنت في خلسة منهم أن تضع رغبتها الأولى بجامعة الاسكندرية لتبتعد عـن تلـك الفـيلا الرائقة التى تضم في جنباتها ذئباً أسود يرفعون لـه التحيـة الدبلوماسية صباح مساء أينما دخل وأينما خرج..

ها هي كومة الأحداث المتراكمة تلقى بنفسها بين يديـه.. وها هو يتأملها بلعاب يسيل.. وقد أوصله تأمله إلى إشـارة تعلو فوق سطح الأحداث النائمة.. إشارة تقول إنه قد عثـر على فتاة بريقها هو الجمال الظاهر.. وحقيقتها هـو الحـزن الدفين والخوف الواعر.. فتلك الفتاة التى لا يبدو فيها ما ينم على أنها تعانى من نقص ما لا يبقى إلا أن تعلن بنفسها عن حاجتها إلى بطل.. بطل يأخذ بيدها ويحميها.. هذه الفتاة التى تبدو متكاملة يشع منها العز والسعادة.. ينقصـها الكثيـر.. وأول ما ينقصها هو الرجل الأمان..

وذئبنا اليافع لم يفُته أن يتلمس في حديثها تلـك الـدعوة الصريحة في معايشة ترغبها منه.. أو ترغبها معه.. فبعد أن نالها في واقعة محمومة بالجنس الهادر لم يبق بينهما ما يمكن إخفاؤه..

- : لو اتجوزتك.. حتدخلى في مشاكل؟..

أجابت بهدوء:

- : حتى لو دخلت فْ مشاكل..

وفي طريقهما إلى المأذون همست له:

- : بتقدر تتغلب على الماضي حقى؟..

أجابها فوراً:

- : شهادة ميلادك وميلادي.. هـى عقـد جوازنـا.. النهاردة.. كل واحد مننا مولود النهاردة.. مافيش حد فينا يسأل التانى عن ماضيه..

وعند عودتهما من مكتب المأذون قال لها:

- : عندك استعداد تسمعى النكته دي..؟

- : نكتة؟.. شو.. باحب كتير النكت المصرية..

رفع عقيرته بضحكة عالية:

- : الحقيقة هي مصرية ميه في الميه..

استعجلته:

- : قولها.. قولها إبراهيم..

قال لها بلهجة جادة:

- : أنا كمان عايزك تنسى الماضي بتاعى..

- : إنت لك ماضي..؟

- : أيوه.. أنا كنت معيد بقسم العمارة.. بس دلوقت أنا تلميذ في سنة تانية عمارة.. يعنى أنا زميلك في نفس القسم.. بس سابقك بسنتين.. سـنتين بـس.. يعنـى ضحكت عليكى..

فضغطت على الفرامل بقوة وبلا إرادة ليرتج جسده بقوة.. ويتمايل عليها.. ثم يجذبها إليه بحنان لينام رأسـها الصـغير على صدره.. وما إن يبعدها قليلاً ليتأمـل وقـع (النكتـة) عليها.. حتى وجدها تنفجر معه في ضحك هستيرى طويل..

- ١٥ -

هو تلميذ في منتصف رحلته الجامعية ويمتلك منـزلين.. بكل واحد منهما زوجة جميلة.. لا يعانى شظف العيش مثلما يعانيه أكثر من نصف دفعته من الطلبـة.. لا يحمـل همـاً لشئ.. ولكنه حريص أن يتفوق في كل شئ.. فـي علاقاتـه الزوجية.. في دراسته.. في نشاطه الطلابي.. فـي إطـلاق الفرحة والدهشة حوله أينما تحرك.. ولكن سرعان ما يأخـذه العبوس عندما يلتقى بي أنا وحنان.. فهو لم يكن يتمنـى أن يكون داخل هذا الحرم المترامى من يعرف حقيقة ماضـيه.. ومن يعرف حقيقة حاضره.. قالت حنان:

- : كويس إنه حاسس قدامنا إنه على راسـه بطحـه.. عشان يبعد عنّنا.. ويشيلنا من دماغه..

ولكنه لم يشأ أن يبتعد قبل أن يسجل كلمته لنا بالطريقـة التى يحبها.. فعندما دخلنا إلى منزلنا ذات يوم بعد عودتنا من الكلية نظرنا ذاهلين إلى باقة كبيرة من الورد تحتـل مكانـاً بارزاً فوق المائدة التى تنتصف الصالة.. وعليها مظـروف كبير فتحناه لنجد هذا الخطاب الموجه إلينا من إبراهيم..

حنان بنت خالى..

كرم ابن خالتى..

اخترت هذه الطريقة للحديث معكما.. ولم أنـس أن أزف لكما تهنئتى بالزواج عبر هذه الباقة من الورد.. لتتأكدا أننى سعيد بارتباطكما.. وأرجو أن تستمر هذه السعادة خاصة إذا ما توفر لكما شئ هام يجب أن تحرصا عليه.. هذا الشئ هو أن تتمسكا بنسيانى.. أن تعتبرانى شخصا قد مات.. فأنا أعلم أنكما تعرفان كل أخبارى.. وكل أسرارى.. وأنـا عـادة لا أحرص على أن كتم أسرارى إلا إذا كان البوح بها فيه تدمير لحياتى.. ومن المؤكد أنكما تحرصان علـى ذلـك أيضـاً.. أقصد: "سوف " تحرصان على ذلـك أيضـاً.. وباختصـار شديد.. أنا أحب زوجتى هدى بنفس حبى لزميلتـى اللبنانيـة فاطمة التى هي أيضاً زوجتى كما تعلمون..

وحتى الآن فأنا سعيد بهما.. وبكل من حولى إلا إذا رغب من يرغب في تدمير هذه السعادة.. فمـن المؤكـد أن هـذا التدمير سينقلب على صاحبه..

وكلمة أخيرة لكرم.. هذا الخطاب سوف أتسلمه منك غداً في العاشرة صباحاً عنـدما أزورك فـي أتيليـه التصـميم المعمارى.. فليس من المهم أن يظل هذا الخطاب معك.

(إبراهيم عبد القادر)

تبادلنا النظرات في ذهول.. ورحنا نتفقد الشقة ونـتفحص الأشياء.. ارتجفت حنان وأخذتها نوبة بكاء.. وراحت تهذى " إبراهيم لن يتركنا في حالنا.. إبـراهيم يهـددنا بالتـدمير.. إبراهيم لو انكشف أمره فسوف يتهمنا نحن بمطاردته.. مـن الممكن أن نؤخذ بذنب غيرنا.. إبراهيم مجرم ويسـتطيع أن يفعل أي شئ.. كيف دخل هنا؟.. وكيف خرج؟.. مـا هـذه التمثيلية السينمائية؟.. ألم يكن يكفيه أن يبلغنا بتحذيراته وجها لوجه وبشكل بعيد عن هذه الطريقة البوليسية؟.. "

تركتها تهذي.. وانتحيت ركناً في الصـالة جالسـاً مـع نفسى..

باقة ورد؟.. وأخيراً رددت لي الباقة الساذجة التى أرسلتها لك أيام الطفولة؟.. من أنت يا إبراهيم..؟.. ما الذي تبحـث عنه يا ابن خالتى؟.. لماذا تحاول أن تؤكد باستمرار أنك قـد مت.. وأنك غير موجود على قيد الحياة؟.. هل تريد القـول أنك أصبحتَ شيئاً آخر؟.. شخصاً آخر؟.. وما الجديـد فـي ذلك؟.. فأنت هكذا منذ أن عرفناك.. شخص آخر.. شـخص مختلف.. إذا غاب عنك أن تؤكد ذلك بقـول جديـد فأنـت

الحريص دوماً أن تؤكده بفعل جديد.. أقنعتنى أن أتزوج من حنان.. ووجدت أنك عبقري في فكرتك.. فلقد غير ارتباطى بحنان مسار حياتى.. إننى أحمل لك فضل سـعادتى لأنـك أشرت لي على مكانها.. كنت جامداً بارداً لا أتحرك وعندما مددتنى بشرارة من كهرباء عقلـك تحركـت الحيـاة فـي أوصالى.. والآن.. ما الذي يجعلك تخاف منا؟.. هـل لأننـا أشباح من ماضيك الغابر الذي تدوس عليه باستمرار وتسحقه بأقدامك أولاً بأول..؟ من منا يخشى الآخر..؟.. أنحن الـذين نخشاك؟.. أم أنت الذي تخشانا؟.. هل تظـن أننـا سنصـنع وقيعة بينك وبين زوجتيك..؟ سأنتظرك يـابن خـالتى فـي الصباح.. لن أعطيك الخطاب الذي تخشى وجوده معنا فقط.. بل سأعطيك الأمان.. حتى تعطينا الأمان.. "

لمحته قادماً من بعيد.. فعمدت إلى جاكـت بـدلتى المعلق على كرسى بجواري فارتديته ثم تحركت حتى أقابله عند الباب.. كان الخطاب يبرز من جيب الجاكـت.. نزعـه بيده اليسرى بينما كانت يمناه تصافحنى.. وضعه في جيبـه بينما تختال على محياه ابتسامة غامضة..فهـم أننـى أريـد التحدث معه.. سار بي في الاتجاه الذي يريده..

- : حنان انهارت امبارح..

- : انتو فهمتوا مغزى الجواب..؟..

- : فهمناه.. بس ليه انت فاكر إننا ممكن نبقى أعداء؟..

- : أنا مش حامل هم نفسي.. أنا ما يهمنيش نفسي زي ما أنت عارف.. بس لو هدى عرفت حتموت.. ولو فاطمة عرفت هدى.. حتحتقرني.. واحتقارى معناه الموت بالنسبة لي.. قلت أحذركم.. وأفكّركم بأن أنا.. ميت.. خلاص يا كرم.. روح شوف شغلك..

ثم صافحني بسرعة حتى ينصرف.. وما أن أدرت له ظهري لأنصرف في عكس اتجاهه حتى ناداني لأقترب منه وهمس لي:

- : بطّل تسيب المفاتيح في الجاكت بتاعك وتعلقه على الكرسى.. أى حد ممكن ياخد المفاتيح ومايرجعهاش تانى..

ثم لكزني بحب في كتفى.. واستدار وابتسامة النصر تحتل كلّ ملامح وجهه القوى الجميل..

- ١٦ -

كان قد وصل إلى البكالوريوس ووصلنا نحن مثل فاطمة إلى السنة الثانية قبل أن تعرف سيدة الأعمال اللبنانية قصة ابنتها مع إبراهيم.. فالصدفة وحدها هى التى جعلتها تطرح بامتنان اسم إبراهيم عبد القادر ذلك المدرس المهذب لابنتها أمام أحد أساتذة كلية الهندسة الذي التقت به في عمل يخصها..

ابتسم الأستاذ واستفسر منها عن مصدر معلوماتها عن إبراهيم.. ليكتشف أن إبراهيم قد مارس عملية نصب متقنة واف حبائله حول بنت هذه السيدة.. فأحجم عن الإدلاء بحقيقة الأمر أمامها حتى لا يصدمها.. فهو يسمع مثل كثيرين أن إبراهيم وفاطمة زوجان.. وتلك معلومة تتأرجح ما بين الإشاعة والحقيقة.. ومع هذا فقد آثر كسباً لود هذه الأسرة ولتوطيد علاقته بالسفير زوج الأم أن يهمس له- على انفراد - بماديه وحتى لا يتهم فيما بعد أنه تستر على علاقة غير طبيعية بين اثنين من تلامذته..

ومن خلف ظهر الأم تعرضت فاطمة وعلى مرأى ومسمع من الطلبة لفضيحة مدوية عقدها زوج أمها في مكتب عميد الكلية.. فقد حضر على غير انتظار تصحبه هالة لامعة من السيارات الدبلوماسية السوداء والحراس المتمنطقين بالسلاح وأغلق الباب في اجتماع ثنائى بينه وبين السيد العميد لمدة طويلة تساءل الطلبة القريبون منهم وطاقم التدريس بشغف عن هذا الفيلم الذي يدور أمامهم..

وعندما أرسل العميد في طلب إبراهيم عبد القادر وفاطمة معروف بدأت التكهنات تدور.. وحلقات النميمة تنعقد.. ولما لم يكن إبراهيم في فصل دراسته.. ولا فاطمة أيضاً في فصل دراستها تصاعدت حماقة السفير الأسود وطلب التعرف على عنوان مسكن هذا الطالب.. ولسبب لا يعرفه سوى إبراهيم نفسه كان عنوانه المسجل بالكلية هو مقر المكتب الذي يدير منه أعمال زوجته هدى وليس عنوان مسكنهما.. فمن المؤكد أنه قد آثر الاحتفاظ بعنوان المسكن في مأمن من أى رياح تأتى في عكس الاتجاه المطلوب.. ولكنه وعلى غير ما كان يأمل سجل عنوان مكتبه مما سمح لقافلة السفير السوداء اللامعة أن تتحرك في اتجاهها المطلوب ناحيته..

لم يكن – أيضاً – في مكتبه.. إلا أن السـفير المحـتقن الوجه احتل كرسيه في غرفة مكتب غريمه إبراهيم ومعه نفر من مساعديه.. بينما جلس الحارسان في الصالة في مواجهة السكرتير..

تململ السكرتير - الذي فوجئ بهذه الحملة -.. في مقعده ولأنه لا يعلم شيئاً عن مكان صاحب العمل.. ولا يعلم حتـى تليفون مسكنه فقد تسلل إلى باقى الموظفين في مكاتبهم لتنعقد حلقة منه ومنهم انضم إليهم فيها عامل البوفيه أيضاً وراحوا يتساءلون ويفكرون.. ولأنهم وتبعاً للسياسـة التـى رسـمها إبراهيم لسير العمل لا يملكون الاتصال بالسـيدة هـدى ولا يعرفون أى وسيلة اتصال بها فقد أُسقط في أيديهم ولم يحرك أحدهم ساكناً إلا عامل البوفيه الذى يحـاول - فـي حركـة بندولية من البوفيه إلى غرفة المدير مـروراً بالصـالة – أن يضفى جواً من الود حتى لو بدا مصطنعاً.. إلا أن محاولاته لم تلق استجابة أو قبولاً من كل الأطراف بمن فيهم موظفـو المكتب..

كانا في شقتيهما الصغيرة المفروشة المطلة على شـاطئ ستانلى.. وكانت قد تمكنت بمساعدته من عمل هـذا العـش

الصغير الأنيق المرتب ليأويا إليه استجابة لنداء الجسد كلمـا علا داخلهما هذا النداء.. وهو إذا قلنا نداء فاضل لا يقـتحم الغرائز ويسرى إلى الناس – في الغالـب – إلا لـيلاً طلبـاً للتحشم والسكون.. إلا أنه في حالة إبراهيم وفاطمة لم يعـد يسرى إليهما إلا نهاراً كأنه شاركهما طلبهما للأمان والتستر من عيون لا يجب أن تعرف سر هذا الزواج: عيون هدى.. والأم.. والسفير.. وشادى.. وكل من له رغبة فـي امـتلاك أحدهما..

كانت تلقى برأسها على صـدره العـاري.. عنـدما رن التليفون.. استدارت لتأتى بالسماعة فانحسرت الملاءة عـن جذعها العاري.. عادت إلى صدره بيد تعبـث فيـه واليـد الأخرى تحمل السماعة.. وتركت المـلاءة فـي انحسـارها التلقائي لتكشف عن وضع جديد لهذا الجسد المجنون.. كانت تعرف المتحدثة.. فهى لم تعط سرها ورقم هذا التليفـون إلا لصديقتين.. وتلك إحداهن.. ظلت تسمعها بهدوء واهتمـام.. ولم يصدر منها عند تلقى حديث الطرف الآخر ما ينم عـن انزعاج وهلع.. إلا أن إبراهيم أحس برائحة خطرة تبدو من هذا الهدوء وذلك الاهتمام الذي تواجه به فاطمة صـديقتها..

فلقد تعود أن تكون محادثتها مع هذه الصديقة مفعمـة دائمـاً بالضحكات الرنانة والتعليقات اللذيـذة الموحيـة بالشـقاوة والاسقاطات الغرامية التى تثير ضحكاته عن بعـد لأفعـال وجرأة الفتيات..

هو هنا يراها جادة.. متجهمة.. مهتمة.. ترنو إليه بعـين التأمل لحظة ثم تسرع فتخفى نظراتها عنه.. وما أن انتهـت من محادثتها ووضعت السماعة بهدوء.. حتى جلسـت فـي مواجهته بنصفها الأعلى العاري تماماً.. وقد راحـت تكـوم وتضم الملاءة حول نصفها السفلى..

راحت تحكى له عن زيارة زوج أمها للكلية منذ ساعات.. وأنه أتى بحملة من رجاله لعمل تحقيق داخل مكتب العميـد حول تورط ابنة زوجته في الزواج من طالب نصـاب مـن خلف ظهر أسرتها.. وأنه اتجه إلى مسكنه بعـد أن حصـل على العنوان من شئون الطلبة..

كان يسمعها وهو يتجه إلى الحمام ويقف تحـت الـدش.. ويتلقى بعض الماء المنعش ويرتدى الغيار الداخلى الطازج.. ويعود إليها مستمعاً ومرتدياً بدلته الكاملة.. وما أن انتهت من

سرد ما لديها حتى طلب منها أن تسرع بالاستحمام وترتـدى ملابسها..

جلس إلى التليفون بهدوء وطلب مكتبه.. همـس لعامـل التليفون ألا يعلن أنه هو المتحدث.. وراح يسأله أسئلة منتقاة لا يعوزه من العامل رد عليها إلا كلمتين نعم.. أو..لا.. ثـم طلب منه بعد أن يضع السماعة أن يعلن للطاقم أن المتحدث كان إبراهيم وأنه في القاهرة وسيعود الثامنة مساء.. وأنه لم يعطه الفرصة ليفهمه أن هناك ضيوفاً في انتظاره..

وهكذا قام إبراهيم بتحريك ضيوفه خارج مكتبه وهذا مـا يهمه في الأمر فربما تفاجئة هدى بإحدى زياراتها المفاجئـة والتى تأتى على غير انتظار فتجدهم أمامها.. وتفهـم مـا لا يجب هى أن تفهمه عنه..

بعد دقائق عاد فطلب المكتب.. ليفهم أن الرجل الضـخم الأسود خرج يبرطم بكلمات غير مفهومة.. وخلفه الرجال.. وأنه وعد بالحضور ليلاً.. وهنا أصـدر إبـراهيم أوامـره بإغلاق المكتب والانصراف فوراً.. واعتبار يوم الغد أجـازة مدفوعة الأجر.. وأن توضع ورقة على بـاب الشـقة مـن الخارج تفيد أن المكتب في أجازة للسفر إلى أسـوان لتقـديم

واجب العزاء في والد الأستاذ محمود الهيتمى مدير المخازن..

فقال له السكرتير:

- : بس احنا يا فندم ما عندناش الاسم ده.. والوظيفة دي..

- : أنت اللى حمار.. هو مدير المخازن لازم يقعد معاك.. هو دايماً قاعد في المخازن يا فندى..

ويحاول السكرتير أن يتذكر أين هي المخازن ولم تسعفه ذاكرته.. فهمس لزميل له متسائلاً:

- : هو احنا عندنا مخازن؟..

فصاح فيه وهو يغلق أدراج مكتبه استعداداً للانصراف:

- : ننيل بيها إيه؟..

ولما كتب السكرتير الورقة أمامهم وعلقها على الباب.. هتف له زميله:

- : ربنا يشفيك.. ما قلت لك يا بنى مافيش عندنا مخازن..

فرد عليه فوراً:

- : وهو يعنى فيه عندنا محمـود الهيـاتمى.. مـدير المخازن؟..

ونزل الموظفون سراعاً على السلم لينعموا بأجازة - اليوم وغداً - أجازه لم تكن في حسبانهم وقد تركوا خلفهم لافتـة تبرر سبب هذه الأجازة.. ذلك التبرير الذي ظلوا يناقشـونه طيلة الوقت بينهم وبين أنفسهم دون جدوى في العثور علـى تفسير مقنع..

وفي الجانب الآخر هبط إبـراهيم وفاطمـة السـلم سراعاً.. هو يقبض على كفها داخل راحته ويجرى بها نحو السيارة وهي تجرى معه ولا تعلم إلى أين يريـد أن يتجـه بها..

وما أن هدأت أنفاسهما داخل السيارة حتى أمرها:

- : لازم نكون في القاهرة بعد ساعتين..

وانطلقت بهما السيارة.. وانطلق هو يرسم لها الخطة..

في بادئ الأمر أفهمها أنه كزوج لها كان يهمه أن يظـل معها كظلها طيلة الوقت الذي تقضيه في القاهرة كـل عـدة أسابيع للاطمئنان على أمها.. لأنه ببساطة شديدة يعلم أنهـا وهي المرغوبة من زوج أمها ذلك السفير الذئب لا يضمن أن

تتفق رغبتها مع هذا الرجل.. وتقع زوجته في بئر الخيانـة رغماً عنها أو... بمزاجها..

احتجت على ما يقوله بغضب دفعها إلى نوع من التهـور بدا عليها وهي تنطلق بالسيارة.. فراح يهدئ مـن روعهـا ويطلب منها أن تلتمس له العذر فيما يقوله لأنه يحبها.. ثـم عاد بهدوء ليدلل على صدق تحليلاته ويسألها عن السر فـي إصرار هذا الرجل أن يخلّصك من حبيب أو زوج سـمع - أنك تعلقت - به.. فجاء بكل رجاله قائداً لتلك الحملـة التـى بدأت من مكتب العميد.. وانتهت نهاراً في مكتبنا.. وسـتمتد ليلاً أمام العمارة عندما يجد المكتب مغلقاً وعليه لافتة مشوار العزاء الوهمى..

هذا الرجل يا فاطمة إما أنه قد نالك واستمتع بـك وجـن جنونه بسببك. فتحركت كل قواه العقلية والجسدية في سـبيل تخليصك من شخص ما يزاحمه فيك.. وإما أنه مازال يحاول أن ينالك.. ومازال لديه الأمل في هذا.. وبات أملـه مهـدداً بظهور شخص سمع أنك تعلقت به أو تزوجتـه.. فقـرر أن يحطم هذا الشخص.. حتى إذا استدعى الأمر تحطيمك معه..

كانت تتميز غيظاً وهي تقود السيارة مسـرعة إلـى القاهرة حيث طلب منها إبراهيم ذلك.. دون أن تسأله:" لماذا القاهرة؟ ".. أو:" لنؤجلها إلى الغـد ".. لا.. لا تسـتطيع أن ترفض أو تسأل لأنها تعودت أن تتخلى عن إرادتهـا تمامـاً أمام مطالبه..قالت له إنها تلتمس له العذر لأن هـذا الرجـل اختار أشد الحلول حماقة لمعالجة موقف بنت زوجته.. وهذا الحل هو الفضيحة.. والفضيحة لن تطولها فقط بل سـتطوله هو أيضاً.. ولـه الحق أن يحتج.. وهنا سألها عـن حـدود الاحتجاج الذي ستظهره هي كامرأة.. مادامت تعطيه الحـق في الاحتجاج.. وهو الرجل.. لم تفهم ما يقصده أو ما يصبو إليه أو ما يحاول توجيهها إليه.. فبدت عليها الحيرة.. وكـان سؤالها الذي لم تنطق به:" ماذا أفعل؟.." قالته برأسها الـذي راح يهتز في حيرة.. وعينيها اللتين بدتا غارقتين في الهـم والتساؤل.. وفي هـذه اللحظـة قـرر إبـراهيم أن يطلـق رصاصته..

راح يهدئ من صوته.. وينظر أمامه فـي ثبـات.. ويتحدث دون أن يلتفت إليها.. كأنما يتحدث فقـط لنفسـه.. هكذا بدا وهو يقول.. " هذا الرجل جـاء إلـى الاسـكندرية

ليربطنا بحبل واحد.. حبل الفضيحة.. ويزفنـا عرايـا فـي الشوارع... والآن ومادمنا عرفنا مدى نذالته ووقاحته يجـب أن نطوف به نحن في القاهرة وهو مربوط بسلسلة حديدية.. سلسلة الفضيحة.. لا.. سلسلة الجريمة.. فضـيحة وجريمـة الزوج الذي تسلل من مخدع الزوجية ليلاً إلى فتاة بريئة هي بنت زوجته ليسلبها عذريتها في بيروت.. ثم يعاود اغتصابها في القاهرة.. الفتاة التى وجدت نفسها في العار رغماً عنها.. ولم تستطع أن تصرخ طالبة النجدة لأن نجدتها هـي كفتـاة توازي تدمير حياة أمها ذات التجربة الفاشلة مع زوج سابق.. هذه الفتاة تعلمت لعبة الخداع والإيقاع بالرجال في حبائلهـا وتمكنت من الإيقاع بإبراهيم في لحظة تهريج قام بها متقمصاً دور المعيد.. وهربت به من العالم أسـبوعاً كـاملاً انتهـى بزواج سريع بدا في ليلته الأولى كأنه مأتم حـزين عنـدما اكتشف إبراهيم أن فتاته ليست عذراء.. ليلتها ركعت تحـت أقدامه.. وتوسلت إليه أن يحتفظ بسرها حتى لا تدمر حيـاة أمها التى جلبت كل أموالها من لبنان لتستقر في القاهرة مـع هذا الزوج الذي يبدو أمامها دائماً بريئاً وتقياً وشهماً.. "

كانا قد وصلا إلى الرست هـاوس.. فتمهلـت ثـم انعطفت يميناً.. وهبطت من السيارة متوجهة إلى الكافتيريـا في صمت حائر لا يحمل سوى كلمة لم تقلهـا:" إتبعنـى ".. وكان بالطبع يتبعها وهو يعلم أن رأسها تدور من هول مـا طرحه أمامها من مؤامرة ضد ذلك الحيوان الأسود الذي جاء يخطفها ويهرب بها بحصانه الأكثر سواداً..

واجهته على المائدة بهدوء.. أمامهما فنجانا القهوة.. هـي تشد أنفاساً عصبية من سيجارتها.. وهو هادئ وديع لا يمسك بسيجارة لأنه يكره التدخين.. أفهمته أنه يعالج الأمر بطريقة متخلفة وأنه قد فقد ذكاءه الفطرى.. ذكاءه الريفـي الخبيـث المتآمر في هذه الدراما الزاعقـة.. درامـا مفجعـة تجلـب السخرية قبل أن تجلب الدموع والبكاء:فليست هناك فتـاة – لأى سبب – تُبقى على مغتصبها ونازع بكارتها ليظل أمـام عينيها كل هذا العمر لينالها إذا شاء وقتما يشاء.. ليست هناك فتاة هكذا.. " على الأقل لا أتمنى أنا أن أكون هذه الفتاة التى ترسمها لي.. بل أتمنى أن أقتلها لو رأيتها أمامى.. "

إستسخف سيناريو مؤامرته العبيطة.. لأنه الآن فقط أحس أنها مؤامرة عبيطة.. وبدلاً من ارتداء قناع التعالى والمكابرة

الذي يمنعه من طلب المشورة.. أسرع فارتدى قنـاع البلـه والتواضع وراح يسألها:" ما الذي سـتفعلينه؟.." هـو يهمـه النتيجة.. والنتيجة التى يريدها هى فضـيحة هـذا الرجـل وتوريطه فيما كان يفكر فيه من ضرر لها.. ولن يكون هـذا الضرر متمثلاً سوى في شئ واحد – بجانب الفضيحة – هو إجبارهما على الانفصال.. أكدت له أن زوج أمها لم يحـاول اغتصابها بعد المرة الوحيدة التى فشل فيهـا.. ذلـك لأنهـا تعمدت بعد ذلك أن تقضى معظم الوقت ملتصقة بأمهـا ولا تهيئ له فرصة من أى نوع للاقتراب منها.. ولكن هذا ليس معناه أنها لم تعد تقرأ في عينيه رغبته المتوحشـة فـي أن ينالها فتجاهلت كل ما يفعله من تودد لها واهتمام بها.. اهتمام وتودد كانت تقرأهما الأم بطريقة بريئـة.. وتقرأهمـا هـي بطريقتها التى تملك مبرراتها والتى لا يمكن أن تشـغل الأم لحظة واحدة..

وجدها لا تفكر فيما يفكر فيـه.. وأن مؤامرتـه لفضـح السفير التى أسمتها دراما زاعقة استبدلتها بفكرة ساذجة وهي أنها ستضع أمام أمها حقيقة الواقعة القديمة لمحاولة اغتصابها وتعترف لها أنها اختارت الاغتراب في الإسكندرية بمحـض

إرادتها لتبتعد عن هذا الذئب الذي تلاحقها عيناه النهمتان أينما ذهبت وأينما تحركت أمامه في الفيلا..

وافقها على ذلك شرط أن يأتى هذا التقرير المفاجئ لأمها عن زوجها في شكل محضر شرطة.. محضر تحرش جنسي.. وهو لم يهبط بها إلى القاهرة مسرعاً إلا لعمل هذا المحضر.. حتى تصل الفضيحة إلى أذن السفير قبل عودته من الاسكندرية.

فهمت فاطمة للتو أن إبراهيم قرر الانتقام من السفير وأنه يجهز له ورقة ضغط مرعبة قبل أن يقابله.. وأنه يجهز في الأصل خطة دفاعية ضد خطة السفير الهجومية.. وخطة السفير مقروءة من الآن وتتمثل في إجبار إبراهيم على طلاق فاطمة إذا ثبت أنهما قد تزوجا بالفعل.. ثم تحويل أوراقها إلى جامعة القاهرة..

لقد سعدت فاطمة بالجانب الذي رأته إيجابياً في حملة إبراهيم ضد زوج أمها.. فها هي تراه متصدياً لمحاولة انتزاعها منه.. إذن فهو يحبها حباً حقيقياً عميقاً يتمنى له أن يطول بطول حياتهما.. وقد كانت قبل الآن تخشى أن يكون ارتباطه بها ارتباطاً مؤقتاً ربما يكون عمره الافتراضي عنده

مرهون بموت رغبته في أن ينالها بشغف دائم.. فقـد كـان يشغلها أحياناً أنه يقدم عليها إقـداماً بـارداً لـيس كإقدامـه المحموم الذي تعودته منه.. حتى أنها كانت تتسـاءل بينهـا وبين نفسها إن كان في حياته امرأة أخرى.. ثم تراه أحيانـاً مقيداً بمواعيد لا تتعلق بمتطلبات الدراسة ويختفى يومـاً أو بعض يوم دون تبرير لسبب اختفائه.. وإذا عاد بعـد هـذه الغيبة يعود منطلقاً مشعاً بالبهجة سخياً كريماً وهو يختار لها صالات العشاء الفخمة..

لقد فسرت هذا التناقض فيه إلى شخصية الفنان الفوضوي التى تعيش في داخله.. أو المعماري المتوتر الذي لا تلمـح الخط الفاصل بين جنونه أو عبقريته.. واتفقت مع نفسها أنها لا يجب أن تشغل نفسها بمناقشة شخصيته الهادرة قـدر مـا يجب أن تتمتع بكل ما يصدر من هذه الشخصية من سخونة دائمة أو برود طارئ، أو ما تراه فيها من وضـوح تـام أو غموض مفاجئ.. أو ما تلسمه أحياناً من إقبال جـامح فـي سرير الرغبة أو أداء روتينى يؤديه تبعاً لما يراه في عينيهـا من دعوة.. كل ما تتمناه أن يكون حبه لها بحجم حبها لـه..

وأن يكون قد اتفق مع نفسه أن يتمسك بها مدى الحياة مثلمـا اتفقت مع نفسها على ذلك..

وها هي واقعة الهجوم عليه لسلبها منه تشى بمـا كانـت تتمناه.. أو تتمنى أن تلمسه في شعوره بها.. إنه يخطط بشكل جهنمى للذود عن حياضه وطالما أن ما يفعله لا يحمـل إلا ذلك الهدف السامى الذي كانت تبحث عنه فيجب أن تتـرك نفسها طواعية ليحركها كيف يشاء لتحقيق هذا الهدف..

وأمام نيابة قصر النيل كان وكيل النائب العام وهو شـاب مرح يتابع محضراً محرراً من زوجين تسجل فيه الزوجـة تضررها من حالة تحرش جنسى مكررة تواجهها مـن زوج أمها.. ولم يكن خافياً على وكيل النائب العام أن هذه القنبلـة التى يفجرها هذا الزوج الشاب وزوجته في وجـه السـفير سيظل انفجارها موقوتاً ومرهوناً بحالة الحصانة الدبلوماسية التى يتمتع بها هذا السفير.. ولم يكن خافياً على الزوج الشاب أيضاً أنه ينطح في الصخر ولكنه لا يريد من هـذه الطلقـة الطائشة سوى صوتها..

لقد فوجئت الأم وهي تستقبل ابنتها وأستاذها أن هناك أمراً ما مفعماً بالغموض خلف زيارتهما المشتركة التـى تحـدث

لأول مرة.. في أول الأمر حاولت أن تتذكر مـا يمكـن أن يكون دافعاً لهذه الزيارة ولم تعثر على ما يخلق هذا الدافع.. ولكنها تتذكر حكايات الجدة عن حالة الاهتمام المستمرة التى تتمتع بها فاطمة من إبراهيم على مرأى من الجدة.. فكثيراً ما يزورهما.. ويشاركهما مائدة الطعام.. وكثيراً ما يراجع لهـا دروسها في الصالة أو الفراندة.. وكثيراً ما يطلب لهما الغداء بالتليفون في حالة تبادل ودية للكرم الذي يتمتع به عندهما.. ولكنها أبداً لم تأخذ عليه حالة خلل أو شطط أو تجاوز تفهـم منه الجدة أن حفيدتها ليست في يد أمينة.. وربمـا تسـاءلت الجدة بينها وبين نفسها عن نهاية هذا الاهتمام فـإن كانـت دوافعه هو الحب فلماذا لا يتقدم لخطبتها؟.. وإن كانت دوافعه هو المال فالرجل لا يطلب أجراً لما يقضيه من وقـت فـي مراجعة الدروس لطالبته..

لقد طُرحت هذه الأسئلة كثيراً فيما بين الجدة والأم.. وقد انتهيتا منها إلى الاكتفاء بحالة الاطمئنان التى تبدو في علاقة فاطمة وإبراهيم.. ومادام الظاهر هو الحب.. فلا بأس.. وإن كان المنتظر هو الزواج.. فلا مانع..

كان قد اتفق معها على أن تختلـى بأمهـا فـي غرفتهـا وتعترف لها بكل ما أخفته عنها من أحداث جسيمة لا تعلـم عنها الأم شيئاً.. ماعدا سقطتها مع شادى.. فقـط: محاولـة استمالتها من السفير.. ثم زواجها من إبراهيم (زميلهـا فـي الكلية).. ثم توضح تمسكها بالبلاغ الذي قدمته ضد السـفير بتهمة التحرش الجنسى.. وتحرص أن تأخذ الأم في صـفها لمواجهة حماقة هذا السفير الذي أخفى عن زوجتـه أشـياء كثيرة آخرها محاولته لتدمير حياة ابنتها..

خرجت الأم من حجرتها يعلو وجههـا الأسـى وبـدت لإبراهيم متهدلة الأكتاف محتقنة الوجه..

رآها قادمة فعمد فوراً إلى التليفون في حركـة مقصـودة وراح يدير قرص الأرقام.. انتظرته الأم التى جلسـت فـي مواجهته تجاورها ابنتها - التى يعلوها التوتر - حتى يفـرغ من محادثته.. فوجئت أنه يحدث الجدة في الإسكندرية.. وأن الجدة تفهم منه الآن ولأول مرة أنه وفاطمـة فـي القـاهرة بمنزل الأسرة.. ثم فوجئت به يتلقى خبراً من الجدة أن السيد السفير يشرفها الآن بالمنزل في الإسكندرية..

ما إن عرفت سيدة الأعمال أن زوجها قريب من تليفـون أمها في الإسكندرية حتى انقضت على السماعة وجذبتها من يد إبراهيم..سلمت على أمها في عجالة ثم طلبـت منهـا أن توصلها بالسفير.. ورغم أنها راحت تحدثه باللغة الفرنسية إلا أنها حملت سلة التليفون في يدها وتحركت بـه بعيـداً فـي الصالة وراح صوتها يعلو رويداً رويداً ثم تحول إلى صياح لم يفهم منه إبراهيم شيئاً.. لقد ساءه ألا يفهم ما يـدور الآن من نقاش بين الأم وزوجها هو أحوج ما يكون إلـى فهمـه ومعايشته.. فلقد خطط لكل شئ بدءاً من تحريك السفير مـن مكتب رأس التين وإجباره على البقاء في الإسكندرية حتـى الثامنة مساء.. ثم إخلاء المكتب من الموظفين تحسباً لحضور مفاجئ يمكن أن تقوم به هدى وتفهم ما تفهمه.. ثـم انتـزاع فاطمة دون إذن من جدتها لعمل المحضر في القاهرة.. ثـم طلب الجدة في التليفون لتأكده أن السفير هنـاك.." إذ أيـن سيقضى هذه الساعات العشر " – من الحادية عشر صـباحاً حتى الثامنة مساء – سوى في منزل حماته؟.. ولـم يطلـب الجدة في التليفون إلا بعد أن تأكد أن سيدة الأعمال وضـعت يدها على قصة ابنتها كاملة..

سارع فطلب فاطمة أن تلخص له بسرعة ما تقوله أمهـا بالفرنسية التى لا يفهمها.. أشارت له فاطمة أن يصبر حتـى تضع يدها على الحديث كاملاً.. فهى ترهف السمع لأن أمها قد ابتعدت كثيراً بالتليفون..

كان بدوره يحاول أن يستشف سير الحديث مـن ملامـح وجه فاطمة.. كان يرى أن الارتياح يرنو على قسماتها فيفهم أنها راضية عما تدليه أمها من حديث.. وما إن أطلقت فاطمة صرخة مكتومة أسرعت بكتمانها براحة يدها حتى فهـم أن الأم أتت في حديثها بشئ جلل..

أشار لفاطمة في غيظ أن تسعفه بما أزعجها..

أسعفته بكلمة واحدة:

- : إنها تطلب الطلاق..

ثم راحت ترهف السمع مرة ثانية..

اضطجع على الكرسي.. ومد ساقيه إلى الأمام.. وعـرف أن الأمور تسير في صالحه.. وأنه ينجح كالعادة فيما يضعه من خطط لإزاحة كل من يقف في طريقه..

إن خططه التى تطورت من التهور والاندفاع فـي بـدء حياته إلى المكر والخديعة الآن تؤكد أنه عرف مقدار عقلـه

ووضع يده على الطريقة المثلى لتوظيف ذكائه.. وها هو يتأمل ما حوله ويرى مظاهر هذا التطور فهو الآن يجلس في فيلا مدججة بالحرس ومظاهر الارستقراطية متحكماً في مصائر ساكنيها بدءاً من سيدة الأعمال وابنتها وانتهاء بهذا السفير الأحمق.. وها هو الآن يجلس مرتاحاً وقد ترك خلفه عدداً من الموظفين أعادهم إلى بيوتهم دون أن يعلموا السبب.. بل إن أغلبهم على استعداد أن يدفع عمره ليفهم من هو محمود التهامى زميلهم الذي مات فجأة.. والذي كان يشغل – كما عرفوا مؤخراً – وظيفة مدير المخازن.. كما أنهم يتساءلون: أين هي هذه المخازن..؟..

ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يرنو إلى فاطمة ترهف السمع لحديث أمها مع السفير.. قال لنفسه:" إذن فاطمة هي ورقتى الرابحة التى احتفظتُ بها بجانب ورقة هدى.. فكم قلت لنفسي أنت مرهون بهبوب رياح غير منتظرة تقتلع ورقة هدى من شجرتك العارية.. فهدى التى اقتنعت بالزواج منك خلسة ربما تكون على استعداد في أي لحظة لإنهاء هذا الزواج.. إذ ربما لا تقوى على المدى البعيد على الاحتفاظ به سراً يطول بطول عمرها.. ولو كنت قد ساعدتها على

تطوير أعمالها وتأسيس مكتبها الفخم بالإسكندرية لتمكينهـا من التحرك الشرعى أمام أهلها وأهل زوجها الراحـل فـإن بقاء هذا الوضع سيبقى مرهوناً بكشف زواجنـا السـرى.. وكونى وضعت كافة المتاريس المعوقة لمحاولة كشف هـذا السر فقد خاننى ذكائي عندما سجلت عنوان المكتب كمحـل إقامة في سجلى بالكلية.. ربما دفعنى إلـى ذلـك شـعور لا إرادي بداخلى يرضينى بأننى من ذوى البيوت والعناوين وأنا لست كذلك.. فهو ليس بيتى.. وليس عنـوانى.. وهـا هـو الخطر يبرز لي من مكمن الحذر.. إنه نفس الخطـر الـذي داهمنى في رحلة تسييس خالى شحاتة وزوجته نعمات.. فلقد نجحت في أول الأمر في استمالتهم حتى أنجـح فـي جلـب أكياس اللحم والفاكهة إلى أمى وأبي وأخى كمـال.. كانـت استمالة مفعمة بالذل وأنا أعلم أننى أحصـل علـى بعـض حقوقنا.. عكس كرم ابن خالتى وأبيه وأخيه الذين ترفـّـعوا عن السير في طريقي إباء وشمماً جعلنى أحس بالدونية فـي مشاعري قياساً بهم.. وعندما حاولت الحصول على حقـوقي دفعة واحدة بإذلال خالى ومرمغة شرفه في التراب اكتشـفت الآن كم كنت متهوراً عندما حاولت أن أضع سمعته في كفـة

وإجباره على الاعتراف بحقوقنا في كفة أخرى.. لقد دخلـت وقتها حرباً لم أحرص فيها أن يكون لدى العمق الاستراتيجى الذي يسمح لي بالانسحاب ومعاودة الكر مرة أخرى.. كنـت عارياً من أي غطاء وعندما طردونى ظهـر عريـي أمـام الناس.. ولكنى تخطيت ذلك المأزق عندما ارتـديت ثـوب التشرد واللامبالاة والبلطجة فأحسنت ارتـداءه.. وقتهـا لـم أتحمس لاستخدام مواهبي الذهنية فلـم يكـن هنـاك مجـال لعرضها في سوق الغوغاء والصـيع.. ولكنـى اسـتخدمت مواهبي الجسمانية والشكلية فلاقت رواجاً عند من يحسـنون تقديرها، الذين ما لبثوا أن أحسنوا تقديري.. وجعلونى ملكـاً عليهم في الحواري والمقاهي والمحطات "..

أفاق من تأملاته على خطوات فاطمة تتبع خطوات أمهـا إلى الغرف الداخلية.. كانت السيدة قد أنهت مكالمتها الزاعقة وهرعت إلى غرفتها.. ربما هي الآن تنخـرط فـي البكـاء وتقوم ابنتها بتهدئتها.. ربما هي الآن تعلـن قرارهـا إلـى ابنتها.. قد تقول لها اخرجي الآن من هنا أنت وذلك المخادع الذي سلب إرادتك ووضعنا في هذا المأزق.. ربمـا تعلـن

لابنتها الآن عن ندمها لأنها لم تحـافظ علـى حياتهـا مـع معروف.. " والدها ".. متحملة كل مثالبه..

هز أكتافه استخفافاً وهمس لنفسه: " ليكن ما يكون ".. ثم عمد إلى التليفون فحمل سلته الأنيقة في يـده وخـرج إلـى التراس الفسيح الذي يطل على الحديقة وأغلق الباب الزجاجى المنزلق وهو يتهيأ لمحادثة زوجته هدى – في طنطا - مـن منزل زوجته فاطمة – في القاهرة -..

لم يجد هدى في منزلها بطنطا.. ولم يجدها في منزلهمـا بالإسكندرية.. وبالطبع كان يتوقع الرنين المتصل في مكتـب رأس التين دون أن يرد أحد..

عاد فأزاح الباب ليطل منه على الصالة بحثا عن فاطمة.. لم يجدها أمامه.. إذن فهى مازالت في غرفة أمهـا.. تـرك الباب مفتوحاً وعاد إلى جلسته في التراس.. وسلة التليفـون بجواره..

أقبلت فاطمة.. لمحت التليفون بجواره.. فهمت أنه كـان يجري محادثة ما.. تحرك بداخلها الفضول الذي جعلها تقرر فجأة أن تتتبع هذه المكالمة.. استأذنته في حمل التليفون إلـى أمها بالداخل.. تعلقت بها نظراته المتسائلة عن سير الأمـور

مع أمها.. أمهلته بإشارة تهدئة من أصابعها المضمومة فـي يمناها أن:" سوف أعود إليك حالاً.. لا تقلق ".. أزاحت الباب خلفها ثم دلفت إلى الداخل بالتليفون وأغلقت خلفهـا إحـدى الغرف منفردة بنفسها.. طلبت جهاز الأمن والاتصال المقـيم بالملحق الأرضي.. قالت لرئيس الطاقم إن هناك أحد العاملين أو إحدى العاملات بطاقم الخدمة داخل الفيلا يستغل تحويـل الخط للاستخدام الخارجى ويحقق لنفسه اتصالات شخصـية طويلة.. ثم راحت تتلطّف من لهجتها مع الموظف قائلة إنهـا لا يعنيها التكاليف الماديـة ولكنهـا مهتمـة بطبيعـة هـذه المكالمات.. لذا فمن المطلوب التعـرف علـى كـل أرقـام التليفونات الصادرة من الفيلا اليوم ومواعيدها وأن يكون ذلك في سرية تامة وأن يسلّم البيان لها شخصياً..

لم تجد في داخلها سبباً وجيهاً لهذا التلصص على مكالمات إبراهيم ولكنها أرجعت هذا الارتياب المفاجئ الـذي هـاجم أحاسيسها إلى ما تجمع لديها من دواعي اسـتغراب للفكـر التآمرى الذي يجيده إبراهيم عبد القادر.. فمن المؤكـد أنـه شخص خطير بكل المقاييس.. أو على الأقل هو شخص غير عادي.. وشخصيته غير عادية.. شخصيته تـدير الأعنـاق

دهشة واستغراباً.. شخصية لا تسلك الطرق العاديـة التـى يسلكها الناس لتسيير أمورهم وحـل مشـاكلهم مـع الحيـاة والبشر.. ثم راحت تطمئن نفسها وتهدئها باثة فـي داخلهـا الشعور بالرضا على أن مافعلتـه الآن لا يعتبـر خيانـة أو تلصصاً أو عدم ثقة ولكنه نوع من الفضول الذي سرعان ما يزول بزوال الدافع إليه.. ولعل الدافع الذي حركها لأن تفعل ذلك اليوم هو حالة التشنج والشجن اللذين تعيشـهما أسـرة يحركها إبراهيم اليوم بمهارة هنا وفي الإسكندرية..

ثم عادت فأعطت نفسها حق التعرف علـى خفايـا هـذه الشخصية الآسرة التى سلبت لبها وأعادت توجيه مسارها في الحياة.. ثم عادت فتذكرت المشاوير المفاجئة التى يتفرغ لها إبراهيم في مكان ما لا تعلمه.. والوقت المفقود الذي يختفـى فيه خلال النهار دون أن يعلن عن سبل تمضيته لهذا الوقـت حتى ولو بإشارات فَكِهة من تلك التى يجيدها..

عادت إليه مرتدية ثوب الهدوء فـي حـين أن أعماقهـا مضطربة.. حاولت - وهي منسـاقة برقتهـا ومشـاعرها المهذبة – أن تخفف أمامه ما حدث.. ولكنها في الواقع تقاوم رغبة شديدة في البكاء.. فهى رغم ما مرت به من حـالات

توتر وخناق وتشنج خلال مسيرة أمها مع أبيها في بيروت لم يسبق لها أن شاهدت أمها على هـذه الحالـة مـن البـؤس والإحباط والحزن الشديد..

زفت إليه بشرى انتصاره السريع والساحق على خصـمه الأحمق الذي يرتدي ثوب السفير اللامع.. " لقد هاج الرجـل وماج وحطم الأشياء التى حولـه فـي الإسـكندرية عنـدما عرف أننا حررنا له محضراً بالتحرش الجنسى.. قرر العودة فوراً.. ربما يكون هنا بعد ساعتين.. إنه يطلب اللقاء بنـا.. وأوصى أمى أن تبقينا لديها حتى عودته.. ولكن أمى لا ترى أن هناك لزوماً لعمل هذه المواجهة فلا شك أنهـا سـتكون مواجهة دامية.. ولذا فقد طلبت منى الإسراع بك إلى الخارج لإعطائها الفرصة لالمناقشة الهادئة المنفردة مع زوجها عنـد عودته الثائرة..

قال لها إنه بحاجة إلى قضاء الليلة في القاهرة.. وعنـدما أومأت له برأسها: لماذا؟.. اضطر للإجابة.. فأفهمها أنه على وعد مع الشرطة والنيابة بالحصول على نسخة طبق الأصل من المحضر.. فهزت له رأسها مرة أخرى: لمـاذا؟.. عـاد فأفهمها: " أن وضع هذا المحضر على مكتب العميد سيوضح

له أننى وأنت كنا سنكون ضحية مؤامرة حقيـرة مـن هـذا الرجل.. وأنه لابد أن نستعيد كرامتنا فوراً.. وطالمـا قمنـا باستعادتها أمام العميد فسوف نتمكن من استعادتها أمام كـل مجتمع الكلية دون حاجة إلى التوضيح اللازم أمام كل فـرد بعينه.."

حديثه مقنع.. لا يمكنها أن ترفضه.. ولا يمكنهـا إيجـاد بديل آخر لما يفكر فيه..

ظلت ساهمة.. وصامتة.. وحائرة.. إلى أن رأته يسـتعد للانصراف موصياً إياها أن تظل ليلتها هنا بجانـب أمهـا.. وسوف يسارع هو لابتياع ملابس للنوم ولغيـارات الغـد.. ويقضى ليلته في أحد الفنادق ثم يطلبها للنزول إليه غداً عندما ينتهى من نسخ المحضـر.. ودعتـه.. محاولـة أن تبـدو متماسكة.. وما إن انفلت من الباب مسرعاً في رشاقة هابطاً الدرج في سرعة كأنها القفز.. حتى انخرطـت فـي بكـاء مرير.. ثم رمقته من خلال دموعها يخترق الحديقـة بـنفس رشاقته متجهاً إلى البوابة التى فتحها له الحرس وهم يؤدون التحية اللازمة لهذا الضيف الجديد.

- ١٧ -

قدم لها ضابط الأمن ورقة بها أرقام وتوقيتات التليفونات التى صدرت من الفيلا اليوم.. ومن خلال تعرفها على توقيت ورقم محادثة جدتها في الإسكندرية.. اكتشـفت أن إبـراهيم تحدث لمدة دقيقة واحدة مع شخص ما في مدينة طنطا (مـن الواضح أن رقم شقته في الإسكندرية ومكتبه بها لم يظهـرا في السجل لأن الطرف الآخر لم يرد وبالتـالي لـم تتحقـق المكالمة وتأخذ دورها في التدوين الآلى..)

عمدت إلى نفس الرقم وأجرت اتصالاً به.. ردت عليهـا سيدة.. سارعت فاطمة وأفهمت محدثتها أنهـا مـن طـرف إبراهيم عبد القادر.. سارعت المخاَطَبة بالقول إنهـا سـتأتى بهدى هانم للرد عليها.. ثم تطوعت بالقول إنه – أى إبراهيم - طلبها منذ ساعات ولم يجدها.. " وقد أبلغتهـا بـذلك ".. فهمت فاطمة أن الخادمة هي التـى تلقـت المكالمـة مـن إبراهيم.. فراحت تجهز نفسها لحديث مجهول مع هدى هانم التى لا تعرف أصلاً من هي.. وماذا ستقول لها.. وسـرعان ما قررت أن تقوم بتوظيف مكالمة إبراهيم التى لم تـتم مـع السيدة هدى.. سلّمت عليها.. وردت هدى السلام برقة.. قالت

لها إن إبراهيم ظل مشغولاً عليها لأنها لم ترد على محادثته " إلى أن خرج من عندى ".. تساءلت هدى: من تكـون تلـك الشابة التى خرج إبراهيم من عندها.. أفهمتها فاطمـة أنهـا زميلته في الكلية وأنه كان يستذكر دروسه معهـا واسـتخدم تليفونها في محادثتها.. وبتحوط بنات البلد.. واستجابة لنـبش الفأر الذي راح يلعب في " عبها" قررت هدى استدراج هـذه البنت فأزادت من عيار الترحيب بها ثم دسـت لهـا سـؤالاً محتواه: (وهل طلـب منـك أن تطَمئنـى علـى وجـودى بنفسك..؟).. أحست فاطمة أن هدى هذه ربما تكون أختـه.. فهى لا يمكن أن تكون أمه.. وقد كانت قـد رأت أنـه مـن العيب أن تسألها من أنت؟.. فمن المفروض أن يكون إبراهيم قد قال لها ذلك.. وأمام سؤال هدى الحويط العميق اضطرت فاطمة أن تختلق لها اعترافاً لذيذاً.. وهي أنهـا هـي التـى بادرت بالسؤال عنها مشاركة لإبراهيم في قلقه علـى هـذه الإنسانة التى اكتشفت أنه يحبها.." أكيد إنت أخته "..؟..

تجمدت هدى على التليفون.. فتجاهلت سؤال هذه البنـت ذات اللهجة التى لا يمكن أن تكون مصرية.. فطرحت عليها نفس السؤال.. (أمال أنت مين؟.. قصدى إيه اللـى خلاكـى

تقلقي قوى كده على قرايب إبراهيم؟).. لقد تمكنت هدى من وضع محدثتها المجهولة في المصيدة.. إنها المصـيدة التـى خرجت منها هدى تواً.. ولقد وجدت فاطمة نفسها مجبرة في الإجابة على السؤال الذي طُرح عليها: مـن أنـت بالنسـبة لإبراهيم..؟..

- : أنا خطيبته.. يعنى بنحب بعض.. وحيخطبنى.. بس تِسلم عينك يا إختى لا تجيبى سيره لو هالحين حتـى يقولّك بنفسه..

- : إنت ياختى باين عليكى كده مش مصرية..

- : مظبوط.. أنا لبنانية..

تأملت هدى ما تذكرته الآن من حديث فرض نفسـه ذات يوم بينها وبين إبراهيم عن لبنان.. حيث اقترح عليها بشـكل عابر استيراد التفاح من لبنان.. وأنه يعـرف أناسـاً هنـاك يستطيعون مساعدته في ذلك.. لقد كان ذلك منذ أكثـر مـن عامين.. وأنها لم تتمش معه في هذا المطلب لصعوبة تمرير هذه السلعة إزاء حرص الدولة على استيراد ما هـو شـعبى توفيراً للعملة الصعبة.." إذن فهو يعرف هذه السنيورة منـذ عامين..هل هذا معقول؟.. "

- : واسم الأمورة إيه..؟

- : فاطمة..

- : وبتحبوا بعض من إمتى يا فاطمة؟..

- : من أول ما شفنا بعض.. وا إبراهيم بيجنّن..

ودون أن يبدو أنها تهزأ مما تسمعه قالت لها:

- : إن كان بيجنّن هو بيجنّن.. بس ماقلتليش تعرفـوا بعض من إمتى؟..

لمحت فاطمة أنها تواجه أسئلة استخباراتية.. وأن لهجـة السيدة هدى تحوى ارتياباً واستغراباً وقلقاً.. فتحرك بـداخلها هي الأخرى حذر الأنثى خاصة عندما أحست أنها لم تـتمكن من صنع محادثة ودية خالصة.. فقد كانت تود ذلك إلا أنهـا تحولت عن ذلك رغماً عنها أمام التحقيق الذي تجريه هـذه السيدة.. ثم راحت تتخيل وقع هذه المكالمة على إبـراهيم إذا عرف بها.. ومن المؤكد أنه سيعرف تفاصيلها من أختـه.. أخته؟!!.. ومن أدرانى أنها أخته..؟..

- : هدى.. أنا مابأجِيِبك على سؤالك إلا أما تجـاوبينى على سؤالى؟.. إنت تقربي إيه لإبراهيم..؟

- : يا حبيبتى.. أنا مراته..

قالتها هدى في ثقة ويأس وحزم وقرف ثم أغلقت التليفون وانهارت على المقعد وهي تنخرط في بكاء مريـر وعلـى الناحية الأخرى تناست فاطمة صدمة إغلاق الخط في وجهها واستسلمت لذهول صدمة هذا الخبـر الطـازج.." إبـراهيم متزوج من سيدة في طنطا ".. اسمها هدى.. وانهارت علـى مقعدها القريب.. وقد انخرطت هي الأخرى في بكاء مرير.

- ١٨ -

تلقى دشاً ساخناً.. وارتدى بيجامته الحريرية التى ابتاعها منذ ساعة من شارع قصر النيل.. وتمدد على كرسيه الهزاز بتراس غرفته المطلة على النيل بفندق الهيلتـون.. وطلـب العشاء بالتليفون ليتناوله أمام هذا المنظر الساحر..

تداعت صور حياته على شاشة ذاكرته.. تزاحمت الصور وتداخلت وهي تنهمر في استدعاء قسري تحرك من داخلـه رغماً عنه.. لم يجد سراً لهذا الاستدعاء سوى تلك المفارقـة التى يعيشها.. فهو رغم سنواته السبع والعشرين مازال طالباً يصبو لنيل شهادته بعد شهور.. وكونه دفع من عمره أربـع سنوات هي مجموع إخفاقاته مقارنـة بزملائـه فـإن هـذه السنوات الأربع تعتبر في نظره هي الثمن الذي ساعده فـي الحصول على بكالوريوس آخر بجانب بكالوريوس الهندسـة المأمول.. إنه يسميه بكالوريوس تطويع الحياة.. فـإن كـان الناس يسيرون في حيـاتهم بـالطول.. فهـو قـد سـارها بالعرض.. ومازال مستعداً أن يسيرها باتجاه آخر لم يسـلكه أحد.. بالارتفاع.. إنه أخطر اتجاه.. فأنـت لا تسـتطيع أن

تسقط وأنت تسير بالطول.. أو بالعرض.. ولكن سقوطك من علٍ أمر مؤكد لو لم تكن حذراً..

راح يتأمل حذره القديم وتآمره الساذج على أبيـه الـذي يشك في سلوك ولده مع الفتيات في الحقل.. ثم انصرافه عن المذاكرة.. ثم اختفاء بعض القروش من محفظته.. ثم شكوى زملائه من بلطجته معهم.. ثم اعترافهم أنهـم تـأخروا فـي الشكوى ضده خوفاً من تهديده لهـم.. ثـم انصـرافه عـن الصلاة.. وتسخيره لأخيه الأصغر كمال في حمل خطاباتـه إلى التلميذات..

لم يجد سوى حديث النائم حلا يوصل بـه رسـالته إلـى أبيه.. فتعلم أن يختار وقت اقتراب أبيه من سريره.. فيتمـتم بكلمات يجعلها مطموسة كحديث النـائمين.. (بكـره أبويـا يعرف إني مجتهد.. ولكل مجتهد نصيب) فيخرج أبوه إلـى امرأته ويعيد عليها ما قاله إبراهيم في نومته.. ثـم يراجـع نفسه (إحنا يظهر ظالمين الولد ده يا صفية).. وعندما يسمع ذلك يدفن ابتسامته الخبيثة في الوسادة وينام..

هل يستطيع أن يؤرخ لمولد فكرة المؤامرة فـي داخلـه بتاريخ إلهامه بفكرة مواجهة عصـا أبيـه بتمثيليـة حـديث

النائمين؟.. هو لا يتذكر تماماً هذا الميلاد الهـام.. ولكنـه لا ينسى طعم الانتصار الذي يحسه إزاء نجاح أفكاره التآمرية.. كما لا ينسى أن نجاح فكرة ما كانت تحفزه لاختراع فكـرة أخرى حتى بات يحمل رصيداً هائلاً من فكر التآمر.. وكانت أكبر مؤامرة نجح فيها هو إخفاء أنه متآمر.. بـل والتأكيـد على أنه.. يكره التآمر..

عاد فتذكر ما قاله الدكتور حسين شافعي في محاضـراته القيمة حول نظريات العمارة.." لقد أثبت الرجـل أن فكـرة الحماية والوقاية هي التى ألهمـت الانسـان الأول أن يبنـى لنفسه كوخا يحميه مـن الحيوانـات المفترسـة.. أو البـرد الشديد.. أو الحر اللافح.. إذن فقد كانت الرغبة في البقاء هي الاستلهام لفكرة البناء.. وهذا ما فعله الطائر عنـدما صـنع عشه.. والحيوان عندما حفر جحره.. والزواحف والفراشات عندما لونت جسمها بلون الطبيعـة حولهـا لتختفـي عـن الأنظار.. لقد كانت الخليقة تواجه الرغبة في البقاء بحمايـة نفسها من الآخر.. واتقاء شرور الطبيعة والناس كل بالسياسة التى تناسبه وتتمشى مع قدرته على الابتكار وخلق الخطـط لهذه المواجهة.."

ثم عاد فطبق هذا على نفسه.." إننى أحمى نفسى.. وأقيها من الشر.. ورغم عدم عثورى على ذلك الشبح الذي أحمـى نفسى منه وأتقيه إلا أننى أحسه دائماً أنه يسير في أعقـابي.. يتتبعنى.. يتربص بي.. دون أن أعرف: مـن هـو شـبحى المخيف؟.. قلت لنفسي ذات مرة.. لعله الفقر.. ولكنى وجدته يسير معى ومع الناس في قريتى في وئام وأمان.. ثم عـدت فقلت لنفسي.. لعله الخوف.. ولكنى وجدتـه عـدواً هـزيلاً لأناس رضوا به.. وأحبوه.. ولكنى شككت لحظة فـي شـئ اسمه الطمع.. وحتى الآن لم يقنعنى هذا الطمع بأنـه ذلـك المجهول الموجود بداخلى.. أما الرضا المفقود فلم يسـعفنى أحد علماء النفس بمرض يحمل هذا الإسم حتى أبحث عمن يشخّصه لي.. أما المرأة.." فهـل لـي أن أضـعها ضـمن تساؤلاتى عـن الفقـر.. والخـوف.. والطمـع.. والرضـا المفقود..؟.. أخشى أن تكون هي مجموع كل هذه الألغـاز.. وأخشى أن أكون قد جسدت كل هذه المخاوف في صـورتها فجعلتها هاجسى الذي أتولى التنشين ضده أحياناً.. والاحتماء به أحياناً.. واحتضانه بكل الإصرار في كل الأحيان.. "

فكر للحظات أن يتصل بفاطمة في فيلا السفير.. وخشـى أن يكون السفير قد وصل وتحـدث بينهمـا مواجهـة فـي التليفون.. ورغم استعداده ورغبته في خوض هذه المواجهـة إلا أنه رأى وجوب تفاديها الآن حتى ينضج السفير على نار هادئة ستشعلها أسفله زوجته سيدة الأعمال.. وفي هذه الحالة ستكون مهمته سهلة في توجيه الضربة القاضية لكسر غروره وحماقته..

ثم فكر للحظات أن يتصل بهدى.. وقرر أن يمتنـع عـن هذا الاتصال.. فهو لن يخاطر بإبلاغها أنه فى القاهرة.. لأنه سيكون مطالباً بالبحث عن سبب لوجوده بها.. ولـو خـاطر بالكذب وقال إنه موجود بالإسكندرية فسوف يفتح لها الطريق أن تطلبه وهي تحب أن تفعل ذلك كثيراً طيلة الليل.. وإذا لم تجده فسوف يفتح على نفسه صنبور الأسئلة الذي لا شك أنه سيغرقه.. وهنا واتته رعشة: ما أحمقنى.. مـن المؤكـد أن هدى الآن لا تكف عن طلبي.... نظر إلى ساعته.. السـاعة الآن التاسعة.. إذن فلأصبر حتى العاشرة وأطلبها.. وأُطمئنها على وصولى.. وأستأذنها في رفع فيشة التليفون حتى أتمكن من النوم.. أوه.. ما أحمقنى.. فهى تعرف أنه لا أحد غيري

وغيرها يستعمل هذا الرقم.. ".. إذن يجب أن أبلّغها أننى في القاهرة.. أشترى بعـض المراجـع مـن أجـل مشـروع البكالوريوس.. هذا أضمن.. وأسهل..

بأصابع متوترة أدار رقم تليفونها.. ردت عليه الخادمـة.. لم تمكنه الخادمة من إرسال سؤاله عـن سـيدتها.. أفادتـه بصوت قلق أن سيدتها سافرت فجأة إلى الإسكندرية.. سألها عن ميعاد سفرها.. ولم يسألها عن السبب.. ولـو كـان قـد سألها عنه لكان قد وضع يده على ما يجبره أن يغير خططه كلها.. فليس من الممكن أن تأخذه البلاهة إذا ما علـم مـن الخادمة أن فتاة لبنانية اسمها فاطمة تحدثت مع سيدتها هـدى مما جعلها تترك الدنيا وما فيها وتطير إلى الإسكندرية..

تأكد أنها الآن في شقتهما.. وتأكد أنها ذهبت إلى المكتـب وقرأت لافتة العزاء والسفر المفاجئ للطاقم إلـى أسـوان.. فرك يديه فرحاً.. إذ إنه عندما أعد هذا الفخ للسفير لم يكـن يعلم أن هذه اللمسة التآمرية ستخدمه في موقفه من هدى..

أتاه صوتها متزناً رزيناً.. فدخل بها مسرعاً فـي مهمتـه القاهرية المفاجئة التى لـم يشـأ أن يزعجهـا بتفاصـيلها.. فاستمعت إليه بكل الهدوء الظاهر الذي نجحت في تقمصـه

رغم ما يعتمل في صدرها من غيظ وألم.. ثم سـرعان مـا دخلت به هي إلى تقديم العزاء إليه في موظفه الـذي مـات اليوم.." وهل يا ترى قام بالواجب اللازم تجـاه أبنـاء هـذا الرجل؟.. " ويا ليتك أجلت مشوار القاهرة لتشارك الموظفين رحلتهم للعزاء في أسوان.."

ظل ثابتاً وهو يسمعها لعله يلمس في حديثها ما ينم عـن تبكيت خفى أو تشكك خلف الأسئلة.. وكعادته في الأخذ بمبدأ " الاحتياط واجب " قام فامتشق فلسفته المثلى في مثـل هـذه الحالة وطبقها فوراً " الظهور هو خير وسيلة للإخفاء)..

- : لما أقابلك أضحكك على الموضوع ده.. مافيش حد مات ولا حاجة.. دي تمثيلية..

لقد تخطى برشاقة سلكاً نصبته له في التراب ليتعثر فيه.. لأنها بعد زيارتها للمكتب المغلق وقراءتها لإعـلان الوفـاة المعلق على بابه اتصلت بواحد من الموظفين المسئولين عن التخليص الجمركي والذي تهاتفه من آن لآخر فـي مسـائل العمل.. وتعرفت على الحيرة التى تخبط فيها طاقم المكتـب بسبب الزيارة المفاجئة لرجل أسود فهموا من مرافقيـه أنـه دبلوماسي مهم وأنه كان مهتاجاً وأن الأستاذ إبراهيم صرفهم

جميعاً وأغلق المكتب ومنحهم يوم الغد أجازة وقـام بوضـع هذه اللافتة عندما علم بنبأ هذه الزيارة المفاجئة لهذا الرجل..

حاولت قدر المستطاع مقاومة نبش الفأر الذي " يلعب في عبها ".. ها هو يعترف لها بتمثيلية يقول إنهـا مضـحكة.. فتساءلت عن دواعى مهاجمة مقر مكتبها الذى لـم يعـرف سوى الوقار والهدوء والسمعة الطيبة..؟ هناك بعض الهدوء الذي داخلها لأنه لم يستمر في إيهامها بتمثيليته أسوة ببـاقي طاقم المكتب والناس الغرباء.. بل ها هو قد وعدها أن يقص لها مغزى فعلته على أنغام الضحك!!

حتى الآن هي لم تعثر على أثر لهذه اللبنانية المقتحِمـة.. لاذت بالصبر وتعشمت أن تلقى الرياح تحت أقدامها بالمزيد من الأوراق المتساقطة..

سألته عن مكان نومته فأعطاها اسم الفندق ورقم الغرفـة والتليفون حتى إذا راق لها أن تهاتفه في أى وقت من الليل..

" يا إلهى.. إنه بمفرده.. والأثر يختفى في مسار الدرب.. إذن فمتى سيظهر أثر هذه الفتاة؟!! "

سألته متى سيعود.. ووسـيلته فـي العـودة: الـديزل أم التاكسي؟.. أفهمها أنه سيعود مع صديق له جاءا هنـا معـاً

بسيارته.. تلمظت.. وهل ينام معك في الفنـدق..؟.. سـارع فأفهمها أنه من أبناء القاهرة.. وينام عند أسرته..

" طيب عشان خاطري خلّيه يسوق على مهله!! "

قالتها دون أن تلتفت إلى حزنها الدفين بل إنها نسيت أنها حزينة.. فهذا هو الجانب الطيب في شخصية الحبيبة.. أمـا الجانب الحذر في شخصية الزوجة فقد جعلها تضيف:

" حتطلعوا بكره الساعة كام..؟ أول ما تطلعوا كلمنـى.. عشان أنا منتظراك.. "

يبدو أنها تحاول أن تأتى بشئ جديد.. أو هناك شئ جديد يخرج منها رغماً عنها.. أن تتعرف على مواعيده.. وتحسبها له.. وتؤكد له أنها في انتظاره حتى لا يغيـر خطتـه فـي الحضور إليها بخطة أخرى من عنده تمنعه من الحضـور.. أحست أنها كان يجب أن تفعل ذلك منذ تزوجتـه.. صـحيح أنها تزوجته باختيارها وبانتقاء قلبها الذي ارتعـش لـه ثـم استسلم.. لكنها يجب ألا تنسى أنه قبل أن تأخذه في أحضانها كان في أحضان إحدى خادماتها.. ولم تحزن وقتها بل أحست بالزهو والانتصار عندما ضحى بهذه الخادمة.. لم تغفر له.. لأنها لم تحس في أي لحظة أنه قد أذنب.. ومن المؤكد أنهـا

قد غفرت له بكل جوارحها حتى أنها استجابت لذلك الرضـا الذي غمرها فأنساها وقع الذنب وفداحة الخطأ..

ها هي البنت اللبنانية تصارحها عنه (دي بِيجنن!!).. فهل قام بطلها بسبر أغوار جنون تلك الفتاة الذي يتراقص الـدلع في كلماتها وتطل الثقة من حديثها عن فتاها إبراهيم..

النار تشتعل في قلبها ووجدت نفسها تنخرط فـي بكـاء مرير بعد انتهاء المكالمة.. وكان تمكّنها من ضبط أعصابها والتحكم في حديثها معه من أصعب المهام الثقيلة التى قامت بها.. فقد كان من الطبيعى أن تُفرغ أمامه كل ما لديها مـن حقد وغيظ ومعلومات فور اتصاله بها.. وأن تخبـره أنهـا تعرف أين هو الآن.. ومن هي تلك الفتاة التى يرافقهـا فـي مشوار القاهرة.. ولكنها لسـبب لا تعلمـه رأت أن تتمهـل وتتمشى معه في سراديبه الغامضة ربما تجد في نهايتها طاقة نور تكتشف وتكشف بها حقيقته..

وهو أيضاً لم تداخله الراحة الكاملة لسفرها المفاجئ إلـى الإسكندرية.. وذهابها إلى المكتب.. فعلى حد تعبير الخادمـة فإن هدى انطلقت إلى الإسكندرية على غير موعـد وبشـكل

مفاجئ.. وهذا مالم يستطع أن يطرحه أمامها في شكل سؤال حتى ولو بطريقة ملتوية..

جذب على جسمه الغطاء.. وحاول أن ينام بكل مالديه من قناعة أنه قد فعل الشئ الصح عندما تغاضى عـن محادثـة فاطمة في منزل أمها.. فليصبر حتى الصباح وحينئذ ستكون الأمور قد استقرت لصالحه.. كل ما سيفعله أنه سيذهب إلى الفيلا لاصطحاب زوجته للسفر معها إلى الإسكندرية وفـي جيبه صورة طبق الأصل من المحضر القاتل المحرر ضـد غريمه السفير.. المحضر الذي جعله يستسلم قبـل أن يبـدأ القتال.. ويترك أرض المعركة قبل صيحة النزال..

***

- ١٩ -

فوجئ بالضابط في قسم الشرطة يبلغه أن السيدة فاطمـة معروف تقدمت مساء الأمس بطلب تنازل عن محضرها ضد زوج أمها.. وكانت برفقتها السيدة والدتها.. وحصلت علـى

نسخة طبق الأصل من المحضـرين.. محضـر الإبـلاغ.. ومحضر التنازل..

عمد إلى الإسترخاء في محل جروبي الذي هـرع إليـه للاختلاء بنفسه وتناول كوباً من الليمون.. أحـس أن هنـاك غماماً ينعقد حوله وتتكثف ظلاله السوداء فوق رأسـه.. راح يتساءل عما يمكن أن يكون قد حدث.. من المؤكد أن السفير الأحمق قد قلب الدنيا على رأسها ورأس أمها.. ومن المؤكد أنه يملك القوة الطاغية ضدهما والتى تمكّن بها من تهديدهما وإجبارهما على التنازل عن المحضر.. أخذه الندم لأنه اختار ألا يتصل بها في المساء.. فمن المؤكد أنها افتقدته.. ولو كان قد اتصل بها لكان قد تعاون معها في حل مشـكلة تهديـدها ولكان قد تدخل وشجعها على رفض موضوع التنازل..

أخذه الندم ووخز الضمير لأنه تخلى عن أهم ما فيه مـن ميزة.. ميزة الاقتحام.. ميزة الهجوم الحذر لمجرد تحريـك الجيوش المضادة.. لماذا جبن عن عمل تليفون لفاطمة مساء الأمس؟".. لا.. لم أجبن.. ولكنها الاستجابة الفطرية لحجـب جيوشي عن القتال مقابل تقديم جيوش فاطمة وأمها.. فقد كان

هذا هو موعد دورهما ولا يجب أن أظهر في المعركة حتى لا أبدو محرضاً أو مخططاً أو ذا مصلحة.. للأسف لم أكـن أعلم أن هذا الرجل يملك كل هذه القوة أمام زوجته حتى تقنع الزوجة ابنتها بالتنازل.. "

" ولكن: لماذا كان كل هذا الصياح المتطاير في الهواء من أمها لزوجها وهي تحدثه في التليفون..؟ ولماذا همست لـي فاطمة بأن أمها طلبت منه الطلاق..؟.. ما الذي تغيـر فـي الموقف خلال هذه الساعات المعدودة؟.. "

على منصة التخديم في المحل اسـتأذن الموظـف فـي استخدام التليفون.. طلبها.. جـاءه صـوتها مفتقـداً بعـض مرحه.. سألها عن صحتها وصحة الست ماما.. وسر هـذا الصوت الحزين.. وقبل أن يسمع منها ما كانت تتهيأ لقولـه قاطعها معتذراً وطالباً أن تجهز نفسها لمقابلتـه فـي محـل جروبي تمهيداً للذهاب إلى القسم لاستلام صورة طبق الأصل من المحضر..

- : أنت لساك ما رحت القسم؟..

- : إزاى أروح مـن غيـرك؟.. مـش لازم تكـونى موجودة.. على فكرة إوعى تنسى تجيبـى البطاقـة معاكى..

صمتت قليلاً:

- : طب وليش ما جيت على الفيلا هنا..؟

رد عليها بسرعة

- : عشان فيه احتمال أقابل السفير.. وأنا مش ممكـن أقابله من غير مـا يكـون سـلاحى فـي جيبـى.. المحضر..

راحت تقنعه بهدوء أن المحضر لا يمكن أن يكون سلاحاً فعالاً في مثل هذه المواجهة.. "فأنت تريد أن تورطـه فـي فضيحة ظناً منك أنك تغطى بها على فضـيحة تعتقـد أنـه يورطك فيها.. فضيحة زواجى وزواجك.. وهذا هو الشـئ الذي يحزننى.. فمن قال إن زواجى وزواجك فضيحة؟.. ألا ترى أننا حملنا الموضوع أكثر مما يحتمل.. ونقوم بفضـح أنفسنا أولاً ونحن نسعى لفضح الآخرين..؟ "

راح ينتظر أن تُنهى تحليلاتها الجديدة بذكر الحقيقة التـى عرفها منذ ساعة.. حقيقة أنها تنازلت عن المحضر.. إلا أنه

وجدها تدخل به في درب آخر للحديث.. درب من الـدروب التى نسى السير فيها بل ونسى معالمها.. إنهـا الآن تضـعه أمام الحقيقة الجديدة التى فرضت نفسها عليها.. حقيقة عـدم إعلان زواجهما – حتى الآن – أمام أهلهما.. والآن يجب أن توضع هذه الحقيقة أمام أهله..

- : يا إبراهيم لابد نعلن زواجنا أمام أهلـك.. لابـد.. لابد..

أخذته رعشة.. إنها تتحدث بمنطق هادئ ومتزن وبنبرة جادة غاية الجد مفعمة بطعم الحزن وربما الندم.. وهذا يعنى أنه لا يجب أن يواجهها بأقل من هذا المنطق المتزن ولكنه لا يملك الوسيلة لبث هذا المنطق لا في حديثه معهـا ولا فـي الواقع.. كل ما يمكنه الآن هو الإفلات حتى يجد حلاً معها.. ولم يكن أمامه سوى طلب تأجيل هذا النقاش حتى يلتقيا على طريق السفر فالتليفون – خاصة هذا الذي يتحدث منه – لـن يساعد على ذلك.. فطلبت منه أن يسافر بمفرده وهي ستلحق به غداً أو بعد غد إذ أن الحالة النفسـية والصـحية لأمهـا تضطرها أن تظل بجوارها ولن تسافر معه اليوم..

أسند رأسه على مقعد الدرجة الأولى الوثير فـي قطـار الإسكندرية.. أغمض عينيه في محاولة للتركيز والإمسـاك بشريط الأحداث الذي راح يتلاحق وينهار كسدٍ صغير أمـام طوفان من المياه.. فكل مواقع تواجده تهتز تحـت أقدامـه.. وبات معرضاً لنظرات جديدة من كل العيون القديمة.. هذا ما سيحدث في الكلية منذ أن يطؤها بقدميه.. وهذا ما سـيحدث في المكتب لحظة أن يدخله.. وهذا ما يتوقع أن يـراه فـي عيون هدى.. ناهيك عما بات يحسه من لهجة فاطمة..

هو لا يخجل من أن يسمح لخياله مرة ثانية وثالثـة فـي وضع سيناريو محتمل لحياته القادمة.. حياته بعد التخـرج.. فهدى التى تمثل مرحلة انتقال تمكّن من صـنعها واعـتلاء موجتها واستطاع بها أن يتـيح لهـا أن تمـارس دور الأم والزوجة والحبيبة في وقت واحد وأن تعطيـه بكـل الحـب وتأخذ منه كل الحب.. هذه المرحلة تقترب من النهاية.. فكلها شهور ويحمل شهادته.. ولا غرابة أن يكون تاريخ تخرجـه هو نفسه تاريخ خروج هدى من حياته.. وهذا مـا يسـميه احتراق ورقة هدى.. وشئ طبيعى أن يكون الأمر هكـذا.. فهدى هي الورقة التالية لورقة عنايات وسوف تأخذ حظهـا

من الاحتراق بنفس الكيفية.. وهو ليس بحاجة إلى أن يثنـى على خططه الاستراتيجية التى مكّنته من الاحتفـاظ بورقـة أخرى رابحة هو آخذ في تجهيزها للاستخدام لمرحلة ما بعد هدى.. إنها فاطمة.. تلك الحالة التى تناسبه.. حالـة حـب.. واستغراق.. ومشاركة.. زوجة.. وحبيبة.. وزميلة.. ثرية.. ولها امتداد استراتيجى خـارج مصـر.. سيسـافر بهـا.. وسيشاركها عمل مكتب فخم بأموال أمها.. مكتب له فرع في بيروت.. وأصل في القاهرة.. وفروع في الخليج.. هذا مـا يشهده ويشاهده من أداء مهنى لبعض الأسماء اللامعـة فـي عالم العمارة.. هو يصبو أن يصبح مثلهم.. صاحب مكتـب كبير.. شركة كبرى.. الولوج إلى هذا العالم لا يمكن تحقيقه بمرحلة الخطوة خطوة.. بدءاً من استلام أمر التكليـف الـذي يصله من مكتب القوى العاملة ليستلم عمله في إحدى الجهات الحكومية.. وهيهات.. هيهات إذا تمكن من خلع نفسه من تلك الخشبة التى سيدقونه فيها كمسمار ليس له إلا أن يصدأ على مدى عمره داخل هذه الخشبة/ التابوت..

إن فاطمة هي قاربة الذي سيحمله إلى هذا الشاطئ.. وما يهب الآن من ريح عاتية على رحلتهما لشئ يثير القلق ولكن

الانحناء لمثل هذه الريح أمر لابد أن يفكر فيـه.. ولابـد أن يرتب له.." فإن كانت فاطمة تريد أن تضفى على زواجهـا منه مظاهر العلنية أمام أهلى كما أعلنتـه أنـا أمـام أهلهـا فلأخترع لها فوراً هؤلاء الأهل الذين تريد أن تقابلهم.."

وراح يخطط لمؤامرة يقوم فيها بـاختراع أسـرة تبـدو مترابطة بها أب مهندم ببدلة رائقة.. وأم تختال فـي فسـتان محتشم وأخ يصغره سناً.. وكلهم جاءوا خصيصـاً للتعـرف عليها في شقته التى يسكن بها في الإسكندرية والتى يعـيش فيها معه أخوه.. والذي تفادى استقبالها فيها إمعاناً في التخفي الذي مارساه في زواجهما السرى..

لقد قرر ببساطة أن يلجأ لي أنا كرم ابن خالتـه ولحنـان زوجتى وحبه القديم لنسهل له خطته بأن نترك الشـقة ليـوم واحد يدبر فيها لقاء فاطمة مع أهله الزائفين..

كنا قد عشنا مثل غيرنا من الـزملاء تفاصـيل الهجمـة المعلنة التى تعرض لها إبراهيم في الكلية من ذلـك السـفير الأسود.. يومها انكمشنا داخل أنفسنا وخفنا أن يقرن إبـراهيم هذه الهجمة بتوجيه أى إتهام لنـا كمـدبرين أو متـواطئين لتحقيق هذه الفضيحة.. فتهديده لنا والمصحوب بباقة الـورد

مازال في الذاكرة.. ومازال اتفاقه معنا محـل احترامنـا.. الاتفاق أن نحتفظ بأسراره وننسى ماضيه..

زارنا فجأة.. مهمومـاً.. متلمسـاً أثـر هجمـة السـفير الرعناء.. طارحاً أمامنا سوء الحال الذي وضع فيه والـذي وضِعت فيه فاطمة.. وبنوع من الخجل والتهذب طلب منا أن نستعد لمساعدته في إقامة وليمة لفاطمة في شقتنا في ضيافة أبوه وأمه وأخوه.. ثم سارع بلفت أنظارنا أنه لا يقصد أبـوه عبد القادر سلامة وأمه صفية الوكيل وأخوه كمـال.. لأنـه سيأتى بنسخة أخرى مثلهم يقومون بهذا الدور.. وأمام حالـة كتمان الضحك الساخر المستهجن المستغرب التى اسـتولت علينا وجدناه هو الآخر يلجأ مثلنا إلـى السـخرية المريـرة المصحوبة بضحك أسود أتاح لنا أن نُفْرج عـن ضـحكاتنا المكتومة.. وبالتالي فقد تسللنا من هذا الانفراج إلـى تبـادل بعض الود المكتوم والذكريات الدفينة.. وفي تلك الجلسة لـم ينس أن يؤكد لي أنه كثيراً ما تذكرنى وتذكر كلامى الطيـب عنه وهو يخوض معمعة الاستعداد المفاجئ لنيـل الثانويـة العامة حيث كان يسترجع كلماتى: (إبـراهيم ابـن خـالتى:

الثانوية العامة ماتاخدش منه غلـوة.. بـس يلاقـى الجـو المناسب)

وقال لنا إن هدى هيأت له هذا الجو المناسب وأنـه كـان يضع كلماتى أمامه لأنها تحمل الثقة فيه وفي قدراته العقليـة ثم التمنى بأن يهيأ لي الجو المناسب..وكأننى كنت أقرأ مـا بداخله..

يومها فاجأته وفاجأت حنان بهذا التنبؤ الـذي قمـت بـه وأبلغته حنان وأمها من أن إبراهيم قد تـزوج سـيدة يعمـل عندها وأنها شرعت في إعادته إلى سلك الدراسـة ليصـبح مهندساً أو طبيباً.. ثم فاجأت حنان بأن الذهول الذي أخـذها عندما شاهدت إبراهيم في الكلية هو نفس الذهول الذي أخذنى وجعلنى أهرول إلى طنطا للتعرف بأثر رجعى على التاريخ الذي فاتنى من سنوات إبراهيم الأخيـرة.. ثـم زاد ذهـولى عندما اكتشفت أن ما ألقيت به من تصريح غير حقيقي عـن زواج إبراهيم وانتظامه في الدراسة ثبت أنـه كـان قـراءة عشوائية في صفحة حقيقية كتبها القدر فعلاً..

يومها علّق على حديثى بعبارة أنيقة أعجبتنى.. وهي أننى أمتلك الشفافية.. فحمدت ا أنه بعد سنوات طويلة اكتشـف

ميزة في شخصى لعلها تخفف قسوة رأيه السابق الذى قالـه عنى وهو عدم ثقته في ذكائي ناهيك عن اسـتهجانه لعـدم اشتعال أعماقي بحمية الشباب وجسارته..

واتضح لي في نهاية الجلسة أنه زارنا في عـز الحـوار الساخن الذي يتعالى بينه وبين فاطمة وهدى وما حولهمـا.. وأنه عرج علينا قادماً من باب القطار إلى باب شقتنا مباشرة قبل أن يذهب إلى هدى التى تجلس في انتظاره على أحر من الجمر..

- ٢٠ -

لم تكن بنفس نضارتها وزينتها التى تعود أن تقابله بهـا.. هناك مسحة من الحزن والأسى لا يجد لها تفسيراً تلوح فـي وجهها.. ولما لم يجد طعاماً من صنعها في انتظاره أيقن أنها تخلت عن أهم ما تحرص عليه فـي كسـب وده ورضـاه ومديحه وهو أن يأكل دوماً من صنعها كل الأصناف التـى أحبها على يديها..

أخذته الهواجس.. هذه ليست هدى.. ماذا بها؟.. ما الـذي يشغلها ويأخذها عنه بعيداً رغم جلوسها أمامه؟.. لم يجد مـا يخرجه بها عن صمتها الكئيب.. ونسى أنها في انتظار مـا وعدها به من مشاركته الضحك على تمثيلية موت الموظـف الوهمى والذي أغلق المكتب يوماً حداداً عليه..

فاجأته: مقلتليش على التمثيلية..

سألها: تمثيلية؟.. تمثيلية إيه؟..

سألته: إنت نسيت اللي قلتهولي امبارح؟..

تذكر: آه.. آه.. بعدين حاحكى لك..

لم تعهده مراوغاً.. ناسياً.. متناسياً..

وهو لم يعهد نفسه هارباً.. متخاذلاً.. متلجلجاً.. فهو حتى الآن لم يجهز لكذبة يطرحها أمام هدى يبرر بها تمثيليتـه - على حد تعبيره – والتى ألّـفها في المكتب لإزاحة السـفير ومنعه من مقابلته.. إن هدى لم تنس ما قالـه لهـا.. وهـي تطلب التوضيح.. ومن الواضح أنها لم تأخذ الموضوع بشكل سطحى.. ولكنها ومن خلال صمتها واهتمامها تأخذه ببعض الشك والريبة..

هي الآن فـي انتظـار أن ينهـى ثرثرتـه فـي شـتى الموضوعات التى راح يبحر فيها ولا تعرف إلى أين ستنتهى به وبها.. هي فقط تتمنى أن يشفى غليلها بالولوج من خلال هذه الثرثرة إلى الأخبار التى أصبحت تعرفها ولا تستطيع أن تحدثه عنها.. أخبار الرجال الـذين زاروا المكتـب زيـارة مفاجئة ومريبة أخذت شكل الهجوم.. وأخبار فاطمة زميلتـه اللبنانية التى قالت لها بلسانها أنها خطيبته.. إن مـا تنتظـره هدى هي أن تأخذ من لسانه الحقيقة أولاً ثم تؤسس موقفهـا على ضوء هذه الحقيقة.. فهى حتى الآن تخشـى أن تبـادر بهجوم ربما لا يكون مبنياً على حـق بـين.. ولا تريـد أن تطرح سؤالاً مباغتاً عن: من هي فاطمة اللبنانية؟.. وهل هي

التى كانت رفيقتك في رحلة الأمس إلى القاهرة؟.. ولماذا لم تخبرنى بها طالما أن مشوارك معها كان بريئاً ويدخل فـي نطاق العمل بمشروع البكالوريوس؟.. ولماذا تتحاشى الحديث عن هؤلاء الرجال الذين اقتحموا مكتبنـا فجـأة وأجبرتْـك زيارتهم أن تغلق المكتب يوماً كاملاً ونصف يوم للابتعاد عن مقابلتهم مرة أخرى..؟

ولما يئست من قيامه بالحديث في تلك الأشياء التى تعنيها والتى جاءت من أجلها مسرعة من طنطا.. نهضت في تثاقل وإعياء واختارت أن تنام في غرفة جانبية طالبة منـه فـي صوت مهموم أن يسمح لها بذلك لأنها مرهقة ولن تسـتطيع أن تشاركه سريره الليلة..

نظر إليها مشدوهاً.. وكيانه كله يبحث عـن سـر هـذه التعبيرات العملية التى صدرت وتصـدر منهـا: لا تقابلـه ببشاشتها وبهجتها وزينتها المعتادة.. لم تصنع لـه طعامـه المفضل.. تهجر سرير الزوجية في واقعة هي الأولـى مـن نوعها..إنها لم تتحدث بالشكل الذي يتيح له أن يلمح بعض ما لديها.. ولكنها أصدرت مواقف غير عادية تُغنـى عـن أي حديث..

- : مالك يا هدى.. إنت زعلانة منى؟.. أنا غلطت فْ حاجة؟..

كان سؤاله دافئاً ويحمل قدراً هائلاً من الحنان.. وكأنها يجب ألا تحزن منه.. لأنه لم يخطئ في شئ.. ولكن ما صدر منها من إجابة جعلته يعيد النظر في تلك البراءة المصطنعة التى راحت هدى تعيد فيها النظر قبله.. براءته..

- : أنا مش زعلانة منك.. أنا زعلانة من نفسي.. وانت ما غلطتش في حاجة.. أنا اللي غلطت في كل حاجة..

تحرك خلفها ناحية الحجرة التى اختارتها والتى راحت تشق طريقها إليها..

- : قصدك إيه؟.. وضحى كلامك..

- : إنت عارف قصدى كويس.. ولما توضح كلامك أنت.. أنا كلامى حيكون واضح.. تصبح على خير..

وأغلقت على نفسها غرفتها.. وألقت بنفسها على سرير صغير.. دفنت رأسها في الوسادة.. وراحت تبكى.. تبكى بحرقة شديدة.. وصوت مكتوم..

***

هو الآن يملك ليلة طويلة سيفترسه فيها الأرق ويتمكن منه السهد والقلق.. وهدى تلك التى هجرته جسماً برغبتها الليلة ستغزوه فكراً رغماً عنه الليلة.. فمن الضرورى أن يسارع بتأليف رواية مقنعة عن موظفه الميت الذي صنع به تمثيلية.. وقال لها بنفسه أنها تمثيلية.. ثم يربطها برواية أخرى عن هجمة السفير إن كانت قد علمت بها..

وفي الصباح.. رأته هدى يتقدم إليها في خجل واستحياء ويحكى لها عن واقعة مخجلة - تعمد ألا يتحدث عنها في المساء حتى لا يؤرقها في نومها -.. ذلك أن شقيقه الأصغر كمال وهو شقيقه الوحيد - كما تعرف - قد تورط في اتهام بسرقة مجوهرات من فيلا أحد السفراء حيث يعمل عنده في طاقم الأمن.. وهو واثق أن شقيقه برئ ولكن مصيبته أنه هرب عندما وجدهم يضيقون عليه الخناق ولا يملك دليلاً لبراءته أمام قوة اتهامهم له بمساعدة بعض الخبثاء.. وأنه كذب عليها عندما قال لها إنه في القاهرة من أجل مشروع البكالوريوس والحقيقة أنه كان هناك من أجل هذا الموضوع.. وأن غلطته أنه كان قد أعطى لشقيقه هذا عنوان

المكتب في الإسكندرية مشترطاً عليه ألا يستخدمه إلا في الطوارئ وقد تبين أن شقيقه كان قد ذكر لهم هذا العنوان كبيان لأقرب الأقارب في استمارة التعيين.. ومن هنا فقد بادر السفير ورجاله إلى مطاردة أخيه في هذا العنوان.. وعندما علم بهذا الهجوم قام بإغلاق المكتب بتمثيلية الوفاة الوهمية حتى لا يعودوا مرة أخرى..

الخجل الذي رسمه في وجهه.. والهم الذي لون به صوته وهو يحكى عن أخيه.. والحزن المرسوم من أجل المصير الغامض لكمال المسكين جعلها تحمل نفس الهم وتستقبل نفس الحزن من أجل هذا الولد المظلوم.. وتُبدى إعجابها بينها وبين نفسها بتلك الحيلة التى قام بها إبراهيم للمحافظة على شكل المكتب وسمعته أمام الناس والجيران.. ورغم الارتياح الذي داخلها أمام هذا التوضيح إلا أنها عاتبته بشدة لأنه كان خَجِلاً من ذكر هذه الواقعة لها لأنه لا يوجد بينهما هذا الحاجز الذي يمنعه من مصارحتها بكل ما يؤلمه.. لأنها ليست مجرد مستمعة بل هي شريكته التى يجب عليها أن تقوم بدورها في البحث عن أخيه ومساعدته لإثبات براءته..

شكرها على جمال مشاعرها.. وطلب منها أن تنسى هذا الموضوع لأنه لن يحرم من إيجاد وسيلة للعثور على الحـل المناسب.. وفي لحظة تلقّيها الشكر ومع ارتياحها المفـاجئ لتعرفها عن سر التمثيلية راق لها أن تشاركه الصراحة..

- : مادمت صارحتنى بموضوع المكتب.. أنـا كمـان عايزه أصارحك بموضوع تانى.. موضـوع شـاغل بالى وكنت حاغلط زيك وأخبيه عليك..

- : موضوع إيه؟..

- : فاطمة..

دق قلبه بسرعة مفاجئة.. وغامت الدنيا أمام وجهه..

- : فاطمة مين؟..

- : زميلتك اللبنانية؟..

- : مالها؟..

- : صحيح إنك خطبتها.. أو عايز تخطبها؟..

انتفض واقفاً.. انتفاضة تقول إنه منزعج لما يسمعه منهـا الآن.. فكيف يقبل على نفسه أن يخطب الفتاة التى تسببت في اتهام شقيقه كمال بالسرقة.. وستدخله السجن..

- : وإيه دخْل كمال بفاطمة؟..

عاد فجلس إليها وهو يلتقط أنفاسه.. ويبـدى أسـفه لأن كمال يعمل لدى السفير الذي هو زوج أم فاطمة.. وأنها هى التى سعت في تعيينه بناء على طلبه.. وأنها فعـلاً تحبـه.. ولكنه يهرب منها لأنها لا تعلم أنه متزوج.. ويبدو أنها عندما يئست من الارتباط به وضعت هـذه المـؤامرة الرخيصـة لإحراجه..

رآها تهز رأسها علامة الفهم المقنـع لموضـوع كـان غامضاً عليها ثم تغمغم:

- : طيب كويس إنى قلت لها إن احنا متجوزين؟..

صوب إليها نظراته:

- : قلتى لمين؟..

ردت بهدوء وبراءة:

- : لفاطمة..

وهو مازال مصوباً إليها نظراته..

- : وانتِ شفتى فاطمة فين؟..

- : هي كلمتنى في التليفون..

- : هنا؟..

- : لأ.. في طنطا..

- : وهي جابت تليفون طنطا منين؟..

- : مش عارفة.. اسأل نفسك.. يمكن سرقته منك..

قرر فوراً أن يحول هجومها إليه إلى هجوم عليها..

- : هي التليفونات بتتسرق.. يا هـانم؟.. قـولى إنـك بتتجسسي على.. عشان كـده ضـاربة بـوز مـن إمبارح.. ولا حتى فكرتى تعملى الغدا لواحـد كـان مسافر.. وتاخدى بعضك وتنامى لوحدك بعيد عنى..

أسرعت هي بارتداء الدرع الـواقى لسـهامه المفاجئـة والمتتابعة.. اقتربت منه آخذة في تهدئته بحديث لائم وهادئ: كيف يتهمها بالتجسس عليه وهي لم تحـاول ذات مـرة أن تسأله عن برنامج يومه أو عن أصدقائه.. ثم راحت تقسم له أنها فوجئت بتليفون هذه البنت المائعة وأنها لم ترتح لحديثها ولذا فقد بادرت بتوجيه صدمة مقصودة إليها بإخبارها بـأن إبراهيم الذي تتحدث عنه كخطيب لهـا هـو فـي الأصـل زوجها..

استل من جراب أسهمه التآمرية سهماً يقترب من فكرة: " حديث النائم ".. فقام بتحويله إلى " حديث المذهول ".. وراح يحدث نفسه وكأنه في غيبوبة يتحدث مع المجهول.. وينثـر رذاذاً من الكلام الغير مترابط عن إخلاصـه الـذي يـذهب أدراج الرياح.. وتفانيه في خدمتها كزوج لا يقرب مالهـا إلا بإذنها.. ويطور في أعمالها وتجارتها وأرباحها.. صحيح أنه يتمتع بهذا النعيم في حدود مصلحته كطالب هندسة ستفخر به هى ذات يوم كزوج مؤهل بشهادة عليا في الهندسة.. ولكن: كيف له أن يفخر مثلها بنفسه وهو محـل شـك فـي نظـر زوجته؟.. وسرعان ما أتى " حـديث المـذهول " بنتيجتـه السريعة مع هدى التى كانت في طريقهـا إلـى أن تلذعـه باتهاماتها.. تماماً كما أتى " حديث النائم " بنتيجته السـريعة مع والده الذي كان في طريقه أن يلذعه بعصاه..

راحت تقبله.. وتحتضنه.. وتربت علـى كتفيـه تهدئـةً واسترضاء.. وتطلب منه الصفح والمغفرة فانفلت منها إلـى حجرة النوم وألقى بنفسه على السرير مهتاجاً.. فألقت بنفسها إلى جواره وهي تواصل طلب الصفح والمغفرة..

هو الآن في طريقه أن يصفح عنها.. جذبها إليه.. جـذب رأسها إلى صدره.. راح يداعب شعرها بأناملـه.. راحـت أنامله تتسلل إلى رقبتها.. ثم صدرها.. ثم باقى جسدها.. عمد إلى قميصها الشفاف فخلعه عنها بهـدوء.. تيـار الرعشـة المواتية يسرى في أوصالها.. تحركت لتنـزع عـن نفسـها القطع الصغيرة من ملابسها.. صوت الرغبة الجامحـة راح يعلو.. ثم يعلو.. حتى طغى على رنين التليفون الـذي راح فجأة يعلو بجوارهما.. مدت يدها فنزعت الفيشة ليخمد صوت التليفون ولتتهيأ هي لذاك السيف الساخن الـذي راح يخمـد أنفاسها تدريجياً..

- ٢١ -

استقبل هواء البحر بانتعاش نشط.. وأخـذ طريقـه إلـى الجامعة ليسجل أول ظهور له منذ سرى اسمه واسم فاطمـة على الهمسات وعبر الأثير..

تساءل عن تلك الصدفة العجيبة التى جعلت كل الجبهـات المحيطة به تواجهه كلها في وقت واحد.. هدى وفاطمة ومن حولهما.. ثم عاد طارحاً اعتقاده أن كل الأمور ترتبت علـى بعضها البعض وأنها ليست صدفة قدر ما هو تناثر عديد من خيوط المياه المزعجة من ثقوب عديدة تنساب من خرطـوم واحد.. مهترئ..

لقد انطفأ بركان هدى الذي كاد أن ينفجر.. لقد خمد أوار زمجرتها الواعدة بالويل عندما انهمرت عليها سيول الحـب والملاطفة..

هز كتفيه باستهانة.. " ليس الحب وحده هو السـبب فـي استمالتها.. وليست الملاطفة والجـنس.. ولكـن شخصـيتها الطيبة المليئة بالثقة في شخصى والإيمان الكامل بكل كلمـة أقولها.. هدى مستعدة أن تصدقنى حتى لو كان كل ما بداخلي وبداخلها يقول: إننى أكذب.. المصيبة الآن في فاطمة.. هـي

الآن تعلم أننى متزوج من سيدة اسمها هدى.. لقد سمعت ذلك بنفسها.. سمعته مِمن؟.. من هدى نفسها.. لقد تحولت فاطمة تحولاً مفاجئاً في ظرف ساعات.. أنا الآن أستطيع أن أحـدد بداية هذا التحول.. البداية هي الدقيقة التى علمت فيها أننـى متزوج من هدى.. عِلمت؟.. كيف با عرفت تلك الشيطانة رقم تليفون منزل طنطا..؟.. أدفع عمرى لمن يـدلنى علـى ذلك المدمر الذي أهداها هذا الرقم.. لاشك أن كل ما فعلتـه هي بعد ذلك هو رد الفعل الأنثوى لجريمة اكتشاف الزوجـة الأخرى.. الزوجة التى في الخفاء.. لاشك أنها تنازلت عـن المحضر انتقاماً وغلاً؟.. لاشك أنها أجلـت سـفرها معـى احتقاراً وقرفاً؟.. لاشك أنها طلبت التعرف على أهلى لتضع يدها على كل الحقائق وليس تشبهاً بموقفها الذي تعرف فيـه أهلها على حقيقة زواجنا؟..

أنا الآن لا أستطيع أن أباغتها بزيارة في منزلهـا أمـام جدتها والخادمة فمن المؤكد أن السفير كال لهذه الجدة كل ما تمكّن من كيله لها سباباً واتهاماً بالتقصير.. ومن المؤكد أنها حزينة منى.. أو حزينة على وعلى حفيدتها.. فلأتركها عـدة أيام حتى تهدأ الأمور.. وأنا أيضاً لا أستطيع أن أتحدث مـع

الجدة في التليفون للتعرف على مدى وصـول فاطمـة مـن السفر..

إذن ليس أمامى إلا مقابلتها في الكلية والعودة بهـا فـور لقائها إلى عشنا الهادئ الجميل.. أوه.. ما بالي نسيت المرور على شقة ستانلى أولاً؟.. لا بأس.. إن لم أجدها في الكليـة.. سأعود لترك رسالة لها بشـقة سـتانلى.. أو ربمـا أتجـرأ وأتحدث مع جدتها من تليفون ستانلى..

ما أراه الآن من موقف فاطمة هو أنها ألقت بـالكرة فـي ملعبي وجلست تنتظر.. ومطلوب منى أن أواصل اللعـب.. مطلوب منى أن أفعل شيئاً.. مطلوب منى أن أحـرك القلـم على الأوراق البيضاء.. هذا ما قاله لي الدكتور الحضـري أستاذي في مادة التصميم المعماري.. وجدنى متوقفاً متبلـداً وأنا أبحث عن فكرة أضعها على الورق لأحـد مشـروعات أعمال السنة.. هو يعرف قدرتى وحبي للتصميم المعمـاري لكنه لمح من الأوراق البيضاء الخالية من أي خطوط أننـى أبحث في الهواء عن فكرة.. قال لي: التوقـف مرفـوض.. وإرسال الأفكار على عواهنها وتركها مبعثرة في الهـواء.. مرفوض.. اقبض بيدك علـى أي خطـوط وضـعها علـى

الورق.. فكّر في الشـكل إن لـم تكـن واعيـاً لمحتـوى المضمون.. فربما يوحى لك الشكل ببعض المضـمون.. أو بعثر بعض المفردات فقد تأتى لك بالشـكل عنـدما تحـاول التنسيق فيما بينها.. المهم.. لا تتوقف.. افعـل شـيئاً.. أي شئ..

ما أقل النصائح التى وضعتها في قلبي هدى ونبراسـاً.. ومنها تلك النصيحة.. لأنها في عمقها لا تتعلق بالخروج من مأزق البحث عن فكرة معمارية.. ولكنها تتعلق بالخروج من أى مأزق في الحياة.. مأزق يحتاج إلى فكرة.. والمآزق دائماً تحتاج إلى أفكار لتخرج منها.. وفي مأزقي مع فاطمة آن لي أن أتحرك.. أحرك قلمى على الصفحات البيضـاء.. هنـاك فراغ لابد من تلوينه.. الفراغات الخاوية لا تعنـى شـيئاً.. الفراغ الفراغ: ضياع.. "

لم يجدها في الكلية.. قلّب الاتيليهات والمـدرجات حتـى يعثر على أنا وحنان.. تحرك بنا إلى الفناء الجنوبي المطـل على شارع الحرية.. احتللنا صخرة في تلك الحديقة الربوة.. ألقى أمامنا بمخاوفه الوليدة.. المخاوف التى تؤكـد ظهـور شخص ما يطارده ويهدف إلى تـدميره.. فكيـف تتسـابق

الأحداث وتجرى بهذه السرعة خلال أيام قليلة ليعرف السفير أننى تزوجت من فاطمة.. وتعرف فاطمة أننى متزوج مـن هدى.. ثم يتاح لهدى أن تتحدث مع فاطمة.. وتنعقد حوله كل هذه الأحداث المربكة..

الحقيقة أنه لم تبدر منه التفاتة شك ناحيتى أنـا وحنـان.. كانت مكاشفته لنا لا تحمل إسقاطاً أو غمزاً يقول لنـا فيـه بشكل مستتر: أخشى أن تكونا خالفتمـا العهـد وتحركتمـا ضدى.. يا أبناء الخال والخالة..

كان الهم يأكله.. ولكنه سرعان ما يخرج منه ويتحول إلى الشخص الضحوك المهرج عندما يتلقـى تحايـا وتعليقـات لبعض شلته الذين يمرون علينا.. كان يبعث لهم تعليقاته وهو في جلسته معنا دون أن يغادرنا.. مرة واحدة التى هب فيهـا إلى أحدهم عندما هتف له: -: قاسم الحارثى باعتاك سـلام من دبي..

سأله: كتب لك عنوانه..؟

أجابه الزميل: والتليفون كمان..

قفز إليه.. وظل معه عدة دقائق يدون معلومات قاسم هذا في ورقة.. وأقبل علينا وهو يدس الورقة في جيبه وعلى فمه

ابتسامة ثم راح يقص علينا حكاية قاسم الـذي تخـرج منـذ عامين وسافر إلى بلده وقصة حبه لإحـدى طالبـات كليـة التجارة وكيف لعب إبراهيم دوراً هاماً في تزويجه منهـا.."
لقد سافرت معه.. ووعدانى أن يكتبا لي.. ولكنى أفهمتهما أنه لا طاقة لي على كتابة الخطابات.. وأن مراسلتهما سـتكون من طرف واحد في الغالب.. ويبدو أنهما اكتفيـا بـإبلاغي السلام عن طريق باقي الشلة .."

كانت صدمته مروعة عندما فشل في فتح شقة سـتانلى.. عشه الهادئ الجميل مع فاطمة.. عشه الذي مازالت أركانـه تحمل عبق الحب.. وروعة الشباب.. وبهجة الولوج إلى عالم الجسد المجنون والقلب المنصهر في صيحة الرغبة الزاعقة.. وجذوة الإقدام المشتعل..

عندما أبى المفتاح أن يلج في مكانه المعـروف.. تأمـل الخدوش المحيطة بإطار الكالون ليتعرف وهو مذهول علـى أثر قيام أحدهم بتغيير المفتاح.. وتلك رسالة تتركها له فاطمة عبر هذا الموقف:" أنت غير مرغوب فيك.. لا تحضر إلـى هنا.."

جن جنونه.. وانطلق دون وعى ودون تفكير ودون ترتيب إلى شقتها.. صافح جدتها بلا مبالاة وعيونه تبحث عن ضالته في أرجاء الشقة.. أومأت له الجدة برأسها ناحية الفراندة.. انطلق إليها هناك.. وجدها تتأرجح علـى كرسـي هـزاز.. شاهدته يندفع ناحيتها وهو كظيم.. لم تتوقف عن التـأرجح.. وعندما رأته يتهيأ للحديث أومـأت لـه أن يجلـس.. بـادر بالجلوس أمامها فور إشارتها وهو مـازال يصـوب إليهـا نظرات مختلفة المشاعر فيها التساؤل وفيها الاستغراب وفيها التأمل..

قالت له بعد أن استقر على كرسيه.. وبعد أن توقفت هي عن التأرجح..

- : دخيلك إبراهيم.. طلقنى..

وبرنة عاطفية دافئة كسا بها صوته الحزين:

- : ليه.. ليه يا فاطمة؟..

- : من أجل حبنا يعيش.. حبى أنا لك.. إنت ما بتعرف الحب.. أنا حافضل أحبـك بصـورتك المرسـومة بقلبي.. الصورة السليمة لحد تلات تيام.. بعدها مـا أبغى أشوه هالصورة.. ما أبغى حتى أشوفك.. إنـت

بالنسبة إلى شخص تانى.. زميـل بالكليـة.. زميـل فقط..

- : إنت كده يا فاطمة بتخونى العهد..

- : أخون؟.. دخيلك.. بلا هالكلام الكِبير.. مـن فينـا الخاين؟.. أنا ولاّ إنْتَ..

- : إنتِ..

هبت واقفة.. محتجة..

- : شو هـالْحكى.. دخيلـك ا لا تْجنّنـى.. بتقلـب الموازين ببراعة شديدة.. ما هى شطارة إنك تقلـب الموازين..

رسم علامات الجد على ملامحه.. وتحرك مطـلاً علـى الشارع.. ملقياً نظرة سريعة على السيارات التى تمرق على الكورنيش.. ثم عاد إليها.. وقد اكتسا وجهه بالألم:

- : فاطمة.. أنا ما بقلب الموازين ببراعة شديدة.. إنت اللى نسيتى إيه هو الميزان اللى خلاّنى أتجوزك بكل الخطيئة اللى جواكى.. الميزان ده يا فاطمة كـان إن كل واحد فينا ينسى الماضي بتاع التانى.. الميزان هو إننا اتفقنا إن عيد ميلادنا الحقيقي هو تاريخ جوازنا..

الفرق بين الجرح اللى كـان جـواكي هـو إن أنـا كشفته.. وسامحتك.. بس إديـت لنفسـي الحـق أن أداري جرحى.. لأن جرحى لا يقارن بجرحك.. إيه يعنى لما أكون متجوز واحدة تانية قبل ما أتجـوزك هل ده يعتبر جرح؟.. أبداً.. لأنى ممكن أطلقها فـي أى وقت.. إذن هو مـش جـرح.. ولا خطـأ.. ولا خطيئة.. معقول يكون العقاب عندك بأثر رجعـى.. وعقاب إيه؟.. عقاب بتهدمى بيه كل حياتنا وحبنـا.. نسيتى إن أنا اللي جاوبت فوراً على سؤالك: " إنـت بتقدر تتغلب على الماضي حقى؟ " بإجابة كلها حـب وإنسانية وتسامح.. واتفقت معـاكى إنـى حانسـى الماضي حقك بس.. بشرط كل واحـد فينـا ينسـى ماضي التانى.. أنا كنت باعمل الاتفاق ده وفْ خيالى الموقف اللي إحنا فيه النهارده.. الموقف اللـى لازم يظهر في يوم ويتكشف.. الموقف اللي يجب أي ست في الدنيا تزعل منه ماعدا فاطمـة معـروف.. لأن فاطمة اتمتعت بتسامح كبير من راجل وضع حبها في كفة وخطيئتها في كفة تانية ومع ذلـك إتجوزهـا..

النهاردة فاطمة اللى عرفت قيمة الحـب والتسـامح والعفو مش قادرة تدى نفس الحب ونفـس التسـامح ونفس العفو لنفس الراجل اللي غطّاها ودفـّاها بكـل المعانى الجميلة دي..

كانت كلماته تسري في أعماقها فتسـري معهـا رعشـة خفيفة في باقي جسدها.. كان صوته الدافئ المتهدج الحنـون يحمل كلماته المنتقاة إلى سمعها فيطير بهـا إلـى ماضـي السنوات القريبة حينما انفجرت رغبتهما المحمومة في إحدى لياليها.. رغبة مجنونة توحد فيها جسـدها الفـائر وجسـده العنيف في بانيو صغير ذكرهما بشرنقة الفراشات الجميلـة.. وقوقعة المحار الساكن.. رأته مذهولاً لأن الماء والصابون لم يتخضبا بدماء شرف الأنوثة.. هي لا تعلم أن ذهولـه كـان مصطنعاً.. وأن سحابة الكدر التى لاحت على وجهه - وقـد هدأ تواً من رعشة اللذة الجامحة وجعلتها تتعلق برقبته وتبكي -.. كانت سحابة زائفة.. قالت له سامحنى.. إنـه شـادى.. عبث بي.. سلب إرادتى قبل أن يسلبنى بكارتى..

لقد أزاح إبراهيم ستارة كانت مسدلة على ماضٍ اختار هو أن ينساه.. وتمنت هي لو تنساه.. ولكن يبـدو أن السـتارة

كانت مسدلة على عيونها وعقلها وتفكيرها ونسيت أنه ضحى بكرامته حتى يحفظ كرامتها.. وخدش عزة رجولتـه حتـى يجلب لها عزة أنوثتها..

إنه الآن يفقأ غرور النسيان بأصابع المواجهـة وتعريـة الحقائق..

وهي الآن تتذكر أنفاسهما الحارة في البانيو وكيف أخمدها هول المفاجأة في قلبه وذلة الانكسار في قلبها.. فراحت هـي تبكى.. وراح هو يعالج البكاء..

قالت لنفسها: كم أنا مخطئة.. كم أنا جبانة.. كيف لـي أن أحاسبه بكل هذه القسوة وهو الذي اختار ألا يحاسبنى ببعض هذه القسوة..؟!

تخطى باب الفراندة إلى الصالة تهيؤاً للانصراف..

كانت الجدة تراقب شبحهما من خلف زجاج الفراندة دون أن يصل إلى سمعها ما يقال من حديث.. ولكنها كانت تراقب الملامح المتشنجة.. والإشارات الرعناء..

لاحقته الجدة قبل أن ينصرف بكلمة سريعة وهادئة:

- : إبراهيم.. لا تسمع كلامها.. لا تطلقها..

ثم لاحقت حفيدتها:

- : فاطمة.. باركى راح تتشردى بدون إبراهيم..

توقف في منتصف الصالة.. رنا إليها من أعـلا كتفـه.. حاول أن يبدو رومانسياً.. تمنى لو اسـتجدى دمعـة تبـرق للحظات في عيونه.. ولكنه لا يجيد البكاء.. قال لها بصـوت مرتعش:

- : بعد إذنك.. المفتاح الجديد أشـيل حاجـاتى مـن الشقة..

تذكرت الكتب والمذكرات وشرائط الكاسـيت.. والهـدايا وأربطة العنق والعطور.. ومجلات العمـارة.. فـي ركنـه الهادئ الملئ بالفخامة.. إنه يريد أن يذهب الآن ليحوله إلـى خرابة.. إلى فراغ.. فراغ خاوٍ بلا معنى..

قالت له:

- : جاية معك..

أنفاسه الهادئة في السيارة - وقد أخذه الصمت – لا تعبر عن الغليان الذي يجيش في أعماقه.. غليان أغلب مـا فيـه رعشة الجنس وهو يرى فخذها الممتلئ الرخامى اللامع وهي تجلس بجواره على مقعد القيادة.. غليان بعض ما فيـه هـو الحقد على موقفها منه وتفكيرهـا المفـاجئ المتطـرف أن

تضحى به.. غليان أهون ما فيه شعوره بانهيار مشـروعه.. فقد كان يظن أن ورقة هدى هي التى سـتأخذ دورهـا فـي السقوط.. ولكن يبدو أن ورقة فاطمـة التـى هبـت ريـح فأطارتها ستجعله يعيد التفكير في تثبيت ورقة هدى..

راح يجمع أشياءه وهي تقف بعيداً فـي الصـالة.. كـان يرتبها في حقيبة دون أن يبادلها أى حديث.. كانت وهى في انتظاره نهباً لقلق وخوف لا تعرف مصدرهما.. حاولـت أن تختلق أى حديث لعل تدافع الكلام يصل بهمـا إلـى كلمـة رضا.. كرامتها لا تسمح لها.. فقد صارحته أنها لا تريد أن تراه (ما أبغى حتى أشوفك).. إذن فهو يسـتجيب لطلبهـا.. ولكنه قبل أن يستجيب لم يـنس أن يضـع أمامهـا بعـض الحقائق.. حقائق أهمها أنه أشجع منها.. وأخلـص منهـا.. وأكثر عفواً أو تسامحاً منها.. إذن فقد بادر بتعريتهـا أمـام نفسها قبل أن يغادر.. وهو الآن يغـادر بـلا نـدم.. وبـلا تعليق.." هو الآن سيذهب خالصاً مخلّصاً لهدى.. تلك السيدة التى مازالت تتذكر رنة صوتها الوقور الهادئ المحب الغيور في التليفون.. هنيئاً لك يا هدى.. ها هو طيـرك السـندبادى

السارح يعود إليك.. ليكون لك.. لك وحـدك.. ذلـك أننـى تركته لك.. بغبائى.. وغرورى.. وحماقتى..

- : إنت بتحب هدى...

التفت إليها فجأة.. لهذا السؤال المباغت:

- : جداً..

- : وبتحبنى..؟

- : جداً.. جداً..

- : إيه الفرق اللي بينى وبين هدى..؟

- : هدى عاقلة.. وأنا باحب عقلها.. وإنت مجنونة وأنا بأموت في جنونك..

وكأنها أردات أن تؤكد له ما قاله عنهـا الآن مـن أنهـا مجنونة.. عمدت إلى الأشياء التى رتبها في الحقيبة فأهالتهـا على الأرض ثم جذبته من ذراعه وجرت بـه إلـى غرفـة النوم.. وألقت به على السرير..

- : إنت سبب جنوني..

جذبها إليه.. جذب رأسها إلـى صـدره.. راح يـداعب شعرها بأنامله.. راحت أنامله تتسـلل إلـى رقبتهـا.. ثـم

صدرها.. ثم باقي جسدها.. عمد إلى ردائها فخلعـه عنهـا بهدوء.. تيار الرعشة المواتية يسرى في أوصالها.. قامـت فنزعت عن نفسها القطع الصغيرة من ملابسـها.. صـوت الرغبة الجامحة راح يعلو.. يعلو.. علا رنين التليفون فجـأة بجوارهما.. مدت يدها فنزعت الفيشة.. لقد أخمدت صـوت التليفون.. لتهنأ بذلك السيف الساخن الذي راح يخمد أنفاسها تدريجياً..

- ٢٢ -

هناك طريق ما يلوح في خياله.. يلمحه من خلال غلالات الضباب.. يرى بدايته ولا يكاد يرى نهايته ولذا فسرعان ما يتساءل: هل هذا هو طريقى؟.. ومن أدرانـى أنـه هـو؟.. ولماذا لا يكون طريقى هناك؟.. بدايته هناك.. في مكان مـا من العالم.. إنه حتى الآن يرى الدروب التى يسـير فيهـا.. يشقها بنفسه ويمهدها لنفسه.. يسير فيها آملاً أن تفضى بـه إلى الطريق.. أى طريق؟.. هذا ما راح يتأمله ويـدقق فيـه النظر من خلال غلالات الضباب..

إنه يتقافز على الحجارة التى يرميها أمام أقدامه في دروبه الموحلة.. كانت عنايات أحد هذه الأحجار.. سـلك بهـا أو عليها درباً أفضى به إلى درب هدى.. في هذا الدرب الفريد راح يلقى أمام أقدامه بأحجار أكثر علواً وأماناً هيأتهـا لـه النعمة التى راح يتمرغ فيها في أحضـان هـدى.. ولأنـه والارتياب صنوان.. ولأنه والقلق توأمان فقد راح يرنو إلـى مزيد من الأمان.. فاخترع هذا الدرب الجديـد درب فاطمـة معروف.. لقد اخترعه في لحظة هذيان واندفاع وتهور ثـم مهده وسلكه وسار فيه متخطياً أوحاله بالتقـافز فـوق تلـك

الحجارة التى هيأها له حب لم يتوقعه حملته له فاطمة وإقبال منها عليه ملئ بجنون الشبق واللهفة والرغبة.. لقد تخطـى وحلاً كثيفاً ألقاه من ألقاه في دربيـه.. درب هـدى.. ودرب فاطمة.. لقد تصدى لعاصفة كادت أن تقتلع عشّيه في وقـت واحد.. ورغم أن العاصفة قد فقدت قوتها وخلت من عوامل الخطر التى تكمن فيها إلا أنه فقد جزءاً كبيراً مـن الشـعور بالاستقرار والأمان.. وما يلبث بين الحين والآخر أن يتأمـل بعين الريبة والشك بعض الأحداث اليومية العادية التى كـان – في السابق – يمر عليها مرور الكرام.. فلأنه تمكن مـن إقناع فاطمة أنه بزواجه المستحق من هدى قبل أن يتعـرف عليها لم يكن يعلم أنه من الممكن أن يقع في حب آخر يملك عليه كل قلبه.. وأنه أمام حبه لها تعمـد أن يتناسـى حالـة الزواج التى يعيشها مع هدى كأنها لم تكن.. ولذا فقد ركـز معها في حديث التعارف أن ينسى كل منهما ماضى الآخـر خاصة عندما وجدها ملوثة بماضٍ يجب أن ينسى.. إلا أنه لم يتمكن من إقناع هدى بأي حقيقة أخرى غير أنها هي المرأة الوحيدة في حياته.. وأنه إذا كانت هناك زميلة مـا تطـارده ويعيش بينهما حب من طرف واحد هو حبها لـه.. فإنـه لا

ذنب له في ذلك.. ولأن هدى مسـتعدة أن تتغاضـى عـن الإمساك بأى أكاذيب من الممكن أن تلمحها في حديث زوجها الحبيب فقد ساعده ذلك على أن ينعم بهدوء كانت هي السبب في خلقه وأصبح دوره المرسوم أن يحافظ على هذا الهـدوء ولن يتأتى له ذلك إلا بغلق كل الأبواب والنوافذ التـى مـن الممكن أن تتسرب منها الـريح أو الضـجيج أو ضوضـاء الكلام..

لقد خمدت ريح السفير عندما أبرزت له زوجته ورقتـين إحداهما محضر والأخرى تنازل عنه.. والمحتوى يقول أنـه كان ذئباً يتربص بابنتها.. وأنها لكى تصفح عنـه فلابـد أن يلزم جحره ويغادر الفيلا إلى أى مكان يختاره عند أي زيارة تقوم بها فاطمة لأمها.. والمعنى.. أن فاطمة غير موجـودة على وجه الأرض.. وليس للمرء أن يرى إنساناً قد مات..

ولما كان من السهل أن يعرف من هدى كيف توصلت إلى أخبار وتفاصيل الهجمة الدبلوماسية على مكتبها.. ليكتشـف أنه كان هناك خط برئ مفتوح بينها وبين أحد الموظفين: هذا الذي أطلعها على كل التفاصيل.. فقد بادر بالاسـتغناء عـن خدماته عند أول فرصة مسرباً دون إعلان سبباً غائماً ينم في

جزء منه أن هذا الموظف تعدى الخط الأحمـر وهـو أنـه يتحدث مع الهانم دون علمه.. وهنا فقد وضح لكل الطاقم أن هناك شيئا اسمه الخط الأحمر.. ثم توضيح آخر عن: ما هو الخط الأحمر..؟..

طالت جلستى أنا وحنان في انتظار إخـراج مسـرحيته المرسومة.. تمثيلية التعرف من فاطمة على أهلـه.. أهلـه المزيفين.. كنا نرتب ما يخصنا من إخراج.. في انتظـار أن يتصل بنا ليرتب ما يخصه من إخراج..

همست له في الكوريدور: إننا جاهزون لزيارة فاطمة..

ابتسم وغمغم قبل أن ينصرف بالميعاد الذي سيزورنا فيه غداً..

لقد ارتحنا لارتياحه إلينا.. ورحت أكتشف جانبـاً كـان غامضاً في سيرته وهو الجانب الذي نسى فيه القرية وتناسى أهله، فقد كنت أبحث عن فلسفته السوداء في التمسـك بهـذا الموقف البغيض.. و لم يكن من الممكـن أن أطـرح عليـه سؤالاً صريحاً عن قوة تحمله لهذه الهجرة الاختيارية التـى استسلم فيها عم عبد القادر وخالتى صفية والمسـكين كمـال لتلك الصفقة الخاسرة التى باعهم فيها إبراهيم.. فقـد كنـت

أحاول استخراج هذا السر من بين السطور تحاشـياً لثـورة يمكن أن يفجرها في وجهى لو لمست هذا العصب الحساس.. كنت أضع احتمالاً لما يفكر فيه وهو أنه إذا كان قـد غـادر القرية وقد كان شخصاً مقززاً.. فإنه لن يعاود دخولها إلا إذا كان شخصاً معززاً.. وأنه إذا كان قد غادرها وهو صـاحب اسم مجهول في هذا العالم فإنه لن يدخلها إلا وهو صـاحب اسم له بريق وله رنين.. ومع ارتفاع مؤشر هـذا الاحتمـال بناء على مرئياتى كنت أتساءل وكيف له أن يصبو إلى هـذه العظمة وهو يسعى إليها بتلك الأدوات المسروقة..

في جلستنا معه – وهي إحدى الجلسـات القليلـة التـى عقدناها في حياتنا – عرفنا أنه قد تجاوز فكـرة اضـطراره عمل تمثيلية إيجاد أهل مزعومين أمام فاطمة.. لأنه قد جذب فاطمة نفسها لتدور معه في فلك حياته.. حياته التى تقـول - وقالت لها - إنه متزوج ويعيش قبل أن يعرفها مـع امـرأة أخرى.. وأن فاطمة قد قبلته كما هو.. فرع واحد مقطوع من شجرة..

ومن قبيل المعايشة ومن خلال الود الذي حمدنا ا أنه لم يعد مقطوعاً معه مثل زمان: بادرنا فجـذبناه إلـى مشـكلة

راحت تواجهنا أنا وحنان.. كانت المشكلة هي حالـة حمـل تورطت فيه حنان بالخطأ.. وأنها في الشهر الأول.. وأنهـا متمسكة بالإبقاء على هذا الحمل غير عابئة بما ينتظرها من تعب وإرهاق في عاميها الأخيرين بالكلية إذ ستتصدى لتربية طفل في عز انشغالها بالتخرج..

في الوقت الذي أدلى فيه برأيه سـريعاً مؤيـداً ومباركـاً لموقف حنان تحرك إلى الفراندة وقد اكتست ملامحه بمسحة واضحة من الحزن المفاجئ والتجهم الغامض.. وراح يذرع الفراندة جيئة وذهاباً وهو مطأطئ الرأس.. ولما وجدته على هذا الحال تحركت إلى الداخل لأطلب من حنان أن تصنع لنا كوبين من عصير الليمون فقد داخلنى إحساس ما أن إبراهيم قد نأى بنفسه بعيداً عن جلسة يرى أنه لا يجـب أن تكـون حنان مشتركة بها.. فتحرك بعيداً ليجذبنى بمفردى لحـديث خاص معه..

ما إن اقتربت منه بمشروب الليمون حتى بادرنى بسـؤال فيه مباركة واستغراب وتساؤل:

- : يعنى إنت حتكون أب قريب.. يا كرم..؟!!

أجبته ضاحكاً وأنا أحتل مقعدى بجواره:

- : أيوه يا سيدى.. شايف؟..

راح يحدث نفسه:

الواحد زي ما يكون تايه.. موضوع إن الواحـد ممكـن يكون أب عمره ما شغلنى ولا جه في بالى..

ثم عاد فالتفت إلى وطبطب على ركبتى براحته..

- : مبروك.. عن إذنك..

حاولت منعه من الانصراف قبل أن يتناول مشروبه ولكنه اعتذر وتعجل الانصراف.. وقطع الصـالة فـي خطـوات سريعة ملقياً التحية على حنان التى كانت على مقربـة مـن مساره في الصالون..

رحت أُقلب الأمر مع حنان.. وأحلـل كلماتـه الأخيـرة معنا.. ثم أخذنا نتساءل عن هذا التجهم المفاجئ الـذي كسـا وجهه عندما علم بخبر انتظارنا أنا وحنان لقدوم أول طفـل لنا..

لم نصل إلى تفسير مقنع ومؤكد لموقف إبراهيم الذي ترك مشروبه وقفز خارجاً منهياً زيارته لنا بشكل درامـى غيـر متوقع لمجرد علمه أننا في انتظار مولود..

قالت حنان متسائلة: هل هو يحسدنا.. أم يتحسـر علـى نفسه..؟..

بهذا السؤال.. أو بنصف هذا السؤال وضعت حنان يـدها على منطقة الحزن التى تفجرت فجأة في قلب إبراهيم.. فلقد تذكر أو لعلنا ذكرناه بأن الزواج أي زواج ينتهى عادة بشئ اسمه الإنجاب.. ثم أضافت حنان في تحليلها عدة تسـاؤلات أخرى.. لقد تزوج إبراهيم ثلاث نساء.. منهن اثنتـان سـبق لهما الانجاب.. فهل كان هناك اتفاق معقود بيـنهم بتأجيـل الإنجاب؟.. أم أنه رجل عاقر؟.. وإذا كان هناك اتفاق بيـنهم بتأجيل الإنجاب فلماذا تساءل بينه وبين نفسه عن سر عـدم اهتمامه بالإنجاب وإهماله لهذه الفكرة لدرجة النسيان..؟..

لقد انتهت حنان من تحليلاتها إلى شئ شبه مؤكد وهو أن إبراهيم عبد القادر رجل عاقر.. بل انتهت إلى ما هو أطرف وهو أن اكتشاف إبراهيم لهذه الحقيقة قد حدث الليلة.. ومنـذ ساعة.. وفي هذه الشـقة.. شـقتنا.. فـالتجهم المفـاجئ.. والغمغمة المتسائلة.. والانصراف السريع كلهـا تصـرفات تشير إلى أنه صدم بحقيقة تعيش في داخلـه ولا يعرفهـا.. حقيقة أنه كان يجب أن تحدث معه غلطة مثل التـى حـدثت

معنا ويأتى له طفل.. بفارق مهم هو أنه كان يملـك ثلاثـة أضعاف الفرصة التى نملكها لكونه قد اقترن بثلاث نسـاء.. هذا إذا كانت كل نسائه قد تعاطين موانع الحمل سيان كـان هذا التعاطى برغبة مشتركة معه أو من خلف ظهره..

آخر الليل قالت حنان وهي تجذب الغطاء علـى نفسـها يجب أن نتوقع أن نرى إبراهيم من الآن فصـاعداً شخصـاً آخر.. شخصاً جديداً.. ذا مواصـفات جديـدة.. ومشـاعر جديدة.. ودوافع عدوانية وتآمرية جديدة..

نامت وتركتنى نهباً لتفكير عميق راح يوغل بي في مزيد من التعرف على شخصية إبراهيم.. لينتهى بي إلى سـؤالى التقليدى..

إبراهيم عبد القادر.. من أنت؟.. وماذا عندك؟..

- ٢٣ -

لعله لم يلتفت فيما سبق إلى الماهية الحقيقية لفكرة الزواج ومضمونها.. ولعله لم تشغل باله لحظة بعض الكلمات التـى تتطاير على ألسنة العروسـين مـن قـول عـن العـش – الاستقرار- الجهاز – الأولاد – المدارس – ميزانية المنـزل إلى آخر هذه المصطلحات التى أصبحت هي الحياة نفسها..

ولو قلنا إن الجنس هو التعلق بأهداف الحياة واسـتمرارها مسقياً برضاب القـُبلْ وماء الديمومة.. فإنه ليس الهدف الذى خُلِقَتْ له شريعة النكاح.. كما أنه ليس النهاية في مجملـه.. لكنه الوصل الناعم المتفجر بين الهدف الكامن في قيمة الحياة وبين النهاية الغائبة.. عكس ما يراه إبراهيم من أن الجـنس هو الهدف.. وهو النهاية..

الجنس.. والجنس فقط هو الذي كان يحركه نحو الـزواج ولعله استند إلى كلمة الـزواج ليحمـى بهـا خصوصـيته الجنسية.. ويضمن بها لنفسه مكاناً آمناً ينام فيه.. ويتلقى فيه طعامه.. ومن هنا فإن فكرة المنـزل والإنجـاب والمـودة والرحمة لم تطرق ذهنه فهى مراتب تالية ومراتـب عاليـة قياساً بدونية مايسعى إليه.. أو ما يفكر فيه..

كانت الشراهة والفحولة تغلفهما سفالة المقصد هما طريقه إلى الغانيات.. ثم أعاد توظيف ذلك مرتقياً بحالته من غرف السطوح إلى الشقق ثم إلى الفيلات.. ثم مرتقياً بنسـائه مـن عنايات إلى هدى إلى فاطمة تلك اللبنانية التى أزعجت كـل حواسه وأعادتها إلى شهقة المراهقـة ودهشـتها وبكارتهـا الأولى..

عندما ضبطه أخوه كمال يشرع قضيبه ويجعله منتصـباً محفزاً زملاءه في الإعدادية أن يفعلوا مثله راح يتوسل إلـى كمال الصغير ألا يبلغ والده بهذه المسابقة التى عقدها علـى السطوح وبين أكوام القش في الخفـاء.. مسـابقة الأطـول قضيباً.. ثم عاد فأفهم كمال أنه يمهد بهذه المسابقة – التـى استخدموا فيهـا مسـطرة صـغيرة – لإذلال كـل الأولاد والسيطرة عليهم.. لأنه وقبل استخدام المسطرة كـان الأول بالتزكية.. ولابد للأول أن يأخذ ثمن تفوقه..

لقد نال حقد كل الأولاد وكراهيتهم لأنه كان يعلم قيمة ما يملكه ويعلم مقدماً أنه لا يوجد بينهم من يستطيع منافسـته.. فالمنافسة محسومة لصالحه وهو يعلم ذلك.. وعندما اسـتنفر رجولتهم أمام بعض الصـور العاريـة لفتيـات أوروبيـات

مكتنزات الصدور والنهود والأفخاذ ظهرت فضـيحة الأولاد وهم يشرعون سيوفهم الهزيلة أمام سيفه المخيف..

وعندما تناثرت الحكايات عن الشـكل المهـول لقضـيب إبراهيم عبد القادر كانت نفسه تتغذى بصدى هذه الحكايـات ويسير مختالاً في تواضع وهو يحس لأول مرة فـي حياتـه بشعور التفوق الذي لم ينعم به في أى مجال لا في الدراسـة ولا في كرة القدم بعد أن ظهر لاعبون أكثـر منـه سـرعة ونشاطاً.. في المنطقة..

لقد بالغوا في وصف قضيبه.. وكان استخدام الكذب مـن بعض الأولاد مقصده أن يزجوا بأنفسهم إلى عـالم إبـراهيم عبد القادر تقرباً وتيمناً حتى يقال عـنهم إنهـم يشـاركونه مغامراته ومشاهدة صوره ومجلاته الفاضحة.. وقـد كـانوا يتطوعون بمزيد من الحكايات التى لم تحدث.. والأوصـاف غير الموجودة كأن يقول أحدهم إنه شاهد إبراهيم في وضعه العادى يقوم يلُف قضيبه حول نفسه عـدة مـرات كالمنـديل المغسول الذي تعصره أمه بكلتا يديها..

وأمام موهبته وطاقته المشبوبة التى راح يعتصرها فـي العادة السرية استجاب لدعوة هامسة من إحـدى السـاقطات

التى سمعت عن قدرته وكان أن تأكدت هي من ذلك وهي لا تعلم أنه جاءها حتى يتأكد هو الآخر مما سمعه عن نفسه!!.. وكان الفرق بينه وبين قرنائه أنه راح يعبر سنوات المراهقة بإحساس الرجل الكامل.. وعندما أتاح له خاله شـحاته كـل سبل الإقامة في مدينة طنطا كان هاجسه أنه يفرش طريـق المستقبل لزواج ابنته المأمول.. أما إبراهيم فقد كان هاجسـه أوكار الغوانى.. ومع تصاعد مشاكله عرف أوكار الخارجين عن القانون.. ولما أوصلته هذه المشاكل إلى طريق مسـدود مع كل أهله ابتداء من خاله ووجد نفسه وحيداً لا ظهر له ولا سند تمطى وأخرج من جرابه العامر كـل مواهبـه العقليـة والجسدية وبدأ في خلق واختيار الدروب المؤقتة التى يمضى بها قدماً ربما تصل به إلى طريق ما.. أي طريق..

زاره الأرق.. وكان وحيداً في شقة هـدى.. عمـد إلـى التليفون ليتحدث مع زوجتيه.. قال لهدى إن النوم قد خاصمه وأنه سيغادر الشقة إلى الكورنيش ليرهق نفسه بالمشـى ثـم يعود إلى النوم.. لم يبال بانزعاجها ولم يسمح لها بمزيد من الأسئلة التى تعبر عن اضطرابها من أجله.. اختصر عليهـا الطريق وأبلغها أنه اختار أن يطمئنها.. حتى لا تنـزعج إذا

طلبته ولم تجده في الشقة.. بعد أن تخلص منها بادر فطلـب فاطمة.. وجاءه صوتها المثير النعسان.. قال لهـا أن تنـزل فوراً لتقابله في شقة ستانلى:

- : بها لسرعة اشتقت إلى؟..

- : على الآخر.. انزلى بسرعة..

قال لها وهو يلملم الملاءة على جسده العارى:

- : فاطمة؟..

أجابته وهي تلقى برأسها على صدره:

- : يا روح فاطمة..

راح يضمها إلى صدره بحنان:

- : ليه لغاية دلوقت مجبتليش ولد..؟..

رفعت رأسها والدهشة تتملكها:

- : بدك ولد.. ولد منى.. حقيقي يا إبراهيم؟..

ثم راحت تقبله.. وبعد أن انتهت سألها:

- : ليه؟.. إنت محاولتيش..؟..

- : ما بقدر أحاول يا روحى من دون إذنك..

تنهد بارتياح، وراح يلثم شعرها برقة وهو يفضى إليهـا بمشاعره الجياشة التى تؤكد أنه اشتاق أن ينجب منها طفلاً.. وأنها يجب أن تتوقف عن تناول الحبوب التى لم يكن يعلـم أنها تتناولها..

وعندما أسلم نفسه إلى هواء البحر الذي بث الانتعاش في نفسه أحس أن ثلث هواجسه قد زالت.. فها هي فاطمة تقول له لا تقلق فقدرتك على الإنجاب لم تختبر بعد.. لكنه استسلم لرعشة خوف غزت مشاعره عندما وجد أنـه منـذ اليـوم سيترقـّب بعين الرجاء أخبار الحمل التى ستأتيه من فاطمة.. وأن قدرته على الإنجاب التى أصبحت محل اختبار ومحـل ترقب وانتظار أصبح خبر نجاحها هو الخبر الذي سـيطغى على كل الأخبار في حياته.. فما أتعسه إذا اكتشفت فاطمة أن رجلها لا يملك القدرة على الإنجاب.. ساعتها لن يجد رأسـه مرفوعة بأي قدر يقترب منها وهي مرفوعة عندما عشـقته فاطمة لمدى قدرته على إرضاء أنوثتها.. ساعتها سيسـخط على هذه القدرة وربما يحتقرها..

في اليوم التالي عاد من الكلية ليجد أن هدى في انتظـاره وقد جهزت له مائدة حافلة.. استقبلته بلهفـة الأم والصـديقة

والزوجة المخلصة.. رسم على وجهـه علامـات العبـوس والكدر.. راحت تتقصى أسباب حزنه.. وراح هو يبحث عن سبب مفتعل يبدو أمامها كالحقيقة.. لكنه آثر الـدخول فـي الموضوع.. سألها:

- : إنت راضية عنى..؟..
- : طبعاً..
- : وراضية عن جوازنا..؟..
- : طبعاً.. طبعاً..
- : طيب.. وإيه آخرة الجواز ده ؟..
- : يعنى إيه.. هو الجواز له أول وآخر..؟..
- : طبعاً.. والدليل ان احنا دلوقت عايشين في أولـه.. بس مش عارفين آخره..
- : وهو يا إبراهيم الناس اللـي حواليـك دول كلهـم عارفين آخرة جوازهم.. دى حاجة في علم الغيب..
- : الناس اللي إنت بتضربي بيهم المثل دول فـاتحين بيوتهم عينى عينك قدام بعض.. بيوت بيزوروا بعض فيها.. وبيخلّفوا فيها.. وبيملوهـا عيـال..والعيـال

عارفين إن البيت ده هما اللي حيورثوه.. يعني أنا وإنت لو متنا مع بعض في حادثة بيتنا ده حيفضل مقفول للأبد.. مافيش حد حيسأل عنه.. أو يسأل على الناس اللي كانوا فيه..

- : إنت قصدك إيه يا إبراهيم؟..

- : قصدى انتى حتفضلى لغاية إمتى تفوتى على مكتب اسكندرية بشجاعة صاحبة العمل اللي عندها موظف اسمه إبراهيم.. وبعدين تهربي لبيتك بمنتهى الجبن؟.. البيت اللي فيه زوج اسمه إبراهيم..

- : ما هي دي خطتك؟.. مش ده الحل اللي إنت رسمته ونفذناه وماشيين عليه؟..

- : وهانفضل كده على طول؟..

- : وا اللي إنت شايفه..

- : اللى أنا شايفه إن إنت ارتحتى للعبة دي ومش خسرانة فيها حاجة..

خبطت بيدها على صدرها منزعجة:

- : أنا؟.. يقطعنى.. معقول يكون ده رأيك فـي بعـد العشرة دي كلها؟..

- : مش مصدقة كلامى؟..

- : عمرى ما صدقه.. مش إنت إبراهيم اللي أنا وإنت عارفينه..

- : طيب لما احنا متجوزين بقالنا ييجى ٦ سنين إنـتِ ليه ما حاولتيش تخلّفى منى؟..

هبت واقفة.. وسألته مذهولة:

- : أخلّف منك؟..

- : ومالك اتخضيتى كده؟..

- : لأ.. مش مخضوضة.. بس إزاي نبقـى مـداريين جوازنا.. وعايزنى أحمل وأولد وأخاف والناس مش عارفين جوزي مين واتجوزت إمتى..؟..

- : دي ليكى حق فيها.. بس لو إنت اشتقتى للخلفة منى زى مانا اشتقت للخلفة منك كنت سـألتينى وأخـدتى رأيي وبحثتى معايا عن حل.. فيه واحـدة تقعـد ٦ سنين متسألش عن الخلفة؟..

الكلمات الأخيرة كانت رطبة ومنعشة وذات وقع جميـل على قلبها.. (اشتقت للخِلْفة منّك).. اقتربت منـه.. طرحـت ذراعيها على كتفيه.. راحت تربت براحتها على صدره.. ثم جذبته إلى صدرها.. دفنت رأسه بين نهديها.. ومرت لحظات صمت تهدجت فيها أنفاسهما.. وراح يلتقط أنفاسها المفعمـة برائحة البارفان الثمين وبخور السـيد البـدوي.. فاهتاجـت غرائزه وتحركت لجة البركان الخامدة.. رفع رأسـه إليهـا ليقرأ في عينيها كل الأشياء التى تعـود أن يقرأهـا عنـدما ترغبه.. جذبها إليه ليغرقها في قبلة طويلة عميقة سال فيهـا رضابهما وغابت فيها عن الوجود لتجد نفسها محمولة بـين ذراعيه القويتين إلى غرفة نومهما.. لتصبح بعد دقائق عجينة طيعة بين أصابع خبير يعيد تشكيلها ورسمها بموسيقا الأنفاس المتهدجة والرعشات المحمومة..

قال لها في سؤال يعرف إجابته:

- : محمد دلوقت في أولى ثانوى؟..
- : أيوه..
- : لو عرف إن إحنا متجوزين.. يزعل..؟
- : مش عارفة.. بس حتكون مفاجأة له..

- : مفاجأة من أي نوع؟..

- : مش عارفة..

- : إسمعى..

- : اتفضل..

- : فكّرى بنفسك في مستقبلنا.. لازم نعلـن جوازنـا لأهلك.. وأهل جوزك.. قوليلهم إن أنا مهندس.. أنـا قدامى ٤ شهور واتخرج.. نفسى وأنا باحتفل بالعـام الأول لتخرجى أن يكون عندى ولد.. أو بنت منّك..

ألقت بنفسها عليه في حب طاغٍ.. وراحت تلثمه بجنون.. وتتنهد بارتياح.. وتداعبه برقة بعد أن أفضى إليها بمشاعره الجياشة التى أكدت لها أنه اشتاق أن ينجب منها طفلاً.. وأنها يجب أن تغير كل خططها في سبيل هذا الهـدف السـامى.. الهدف المقدس..

وفي الفراندة.. وبعد تناول وليمتهـا العـامرة.. وعنـدما ذهبت لتعد له الشاى.. تمطى في كرسيه.. وقذف ساقيه إلـى الأمام.. وعقد راحتيه خلف رأسه.. واطمأن أن الثلث الثانى من هواجسه قد زال.. وأن قدرته على الإنجاب لـم تختبـر أيضاً مع هدى.. وأنها الآن في سبيلها أن تنفذ أوامره وتخرج

من شرنقتها لترفرف في سمائه وسماء الأهل كفراشة هائمة تعلن للجميع أنها المحبة والزوجة لهذا الشاب القوى الوسـيم الذي يعمل عندها ويدير لها مكتب الإسكندرية..

لقد غزته رعشة الخوف مرة أخرى.. إنها نفس الرعشـة التى استقبلها عندما اكتشف أن قدرته علـى الإنجـاب هـي الأنبوبة الذي دخل بها معملين في وقـت واحـد.. معمـل فاطمة.. ومعمل هدى.. إنه مهتم بنتيجة معمل هدى.. فلقـد سبق لها الإنجاب.. ومادامت قدرتها هـي علـى الإنجـاب أصبحت محسومة.. فإن قدرته هو أصـبح مـن المطلـوب حسمها..

والآن.. ليس له سوى أن ينتظر.. وليس لزوجتيه سـوى أن تعملا.. ومادام هو في موقع الانتظار والترقب فليشـغل نفسه بتلك الشهور الحاسمة في مسيرة تخرجه وحصوله على شهادة الهندسة.. فربما يتوافق خبر تخرجه مع خبـر قـدوم وليد له ينتظر هو الآخر أن يتخرج ولكن من بطن أمه.. أي أم فيهما..؟.. فاطمة؟.. أم هدى؟.. لا أعلم..

- ٢٤ -

ومع هذا فقد راح القلق يتحرك في داخله.. فـإذا كانـت فاطمة قد أمسكت نفسها عن الإنجاب ولديها أسـبابها.. وإذا كانت هدى قد فعلت نفس الشئ ولديها أيضاً أسـبابها.. وإذا كان ما فعلتاه قد أمده بارتياح نسبى.. ارتيـاح راح يقـدره بمقدار الثلثين.. أما الثلث الأخير الذي يكمل لديـه الشـعور الكامل بالارتياح فهو موجود لدى زوجته الأولى.. عنايات..

راح يتذكر اسم قريتها.. ومكان هذه القرية.. ذلك أنه قـد قرر أن يتخلص من هذا الكابوس الرابض فـوق صـدره.. كابوس يشير إلى أنه من المحتمل أن يكون عقيماً لا ينجب.. ولن يتخلص من هذا الكابوس إلا بزيارة عنايـات وسـؤالها سؤالاً مباشراً: هل كانت تمنع نفسها عن الحمل أيام علاقتها به؟.. العلاقة التى ظلت غير شرعية لسنوات ثم أنهاها بهـذا الزواج المفاجئ الذي لجأ إليه كسيناريو يستطيع توظيفه فـي اللحظة المناسبة.. إذ كان يهمه أن يبـدو ملتزمـاً لا يقبـل العلاقات المحرمة، وإلا لما كان قد تمكّن من هـدى – فـي لحظة ضعفها – وبدا عملاقاً أمامها وهي متسربلة في خزى

استدعائه - المرفوض - إلى نفسها في لحظةٍ خارت فيهـا قواها.. ليتحول هذا الاستدعاء اللحظى إلى ارتباط أبدي..

طلب من فاطمة أن تعطيه سـيارتها: "اليـوم لأن هـدى مريضة في طنطا ".. ويجب أن يزورها ويعود فـي نفـس اليوم.. لفتت نظره إلى أن هدى تعلم أنه لا يملـك سـيارة.. فطمأنها إلى أنه سوف يركن السيارة في مكان بعيد ثم يترجل إلى منزلها ذهاباً وعودة..

وعلى مشارف القرية سأل عن عنايات.. فركبت بجواره صبية صغيرة لتدله على منزلها الموجود على الشاطئ الآخر من الترعة قرب منتصف القرية والذي يقع به دكانها.. سأل الصبية عن تاريخ قيام عنايات بافتتاح هذا الدكان.. عـرف منها أنها قد أقامته منذ أكثر من أربع سنوات.. وأنها تـديره مع ابنتها يسرية وولدها إبراهيم..

أخذته رجفة وهتف متسائلاً:

- : إبراهيم؟!! عنده كام سنة؟..

أشارت الصبية إلى طفل يقف على الشاطئ الآخر أمـام الدكان..

- : أهو ده اللي قدامك في الناحية الثانية..

كان قد اقترب من الجسر فعبره ثم انحنى قليلاً إلى اليمين ليصبح في مواجهة الدكان الذي يقف أمامه الطفل..

شكر الصبية التى هبطت من السـيارة.. وراحـت تنبـه إبراهيم قبل أن تعود إلى حال سبيلها..

- : إبراهيم.. إبـراهيم.. قـل لأمـك الراجـل دهـه عاوزكم..

رد عليها إبراهيم وهو يتأمل السيارة الفاخرة التى وقفـت على مقربة منه:

- : أمى وأختى مش هنا.. في طنطا بيجيبوا بضاعة.. مين اللى عايزها..؟ إنت مين؟.. إنـت مـن بتـوع التموين؟..

ثم راح الطفل يتأمل هذا الرجل الطويل ذا الشعر الكثيف الناعم والقميص الحريرى الملون – والذي يشـبه الممثلـين الذين يراهم أحياناً في الصحف والمجلات – وهو يقف أمامه مركوناً على تلك السيارة الطويلة اللامعة التى جلبت معهـا رائحة تشبه رائحة العطور المختلطة بالبخور والتى يشـمها عند ضريح السيد البدوى.. أو لعلها الرائحة التى يشمها فـي الأعياد عندما تختلط رائحة الكعك المرشوش بالسـكر مـع

رائحة الأقمشة الحريرية لفساتين البنات.. المهم أنه يسـتقبل رائحة جميلة تريح النفس وتنقله إلى رائحة شوارع المدينـة العطرة عندما تتثاءب في الصباح الباكر..

مد إبراهيم يده إلى رأس الطفل وراح يعبث فـي شـعره الناعم..

- : إزيك يا إبراهيم.. فين الست ماما؟..

مد الطفل يده الصغيرة الناعمة لتنام على كـف إبـراهيم عبد القادر كالطائر الوديع..

- : أمى مش موجودة.. إنت مين؟..

كأنه رأى تلك العيون من قبل.. كأنه قابـل هـذا الوجـه المشرق المريح.. وهذا الشعر الأسود الناعم المنسدل.. لابـد أن يكون هذا الشعر هكذا ليتوج هذا الرأس الجميل الصـغير الذي يحمل العيون الذكيـة واللفتـات القويـة والإيمـاءات الشاردة.. ظل يتأمل هذا الطفل.. ولا يدري سر هذا الـزخم الهائل من المشاعر المتباينة التى راحـت تـركض نحـوه محتمية به من المجهول.. كما لا يدرى سر هذا الضوء الذي انسكب تواً في أعماقه.. ولا يدرى سر اتساع هذه الأعمـاق لاحتواء هذا الشلال المبهر القادم من فيافي المجهول.. كما لا

يدرى سر هذا الخدر الغريب الذي راح يسري في داخله ولا يعرف له كنهاً: هل هو الشعور بقوة اليقظة أم هو الشـعور بانهمار الغفوة..

: إنت مين؟..

لم يجبه عن سؤاله البرئ.. ولكنه لاحظ تجمـع بعـض الفلاحين حوله وهم آخذون في الاقتراب منه على خجـل.. ومالبث أن لاحظ أن عددهم يزداد.. فهـذا المنظـر الـذي صنعته زيارته المفاجئة ووقوفه بهذه السيارة الفـاخرة أمـام دكان عنايات - التى جاء يسأل عنها بالاسم - كفيل بتحريك كل دواعى الفضول عند هؤلاء الفلاحين..

تحرك الخوف الغامض في داخله.. وسرعان ما اتجه إلى السيارة وأدارها ليستدير بها عائداً إلى الشاطئ الآخر من الترعة عابراً الجسر في هدوء.. وعندما لمـح الطفـل فـي المرآة يعدو خلفه تمهل قليلاً ليسمعه:

- : لما أمى تيجى أقول لها إنت مين؟..

أطل برأسه من الشباك ومد يده فربت على خـد الطفـل بحنان:

- : قل لها واحد اسمه إبراهيم جه سأل عليكى وحيرجع لك تانى..

كان قد عبر الجسر.. فضغط علـى البنـزين.. وانطلـق خارجاً من القرية وهو يلمح جموعاً من الفلاحين عبر المرآة يتحلقون حول الطفل.. لعلهم يسألونه: مين الافندى ده.. يـا إبراهيم..؟.. ولعل الطفل مازال حائراً – وسيظل حـائراً – في الإجابة عن هذا السؤال إلى أمد بعيد.. بعيد جداً..

- ٢٥ -

كان إبراهيم الصغير يقبع في أحضانها وهي تملّس علـى شعره الناعم الكثيف وتحدث ابنتها يسرية التى تمسك بيـدها ورقة صغيرة بها رقم السيارة الحمراء الفخمـة التـى كـان يستقلها زائرهم المنتظر..

- : يعنى بقالنا أسبوعين مرحناش طنطـا.. إشـمعنى يعنى نروح النهارده؟.. دا هو بعينه يامه..

- : أيوه هو بعينه.. هو فيه في حياتنا كام واحد اسـمه إبراهيم يا يسرية؟.. مين حيسأل علينا غيره؟..

ولم تشأ عنايات أن تضع كل هواجسها دفعة واحدة أمـام ابنتها يسرية التى راحت استدارة الأنوثـة الغضـة تلمـس وتشمل جسدها الطويل وهي تخطو إلى السابعة عشرة مـن عمرها.. إن يسرية تملك من ذكاء التلقى لوصـف زيـارة الرجل الغريب لهم اليوم ما يجعلها تتأمـل الأحـداث التـى عاشتها منذ الطفولة بشئ من التروي.. فهى لا تنسى أن أمها منذ أسكنت إبراهيم عبد القادر فـي الغرفـة التـى خلـت بجوارهما وهي تشاركه الاختلاء بهذه الغرفة.. وأنها ظلـت

تتساءل بينها وبين نفسها عن اسم هذه العلاقة التى يبدو فيها إبراهيم رجلاً آمراً ناهياً تعمل له أمها ألف حساب.. وأنهـا طالما ارتاحت - قرب رحيلها من طنطا - عنـدما أجابتهـا أمها – أخيراً - عن سؤالٍ لم تسأله.. فقد قالت لهـا: إنهـا وإبراهيم زوجان..

إن يسرية لا تدري سر الفرحة التى كانت تعيشها أمها في تلك الأيام.. ثم لا تدري لماذا كان إبراهيم محجماً عن أمهـا وقت أن كانت هي مقبلة عليه.. ثم لا تـدري لمـاذا كـان إبراهيم يتحول بالتدريج إلى رجل أنيق يرتدي الحلل الفخمـة وأربطة العنق الحريرية ويخرج مبكراً ويعود متأخراً ليجـد أمها في انتظاره ويدها على خدها وبقايا دموع القلـق فـي عينيها.. لم تكن تستطيع أن تسألها.. ولم تكـن تسـتطيع أن تعرف الإجابة من تلقاء نفسها.. ولكنها حتى الآن لا تـدري سر تلك الليلة التى راحت فيها أمها تلملم أشـياءها وتحـزم حقائبها وتبلغها أنها ستعود إلى القرية.. ثم لا تـدري سـر المشاوير الحزينة التى كانت تقطعها أمها إلى طنطـا باحثـة عن شئ ما وتعود بمزيد من الأسى والحزن.. ثم لا تـدري سر ذلك اللقاء العاصف بين أمها وخالها عبد الواحـد فـي

حضور الشيخ أبو مسلم مأذون القرية وبينهم ورقة تتبادلهـا أياديهم.. وخالها يهتف:" هل هذا شرعى؟".. والشيخ أبو مسلم يقول بهدوء:" أيوه.. شرعى ".. ثم لا تـدري سـر اخـتلاء بعض النسوة بها ليسألنْها عن زوج أمها.. وهل كان يعـيش معهن في نفس الشقة أم أنه قد جهز لأمها شقة خاصة بها؟.. ثم لا تدري لماذا راق لها أن تكذب قبل أن تعود إلـى أمهـا لتبلغها بما قالته الناس من أن إبراهيم عبد القادر زوج أمها " كان يسكننا في شقة محترمة قبل أن يسافر إلى الخـارج ".. كلمة إلى الخارج هذه سمعتها لأول مرة من أمها في جلستها مع خالها عبد الواحد والشيخ أبو مسلم.. وهي أيضاً لا تدري سر القبلات والأحضان التى غمرتها بها أمها عندما أبلغتهـا بهذه الإجابة.. وفيما بعد.. وبعد أن هدأت الألسنة صارحتها أمها أن شهادتها عند الناس كانت أقوى بكثيـر مـن ورقـة الزواج – التى رفعتها أمام وجوههم بعد أن حجبـت ورقـة طلاقها عنهم - التى اقتنع بها خالها عبد الواحد بصعوبة لأنه لم يجد مبرراً لقيام أخته بعقد قرانها بعيداً عنه ولا تأتى إلـى القرية بعريسها لتتزوجه أمام الناس..ثم كان أن جاءهما خالها عبد الواحد ليضع أمامهما رؤاه الهادئة.. لا سفر.. لا عمـل

في البيوت.. والبحث عن الزوج الهارب أهم من البحث عن عمل جديد.. فالطفل الذي في بطنها لابد أن يعـرف أبـاه.. ويعرفه أبوه..

كانت تعرف أن أمها لا تبحث عن إبراهيم لتضعه أمـام مسئولياته قدر ما تزف له خبر تشرفها بحمل أول مولود له.. وكانت تعرف أن أمها لا تريد من إبراهيم مالاً أو نفقة فقـد كانت هي التى تمده بالمال والغذاء والكساء والخدمة الكاملة.. ومازالت مستعدة حتى الآن أن تفعل ذلك..

وكانت تعرف أن أمها قد وصـلت مـع السـيدة هـدى مخدومتها الثرية إلى طريق مسدود.. فقد ظلت تتردد عليهـا مختلقة أى مبرر للزيارة لتتشمم أي خبر عن إبراهيم.. كانت تفعل ذلك قبل أن تتكور بطنها ويبدو حملها.. وقبل أن تهددها السيدة هدى بكل الويل إذا عـاودت زيارتهـا وإذا عـاودت سؤالها عن إبراهيم الذي قالت لها عنه إنه اختفى من طنطـا هرباً من أهله ويبدو أنه اختار أن يعيش في القاهرة..

لقد صار الطريق بينها وبـين السـيدة هـدى مسـدوداً وبإصرار من مخدومتها التى أصدرت تعليماتها للبـواب ألا يسمح لها بدخول العمارة.. وبهذا انقطع الخيط الرفيع بينهـا

وبين دنياها القديمة.. دنياها مع إبراهيم.. العاشق والزوج والرجل والشاب الذي أخذ بيدها في حنان وسار بها على متن السحاب.. وأطلعها على عالم لم تكن تدري أنه موجود.. عالم فروسية الرجال وحنانهم.. عالم خشونة اللذة ونعومتها..

ولقد أخذها الخجل أن تسعى إلى هدى لتبلغها أنها صارت أماً لطفلٍ أبوه هو إبراهيم.. ولقد حاولت أن تتغلب على خجلها مقابل أن تترك لطليقها تلك الرسالة التى ربما تصله ذات يوم.. وكان سر خجلها أنها حتى الآن في نظر هدى سيدة كاذبة سمحت لنفسها أن تعاشر شاباً أسكنته لديها بحجة أنه قريبها.. وأنها كما قال لها إبراهيم اعتبرت أن ورقة الزواج مجرد تجميل لهذه الكذبة التى ساءها أن تحاط بها من خادمتها..

لقد قللت من مشاوير البحث عن إبراهيم.. خوفاً من أن يتسرب ذلك إلى المحيطين بها.. فقد قالت لهم إنه قد سافر.. ومن ثم فقد راح الحديث عن ذلك السفر الغامض الطويل يتحول إلى حديث مكروه عن احتمال أن يكون – ربما - قد ألم به حادث مادام قد غاب هكذا طويلاً في سفره..

كم تساءلت عنايات بينها وبين نفسها عن ذلك السـيناريو الغريب الذي ركض وتسارع بينها وبين إبراهيم في أواخـر شهور علاقتهما.. وطالما تساءلت عن سـر تلـك النهايـة المقتضبة التى فرضت نفسها عليهما والتى نصحها بعدها أن تبتعد بضعة شهور في القرية حتى لا يغرقها غضب هدى.. وحتى لا يخسر هو الآخر موقعه الجديد في العمل معها.. ثم عادت فتساءلت هل اختفاؤه المفاجئ هو الآخر جـاء نتيجـة الغرق في غَضبةٍ ألمت به من هدى المنتقمة؟..

لم تكن تحلم بطفل من ذلك الشاب الجميل.. حتى عنـدما غرقت معه في لذة الجنس.. لم تستطع أن تمنع نفسـها مـن الإقبال النهم عليه والاغتراف من شبابه البكر ولم تستطع أن تمنع نفسها من المواظبة علـى تعـاطى الحبـوب المانعـة للحمل.. ولكنها بمجرد أن نالت منه الشرعية سارعت بإلقاء الحبوب جانباً وإلقاء نفسها في عمق أحضانه..

وهي لا تدري لماذا راق لها أن تتباهى به أمـام هـدى.. ولكنها استجابت لأمنية ألحت عليها أن تتمتع بشـئ طالمـا افتقدته في حياتها وهو الشعور بالفخر.. فهدى: تلك المـرأة الجميلة الثرية التى يحيطها النعيم من كل جانـب وترفـرف

حولها النعمة صبح مساء ويتراكض الرجال في موكب يائس يتحرك نحوها طلباً للرضا والقبول.. تنام آخر الليل وحيدة لا يهتز سريرها هزة النشوة مثلما تندك مرتبتها الحقيـرة فـي أرضية غرفة السطوح تحت وطأة ثقلها هي وإبرهيم عنـدما يغيبان عن هذا العالم نشوة وانطلاقاً.. فشتان بـين سـريرك الفاخر الخامد يا سيدتى وبين مرتبتنا الساذجة النشوانة..

هي لا تدري لماذا راق لها أن تدخل به عليها أنيقاً رائقـاً جميلاً وكأنها تسألها بلسان حال لا ينطق: ما رأيك؟.. هـل تملكين مثل هذا الفارس؟.. ولكنها الآن نادمة لأنها لم تحافظ على نعمتها ولم تحتجز طيرها الطائش ليظل راضـياً فـي قفصه ناهلاً من كفيها الحب والرضا والأمان..

ها هو يعود إليها بعد طول غياب. جاءها مخترقاً غلالات الحلم الذي غاب والأمل الذي انطفأ.. جاءها كما وصفوه لها جميلاً رائقاً أنيقاً تتهادى به سيارة أنيقة كما تتهادى اليخـوت المتلألئة على صفحة المياه الفضية..

يكفيها أنه جاء.. ويكفيها أنهم عرفوا أنه جاء.. ويكفيهـا أنه قال أمامهم إنه إبراهيم.. ويكفيها أنه وضع راحته علـى خد واده وربت عليه بحنان وداعب شعره بحب..

لقد راحت تسمع الأوصاف عن كامل الأوصاف دون أن تعلق.. ولكنها تؤجل تعليقهـا الـذي لا تسـتطيع أن تقولـه أمامهم.. إنها تختزن كل جرعات الشجن المحبوس وتنطلـق به إلى غرفتها ثم تنفجر في بكاء حار وعميـق.. وهـي لا تدري: لماذا تبكى؟.. ولماذا تحب أن تبكى؟.. هل لأنه جـاء فجأة ووضع على رأسها إكليلاً من الفخر ثم سرى إلى مكانه المخبوء بين السحاب؟.. هل لأنه بخل عليها بساعة من وقته ينتظرها فيها حتى تعود؟.. وهل لأنه كان نبيلاً إذ خطر لـه ما خطر لها من أمنية في أن تراه ولو للحظة.. فجاء محققـاً لها أملاً راودها ولم يكتب لها القدر نعمة أن ترى هذا الأمل يتحقق..؟..

لم تستطع أن تفسر سر خمودها في السرير.. وزهدها في التحرك إلى خارج المنزل.. ولكنها تحتضن ولدها إبراهيم.. وتوصى ابنتها يسرية ألا تتحدث مع الناس.. ولا تسمح لهـم بمزيد من الحصار بالأسئلة..

لقد راحت تكيل الثناء ليسرية لأنها أخذت رقم السيارة من التلميذ الذكى الذي راق له أن يكتبه لسبب قال إنه لا يعرفه.. قالت لها أن تحتفظ بالرقم فهو خيط الأمل الذي تدلّى لهم من السماء.. فإن لم يعاود إبراهيم الرجوع في القريب فسوف يتعلقون بهذا الخيط علّه يوصلهم إليه..

ابتسمت وهي تتغلب على بكائها عندما سألها ولدها إبراهيم ببراءة:

- : العيال بيقولوا أبويا شكل الممثلين.. هو ليه ما خدنيش معاه في العربية؟..

- : هو جاي يعرف بيتنا.. وحيرجع تانى..

وعندما برئت من صدمة المفاجأة نظرت إلى وجهها في المرآة فرأت تلك الحلقات السود حول عينيها.. والضمور المرهق في جفنيها.. ارتعدت.. ثم لامت نفسها على هذا الاستسلام المخجل لحزن يجب ألا يلازمها هكذا.. ماذا لو قفل راجعاً بعد أيام ليجدها على هذا الحال؟.. ماذا وهو الذي كان يثنى على جمالها الذي لم ينتصر عليه الإرهاق وجهدها المبذول في العمل بالقرب من نار المواقد والأفران.. كان ينصحها ألا تظهر أمامه إلا في أبهى زينة ولا تبخل على

جسدها بأثمن ما يمكن أن تشتريه من العطور.. وقد كانـت تحرص على نصائحه فقد خافت أن يكون لرائحـة البصـل والثوم علاقة بهذه النصائح.. وعندما كان يثنى علـى نـوع عطرها كانت تعلم أن رائحة الطبيخ والمطبخ قد ولّت هاربة أمام عطرها الثمين..

راحت تسترجع قدرتها وحبها للتزين والتعطر ولم تخجل من تعليق يتطاير حولها من امرأة.. أو نظرة تساؤل تتسرب أمامها من عينى رجل.. ولأنها تعلم أنهم يعلمون السبب فقـد كان الخجل يتوارى.. وكانت الثقة تعود.. همسـت لنفسـها: فلتعد أيها الجمال الغارب.. ولتعودى أيتها النضارة الهاربة.. فلعله يعود..

- ٢٦ -

كاد رأسه أن ينفجر من هول الظنون التى ألمت به.. أخذه العبوس وهو يجلس أمام فاطمة في فراندة منزلها.. لم يلتفت لعوامل الغيرة التى بدأت تطل مـن عينيهـا.. ولـم يلتفـت لأسئلتها التى تنطوى على خبث واستخفاف حول ما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التى تمرض فيها هدى ليركبـه هـذا الحزن إلى هذه الدرجة من أجلها.. فمنذ أن عاد من عنـدها وهو عابس..

التمس لها العذر.. ورأى أنه لا يجب أن يضع نفسه فـي هذا القالب الكئيب حتى لا تظن فاطمة أن حبه لهدى يفـوق حبه لها عكس ما يحسه فعلاً.. وسرعان ما وضع نفسه فـي حالة مزاجية مناسبة متمكناً من جذب فاطمة إلى حديث عـن تطور أفكاره في مشروع البكالوريوس.. فهذا الحديث يلقـى قبولا لديها لأنها تعتز بنجاحها في اختيـار العنـوان الـذي ارتضاه من بين عديد من العناوين التى طرحاها معاً.. كمـا تعتز بأنها تشاركه الأفكار.. وعمل الاسكتشات المبدئية..

وعندما ودعها منصرفاً إلى شقته كان يسرع الخطى لكى يخلو إلى نفسه ويبحث عن سر هذا الزخم المتنـاقض فـي مشاعره منذ أن شاهد هذا الطفل..

" هذا الطفل يشبهنى إلى حد كبير.. وقد أعطته عنايـات اسمى.. وعمره يقول إنها بالكاد حملت بـه فـي شـهورنا الأخيرة.. شهور ما بعد ارتباطنا الشرعى أو شهور ما قبـل تصيير هدى ورقة في ملفى.. "

ثم عاد فرفض ذلك قائلاً:

" إذا كان هذا هو الدليل الظاهر فهو لا يكفـى.. إذ مـن الممكن أن يختلف تقدير عمر الطفل بعامٍ أو أكثر زيـادة أو نقصاناً بين شخص وآخر ومن الممكن أن يكـون تقـديرى لعمر هذا الطفل جاء خطأً.. فلماذا لا تكون عنايات تزوجـت بعد فراقنا بعام أو أكثر وأنجبت هذا الطفل الذى أعطته اسمى ذكرى وحباً..؟.."

ثم عاد ليناقش الأمر من جانب آخر:

" كيف لعنايات وهي امـرأة ريفيـة أن تتخطـى تقاليـد مجتمعها المغلق وتتمكن - إذا كان هذا الطفـل هـو ثمـرة علاقتى بها – أن تظهر أمامهم حاملاً بلا زواج معروف؟..

ثم أماً لوليد بلا أب؟.. أو لا يعرفون له أبـاً؟.. هـذا مـن الصعب بل من المستحيل في الريف.. لو كنا فـي المدينـة لجاز الأمر.. فالزحام يخفى مصائب كثيرة.. "

ثم وصل به حديثه مع نفسه إلى قناعة محتواها: " كـون هذا الطفل يحمل بعض ملامحى.. أو يحمل اسما كاسـمى.. فإن هذا لا يكفى لتأمل فكرة إن كان هو من صـلبي أم مـن صلب رجل آخر.. الموضوع أكبر من هذا بكثير.. ولو كنت قد قابلته بمفرده وخرجت بهذه الهواجس فإن مقابلتى لعنايات – لو كانت قد حدثت – ربما كانت ستمنع هذه الهـواجس إذ من المؤكد أننى كنت سأتعرف منها منذ اللحظة الأولى مـن هو أبو هذا الطفل.."

وجد نفسه يغادر سريره ويتمشى في الغرفة عندما وصل به تفكيره إلى هذه النقطة.. إذ وجد أن هناك سـؤالاً آخـر يفرض نفسه عليه..

" ماذا لو كان القدر قد واجهنى بعنايات في هذه الزيارة ثم فوجئت بها تبلغنى أن هذا الطفل هو ابنى؟.. "

أخذته رعشة خوف.. وسرعان ما تذكر أن هذه الرعشـة هي نفسها التى أخذته وهو يتأمل الطفل ويتأمل أهل القريـة

الذين راحوا يزحفون نحوه وهو يواجه هذا الطفل.. وحتـى الآن لا يدري سبباً لانسحابه المفاجئ من أمام هـذا الجمـع الزاحف وبالتالي من أمام الطفل..

لماذا انسحب فجأة؟..

وماذا لو كان قد اتخذ قراراً بانتظار عنايات حتى تعود؟.. ما الذي كان سيحدث من حوار بينه وبين الطفل أو بينه وبين الناس خلال فترة الانتظار؟.. ألا يكون لتلك المشاعر الغريبة التى هاجمته وهو يقابل هذا الطفل دخْـلٌ بقـراره المفـاجئ بالانسحاب؟..

ألا يمكن أن يكون عقله الباطن قد تصرف بهذه السـرعة ودفعه إلى الهرب؟.. " الهرب؟!!

وهل ما فعلته من انصراف مفاجئ يعتبر هروباً؟..

أجل.. هو الهروب بعينه.. واسأل نفسك.. لمـاذا ذهبـت برجليك إلى عنايات بعد هذه الغيبة الطويلة التى لـم تفكـر خلالها لحظة أن تزور هذه المرأة التى كانت سـلماً خشـبياً ساذجاً صعدتَ به إلى الأدوار العليـا ومابهـا مـن سـلالم رخامية؟.. هل ذهبت إليها لتطمئن على صـحتها؟.. وهـل سعيت إليها بحافز من ضمير لتمدها ببعض المال؟.. أنت لم

تسع إليها إلا لتطمئن على ملفك الطبى.. هذا الملـف الـذي فتحتْه الهواجس ووجدته خالياً مـن الحكـم علـى قـدرتك التناسلية.. هذا الملف الذي يجب أن يحتـوى علـى ثـلاث تقارير تؤكد وجود هذه القدرة من عدمه.. هذا الملف الـذي خلا من قولٍ فصل عن ماء رجولتـك.. هـل هـو المـاء الصالح؟.. أم هو الماء المعطوب؟.. هذا الملف الـذي خـلا تقريراه الأوليان من حكم قاطع عن حالتك.. فتقريرا فاطمـة وهدى لم يشفيا غلّك المشبوب ولهفتك التى تصاعدت فجـأة للتعرف على مدى قدرتك الإنجابية وقت أن أخذتك الغيـرة من كرم وحنان لتمتعهما بتلك الميزة.. ميزة الإنجاب..

لقد تطلعت إلى تقرير عاجل يجب أن تقدمه لك عنايات.. ومن هنا كان قرارك المفاجئ بزيارتها.. ويبـدو أنـك لـم تستطع أن تستوعب تقريراً مجسماً جاءك في شكل طفل كل ما فيه ينطق أنه ابنك.. لم تستطع أن تستوعب هذه الجرعـة الهائلة من الدواء فهربت من تناولها واكتفيت بقراءة اسمها..

ربما داخلك الارتيـاح.. وهزمتـك الأنانيـة.. فاكتفيـت بالارتياح.. ولجأت إلى الأنانية.. وواضح أن ما تفعلـه الآن من حوار مع نفسك ليس إلا محاولة للبحـث عـن مخـرج

للهروب من تلك المفاجأة التى استدرجك القدر لتضـع يـدك عليها.. فمشروعك الغامض للبحث عن طريقك الغامض في الحياة لا يستوعب مثل هذه المفاجأة التى لا تدري إن كانـت سارة في جزء منها.. أو غير سارة في الجزء الآخر..

سوف يصفون لعنايات سيارتك الفخمة وملابسك الفـاخرة وسوف تضع يدها على حقيقة جديدة وهي أنك صرت ثريـاً وأصبحت ميسوراً، وعنايات لن يهدأ لها بال حتـى تعـرف طريقك.. ستبحث عنك حتى لو لم تكن أنت الأب لولـدها.. ستبحث عنك حتى لو احتمت بفكرة ساذجة وهي أن ترد لك الزيارة.. أو حتى لكى تسألك: لماذا أتيت لزيارتى..؟.."

لم يحس بالندم لأنه تورط في هذه الزيارة التى خرج منها بمعطيات لم يكن يتوقعها.. فهو مازال متحيزاً للحكمة التـى مازال يعشقها منذ أن عرفها من أستاذه الدكتور الحضـرى وهي:" لا تتوقف.. يجب أن تفعل شيئاً.. أي شئ.. ولكن.. لا تتوقف ".. وما فعله هو أنه لم يتوقف.. اسـتجاب لهواجسـه وتحرك معها ولم يتوقف معها أو أمامها عندما شك في نفسه أنه عاقر.. أما الآن فهو لا يدري كيف يتحرك.. وكيف يمنع

نفسه عن التوقف؟.. وكيف يظل متحيـزاً لحكمتـه الخالـدة بوجوب التحرك لمجرد التحرك؟..

وأمام حيرته مع نفسه وخوفه أن يظل متجمداً داخل نفسه وداخل مخاوفه استسلم لهذه المشاعر الجديدة التى دفعتـه أن يتخلى بالتدريج عن التمسك بحكمته المأثورة محتمياً بحكمـة جديدة اخترعها فوراً:

لا مناص من التوقف.. فالتوقف هنا حركـة.. ذلـك أن حكمة التوقف هنا هو أن تترك مساحة للزمن وتجعله يتحرك نيابة عنك أو يحركك في الوقت المناسب..

ثم ادعى أن حيرته قد زالت..

وادعى أنه ارتاح لحكمته الجديدة..

وقرر أن ينسى الأمر.. أو يتناساه..

وكانت حركته الفورية أن يسحب الغطاء علـى جسـده.. ويغفو..

- ٢٧ -

طالت غفوته التى كان يسعى خلالهـا للحصـول علـى البكالوريوس.. وبالفعل حصل عليه ولكن دون أدنى فرحة.. لأن فاطمة – فجأة – تحولت إلى فتـاة غامضـة عصـبية متشنجة في الأسابيع الأخيرة وأن تعاونها معه فـي إخـراج المشروع إلى حيز الوجود وتسليمه كان يأخذ شكل الـروتين متخلية عن شكل الحميمية السابق الذي كان يبدو أمام الزملاء شيئاً مشرقاً بين زوجين..

ولأن فاطمة هى الأخرى لم تقابل خبر نجاحه بأدنى فرحة - عكس هدى التى انطلقت الزغاريد من قلبها العامر بحـب حقيقي ورائع لزوجها المختار وتمثالها المعبود -.. فإنه لـم يسألها عما بها ليس لأنه كان مشغولاً بتأمل أحلام مـا بعـد التخرج ولكن لأنه قرر أن يتقصى حالة الاقتراب المفـاجئ الذي يتم بين فاطمة وزوجتى حنان.. أو بين فاطمة وبينـى، ويبدو أنه ربط بذكائه الحاد بين هذا الاقتراب وبين عبـوس فاطمة واكتئابها.. ورغم أن فاطمة كثيراً ما كانت تلجأ إلـى الحذر والتحوط وهي تسعى إلينا كأقارب لزوجها – اكتشفتنْا عندما أزاح عنا إبراهيم الغطاء بعد هجمة السفير – إلا أنـه

وهو من يعيش بحذر الثعالب استطاع أن يقرأ إقبالها علينـا وسط انشغاله وانهماكه بالمشروع.

جاءنا يسألنا عن سر انقلاب حال فاطمة وما علاقة ذلـك بحالة الود المفاجئة التى تربطنا بها.. كـان بوجهـه عـزم وبملامحه تحد وغضب.. وقبل أن أتلعثم وأتهته أمام عصبيته المخيفة واجهته حنان بشجاعة:

- : روح شوف مشاكلك بعيد عننا لو سمحت..

- : مشاكلى.. مشاكل إيه؟.. أنا ماعنديش مشاكل..

- : لا يا باشمهندس.. إنت كلك مشاكل.. بيوتك كلهـا مشاكل..

(وعند كلمة " بيوتك " بدت منهـا ضـحكة اسـتخفاف وسخرية جعلته يحملق فيها بغيظ وذهول)..

- : بيوتك؟.. اتكلمى بصراحة يا حنان.. فيه إيه؟..

- : مافيش حاجة.. ارجع لو سمحت لفاطمة اسألها بعيد عنّنا.. مالكش دعوة بينا..

لقد كانت حنان وقحة - وليست شـجاعة فقـط - وهـي توقفه عند حده بل زادت وقاحتها عندما لاحقته وهو يخطـو إلى الباب مسرعاً بالخروج:

- : غريبة.. سايب الحمار وماسك في البردعة..

وعندما حاولتُ أن ألومها على هذه اللهجة المتدنية التى لا تتناسب مع كونها جامعية خاصة مع إبراهيم الذي حمدنا ا أنه لم يعد مصدر إزعاج لنا وجدتها تُكمل وقاحتهـا معـى وبشكل راحت تصب جام غضبها على كل الرجال في العالم ممثلين في شخصى - ذلك أننى الرجل الوحيد الـذي تـراه أمامها الآن من كل رجال العالم -..

لقد وضعت حنان يدها على حقيقة لم تكن تتخيلها.. ذلـك أن إبراهيم وقت أن كان خطيبها وحبيبها وأملها - المتحرك على ساقين - في أن يكون زوجها في المستقبل القريب كان غارقاً حتى أذنيه في حب امرأة سوقية وأمعن في غرقه حتى أنه تزوجها وأنجب منها طفلاً.. هذا الطفل عمره الآن يشير إلى تاريخ هذه العلاقة وعمر هذا الزواج الذي ثبت لها أنـه كان مواكباً للشهور الأخيرة لعلاقته بها.. الشهور الصـاخبة المليئة بالخناق والصياح والشتائم.. الشهور التى حاول فيهـا أن يغتصبها ليضعهم أمام فضيحة يساومهم بها على امـتلاك إرث أمه ليكون قد حصل عليه بمشيئته وقوته لا بفضلٍ مـن خاله المغتصب العنيد..

وقد راق لحنان أن تربط بين هذا السعار الآبق الذي مس عقل إبراهيم في تلك الأيام وبين وجـود هـذه المـرأة فـي حياته.. وأنه عندما تورط في هذه الخطط الإجراميـة كـان مدفوعاً من تلك المرأة التى رسمت له تلك الخطة لينعم معها بثراءٍ لعلهما كانا يحلمان به.. ولعله وعدها أن يحققـه لهـا بطريقته..

لقد تلقت حنان دموع فاطمة وهي تقص عليها المهانة التى تعيشها مع إبراهيم.. وأنها عندما وقعت في حبه لم تكن تعلم أنها تسقط في وحل يغمر كل شبر في طريقه.. فقد غفرت له أنه أنكر عليها زواجه من هدى قبل أن يتزوجها.. وتحيـزت لحبها له وجنونها به خاصة عندما وضعت يدها على حبه هو الآخر لها وجنونه بها..

وعندما استدعتها أمها منذ أسابيع لأمرٍ هام لم تكن تعلـم وهي في طريقها إلى القاهرة أنها ستتلقى مفاجأة غير سـارة تتعلق بزوجها إبراهيم..

سألتها أمها إن كانت قد أقرضت إبراهيم سيارتها ليستقلها ذات يوم إلى طنطا.. فأجابتها بالإيجاب.. بعدها راحت أمهـا تسرد عليها قصة فتاة في السابعة عشرة من عمرها برفقـة

رجل وقور جاءا للفيلا وسألا عن إبراهيم عبد القادر صاحب السيارة.. ولما عرفت ذلك من رجـال الأمـن أمـرتهم أن يصعدوا بالفتاة والرجل إليها..

قالت لها أمها إن الفتاة كان يستولى عليها الخوف والتردد وأنها بدت غارقة في الذهول والارتباك من المظـاهر التـى تحيط بها والتى تراها لأول مرة.. أحجمت عن الحديث وكأن الخرس قد أصابها.. ولما بدا من مظهرها أنها سببت إزعاجاً لسكّان الفيلا دون داعٍ وأنه لم يبق أمام أصحاب المكان سوى إجبارها على الحديث بكل الطرق الممكنة تصـدى الرجـل الذي يرافقها للموقف.. وتحدث نيابة عنهـا.. فـأفهم سـيدة الأعمال اللبنانية أنهم استدلوا على عنوان هذا المكان من قلم المرور بناء على رقم السيارة فقد فهموا بالخطأ أنها سـيارة إبراهيم عبد القادر الذي يبحثون عـن طريقـه منـذ سـت سنوات..

- : وليش عم تبحثون عنه؟..

- : علشان ابنه.. يعرف إن له ابن في الدنيا..

أشارت سيدة الأعمال بذهول إلى الفتاة المراهقة..

- : إبراهيم أنجب منك ولد؟..

فزعت الفتاة وأسرعت قائلة:

- : لا مش منى أنا.. من أمى.. دا أخويا عنده ييجـي ست سنين!!..

دارت الدنيا بالسيدة التى لاذت ملامحها بالحيرة مستعطفة الرجل أن يسارع بإخراجها من هذه الحيرة فسارع الرجـل بشرح قصة إبراهيم وعنايات كما تعرفها القرية وكما يعرفها هو كأحد أبناء هذه القرية المتعلمين والـذي يعمـل موظفـاً بالقاهرة والذي لجأت إليه عنايات كجارٍ طيب ومتفتح وأمين ليبحث لها عن ضالتها.. عن طليقها المفقود..

ها هي فاطمة تفصح لحنان عن خجلها من نفسـها أمـام أمها.. فقد أخذت الأم تسرد لابنتها كل ما حرصت أن تعرفه من معلومات حول عنايات الخادمة وطفلتها يسرية وحياتهما على السطوح مع التلميذ الشارد إبراهيم عبد القادر.. وكيـف دفعهما للعودة إلى القرية في أول عهده بالعمل لدى مخدومة أمها السيدة هدى..

قالت فاطمة إن وخزاً كوخز الإبر ملأ جسمها وهي تسمع اسم هدى.. لأن مالاتعرفه الأم أن هـدى هـى الآن ضـرة ابنتها.. وأن فاطمة حجبت هذه المعلومة عن كل من حولهـا

من قبيل التجمل والاكتفاء بهذا القدر من التشوه الـذى نالـه إبراهيم – ونالته معه- فجأة وبلا مقدمات ودفعة واحدة..

ومن بين دموعها راحت فاطمة تلعن حظها الذى أوقعهـا في هذا الكاذب الجميل.. وذلك الشيطان الرقيق.. فابتلاعهـا لمفاجأة زواجه السابق من هدى كان هناك ما يخففه عنها..إذ كان عزاؤها أن السيدة التى تجلس في الكفة الأخـرى مـن الميزان سيدة محترمة وثرية وجميلة وتحب إبـراهيم حبـاً حقيقياً ومخلصاً.. أما الآن فهى تكتشف أن الميـزان الـذي عاير به قدرها وقيم به كينونتها هو نفس الميزان الذي وضع فيه خادمة أرملة جاهلة في نفس قدرها ونفس كيانهـا.. وأن جسده الجميل وقلبه الأجمل اللذين جنّت بهما قد باعهما ذات يوم بثمن زهيد.. لخادمة..

لم تكن فاطمة تعلم أنها وهي تسرد مأساتها على حنان - قريبة زوجها وزميلتها الرقيقة الهادئة – أن حنان نفسها ترنو من خلال هذه الحكايات على موقعها – الذى كـان - فـي الخلفية الرمادية.. إنه الماضي التى راحت تجتـره.. كانـت فاطمة تبكى ولا تعلم أن حنان تؤجل بكاءها إلـى أن تنفـرد بنفسها.. وما كان لحنان إلا أن تخنُق دموعها حفظاً لكرامتها

أمام فاطمة إذ إنها لن تقترب بأى حال مـن فكـرة تبـادل الشكوى مع فاطمة.. لن تبلغها أنها الضـحية الأولـى فـي مسيرة إبراهيم النسائية.. فقد أيقنت أن إبراهيم حجـب هـذه القصة عن فاطمة واحتفظ لها عند الآخرين بمكانها اللائـق كقريبة.. ومن المؤكد أنه لم يفعل ذلك بأى دافـع حضـارى ولكن بدافع أنانى محتواه التقليل من مغامراته والابتعاد عـن النبش في ماضيه.. لم يكن لدى حنان من موقف ومـن رأى سوى أن تستمع باهتمام.. وهي في داخلها تحترق وبقسوة.. ولعلها ارتاحت لما قالته فاطمة من أن أمها عالجت المشـكلة بذكاء سيدات الأعمال الحويطات.. فقد أبلغـت زوارهـا أن إبراهيم هذا كان يعمل لديهم في إحدى الوظائف وأنه لم ينـل موافقة مسبقة منهم على استخدام السيارة في مشوار شخصى إلى طنطا.. ولأنهم اكتشفوا سوء استخدامه المتكرر لسـيارة ابنتهم فقد فصلوه من العمل منذ شهرين.. ولكن هذا لا يمنـع من أن " نتضامن معكم ".." ونبلغكم بمكانـه إذا تيسـر لنـا ذلك.. " فقط اتركوا عناوينكم وتليفونـاتكم إن وجـدت.. ولا تتصلوا بنا إلا إذا اتصلنا بكم.. مع السلامة.."

هذا ما توصلت إليه أم فاطمة مـن حـلٍ مـع ضـيوفها الغرباء.. أما ما توصلت إليه من رأى مع ابنتها المطعونـة والتى راحت تبكى أمامها في هستيريا فقد طالبتها بالهـدوء والتكتم على ما تعرفت عليه من معلومات شائنة حول ماضي زوجها.. وأن تتمسك بهذا التكتم حتى ينـال شـهادته بعـد أسابيع.. ويغادر الكلية.. فالتفاهم معه خارج نطـاق الكليـة سيختلف عن إجراء هذا الصدام في أرجاء الكليـة.. وكلهـا أسابيع يجب أن نقطعها بالصبر والكتمان.. فأثر هجمة السفير عليهما في الكلية مازال عالقاً بالأذهان ولـيس مـن اللائـق تفجير فضيحة أخرى ستظل فاطمة تلعـق أثرهـا عـامين متتاليين حتى تتخرج..

أثنت حنان على ذكاء الأم وتعقلها وتمنت – بصوت عالٍ – أمام فاطمة أن يتاح لها التعرف على هذه السيدة العظيمـة ومقابلتها..

وعندما أفرغت حنان أمامى هـذه المعلومـات وعيناهـا تذرفان دموع الفجيعة كان خيالى يسـترجع رحلتـى علـى السطوح ذات صباح باكر لمقابلة ابن خالتى الضال.. ولأنى عند عودتى المذهولة من هذه الرحلة اكتفيت بكلمـة واحـدة

مقتضبة قلتها لهم (انسوا إبراهيم خالص) فقد فهم الجميع أن إبراهيم حاله سيئ ولن يعود.. وحتى أعفى نفسي من الإدلاء بأي تفاصيل اكتفيت بهذه الجملة عملاً بالحـديث الشـريف: ليقل خيراً أو ليصمت..

إن حنان لا تعلم أنها وهي تتحدث عن سيدة اسمها عنايات وبنت اسمها يسرية أننى أعرف من هي عنايات ومـن هـي يسرية وأننى التقيت بهما واطّلعت على علاقتهما بـإبراهيم.. ومع هذا فقد ظللت محتفظاً لنفسى بهذا السر حتـى لا أفـتح على نفسي أبواب جهنم إذا ذكرته أمام حنان..

لم تخجل حنان أن تذرف دموعها أمامى.. ورغـم أنهـا تملك المبررات الكافية لسفح هذه الدموع سواء كانت لخيبـة ظنها التى تجترها بأثر رجعى أو لشـعورها بالنجـاة مـن الارتباط بشيطان كانت تراه ملاكاً إلا أنها وبـذكاء فطـرى ادعت أنها تبكى حزناً على فاطمة حتى لا تمـس شـعورى كزوج يحق له أن يتذمر إذا أحس أن زوجته تنعـى حبهـا القديم أو – حتى – تتألم أمامه من طعنة ألمت بها في حبهـا القديم..

أطلعتنى حنان على كمية الحقد التى باتت فاطمة تحملهـا تجاه إبراهيم.. وأنها قبل أن تخرج من حياته ستهدم المعبـد على كل من فيه.. فهى مازالت تحتفظ برقم تليفـون هـدى وأنها بواعز من ضمير الأنثى المهزومة ستتجه إلـى إنقـاذ هدى من هزيمة مماثلة وتُطلعها على صحة ترتيبها في عدد زوجات إبراهيم.. وأنها ستفعل ذلك بمجرد حصـولها علـى الطلاق حتى لا تثير لديه حقداً مماثلاً يمكن أن يعاملهـا بـه فيما لو قامت بشحن هدى بتلك المعلومـات المـدمرة قبـل حصولها على الطلاق..

أما كيف ستحصل فاطمة على الطلاق.. وكيـف سـتقنع إبراهيم بمنحها طلاقاً بيناً فهذا ما صارت تحمل همه.. وهذا ما كانت تعانيه من سؤال ظلت تسعى به إلى حنـان وهـي متسربلة في الحيرة.. متوشحة بالحزن.. وربما الندم.. والندم الشديد..

- ٢٨ -

لم يكد يتذوق طعم الفرحة بحصوله علـى البكـالوريوس حتى لمست شفتيه مرارة عابرة.. فقد عرف تواً إلـى أيـن سيتجه بهذا البكالوريوس.. إنه المكان الذي يتجه إليـه كـل الخريجين على اختلاف مشاربهم وأعمارهم هذه الأيام.. فهم ينضمون إلى القوات المسلحة.. ثم إلى الجبهة حيث المعركة القادمة التى لا صوت يعلو فوق صـوتها.." يـاه.. إن هـذا الشعار صار قديماً وبالياً وقاله جمال عبد الناصر منذ سـتة أعوام.. كما قال في نفس التاريخ.. إن مـا أخـذ بـالقوة لا يسترد إلا بالقوة.. وها هو قد رحل وجاء خليفتـه ليواصـل تخديرنا بهذه الحقن المسكّنة.. ويهدهد هممنا بتلك الشعارات الجوفاء.. فلا الاسترداد قد تم ولا صوت المعركة هو الوحيد العالى في الساحة.. وها أنتم أيها الخطباء استدرجتموني مع الزمن لأدخل حظيرتكم التى ما كنت أظن أنى داخلها أبـداً.. فقد مضت ستة أعوام على هزيمة ٦٧.. وهـل كـان مـن الممكن أن يظن أحد أننا سنستهلك كل هـذه السـنوات فـي ترتيب معركة الثأر وتجهيزها..؟ "

لم يكن بالفعل مشغولاً من قبل بمثل هـذه الموضـوعات التى لا تدخل في حساب اهتماماته.. فالبلد وقعت في معركة هزمت فيها أمام اسرائيل.. ووطئت إسرائيل أرض مصـر ودنستها.. - تقريباً في نفس التاريخ الذى وطئ فيه صاحبنا قلب وجسد وسطوح عنايات -.. فكم تسلل إليها خلسة وابنتها نائمة.. ولعل السنوات التى كانت إسـرائيل تكـرس فيهـا وجودها وتبطش بكل من يقف في طريق مشروعها الأمنـى التوسعى كان هو يفعل نفس الشئ في حياته.. فهـو بالفعـل كان يسعى – دون إعلان أو دون خطة أو حتى دون علم – إلى نوع من الأمان والاستقرار.. ولقد شغله هذا المشـروع الخاص عن محاولة التعـرف أو حتـى إبـداء أى اهتمـام بالمشروع العام – مشروع مصر – فما شأنه هو بمصـر.. وأحوال مصر.. أو حتى بأفراح مصر ومآتمها؟.. فهو النائم دوماً عن تذوق السياسة.. لا يرى.. لا يسـمع.. لا يـتكلم.. حتى أنه لم يفكر ذات مرة أن يشترى صحيفة.. ولقـد امتـد بخله إلى عدم التأثر بأمواج الجماهير التـى تلاطمـت فـي الشوارع يوم تنحى عبد الناصر.. نظـر إلـيهم مـن فـوق السطوح بسخرية وازدراء يردد كلمة قبيحة اشتقها من نـداء

الجماهير المتصاعد:" لا تتنحى ".. وقد فعل نفس الشئ عندما خرجت الجماهير بعد ثلاث سنوات متـأثرة بـذلك الخبـر الكرباج الذى لسع وجدانها: وفاة عبد الناصر.. ولم يكن لـه من رأى وهو يرى طلبة الكلية يندفعون إلى الشوارع سـوى أنهم مراهقون إذ كيف يودعون هذا البطل المهـزوم بهـذا النحيب؟.. مابالهم لو كان هذا البطل المزعـوم قـد مـات منتصراً..؟

ها هى الأيام قد كرت وفرت وأتت إليه حاملـة الـدعوة المنتظرة بأن يسهم في إزالة آثار هزيمة البطل المكسـور.. فاسترجع كلمته القبيحة.. الكلمة التى جاء رنينها الفـج مـن صيحة:" لا تتنحى ".. وتساءل مستهجناً:" وهل ظل هـؤلاء الفوارس مؤجلين معركتهم انتظاراً لتخرجى وانخراطى فـي سلك الجندية..؟.. ألم يكفهم ست سنوات طويلة - مرت على الهزيمة- قد كان يمكنهم فيها غسل عارهم وإعفائى من تلك المهمة..؟.. ويا ترى كم عدد السنوات التى سأقضـيها فـي انتظار بدء هذه المهمة..؟.. فإذا كـان الجـامعيون الـذين تخرجوا بدءاً من عام النكسة مازالوا يرفلون في الزي الكاكى ونسوا تماماً علاقتهم بوظائفهم المدنية دون أن تبدو أمـامهم

لمحة أمل في أن تنتهى متاعبهم.. فمتى تنتهى تلك المتاعـب التى من المطلوب أن آخذ حظى منها الآن؟ "..

لقد تغلغلت المرارة - التى لمست شفتيه بشكل عـابر – إلى داخل حلقه.. ثم إلى داخل وجدانه.. فالمطلوب منـه أن يجهز نفسه للانخراط فـي الخدمـة العسـكرية لأن شـقيقه الأصغر كمال يعول والده ووالدته.. ومـادام والـداه لهمـا عائل.. ومادام الشرع والقانون قد ارتاح ضميرهما نحو عبد القادر المنير وصفية الوكيل فهيا أيها الابـن البـار لتـؤدى واجبك نحو الأم الكبرى: مصر.. هيا يا إبراهيم..

سحب " الهواء من أنفه إلى سقف حلقـه مـردداً حـاءه الحقيرة في حركة سوقية شهيرة.. مردداً: مصر؟.. شئ يا مصر؟.. وماذا فعلت لي مصر؟.. ماذا قدمت لي..؟.. مصر بالنسية لي هى عنايات الخادمة.. وهدى المعلمـة.. مصـر بالنسبة لي هي الأرصفة التى شاهدت تشردى والمقاهي التى آوت ضياعي والحانات التى بثـت الـدفء فـي أوصـالى المرهقة الباردة.. مصر بالنسبة لي هـي مرتبـة عنايـات الحقيرة.. وسرير هدى الجائع.. ولو كانت مصر بالنسبة لهم هي الشعارات الزائفة والأغانى المفتعلة مقابل حيـاة رغـدة

وقصور حلوا فيها محل الأمراء وأرصدة هاربة إلى بنـوك العالم.. فليهنأوا هم بمصرهم.. وليدافعوا هم عـن مكاسـبهم فيها.. ولينسونى.. يجب أن ينسونى.. فما كان لي أن أقطـع كل هذه الأميال في الطرق الوعرة لأجد نفسي أصل بعد هذا العذاب إلى طريق أكثر وعورة.. طريق لا أعرف نهايتـه.. طريق مقطوع.. طريق ستتوقف عنـد أولـه كـل آمـالى وطموحاتى ومشروعى في الحياة.. "

توقف لحظة وراح يتأمل ذلك الحـديث المتصـاعد مـن داخله.. ثم يتأمل كلماته الأخيرة.. الآمـال.. الطموحـات.. مشروعه في الحياة.. ثم راح يبحث عن ماهية هذه الأشـياء وما الذي يقصده بها.. فهو يعرف هذه الِأشـياء ولا يعـرف حدودها بالنسبة له.. فهى من المؤكد نوع من الأحلام والسبل التى تؤدى إلى هدف ما.. وهو إن كان لا يعرف هدفه فمـا علاقته بتلك الأشياء التى من شأنها أن تجعلـه يعثـر علـى هدفه؟.. فالشئ المؤكد الذي يعرفه عن نفسه هو قدرته علـى الإفلات من المآزق حتى وإن أدى ذلك إلى الدخول في مآزق أخرى.. أو الدخول بآخرين ممن حوله إلى هذه المآزق.. ثم يحاول البحث لهم عن مخرج.. إذن فهو رجـل المـآزق..

يصنعها ليتخلص منها.. وإذا تخلّص منها يعود فيصنعها مرة أخرى..

وماذا عن مأزقه الحالى؟..

إنه المأزق الذي يقول: عليك أن تترك كل دنياك وتـدخل الجيش.. جاء دورك لتترك لأخيك كمال القيام بـدوره فـي رعاية والديك..

- : وماذا لو كان كمال هذا غير موجود..؟..

- : في هذه الحالة ستحصل على الإعفاء لتقوم برعاية والديك..

- : بسيطة.. الحل في غاية السهولة..

- : وما هو الحل..؟..

- : كمال يجب أن يموت.. ووالدى نفسـه يجـب أن يموت حتى أظل أنا الراعي الوحيد لأمى الوحيدة..

- ٢٩ -

أمام تلك المعطيات الجديدة راح يستعد لإحـراق ورقـة هدى.. وستكون ورقة طلاقها هي الهدية التى سيقدمها إلـى فاطمة بمناسبة تخرجه.. فهو يريد أن يقول لها بشكل عملى " الآن أمامنا طريق جديد يجب أن نقطعه معاً.. ولـن تقطعـه معى امرأة أخرى غيرك.. " وهنا سـيهمس لنفسـه دون أن تسمعه: " لأنك سيدة المرحلة القادمة.. مرحلـة الارتفـاع.. فلعل مرحلة قطع طريق الحياة بالطول قد انتهـت.. ولعـل مرحلة قطعها بالعرض قد ولت.. "

ومثل الديك الذي مازال يعتقد أن الفجر لا ينـبلج إلا إذا سمع صياحه اعتقد إبراهيم أن الحزن الذي يخيم على وجـه فاطمة ليس له إلا تفسير واحد هو أنها تحس من الآن بالفراغ الذي سيحيطها في الكلية بعد تخرجه منها وأنهـا ستقضـى عامها القادم والعام الذي يليه في غربة نفسية لأنه لن يكـون بجوارها.. هذا ماراح يقنع به نفسه متناسياً كلمات حنان التى أكدت له أن " بيوته كلها مشاكل " كما راح يغفـل أحاسـيس القلق التى تتراوح في أعماقه بين وجوب أخذ كلمات حنـان بعين الاعتبار والعمل على بحثها وبين إهمال تلك الكلمـات

التى لا تعنى شيئاً محدداً ولا تحمل اتهاماً صريحاً.. وعندما اقترب من فاطمة شارعاً فـي مفاتحتهـا عـن مشـروعه بالانفصال عن هدى واثقاً أنه سيحولها بهذا الخبر من كـائن حزين إلى طائر مرح يحلق في السماء غبطة وسعادة.. فإنه في الواقع قد أمدها بمفتاح الحديث الذي كانت تبحث عنـه.. فبدلاً من أن تجهد نفسها في البحث عن مدخل تتسال منه إلى كلمة الطلاق تراه يقوم هو نفسه بطرح هـذه الكلمـة ولأول مرة وكأنه كان يقرأ أفكارها.. صحيح أنه قرن كلمتـه تلـك وخص بها هدى.. إلا أنها تناولت الخيط بسرعة وأفصـحت له عن تعديل تراه مناسباً في مشروعه، هذا التعديل يقول:

" لا يجب أن تُطلق هدى.. فأنا أولى بهذا الطلاق ويهمنى الحصول عليه "

هب واقفاً وشرر الغضب يبدو في عينيه.. إذ كيف يتقـدم إليها بعرض يعطيها به كل حياته ليرى أن عرضها المقابـل هو أن تنسحب هي من كل حياته..؟..

وقبل أن يثور.. وتتناثر شظايا انفعاله.. وقبل أن يخلـط غضبه منها بلومه لها في نبرة حزينة يستدر بهـا عطفهـا.. وقبل أن يذكّرها بتضحيته التاريخية كرجل اختار أن يمحـو

خطيئتها ويأخذها بعارها.. وقبل أن يشرع في جذب سـهامه الموهوبة من سلة سهامه التى يجيد تصويبها نحو هدفه.. قبل أن يفعل كل ذلك أسرعت فاطمة ببدء هجومهـا المختـزن.. وبإطلاق سهامها الجاهزة لتنهى بها الجولة التى تُجهز لهـا منذ أسابيع.. وحتى تضمن لنفسها كسب هذه الجولة قـررت ألا تستخدم لهجة التقريع وإبداء خيبة أملهـا فيـه كشـيطان مخادع وألا تستخدم أسلوب الصياح حتى لا يواجهها بصياح مماثل ويضيع صوتها وسط ضجيج صـياحه الـذي يجيـد إطلاقه عندما يفقد حيل الإقناع..

أشارت له أن يهدأ فالتزم الهدوء ليس استجابة لأمرها قدر ما هو الفضول لأن يعرف ماالديها.. باغتته بسـؤال: كيـف سيستطيع أن ينهى علاقته بهدى ويخرجها من حياتـه.. ثـم كيف سيستطيع أن يتخلص من ولده إبراهيم الذي لا يعـرف عنه شيئاً ويخرجه من حياتـه..؟ هـل هنـاك أب يطلّـق ولده..؟..

غاص في كرسيه وهو يسمعها تحلل بهدوء ورزانة كيف اختارت أن تترك له طريقه المختار حتى يسلكه بمفرده بعـد أن أوصلتها قناعتها إلى أنها لا ترى لنفسها دوراً بجواره إذ

إنها لا تتحمل ولن تتحمل عيون أسرتها التى تعلم أن رجلها يطارده ماضٍ بغيض.. ماضٍ يقول إنه قد سقط منه سهواً في الطريق ولد من صلبه عمره ست سنوات لا يعـرف عنـه شيئاً.. وأنه قد سقطت بالتالى زوجة تحولت في صفقة سريعة إلى مطلقة ومضت بعيداً عن طليقها وهما لا يعلمـان أنهـا تحمل في أحشائها ثمرة بائسة.. ثمرة استمدت بؤسـها مـن بؤس الواقع الذي يحيطها.. الواقع الذي سجل قصـة حيـاة خادمة وقعت في طريق شاب - أو وقع شاب في طريقها – وبقدر ما كان هو مكسب لها كانت هي مجرد محطة بالنسبة له.. وعندما آن له أن يغادر هذه المحطة إلى موقـع آخـر سرعان ما ألقى بها في عرض الطريق..

ثم عرجت فاطمة في تحليلاتها الهادئة إلى حـديث عـن الموقع الآخر.. موقع هدى.. ثم إلى الموقع الجديـد جـداً.. موقعها في حياته.. وكيف كانت تظن أنها ملاكـه الوحيـد لتكتشف أنها كانت مجرد رقم في سيرته الخاصة وهـي إن كانت قد قبلت مقايضة عارها الذي قبلها به مقابل كذبته حول زيجته الأولى فهى الآن غير مستعدة أن تبتلع تلك المصـيبة

الأشد.. مصيبة أن تظل مطاردة باقى حياتها من خادمة لهـا ولد من زوجها..

في لحظة واحدة برزت له كل الوجوه التـى تقـف فـي طريقه.. ولم يلتفت إلى أن هذه الوجوه ذاتها هي نفسها وجوه الأشخاص الذين يمتون إليه بصلة الرحم.. لم يلتفت إلى هذه الحقيقة بل التفت إلى عكسها تماماً.. فوجود والـده وشـقيقه كمال على قيد الحياة مصيبة من شأنها أن يزج به إلى الجيش لسنوات لا يعلم مداها.. ووجود ولده إبراهيم – الـذي تأكـد الآن أنه حقيقة ماثلة – وكذا وجود طليقته عنايـات مصـيبة أخرى.. هذه المصيبة تقوم بدورها الآن في طرد فاطمة من حياته.. أما هدى فمن المؤكد أنها ستكون هي الأخرى أحـد هذه الوجوه العقبة عندما تعرف من فاطمة كل شئ.. ففاطمة تواجهه بشراسة.. وتلعب على المكشوف وبدلاً من أن تكون مشروعه المأمول لقطع طريق الحياة ارتفاعاً فهى قد تحولت إلى عقبة راحت تقطع عليه كل الطرق..

سألها - متقمصاً سكِينة الأبرار - عن ماذا سيكون موقفها فيما لو رفض عرضها وظل متمسكاً بها رافضاً تسريحها من حياته..؟..

أجابته بكل الوضوح أنها – وهي الوحيدة في نسائه التـى تعرف عنوان وتليفون طليقته عنايـات وزوجتـه هـدى..- ستقوم بجمعهما في صف واحد معها لمواجهته وكشف خداعه وحقارته..

وبهدوء يزيد كثيراً عن هدوئها طلب منها أن تمهله يومـاً واحداً حتى يقنع نفسه بالتحول عن عرضه النبيل بالاحتفـاظ بها إلى الاقتناع بعرضها القاسي بالتخلى عنـه.. وبصـوت متهدج بث لها الرجاء أن تسامحه إذ طلب هذه المهلة التـى بالكاد تكفيه نفسياً لاتخاذ هذا القرار فهيا بنا يا حبيبتى لننهـل من الدنيا ليلتنا الأخيرة ونسرق من الـزمن آخـر سـاعات المتعة..

وفي عشهما الهادئ راح وبكل ثقة وإقبال يعزف موسيقاه الصاخبة على جسدها الراقص وهي تتلقى أنغامـه بـدموع حسرة من تفرط في هذا الثـراء الـذي تخسـره بمحـض إرادتها...

وبعد أن تبادلا نخـب الـوداع وجدتـه لا يتهيـأ معهـا للانصراف إذ طلب منها أن يقضى ليلته وحيداً هنا ليرتشف

بطريقته عبير المرئيات مجسمة أمامه ليغذى بها كل وجدانه قبل أن تتحول إلى ذكريات..

لثمته في حب وألم.. وفرت من أمامه مسرعة قبـل أن يشاهد دموعها التى في طريقها إلى الانهمار..

- ٣٠ -

مضى اليوم الذى حدده مهلة لابلاغها بقـراره.. وأعقبـه يوم آخر.. ثم أيام متتالية.. دون أن يتصل بها.. لجأت إلـى حنان تسألها المشورة وإن كانت تعرف خبراً عن إبراهيم..

أكدت لها حنان أن ما يفعله إبراهيم هو الاختفاء التكتيكى الذي ستعقبه مفاجأة.. وأنها لا تملك إلا أن تتصل بهدى فمن المؤكد أنها الآن تملك ما يمكن أن يقال.. ثم قامت فأحضرت لها التليفون.. وطلبت منها أن تسـتخرج رقـم هـدى مـن مفكرتها.. فأملته لها من ذاكرتها.. وقبل أن تتعجـب حنـان وتثنى على ملكتها في حفظ الأرقام وهي التى لم تستخدم هذا الرقم إلا مرة واحدة.. أفهمتها فاطمة أنها تعمدت أن تحفـظ الرقم ولا تحتفظ به في مفكرتها بعد أن اكتشفت أنـه يقلـب حقيبتها دائماً وقد اضطرت أن تستسلم لذلك دون أن تفاتحـه واختارت طريق الحرص بديلاً عن طريق التخوين..

هزت حنان رأسها عجباً وهى تدير القرص برقم هدى في طنطا.. وعندما دق الجرس سلمتها السماعة وجلست ترهف السمع بجوارها لحديث تاريخي يولـد الآن بـين زوجتـى إبراهيم خطيبها السابق وأول وآخر حب طرق قلبها..

ها هي فاطمة تبدو مشدوهة مما يدل على أنها تستمع إلى حديث عجيب على الطرف الآخر من التليفون.. وهـا هـي حنان تسمع فاطمة وهي تؤكد لهدى بإصرار أنهـا زوجـة إبراهيم.. وأنها كذبت عليها عندما أوهمتهـا فـي المحادثـة السابقة أنها خطيبته.. وأنها لم تعاود الحديث معها اسـتجابة لطلب إبراهيم بعد أن اعترف لها بزواجه من هدى.. وأنها لم تجد مبرراً أو هدفاً لتكرار المحادثة لأنها اكتفـت بالارتيـاح لأن المرأة الأخرى التى تشاركها زوجهـا سـيدة محترمـة صادقة في حبها ومشاعرها وتساند زوجها في رحلة حياتـه لأنها تنشد أن تصعد به خلال هذه الرحلة وفي منتهاها إلـى الأفضل.. الأفضل دائماً.. الأفضل له.. ولها..

وها هي حنان تلمس حديثاً ذا شجون هادئاً تتخلله شهقات الاستغراب التى تطلقها فاطمة بين وقت وآخر.. هـا هـي فاطمة تستدرج هدى إلى منطقة شائكة ودقيقة فـي الحـوار الهامس.. إذ يبدو أنه راق لفاطمة أن تتأكد أن إبـراهيم قـد احتفل مع هدى احتفال الوداع.. احتفال الليلة الأخيـرة وراح بكل ثقة واقبال يعزف موسـيقاه الصـاخبة علـى جسـدها الراقص دون أن يرى منها دموعاً كدموع فاطمة التى كانت

تعلم أنه اللقاء الأخير.. ذلك أن هدى المسكينة لم تكن تعلـم وهي بين يديه أن هذا آخر عهدها به.. وأنها لـو كانـت – مثلها – تعلم أنه اللقاء الأخير لذرفت هي الأخرى - وهـي تتلقى أنغامه - دموع من ستخسر هذا الثراء الذي لا تضمن له بديلاً..

تنهدت فاطمة ثم ألقت برأسها الصغير الجميل بين يـديها وهي تتنهد في ألم وذهول وسرعان ما نهضت وهي تمد يدها إلى حنان أن تنهض معها..

- : إبراهيم جمع كل أغراضه من شقة هدى واختفـى من أسبوع.. بينا على شقتى.. أكيد جمع أغراضه من عندى أنا كمان.. يا هالشيطان.. يا هالشيطان.. وين راح..؟.. وين راح..؟..

وفي عشها الهادئ الذي شاهد أجمل لياليها مع شـيطانها الجميل وقفت فاطمة مذهولة وهي ترى أن عشها صار خالياً من كل أثر لإبراهيم.. كتبه.. مجلاتـه.. أربطـة عنقـه.. قمصانه القليلة.. بدلته الوحيدة " إحـدى هـداياها إليـه ".. الكاسـيت.. الشـرائط.. زجاجـات العطـور.. بيجاماتـه الحريرية.. ثم الإطار الذهبى الذى يحمل صورتها.. ولكنـه

ترك الإطار الذي يحمل صورته ثم تذكرت وثيقتى الـزواج التى تبادلاها.. هو يحفظ نسخته بطريقتـه.. وهـي تحفـظ نسختها هنا.. أسرعت إلى علبة مجوهراتها التى تحتفظ فيها بجوهرة – كما كانت تظن – من ورق.. وثيقـة زواجهـا.. شهقت وهي تدق صدرها بألم..

- : حنان.. غشنى.. هالشيطان سرق صك الـزواج.. سرق القسيمة حقى.. سرقها يا حنان..

وانهارت على كرسيها.. واندفعت إليها حنان لتضمها إلى صدرها آخذة في تهدئة دموعها المنثالة.. ونحيبها الذي راح يتعالى في نشيج مملوء بالحسرة وخيبة الأمل..

***

- ٣١ -

اجتمعتا على هدف واحد.. الصديقتان الجديدتان.. هـدى وفاطمة وقد طال بحثهما عن الزوج الهارب.. وقـد هـدهما هذا البحث.. وأجهدهما التجوال.. فواقعهما المؤلم لا يشـير إلى امرأتين تبحثان عن زوج هارب ولكنهما زوجتان تبحثان عن أبٍ لوليدين تحمل كل منهما في أحشـائها واحـداً مـن صلبه..

قلت لحنان أن تنصحهما بالسؤال عن ضالتهما في سـلك الجندية.. فالمكان الطبيعى لإبراهيم الآن هو القوات المسلحة فهو بحكم كونه الابن الثانى لأبٍ يتمتع برعاية ابن آخر - لم يصبه دور الخدمة - يجب أن يكون مجنـداً الآن.. جنـدياً عادياً.. أو ضابطاً احتياطياً..

في أول الأمر لم تعيرا هذه النصيحة انتباها.. " فالهـارب من الحياة من السهل عليه أن يهرب من الجنديـة ولا يسـلم نفسه كحالة مكررة يقوم فيها الكثيرون بعدم تسليم أنفسهم.. "

وعندما قامت معركة أكتوبر ٧٣ كان قد مضـى علـى اختفائه ثلاثة شهور فتحركت لدى هدى ثـم فاطمـة حاسـة الخوف من أن يكون رجلهما قد انخرط فعلاً في سلك الجندية وحدث له مكروه في هذه المعركة وكان من السهل أن تجـد

كل منهما طريقاً للبحث عنه بواسطة كبار المسئولين.. وقـد أثمر البحث عن حقيقة غريبة ومريبة.. فإبراهيم قد حصـل على إعفاء نهائي لأنه العائل الوحيد لأمه.. وقد قـام بتقـديم الأوراق الدالة على ذلك.. وهذه الأوراق تؤكد أن والده قـد توفى.. وتلك هي شهادة الوفاة.. كما أن شقيقه كمال قد توفى وتلك هي أيضاً شهادة الوفاة..

جاءتا تسألانى عن زوج خالتى عبد القادر وولده كمال.. " متى انتقلا إلى رحمة ا "..؟ وكانت إجابتى ضاحكة خاليـة من التأثر بل مليئة بالسخرية التى سارعتُ بوقفهـا قبـل أن يضايقهما تندري..

- : جوز خالتى عبد القادر وابنه كمال عايشـين وزي الفل..

تبادلتا وجوماً.. واشتركتا في ذهول.. ومالبثت أنا وحنان أن تبادلنا نفس الوجوم واشتركنا في نفس الذهول..

قامت حنان فأعدت أكواب الليمون.. وظلـت الأكـواب جاثمة في موقعها على المنضدة لم تُمس إزاء تلـك الحقيقـة الجديدة التى مست فيهما وتر الهلع وأثر الخدعـة.. رحـت أحدثهما بهدوء مستخدماً المنطق في توضيح الأمـور: مـن

المؤكد أن إبراهيم لا يعيش على أرض الـوطن.. إبـراهيم غادر البلاد.. لأنه لا يمكن أن ينهى حياة أبيه وأخيه في حالة تزوير صاخبة لمجرد أن يشتري حريته داخل البلاد.. مـن المؤكد أنه فعل ذلك ليشتري فعلاً حريته ولكن ليهـرب بهـا خارج البلاد..

لقد تنبأ بالعاصفة التى ستقتلع بيتيه في وقت واحد.. بعـد أن قالت له حنان إن بيوته كلها مشاكل وبعد أن أكـدت لـه فاطمة أنها ستجمع هدى ضده إن لم يطلقها لأنه لا مفر مـن طلاقها منه.. كما أنها أشارت إلى إمكانية تأليـب الخادمـة عنايات ضده لأنها جاهدة في البحث عنه.. ومع اجتماع تلك الغيوم المنذرة ببوابل من الأمطار الثقيلة فقد آثـر أن يفـر برأسه العارية خوف البلل..

لقد تحولت بيوته الهشـة إلـى خصـوم لا سـبيل إلـى مهادنتهم.. وتحولت رغبته في طلب الأمان عن طريق تدعيم قواعده مع فاطمة إلى كابوس جـثم علـى صـدره.. هـذا الكابوس هو فاطمة نفسها.. فاطمة التى تحولت إلـى امـرأة شرسة قررت أن تسلك مسلك الانتقام منه بين يوم وليلة..

أما هدى التى ألجمها الصمت ولاحقها الذهول فلـم نعـد نرى منها سوى الدموع الصامتة الحزينة.. ولعلنا كنا نفسـر صمتها الكئيب بأنه اللوم الذي يمسك بتلابيبها لأنها اختـارت أن تظل في كنف هذا الشاب الذي خطـف قلبهـا وجعلهـا مسلوبة الإرادة تنفذ كل أوامره وتعليماته بقلب الحبيبة الغارقة في وله العشـق والرومانسـية ولا تتأمـل تلـك الأوامـر والتعليمات بعقل الزوجة الحكيمة والتاجرة الحصـيفة التـى تزن الأمور بميزان العقل.. فقد استجابت له عنـدما أقنعهـا بإخفاء خبر زواجهما.. وغرقت معه في شهر مـن العسـل المصفى وعمر من الحب الصارخ.. ثم استجابت له عنـدما توسل إليها أن ينجب منها ولداً.. وترتب على ذلك اسـتجابة موازية أعلنت فيها لأهلها زواجها مـن موظفهـا الجميـل إبراهيم الذي صار مهندساً معمارياً يثير الفخر والإعجاب..

لعلنا كنا نفسر موقفها بهذه الكيفية ولكنها عندما تحـدثت وجدناها لا تحمل ندماً على سلوكها معه.. فهى الآن الزوجة التى ترى زوجها في ورطة ويجب أن تنقـذه منهـا.. والأم التى تحمل في أحشائها جنيناً ينمو وتنتظره مولوداً يولد ثـم طفلا يتمتع بتربية راقية حتى يعود والـده.. وأنهـا سـتظل

معتزة بكل عام وكل شهر وكل يوم وكـل سـاعة قضـتها بجواره متمتعة بحبه وعطفه وشبابه حتى لو كان كـل ذلـك خداعاً في خداع.. وزيفاً في زيف..

في بادئ الأمر أخذنا التأثر والإعجاب من حديثها الشجى الحنون نحو ذكرى زوجها الغائب حتى أن فاطمة لم تستطع أن تمسك دموعها أمام ما تسمعه من حديث تقوله ضرتها هو نفس الحديث الذي يعتمل في صدرها وتخجل مـن إطلاقـه بنفس كفاءة وعفوية وبراءة هدى تلك السيدة الجميلة الثريـة التى تجلس أمامها ممتلئة بالنضارة والعز والشهامة..

ولكن سرعان ما أخذنا التعجب ثم الاستخفاف المصحوب بالضحك المكتوم ونحن نسمع هدى تُدلى بخطتها القادمة في البحث عن حبيبها المفقود.. فلقد أكدت لنا أنها تعرف عـدداً من المشايخ الذين سيستطيعون بمشيئة ا أن يـدلوها علـى طريق إبراهيم.. وأنها ستسعى لبعضـهم فـي المنصـورة وبعضهم في مدينة المنيا.. وبعضهم في مدينة أسوان..

كانت فرصة لفاطمة أن تعاود إطلاق ضـحكاتها الغائبـة وسط همها المتراكم.. فهمست إلى حنان بأنها كانت تظن أن إيزيس قد ماتت.. وأنها عندما طافـت الـبلاد بحثـاً عـن

أزوريس قد انتهت إلى جمع أشلائه كما تقول كتب التاريخ.. ولكن كتب التاريخ لم تنبهنا إلى أن إيـزيس سـتظهر مـرة أخرى في قالب سيدة من طنطا اسمها هدى الشيتانى..

سمعتها هدى فراحت تستفسر منها عن إيزيس تلك التـى تشبهها بها.. وأوزوريس ذاك الذى تشبه إبراهيم به.. وفـي نطقها لتلك الأسماء الفرعونية كانت تتـزلج فـي الحـروف بعفوية سحبت من فاطمة ضحكاتها التى عز على هـدى أن تضعها ضرتها في ذلك الموقف الساخر فانسحبت بهدوء غير عابئة بما يتدفق من لسان فاطمـة مـن اعتـذار وتأسـف ومحاولات صادقة لإجبارها على الجلوس وقبول الاعتذار..

لم تأبه هدى بكل هذا وتملكتها عزة بنات البلد وهي تشير إلى فاطمة بإصبع التحذير..

- : لو اتخلصتى من اللى في بطنـك حتروحـى نـار جهنم.. انت فْ بطنك أمانه وروح مـن ربنـا لازم تحافظى عليها.. أنا مش حاسكت وحاعرف طريـق إبراهيم.. لو حسافر آخر بلاد ربنـا.. ولـو عنـدك ضمير لازم تدورى عليه معايـا.. عـن إذنـك يـا حبيبتى..

- ٣٢ -

لم تتوقف هدى عن تبنى اقتفاء أثر إبراهيم.. نفذت كل ما فكرت فيه من البحث عنه بكل ما أوتيت من فكر وعقيدة.. ذهبت إلى المشايخ.. وفتحت المندل وقرأت الفناجين.. وقامت بعمل الأعمال.. وكثّفت زياراتها للسيد البدوى ثم خطفت رجلها إلى سيدى إبراهيم الدسوقى في كفر الشيخ أثناء اتجاهها إلى سيدى مرسى أبو العباس في الإسكندرية.. أما في القاهرة فقد تمكنت في يوم واحد من الابتهال لدى أضرحة الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة.. الابتهال إلى ا أن يرد لها حبيبها من غيبته..

حدثتها نفسها أن طائرها الشارد الذي لا يعلم أنها تحمل في بطنها فرخاً من صلبه ربما تحدثه نفسه أن يذهب إلى عنايات لأنه قد علم مؤخراً أن له ابناً منها عمره ست سنوات.. ولأنها لم تنس أن مكانها في حياة إبراهيم إنما جاء على حساب إزاحة عنايات من هذا المكان فكثيراً ما كانت تتذكر هذا التبادل الدرامى لموقع زوجتين في حياة شاب ممتلئ بالحيوية والسخونة.. وكثيراً ما كانت تطرد من ذهنها ومشاعرها أي شعور بالذنب يقترب منها خاصة عندما

أغلقت أمام عنايات كل أبواب البحث عن إبـراهيم.. وهـي الآن تتعجب بأثر رجعى: لماذا لم تصارحها عنايات بواقعـة حملها من إبراهيم وقت أن كانت تكثـّف البحـث والسـؤال عنه مراراً وتكراراً في الوكالة وفـي محلاتهـا التجاريـة وعندها هي شخصياً؟.. لماذا تعمدت عنايات أن تخفى هـذه الحقيقة؟..

" من المؤكد أن عنايات تعمدت ذلك حتى لا تثير نقمتـى ضدها وربما أوصلتها طبيعتها الريفية إلى الخـوف مـن أن أحسدها لما نالته من نعمة ترى أى امرأة في حالتهـا أنهـا تمتعت بما لم تتمتع به قريناتها من الريفيات الجاهلات.."

هذا ما توصلت إليه هدى من تحليل ولم يدر بخلدها حقيقة هذا التمويه الذي قامت به عنايات وإنكارها خبر حملها عـن هدى.. إذ إن عنايات كانت وقتها تعرف أن هدى لم تعترف بحقيقة زواجها من إبراهيم.. وفيما لو علمت بمسألة الحمـل فستعتبر أن هذا الحمل إنما جاء سفاحاً..

ولهذا فإن عنايات ظلت مشدوهة.. فاغرة الفـم.. وهـي ترى هدى في بيتها بشحمها ولحمها تنتظرها فـي الخـارج سيارتها الخاصة وبداخلها السائق.. وزادت دهشـتها وهـي

ترى هدى تعاملها بحنو وإعزاز وتضع ولدها إبراهيم بـين أحضانها آخذة في لثمه والتربيت على جسده المتكـور فـي حجرها بين وقت وآخر.. ولم تستطع عنايات أن تفسـر مـا يحدث.. ولم تجد ما تقوله من تعليق حـول هـذه الزيـارة المفاجئة.. حتى أنها لم تستطع أن تفسر إقبال هـدى علـى الاهتمام الزائد بولدها إبراهيم.. دون أن تسألها: من هو هذا الطفل؟.. ومتى أنجبته؟.. والمهم.. من هو أبـوه؟.. فـآخر عهدها بها أنها لم تكن لديها سوى ابنة وحيدة هى يسرية؟..

قررت عنايات بفطرة الريفيـات وعفـويتهن أن تلتـزم الصمت.. وقالت لنفسها يجب أن أشترى من هدى قبـل أن أبيع لها أي شئ..

سألتها هدى عن أحوالها وفهمت منها ما سبق أن فهمتـه من إبراهيم من أنها توقفت عن الخدمة في البيـوت بعـد أن نهاها أخوها عن ذلك وقد راح يساعدها أن تؤسس بمدخراتها محلاً صغيراً للبقالة خصص له مكاناً في هذا المنزل الـذي بناه لها على شاطئ الترعة.. وأنها كفـت خيرهـا شـرها وعاشت وتعيش من هذا المحل بشكل ميسور..

عادت هدى فأبدت خيبة أملها فيما تسمعه من أن شـقيق عنايات منعها من مزاولة العمل في البيـوت.. لأنهـا إنمـا جاءت إلى هنا وفي ظنها أنها سـتعود وبرفقتهـا عنايـات ويسرية ليعيشا معها.. فهى في حاجة إليهما..

أشارت لها عنايات أنهما أصبحتا ثلاثة.. فـإبراهيم الذي بين أحضانها هو ولدها..

- : عارفة يا عنايات.. إبراهيم إبراهيم..

دقت عنايات بيدها على صـدرها.. وأسـرعت بطـرح السؤال الذي كان لابد أن ينطلق منها دون تفكير..

- : يبقى أنت يا ست هدى عارفة أبوه فين..

ودون أن تكون هدى حانثة في يمينها أقسمت لها أنهـا لا تعرف له طريقاً..

كاد الخبل أن ينال من عقل عنايات إذ فر منها في نفـس اللحظة الأمل المفاجئ الذي هبط عليها والذي قد تسمع فيـه خبراً عن إبراهيم.. أمل جاءها في لحظة.. وضاع منها فـي نفس اللحظة..

لم تستطع هدى أن تفصح عن كل ماالديها.. ولكنها أيقنت أنها يجب أن تضع أمام عنايات مبرراً مقنعاً لسر زيارتهـا..

جاءها هذا اليقين بضرورة طرح هذا المبرر لما رأتـه فـي عينَى عنايات من ذهول وفي حديثها من هذيان..

لقد أسرعت هدى بما تملكه من رأفة وحنو باختلاق قصة مفادها أنها علمت بالصدفة بقصة بحث عنايات عن إبـراهيم وأن ابنتها يسرية هبطت القاهرة برفقة أفندي من أبناء القرية للسؤال عنه في فيلا أحد الوجهاء بالقاهرة.. ثم أفهمتها أنهـا قامت بربط الأحداث ببعضها البعض.. فهى تعلم أن إبراهيم كان زوجها وأنه أطلعها على عقد زواجهمـا.. وأن عمـر اختفاء إبراهيم الأب هو نفس عمر إبراهيم الابن.. ولذا فقـد حز في نفسها أن تقع خادمتها في تلك المأساة دون أن تقـف بجانبها كما حز في نفسها أنها قامت بطردها دون أن تعلم أنه كان يجب أن يحدث العكس " فيما لـو قمـت يـا عنايـات بمصارحتى بقصة حملك من إبراهيم"

انهالت ذكريات الألم على قلب عنايات.. فما تسمعه مـن سيدتها كله صدق لا يرقى إليه الشـك.. وأنهـا الآن تـرى أمامها سيدتها هدى الإنسانة الرءوفـة كمـا تعرفهـا.. وأن مأساتها التى تعرفها كل القرية قد سرت حتى وصـلت إلـى إذن المرأة التى شهدت في معيتها كل ألوان الحب والعطـف

الذي انقلب في آخر شهورها إلى صدام وشـك وارتيـاب.. وأنها بسبب ذلك الصدام فرت من أمامها خوفاً مـن انتقـام صوره لها إبراهيم بشكل مفزع..

ثم تصدت عنايات لمصارحة مخدومتها بكل ما كان يعتمل في صدرها من خوف وخجل منها.. وأن سبب هذا الخـوف والخجل هو إبراهيم الذي أبلغها أن " سيدتها فهمت مؤخراً أن قرابتنا مفتعلة وأننا نعيش كعشيقين.. ولـم تعتـرف بورقـة الزواج.. وأنها قررت طردك بل والانتقام منك "..

والآن تنهال ذكريات أخرى على قلب هدى.. فما تسـمعه الآن من عنايات كله كان من اختراع إبراهيم.. وأن إبراهيم لجأ إلى الكذب لإزاحة عنايات.. وأنها لجأت إلـى الأنانيـة للاستئثار بإبراهيم وأنها تغافلت عما يمكن أن تكون لمحتـه من كذب في حديثه.. وأمام هذه المعطيـات زاد إحساسـها بالظلم الذي أوقعته على مخدومتها.. وأنهـا دون أن تـدري ودون أن تخطط لذلك هدمت بيتاً وحرمت طفلاً من والـده.. بل قامت بتشتيت أسرة كان يمكن لها أن تتماسك لو لم تقـع في حب إبراهيم وتتعلق به وتجذبه بعيداً عن امرأة أخـرى..

وهي لا تعلم أنها في الحقيقة كانت تجذبه بعيداً عن زوجـة وطفل تحمله في بطنها..

أما ما نالته عنايات من كسب معنوى بعد هذه الزيارة فهو الشئ الذي لا يقدر عندها بمال.. فها هي السماء ترسل إليها بخيط من الأمل تدلى فأمسكت به ولن تتركه لأن مخـدومتها الطيبة هدى أبلغتها أن إبراهيم يعاود الاتصال بها للاطمئنان على أخبارها من حين لآخر وأنها سوف تبلغه بالحقيقة التى كان يجب أن يعرفها وهو أن له ولداً من عنايات.. هو نفس الولد الذي ملس على خده يوم زيارتـه الوحيـدة التـى لـم يكررها.. أما المكاسب الأخرى فهى تلك الحـوارات التـى دارت بين أبناء القرية عن تلك السيدة الثرية التـى جـاءت تطمئن على عنايات وأنها رسولٌ من الزوج الغائب.. الزوج المعروف لتلك السيدة.. وهكذا راحت الحقيقة تسيل في نهـر الغموض لتعرف القرية أن عنايـات أصـبحت لا تشـوبها شائبة.. وأنها بالفعل ضحية وليست متهمة..

لقد راحت عنايات تلثم يد مخدومتها وهي تنصرف مـن عندها معلنة رجاءها لها أن تكرر الزيارة.. وهنا صـارحتها هدى بعدم قدرتها على أن تعدها بتكرار الزيارة ولذا يجب أن

تقوم عنايات برد هذه الزيارة لها بل والحرص على مواصلة زيارتها كلما أتيح لها ذلك..

كانت ما تصبو إليه هدى هو أن تستدرج عنايات بكل ما لديها من قوة إقناع وإمكانيات مادية أن توافقها على تهيئة المناخ الراقي لها لتربية ولدها إبراهيم تربية ذات مستوى رفيع حتى إذا ظهر والده ذات يوم فلا يكون ولده في حالة غير مشرفة ومستوى لا يحبه له.. فأفهمتها في الزيارة التالية:

- : وآدى انت شفتى الوجاهة اللي هو فيها والعربية المحترمة اللي كان راكبها..
- : بس يا ست هدى دي مش عربيته.. دا عربية الناس اللي كان شغّال عندهم..
- : ضحكوا عليكى.. إبراهيم دلوقت مهندس.. والناس دول هو كان خاطب بنتهم واختلفوا مع بعض.. واتفرقوا.. بس هما خدعوكى علشان ماتسأليش عليه تانى في عنوانهم..
- : بس العربية باسم واحدة ست.. بنتهم..

- : كلامك صح.. كانت جاية من بره باسمها هدية لـه على بال ما يغيروها باسمه.. إبراهيم دلوقـت علـى مستوى يا عنايات.. ولازم ييجي يلاقي إبنه زي ولاد الخواجات مش ولد جربوع لابس جلابية وطاقية..

هدى تخطط إلى جذب عنايات.. وعنايات تتجرع الأخبار والحقائق قطرة قطرة وكان ما يضاف إلي علمها فـي كـل زيارة من حقائق جديدة يجعلها تزيح – بكل استغراب - مـا في داخلها من معلومات قديمة..

هدى تسير على خيط رفيع بحرص من تخاف أن تسـقط من فوقه وهو المعلق على ارتفاع شاهق.. إنه الحرص على ألا تسقط من عينى عنايات عندما تعرف حقيقة أنها ضـرتها وأنها بعد شهور ستضع مولوداً أبوه هو نفسه إبراهيم.. إنها حقيقة مؤكدة يجب أن تصل إلى مفهوم عنايات قطرة قطـرة بعد أن تكسب ثقتها وتُسعدها بنيتها في تربية طفلها إبـراهيم تربية راقية على حسابها ودون أن تكلف عنايات هم الإنفاق عليه.. ليس هذا فحسب بل إن هدى سوف تتـولى مناولـة عنايات جرعة ثقيلة من الأخبار عن البنت اللبنانية التى كان إبراهيم يقود سيارتها.. الأخبار التى تقول إن فاطمة اللبنانية

كانت الزوجة الثالثة لإبراهيم وأنه اقترن بها في عز تمتعـه بنعمة زواجه من هدى.. وأن القدر شاء أن تشرب هدى من الكأس المر الذي أذاقته لعنايات..

لقد تسللت هدى ببراعة إلى قلب وعقل عنايـات عنـدما استضافتها أسبوعاً كاملاً رفعت فيه قامتها حتى تساوت بهـا في معاملة خاصة صارحتها فيها أنها قصدت استضافتها هذه المدة حتى تضمن استيعابها بهدوء لأحداث ست سنوات كان يجب أن تضعها أمامها بكل الصدق في لقاء منفرد بعيداً عن يسرية وإبراهيم الصغير.. وحتى تضمن أن تشاركها عنايات بحماس صادق في البحث عن إبراهيم الأب.. وفي الاقتنـاع بضرورة إنقاذ نسله المشتت.. إنقاذ ولده الأول من عنايات.. ثم الاستعداد لإنقاذ مولوديه القادمين من هدى وفاطمة..

ضغطت عنايات بشدة على المنديل الذي يحيط رأسـها.. ضغطته بشدة من طرفيه ليحكم حصار رأسها حتى لا ينفجر ويتشظى من الغليان الذي يمور في داخله.. فعندما تخلو إلى نفسها في غرفتها في منزل هدى تسترجع كل اعترافات هدى وقصة زواج إبراهيم منها.. ثم زواجه من زميلته اللبنانيـة.. ثم قصة اختفائه المفاجئ.. إنها تتمنى أن تصب جام غضبها

على هدى بل إنها.. تتمنى أن تستل سكيناً لبقر بطنها قبل أن تلد أخاً لابنها.. كما تتمنى أن تصطحب ابنتها يسرية إلى فيلا الوجهاء أصهار إبراهيم بالقاهرة ومعها نفس السكين لتبقـر بطن فاطمة تلك قبل أن تلد أخاً ثالثاً لإبـراهيم.. ثـم تعـود فتعاتب نفسها: ماذنب اللبنانية؟.. إنها لم تسئ إلى.. هدى هي التى أزاحتنى من طريقها.. لتستأثر بإبراهيم.. هدى حسدتنى عليه.. واستكثْرته على.. فأزاحتنى وأخذته لنفسها.. صـحيح أنها تحولت إلى ضحية مثلى.. ومخدوعة مثلـى.. ونالـت انتقام السماء إذ أتى لها بضرة وبعد أن حملت منه.. اختفى.. يكفيها ما نالته من عقاب السماء لذنبها.. ذلك الـذنب الـذي تحاول أن تخففه بمشروع عجيب.. مشروع لا يقوى عليـه سواها بما لديها من قلب ومال.. مشروع يصبو إلـى جمـع فروع إبراهيم المتناثرة في جذع واحد.. وأن تحـتفظ بهـذا الجذع يانعاً براقاً حتى تسلمه لإبراهيم أينما وحينمـا يعـود أمانةً تعمل على الحفاظ عليها حباً وامتناناً ووداً ورحمة..

تعود عنايات فتتأمل العواطف المشبوبة التى تحملها هدى نحو إبراهيم وتحتار في توجيه حسدها: هـل توجهـه إلـى إبراهيم الذي يلاقي كل هذا الحب من هدى رغـم كـل مـا

ورطها فيه من خزي أمام نفسها وأمام الناس؟.. أم توجهـه إلى هدى التى تملك كل هذا القلب الواسع كالمحيط الـذي – رغم كل جروحه – مازال متحيزاً للحب والرحمة؟..

همست لنفسها: سأفعل كـل مـا تطلبـه منـى هـدى.. وسأرافقها في كل خطواتها.. مجروحة تحتمى بمجروحـة.. ولكنى سأرفض شيئاً واحداً ومشواراً واحداً لـن أصـطحبها فيه: وهو أن أذهب معها - كما طلبت - إلى فـيلا فاطمـة لنهددها بكل الويل إذا اتخلصت مما في بطنها.. لأن هـدى بحاجة إلى هذا الجنين..

***

- ٣٣ -

وعندما نجحت هدى في استقطاب عنايات - التى سمحت لها باحتضان مسئولية ولدها إبراهيم -.. انفتحت شهيتها لنجاح نصف مشروعها الذي يهدف أيضاً إلى استقطاب فاطمة تلك الدلوعة اللبنانية.. ورغم شعورها بصعوبة مهمتها إلا أنها تحمل في داخلها ظناً أن فاطمة لن تقوى على التخلص من جنينها.. لا لأنها هددتها بغضب ا لو فعلت ذلك، ولكن لأن فاطمة تحمل في قلبها حباً لإبراهيم لن يزول بعد اختفائه من حياتها.. فالمرأة العاشقة المحبة لا تلفظ من أحشائها علاقة هذا الحب بسهولة.. ولو كانت فاطمة في آخر عهدها بهدى تحتفظ في سمعها بآخر كلماتها التى تحمل تهديداً لها بغضب ا ثم رجاء إليها أن تحافظ على الأمانة التى في بطنها فمن المؤكد أنها ستكون مستعدة بعد هذا الرجاء وذلك التهديد أن تستقبل من هدى رجاء جديداً أن تقبل مساعدتها في تربية هذا الطفل إذ ستتفرغ له ولأخويه الآخرين حتى يشبوا جميعاً وكأنهم من أم واحدة ويشب معهم الحب الواجب أن يكون بين الأشقاء.. وهم ليسوا بأشقاء..

كنت أنا وحنان نستمع إليها وهي تعبر عـن مشـروعها بكلمات قليلة هادئة ولكنها مفعمة بالنبل والإصـرار وقـوة الإرادة.. فقد جاءتنا في مشوار جديد ضـمن العديـد مـن مشاويرها التى تؤديها بتلقائية وبلا انتظام للسؤال عما إذا كنا قد سمعنا شيئاً عن إبراهيم.. حتى أن حنـان جبلـت علـى إطلاق ضحكتها عند كل زيارة لهدى وهي تعلن لي عن اسم ضيفتنا التي دقت الجرس تواً فتهمس لـي: إنهـا إيـزيس.. جاءت تسألنا عن إيزوريس..

ودائماً لا تجد هدى لدينا أخباراً جديدة عن إبراهيم.. لكنها لم تُحرم في كل زيارة من معرفة خبر جديد عن فاطمة.. ثم لا تمل من تكرار رسالتها إلى فاطمة لنحملها إليها: أن ترعى ما في بطنها تقوى وكرامة.. وطارت من الفرحـة عنـدما أخبرتها حنان أن فاطمة من فرط حرصها على رعاية جنينها قررت أن تضحى بعامها قبل الأخير في الدراسة لتتفرغ لتلك الرعاية " والواقع أنها – أيضا – كانت تحافظ على مظهرها في الكلية اتقاء لثرثرة قد تصل إلى أذنيها فتؤذيها عن ذلـك الشيطان الذي نفخ بطنها ثم هرب ".. وبعد أن أعلنت هـدى فرحتها بهذا الخبر وامتنانها لما فعلته فاطمة وسلامة رأيهـا

المسبق في صدق حب هذه الفتاة لإبـراهيم حملتنـا رسـالة إليها.. الرسالة تقول: " لا تحملى هم تربية هذا الطفل فهناك خادمة في انتظاره.. الخادمة هى أنا.. هدى.. اتركـى لـي ثمرة حبك لإبراهيم حتى أرعاها معك.. وتفرغي يـا فتـاتى لدراستك.. "

رغم مشاركتى لها في الضحك فقد كنت لا أملك تفسـيراً لتلك الهستيريا التى تعبر بها حنان عن ذهولها واستغرابها لما تفعله هدى.. هسيتريا من الضحك الذي يجلب الدموع.. فهى لم تسمع من قبل عن امرأة تجمع كل أبنـاء زوجهـا مـن الأخريات لتقوم بتربيتهم والإنفاق عليهم.. يقابل ذلك أن هذا الزوج لا يعلم – أصلاً - أن له أبناء قد وصلوا - أو هم في الطريق - من كل هؤلاء الزوجات..

قالت حنان بسخرية من بين ضحكاتها الدامعة إنه مادامت هدى سستخصص شقتها السكنية لهذا المشروع النبيل الـذي ستربي فيها كل إنتاج إبراهيم فلتكتب علـى هـذه الشـقة: " مجمع أبناء الشيطان.. " ثم عدلت عن هذه اللافتة السـاخرة المقترحة بلافتة أخرى أكثر سخرية تقول: " دار هدى لرعاية أبناء ضراتها.. " أو.. لرعاية أبناء الشيطان!!

لم يعد اختفاء إبراهيم عبد القادر سراً نتداوله بحذر نحـن الذين في حكم أهله وأقاربه.. بل تعدانا إلى مجتمع الكليـة.. فإبراهيم كان أحد الطلبة النجوم بعد أن اجتمعت في شخصيته عديد من المواصفات الغريبة والمتناقضـة.. فهـو الأنيـق دائماً.. المشاغب أحيانـاً.. الشـهم باسـتمرار.. الضـاحك الضحوك المهرج أغلب الوقت.. يتناقلون قفشـاته ومقالبـه بحب وسخرية وقد كان مقلب تقمصه لشخصية المعيـد مـن أشهر مقالبه التى أثمرت عن اصـطياد فاطمـة معـروف.. وأصبحت فاطمة نفسها تشاركهم الاستغراق في الضحك لتلك الخدعة اللذيذة التى جعلتها تنبهر بإبراهيم ثم تحبه وتتزوجـه في أسبوع واحد.. حتى أنها لم تأبه باعترافه المتأخر لهـا – الاعتراف في ذات التوقيت المدروس – بأنه ليس معيـداً ولا يحزنون.. ولكنه مجرد زميل يسبقها بعامين..

تناثرت حولـه الأخبار والإشاعات بعد اختفائه.. وحيكت حوله القصص التى كانت في أغلبها مؤلفة.. ولأن الغموض دائماً ما يثير الرغبة في اقتحام المجهول وفض بكارة الغيب فإن لذة هذا الاقتحام العقلي لدى صاحبه تضفى عليه شعوراً بالتميز والتفرد لأنه يبدو عالماً بما لا يعلم به الآخرون.. ولذا

فقد ظهر من قال إنه يعرف من شاهد إبراهيم متخفيـاً فـي ثياب أحد عمال الشحن على باخرة متجهـة إلـى إيطاليـا.. وهناك من قال إنه زور جوازاً دبلوماسياً ودفس نفسه ضمن سكرتارية أحد الوزراء المسافرين خارج البلاد.. وفـر مـن الطاقم هناك.. في لندن.. وهناك من قال إنه تخطى الحـدود إلى ليبيا وهو يقود شاحنة أسمنت.. ومن ليبيا انطلـق إلـى المغرب ثم إلى أسبانيا..

قالت حنان وهي غارقة في ضحكاتها إن ما سمعته مـن قصص ومغامرات مؤلّفة عن هروب إبراهيم عبد القادر من الجيش ومغادرته البلاد تكفى لعمل مسلسل شيق مثل مسلسل أدهم الشرقاوى الذي دوخ السلطات..

وكانت فاطمة من خلال محبسها الاختياري في القـاهرة تتعرف منا أولاً بأول عن مسار الشائعات حول إبراهيم فـي الكلية.. والواقع أنها كانت تبحث عن نفسها وتتعرف علـى موقعها داخل تلك الحكايات.. وعندما نقلنا إليها ما يقال عـن أنها ساعدته على الهروب إلى بيروت بمساعدة زوج أمهـا السفير قالت: " لو كان إبراهيم قد لجأ إلى لفعلت لـه ذلـك شرط أن يطلقنى ولكنه كشيطان يملك أدواته جيداً لم يكن في

حاجة إلى الاستعانة بالملائكة ".. وقد لاحظنـا بعـد هـذه المكالمة أنها تحدثت في نفس الليلة إلى كل من يمتلكون هاتفاً من الزملاء.. فقد علمنا منهم أنهـا راحـت تسـأل عـنهم وتطمئنهم على نفسها وأن الإجازة المرضية التى تقدمت بها ليست مفتعلة لأنها مريضة بالفعـل بعـد اختفـاء زوجهـا إبراهيم..

الشئ الذي نجحنا في إخفائه وكان سبباً في إزاحة كثيـر من الإزعاج واللغط حول فاطمة هـو خبـر حملهـا مـن إبراهيم.. لقد نالت منا الثناء لأنها فكرت في هذا الإخفاء ثـم الاختفاء حتى ترحم نفسها وإبراهيم من تـلال واجبـة مـن الإشاعات.

قال لي أحد الزملاء هامساً دعك من كل هذه الإشاعات.. الحقيقة الوحيدة لا يعرفها إلا المهندس ياسر عـوض أحـد الخريجين من نفس دفعة إبراهيم.. الحقيقة التـى تقـول إن إبراهيم عبد القادر قد مات في حادث سيارة.. إنهـا حقيقـة مسجلة الآن في جهة عمله بوزارة الزراعة.. وفـي جهـة انتدابه بجهاز المخابرات..

ورحنا نتساءل: ما علاقة إبراهيم بوزارة الزراعة؟.. وما علاقته بجهاز المخابرات؟.. إذن فقد كان المسكين يحيا معنا على أرض مصر ونحن الذين اتهمناه بالهروب خارج البلاد..

ولأنى أثق في محدثى فقد أيقنت أن هناك حقيقة مستترة يحفظ سرها اثنان: محدثى.. وياسر عوض.. ولأنى لم أستطع الحصول من محدثى على أكثر من هذه الكلمات فقد عذرته خاصة وأنه أفهمنى أن ياسراً هذا الذي يعرف فاطمة بحكم صداقته لإبراهيم ليس مستعداً للتحدث مع أى إنسان بشأن ما يعرفه عن موت إبراهيم إلا مع فاطمة نفسها بحكم كونها زوجته.. وقد فهمت من إشارة محدثى أنه يدفعنى بناء على توصية من ياسر أن أرتب لقاء بينه بين فاطمة – التى أعرف عنوانها بحكم كونها زوجة ابن خالتى..

دفعتنا حالة الحزن – التى هاجمتنا بغزارة - أن نذهب إلى فاطمة أنا وحنان.. وكان هذا هو الاختيار الوحيد أن نعزيها في منزلها بالقاهرة خاصة أن ما سنعرضه عليها لا يمكن أن يتم تداوله بالتليفون بعد أن حشر محدثى كلمة مخابرات في العدد القليل من الجمل التى قالها لي..

ثم انهالت حالة الهلع نفسها على فاطمة التـى سـارعت بالبحث عن ياسر عوض ومقابلته وكانت قد رأت أن تصحب معها حنان التى عادت من هذا اللقاء مفعمة بمزيد من الدهشة والغرابة ونوع من الصمت الذي كان سببه البحث عن مدخل للسرد بعد تزاحم الوقائع والمعلومات وحيرتها من أين تبدأ..؟

لقد اتضح من سير الأمور أن إبراهيم الذي تخـرج فـي يونيو ولم يهنأ بفرحة تخرجه بعـد أن رأى بيوتـه الهشـة مرهونة بزفرة غضب من فاطمة لتنهار على إثرها.. قرر أن يفعل شيئا كما هي عادته وكما تقـول حكمتـه المـأثورة.. وعندما قرر التحرك سارع فحكم على أبيه وأخيـه بـالموت وتمكن من إثبات ذلك في أوراق ناضحة بالصـدق مهـرت بتوقيع العمدة وكافة موظفى وزارة الصحة.. حيث لا عمـدة ولا موظفون سوى أحد معارفه القدامى من محترفى التزوير وتقليد الأختام الذى حصل به على الإعفاء المأمول في أيـام معدودة..

ولأنه كان حريصاً أن يحمل جواز سـفره اسـم مهنتـه المثلى.. مهندس معمارى.. فقد فوجئ بوجوب اعتماد ذلـك من جهة عمله.. وفوجئ أنه ينتمى إلى جهة عمـل كـان لا

يعلمها.. فهو لم يسارع مثل غيره من الخريجين بالبحث عن المكان الذي حددوه له لتنفيذ أمر التكليف.. فكل الخـريجين من المهندسين يتم تكليفهم بالعمل فور تخرجهم في مختلـف المؤسسات أو المصالح الحكومية.

كان مختفياً بورطته في القاهرة ولكنه تسال بكل جسـارة إلى جهة عمله المكاف لاستلام وظيفته بها..

لقد لاحت على محياه ابتسامة ساخرة بعد أن تعرف على المكان الذي يجب أن يقضى فيه باقي عمره حتى يمـوت.. مهندس بوزارة الزراعة.. وبالتحديد في مؤسسة الـدواجن.. وما علاقة مؤسسة الدواجن يا سادة بالهندسة المعماريـة؟.. العلاقة وطيدة يا أستاذ.. ألا تقيم هذه الدواجن فـي عنـابر تؤسس ويتم تغذيتها بالمياه والصرف الصحى والتدفئة؟.. هل هندستك هذه جعلت لإسكان البشر فقط..؟.. استلم عملـك.. فاستلم عمله آخذاً في قراءة مستقبلهِ الذي حـددوه لـه بـين الداوجن والديوك وعنابرهم.. هل هذا هو مستقبله الذى يرنو إليه؟.. تأفف وهو يقدم لهم مسوغات تعيينه بكـل جسـارة.. فهذه المسوغات تحمل ورقة صارخة الكذب وهي الإعفاء من

الخدمة العسكرية.. لأنها بنيـت علـى حيثيـات صـارخة التزوير..

كان كل ما يرجوه أن يمهروا له أوراق بطاقتـه بخـاتم الجمهورية الحقيقي وخاتم المؤسسة التى يعمل بها.. كل مـا يريده هو جواز السفر الذي يحمل اسم مهنتـه التـى قطـع الفيافي والقفار جهداً وتآمراً وعرقاً ليتمتع بتألقها أمام خانـة المهنة في بطاقته ومن ثم في جواز سفره..

إنه الآن يكمن في جحره العميق كالثعلب ينتظر الفرصـة المواتية لتزوير إذن من جهة عمله للسماح له بالسفر.. هـو الآن يحتفظ ببعض الأوراق التى تحمل ختم هذه الجهة وهذه هي الخطوة الأولى لتقليد ختم مماثل.. أما الخطوة الأهم فهى سرقة الاستمارة المطبوعة المخصصة لهـذه الأذون.. لقـد شاهد هذه المطبوعة الصفراء ذات الـورق السـميك وذات الأرقام المسلسلة مع إحدى زميلات العمل والتى كانت فـي طريقها للحاق بزوجها المسافر للعمل في السـعودية.. كـان يحوم – كما تحوم الحدأة فوق الكتاكيت- حول الموظف الذي يحتفظ في درج مكتبه ضمن ما يحتفظ – بهذا الدفتر الثمين.. حتى أنه قرر أن يصادقه ويعمق علاقته به.. وعندما شـاهد

بنت هذا الموظف تضاحك والدها في مكتبـه وعـرف مـن خلال هذه المضاحكة أنها ابنته جلس على مكتبه وهو يفـرك كفيه فرحاً إذ إنه وجد الطريق إلـى قلـب ودرج الأسـتاذ إسماعيل المدير الإدارى.. وعندما شرع في إطلاق سـهامه إلى صيده المنتظر ماتت محاولته في مهدها إذ شـاهد دبلـة الخطوبة في إصبعها.. ذلك الإصبع الذي كـان منثنيـاً مـع أصابع كفها الأيمن حول حقيبتها عندما شاهدها فـي مكتـب أبيها.. فآثر الانسحاب.. واضعاً في اعتباره أن وقته لم يعـد يسمح له بصنع مغامرة طويلة المدى.. وخبط راحتـه فـوق جبهته مستاء.. فكيف له اختراق هذا الدرج البسيط في ذلـك المكتب العتيق لاستلال ورقة واحدة من هذا الدفتر الثمين؟.. إن هذه الورقة تساوى حريته وتساوى انطلاقه إلـى عنـان الفضاء.. فهو يحيا هارباً وسط المدنيين ومكانه الطبيعى بين الجنود على الجبهة.. وهو يحيا في حالة هـروب تكتيكـى مؤقت من زوجتين ومطلقة لأن وجوده الحالى قربهن لـيس في صالحه وهو يجهز بسرية تامة لخطة هروبه من البلاد.. كما لن تكون في صالحه إذا اجتمعت هدى وفاطمـة ضـده وطلبتا الانفصال بعد اكتشاف ماضيه المشين مع عنايات..

لقد تعلم الانزواء إلى حد التخفى حتى لا يقابل من يمكنه أن يتعرف عليه، وأصبحت غرفته الصغيرة في أحد البنسيونات في الدقي هي ملاذه طيلة ساعات اليوم عدا تلك الساعات التى يصرفها في العمل على مضض ثم يفر إلى غرفته..

وفي غرفته هداه تفكيره إلى البحث عن أصدقائه القدامى في كفر ستوته وشارع النحاس وشارع البحر في طنطا.. الأصدقاء الذين قطعوا معه مرحلة الصياعة والبلطجة وكان فيهم من يجيد التسلق وكسر البيوت والخزانات والأدراج..

إنه بحاجة إلى واحد منهم ليرسم له خطة السطو.. خطة مضمونة من أجل الحصول على ورقة بيضاء.. إنه يقرأ الامتعاض على وجه اللص الذي ساءه أن يختاره إبراهيم ليقوم بهذه العملية التافهة.. التى لن يخرج منها بأى كسب.. فأيٍ منهم لن يؤدى هذه الخدمة لإبراهيم بالمقابل.. وكانت مشكلته أنه سيضطر للسفر إلى طنطا للبحث عن هذه الشلة الضائعة للاستعانة بأحدهم – ومن الممكن أن تعرف هدى بوصوله إلى مدينتها من أكثر من مصدر.. بل ومن الممكن أن تعرف سبب اتصاله بأصدقائه القدامى.. ومن الممكن

أيضاً أن تنكشف كل خططه التى مازال ناجحاً حتى الآن في إحاطتها بالسرية..

خبط كفه بشدة فوق جبهته مستاء مرة أخرى فإن مخاطر التحريض على السطو كثيرة ومن الممكن أن تؤدى إلى نتائج عكسية.. حالة واحدة تبعده عن هذه المخاطر وهو أن يقـوم بنفسه بالسطو وكسر هذا الدرج التافه الذي هو فـي نظـره أعلى من خزانة المجوهرات.. وسرعان ما ألغى خطته فـي الاستعانة بالغير للحصول على بغيته إذ قرر أن يؤدى هـذه المهمة بنفسه.. ولم يبق سوى أن يكثف خططـه حـول أداء هذه المهمة.

لم يجد في داخله أدنى اعتراض أو خجل من الولوج إلى ماضيه القريب واستخدام أدوات ورجال هذا الماضـي فـي تحقيق مصلحة ما.. حاول أن يجـد همسـة احتجـاج مـن شخصية المهندس في داخله يقولها لشخصية الباطجى القـديم في داخله أيضاً فلم يجد لهذه الهمسة أى أثر.. حاول العثـور على الحائل الحضارى الذي من الممكن أن يكون قد شـيدته السنوات والدراسة والشهادة والجامعة بين الباطجـى القـديم الذي يتوارى في داخله وبين المهندس الجامعى الذي اكتملت

وجاهته ووسامته حتى بدا لمن حوله آية تسر الناظرين.. فلم يجده.. ولم يستغرب لعدم وجود هذا الحائل.. ولم يستنكف عدم وجوده.. فالشئ الطبيعى – في نظره - أن تعيش في داخلنا كل إمكانياتنا وقدراتنا.. إمكانيات وقدرات اللجوء إلى سبل الخير أو إلى سبل الشر كل حسب حاجتنا إليها في أي زمان أو أي مكان.. فلا يكفى أن تكون متحضراً.. ومن الخطر أن تكون كذلك وأنت لا تملك إمكانية اللجوء إلى الحلول المختلفة لقضاء مصالحك إذا تطلب الأمر ذلك.. ألا يلزم أن تكون عربجياً لتأديب ذلك العربجى الذي أتلف سيارتك المرسيدس في الشارع..؟ لو لم تكن مستعداً أن تكون كذلك فانتظر منه كرباجاً وأنت الرقيق المهذب الذي لا يعرف كيف يعاقب من أتلف ماله.."

وهكذا كان يطرد عن خاطره وبسرعة شديدة وإقناع أشد – أي همس لائم يتسرب من أعماقه آتياً من المنطقة العذراء ذات الأرض الصالحة داخل نفوسنا.. المنطقة التى تنبت فيها أشجار الخير والحب والفضيلة.. فهو ليس بحاجة إلى ولوج جنة الملائكة وهو يؤدى جريمة الهروب لأن الشئ المناسب

في حالته هو اقتحام غابة الشياطين.. وهذا هو الشئ الـذي يفعله الآن..

ناداه رئيسه في العمل.. طلب منه أن يغلق الباب خلفـه.. أجلسه قريباً منه.. راح يحدثه بهمس شديد.. تعجب لـذلك.. وما إن فهم الموضوع في نهايته حتى التمس العـذر لـذلك الرئيس فالموضوع سرى وخطير.. ولا يصلح فيـه سـوى الهمس والجلوس إليه على انفراد..

قال له إن القوات المسلحة تضع في خططهـا التمويهيـة استعداداً للحرب بناء ونثر حظائر للطائرات في ربوع الدلتا وعلى امتداد النيل.. وحتى لا يتم كشف هذه الحظـائر فهـم يلجأون إلى بنائهـا علـى شـكل منـازل ريفيـة أو ورش وجراجات أو عنابر للدواجن ويحيطونها بكـل مـا يـوحى للتصوير الجوى من الأقمار الصناعية بأن هذه المنشـآت لا علاقة لها بحظائر الطائرات.. وأفهمه أن اللجوء إلـى هـذه الحيلة إنما هي الدرس المكتسب من تكـدس طائراتنـا فـي العراء في معركة ٦٧ حيث تحولت كلها إلـى أشـلاء فـي هجمة مخططة من اليهود.. وكان هذا مدخلهم إلـى النصـر وبدايتنا إلى الهزيمة..

كانت ينتظر علاقته بالموضوع وهو يسمع هذه المقدمة.. وما لبث أن فهم أن القوات المسلحة أرسلت تطلب مهندساً من المؤسسة للانضمام إليها بما لديه من خرائط للعنابر للعمل معهم في تصميم هذه الحظائر وإكسابها شكل غبار الدواجن.. وأن هذا الرئيس قام بترشيحه وكتب لجهاز المخابرات اسمه مقروناً بكل معلوماته الوظيفية..

سقط قلبه بين ضلوعه.. وراحت أسئلته البلهاء تتناثر أمام الرئيس:" وأرسلت الخطاب فعلاً؟ ".. أجل.." ألم يكن من الممكن استطلاع رأيى..؟.." الموضوع سرى ولا يجب أن ينتشر ويكون محل أخذ وعطاء بينى وبينك أو بينى وبين باقى المهندسين؟.. "ولماذا أنا بالذات؟ ".. هذا ما توصلت إليه مع السيد وكيل الوزارة لأنك حتى الآن لم تكلف بأعمال معينة تتطلب وجودك.. أما المهندسون القدامى فهم مشغولون بما في أيديهم من مشروعات قديمة يتوجب الانصراف لها.." وما هو المطلوب منى؟.." أن تحتفظ بسرية هذا الموضوع.. وتستعد لذلك فمن المؤكد أن المخابرات ستنتهى من بحث حالتك والاستعلام عن شخصيتك خلال أسبوع على الأكثر قبل أن يرسلوا في طلبك..

سقط قلبه بين ضلوعه مرة أخرى.. جاءك الموت يا تارك الصلاة.. المخابرات ستأتى بكل المعلومات عن شخصيتى.. وستبحث حالتى.. وسيعرفون أن لي أباً يعيش.. وأخاً يحيـا بجواره.. وأن مكانى الحقيقي هو عندهم في الجيش وليس في تلك المؤسسة.. وسيكشفون تزويرى للحصول على الإعفاء.. وهذا هو طريقي إلى السجن.. بل والسجن الحربي..

ليلتها لم ينم.. وتعلم أن ينصرف مـن عملـه مبكـراً.. ويذهب إليه متأخراً.. فربما يأتى من يطلبه ولا يجده ويعرف من زملائه اسم من جاء في طلبه.. ليسارع باتقاء المحظور فيما لو شم رائحة الخطر وذلك بالاختفـاء مـن القـاهرة.. والتفكير في طريقة أخرى للهروب من البلاد..

حاول أن يبدو متماسكاً.. ولكن عينه المعلقة بباب مكتبـه تعلن دائماً عن قلقه.. فمن هذا الباب سيأتى من يناديه.. ومن هذا الباب سيخرج إلى مكتب رئيسه إما ليجد من هـم فـي انتظاره بالقيود الحديدية أو من يسلمه خطاب الانضمام إلـى مكانه الجديد بالقوات المسلحة في انتداب قد يطـول وقـد لا يطول.. ولكنه في كل الأحوال انتداب جاء في غير موعـده

ومن المؤكد أنه سينسف كل خططه إذ هو سـيكون تحـت المجهر في كل تحركاته وهو يعمل في هذا المكان الحساس.

وعندما كان في أوج قلقه وتوتره ناداه رئيسه أن: احضر فوراً.. فانتقل إلى مكتب الرئيس بأرجلٍ مرتجفة وأعين زائغة البصر.. وما إن رآه بمفرده حتى هدأ قليلاً.. وما إن تأكد أن وجهه تعلوه ابتسامةً ودودة حتى زاد هدوءه.. وما إن جلـس أمامه واستمع إلى حديثه حتى أخذه الذهول.. فقد راح يهنئـه بوصول خطاب الموافقة على إلحاقه بالجيش وأنـه قـد تـم تجهيز أوراقه للانضمام إلى مكانه الجديد.. " ومبروك لـك هذا المكان الذي لا يمكن أن يناله مدنى وسط العسكريين إلا إذا كان جديراً بذلك من كل النواحى الأمنية والسلوكية.. "

هز رأسه شاكراً لرئيسه هذا الإطراء.. حامداً ا بصوت عالٍ أنه كان عند حسن ظنه.. وظن جهاز المخابرات..

- ٣٤ -

تقمص ثوب الالتزام والمواظبة وحسن استقبال الأوامـر وحسن تنفيذها.. وراح يطور شيئين في وقت واحد: علاقتـه بطاقم العمل.. وتصميمات العنابر التى يحولها إلى حظائر.. ساعده على هذا عثوره على المهندس ياسر عوض زميله في الدفعة الذي جاء توزيعه على هذا المكان كجنـدى مجنـد.. وياسر رغم كونه أحد المجندين الأصليين لم يتمتع بالمكانـة التى نالها إبراهيم فور وصوله فمكانته استمدها من كونه في موقع الخبير الذي جلبوه لتطوير التصميمات مـن وظيفتـه المدنية.. أما ياسر فقد انخرط بشكل تقليدى في أعمال تقليدية يستنفد بها مدة تجنيده مثل سائر المجنـدين.. وحمـد ا أن ياسراً هذا لا يعلم أى تفاصيل عن تاريخه الأسرى وبالتـالى فإن ما عرفه عن تمتع إبراهيم بالإعفاء لكونه الوحيد الـذي يرعى أمه كانت معلومة عابرة لم يلتفت إليها ياسر.. وعندما عرف أن هذا المكان يستعين ببعض الخبرات المدنيـة راح يوطد علاقته بهم وكأنه يحتمى بمن هم على شاكلته مبتعـداً قدر الإمكان عن المحترفين حتى لا يزل لسانه ذات مرة أمام أحدهم بما يكشف سوءته.. ورغم هذا الحذر الذي أحاط بـه

نفسه فإن عقله مازال معلقاً بالبحث عن ثغرة للفـرار.. لقـد كانت مهمته سهلة وهو في مكانه المكلف به كمهنـدس فـي المؤسسة.. أما الآن فمن المؤكد أن مهمته ازدادت تعقيداً بعد وصوله إلى هنا.. ولم يعد يملك من شـئ سـوى الانـزواء والاختفاء داخل هذا المكان الذي لن يأتيه الخطر إلا منـه.. حتى أنه عقد مقارنة بينه وبين ريا وسكينة اللتين قامتا بكـل جرائمهن وهما في أحضان قسم الشرطة..

سمع همساً حول ترتيـب مهمـة خـارج الـبلاد لقسـم التصميمات للاطلاع على تنفيذ الدشم والحظائر.. ولم يتضح من الهمس اسم الدولة التى سيقصدونها للتزود بهذه الخبرة.. لم يشأ أن يسأل: إن كان يتم ترشيح بعض المنتـدبين مـن المدنيين لهذا السفر أم أن الترشيح وقْفٌ علـى العسـكريين فقط؟.. حبس سؤاله متمنياً أن تتاح له فرصـة الترشـيح.. وكونه لم يطرح السؤال شئ لم يمنعه أن يرهف السمع لعلـه يسمع إجابته بالصدفة.. وماسمعه بعد ذلك لاقـى استحسـاناً لديه.. فكثيراً ماتم ترشيح بعض المدنيين الذين يسافرون لهذه المهام وهم يختفون تحت أسماء وظائفهم المدنيـة.. وبـنفس هوياتهم المدنية.. وبأذون سفر من جهاتهم المدنية..

تحركت غرائزه التآمرية وتساءل: هل لهذا الحـظ الـذي عاندنى كثيراً وجعلنى ألوى عنق الأشياء لأكسر عناده – أن يقف بجانبى.. وأفاجأ بترشيحى للسفر وحصولى على خطاب من وحدتى الحالية إلى مؤسستى السابقة يأمرهم بمنحى إذنـاً للسفر؟..

لقد أبعد هذا الأمل عن نفسه لصعوبة حدوثه مكتفياً بمـا اكتشفه من ثغرة لاحت له من خلال هذه المعطيات.. إذ قرر أن يبحث مستقبلاً إمكانية تزوير خطاب من وحدته العسكرية إلى مؤسسته المدنية يحمل هذا الأمر: امنحوا فلان إذناً للسفر خارج البلاد..

لقد أحس براحة مفاجئة تداعبه إذ هو يعثر علـى الشـئ الذي يمكنه أن يفعله في هذا المأزق تحقيقاً لحكمته المفضلة: يجب أن تفعل شيئاً..

لقد جاءه الأمل المطلوب من حيث لا يدرى فها هو يقـف أمام القائد المسئول وبيده خطاب إلى جهة عمله لمنحه إذنـاً بالسفر.. ثم ها هو يستمع إلى التعليمات الموضـحة لسـرية المهمة.. وكيفية الاستعداد لها.. وكل ما يتعلق بها مـا عـدا

تاريخ ومكان السفر فهو لن يعـرف ذلـك إلا قبـل السـفر بساعات..

يقول ياسر عوض: كان ذلك عصر أحد أيـام الخمـيس عندما شاهدته يدلف إلى باب البنسيون.. فعرفت لأول مـرة أنه يسكن هنا فقررت أن أفاجأه بزيارة وأعزمه على سهرة.. وراق لي ألا يعلم باسم زائره من الاستقبال لتكون مفاجأتى له داخل غرفته.. وعندما وجدنى أمامه وجها لوجه أصابه مـا يشبه الانهيار.. وتساءل إن كان في صحبتى أحـد.. ولمـا أطمأن إلى صدقى حول زيارته وبراءة هذه الزيارة لجأ إلـى الصمت والهدوء.. وسرعان ماربطت توتره الظاهر بشـكل الحقائب المحزمة.. وجواز السفر الملقـى علـى المنضـدة وبداخله تذكرة الطيران.. لم ينتظر أن يسمع سـؤالى الـذي صار معلقاً فوق لسانى.. فأفهمنى بهدوء طاغٍ أنـه وبعـض المرشحين للسفر إلى المهمة الرسمية سيجتمعون في المطار بعد ساعات فقد تلقوا الأوامر السرية بذلك.. وأن سر تـوتره عند دخولى جاء من اعتقاده أننى ربما أكون مكلفاً من الوحدة بحمل أمر ما يتعلق بإلغاء الرحلة.. لأن لا أحد يعرف عنوان مسكنه سوى القائد.. ثم أوصانى ألا أتحدث فـي موضـوع

مشاهدتى له وهو يستعد للسفر لأن ذلك يدخل في باب السرية والدليل أنه لا يعلم المكان الذي يتجه إليه.. ولم يكن يعلم أنه سقط في كذبته.. فتذكرة السفر البارزة من دفتر جواز السفر لاشك أنها تشير إلى الدولة التى سيسافر إليها.. ثـم أخـذنى الشك أنه يجهز نفسه لسفر آخر.. أو لهـروب تمكـن مـن التخطيط له متكأً على فرصته المواتية في اسـتغلال سـفره الرسمى.. أعلنت له عن مرئياتى وأنه يخطط للهروب معلناً له في نفس الوقت قدرتى علي الاحتفاظ بهذا السر فيما لـو صارحنى به.. ولما علم أننى عرفت مكان إقامته مصـادفة طمأننى إلى أن عنوانه غير مدرج في أى مستند بالوحـدة.." وأن ما ستعرفه الوحدة عنى بعد أيام أننى قد توفيـت إلـى رحمة ا .. توفيت غداً!!!! وأنت في أمان مـن أن تعـرف الوحدة أنك زرتنى قبل سفرى ".. وأنا بالفعل سوف أغـادر البلاد بعد ساعات.. ولا تنس يا ياسر أنه مـن الممكـن أن أورطك معى فيما لو أبلغت عنى.. وتفسد علـى خطتـى.." وبصراحة لولا إنى شايف في عنيك الصدق والجدعنة كنـت حبستك وكممتك هنا لغاية الطيارة ما تطير.."

- ٣٥ -

يواصل ياسر عوض حديثه بصوت متهدج:

- : لا أنكر أننى صرت نهباً للتمزق بعد أن وضـعتنى الصدفة في طريق إبراهيم وهـو يسـحب خطوتـه الأخيرة من أرض مصر.. فالساعات التـى أمامـه ليحقق فيها هروبه هي نفس الساعات التـى أمـامى لأحقق فيها منعه من الهـروب.. سـاعاته تكفيـه.. وساعاتى لا تكفينى.. فهو جاهز لكل شئ.. وأنا لست جاهزاً بأي شئ.. ثم رحت أتأمل عباراتـه الأخيـرة عن أننى في مأمن لأنه مـن المفـروض أن يكـون إبراهيم قد " توفى غداً!! " وهذا ما ستعرفه الوحـدة عنه بعد أيام.. ومعنى هذا أننى لن أكون متهما فـي أى وقت بالتستر عليه. فكيف أتستر على ميت؟..

لم يكن اكتشافي أنه يستعد للهرب.. هذا الاكتشاف الـذي فاجأته به ونحن في غرفته بالفندق.. مجرد تخمين.. فهـو لا يعلم أننى اكتشفت قبل ذلك أنه قد نجح فـي عمـل هـروب صغير قبل ذلك الهروب الكبير.. إذ عندما فوجئت به ملحقـاً على وحدتى العسكرية كخبير مدنى تعجبت لأنه لم ينخـرط

في سلك الجندية مثلى.. وتحاشيت أن أسأله عن سبب إفلاته من التجنيد إلى أن أجابنى بنفسه – دون أن أسأله – عن أنه الابن الوحيد لأمه التى على قيد الحياة.. ولأنى أعرف أن له شقيقاً أصغر فقد عللت إطلاقه لهذا المبرر أمامى بأنه نـوع من طواف المجرم حول جريمته.. أو أنـه دون أن يـدرى يطبق المثل القائل " كاد المريب أن يقول خذونى ".. لقد نسى إبراهيم أننا نحتفظ في داخلنـا بكـل مغامراتـه العاطفيـة والجنسية التى كان يفجر فينا الضحك وهو يروى تفاصيلها.. ونسى ما نعرفه عن أنه كان يستخدم شـقيقه الأصـغر فـي توزيع خطاباته على الفتيات بالرشوة أحياناً وتحـت التهديـد أحياناً أخرى وأن نصف ضحكاتنا كان بها من الإشفاق على هذا الولد أكثر مما بها من السخرية والتعجب مـن شـقاوة إبراهيم..

لقد تأكدت وقتها أن إبراهيم " لعب لعبة ما ".. وخرج بها من الجيش فاحتفظت بهذا لنفسي دون أن أفاتحه أو أتسال به إلى منطقة الإحراج والخوف التى لا داعـى لهـا.. ولكنـى تعجبت أن تلعب المفارقات لعبتها ويدخل إبـراهيم بقدميـه منتدباً في نفس الجيش الذي هرب منه..

ولأنه كان حذراً وحريصاً ويبدو كـالمتنمر وصـامتاً لا يطاق ضحكاته الصافية كالعادة فقد داخلنى اقتنـاع أكيـد أن إبراهيم ليس كعادته وأنه يبدو لي شخصاً آخـر لـيس هـو الشخص الذي نعرفه.. ولا أنكر أن صعودى إليه في غرفته بالفندق كان بها من الفضول أكثر مما بها من إجراء مفاجـأة حميمة وشبابية ستجلب ضحكاتنا وسرورنا..

وكان غيابه عن الوحدة يوم السبت التالى لزيـارتى لـه خبأً استولى على آذان كل الطاقم ماعدا شخصى.. وكالعادة تلقوا الخبر بهمهمة ولا مبالاة مقترنة بالقول الشائع (الغائـب حجته معه).. ولما امتد الغياب إلى السبت الذي يليه تحولـت الهمهمة إلى انزعاج.. وتحولت اللامبالاة إلى هلـع.. وقـد حدث ذلك بشكل تدريجي طوال أيام الأسبوع..حتى قـررت الوحدة أن تكتب لجهة عمله الأصلية.. وقد مضـى أسـبوع آخر على هذا الكتاب ليأتى الرد المفجع من أن المذكور قـد توفى إلى رحمة ا متأثراً بجراحه في حادث سـيارة يـوم الجمعة الموافق كذا، وقد قامت جهة عمله بإرفاق مسـتخرج رسمى من شهادة الوفاة.. " لإنهاء انتداب المذكور للأسـباب سالفة الذكر "..!!

حام الوجوم على الرءوس كلها حزناً عليه.. وحام الوجوم على رأسي تعجباً منه.. فكيف له ألا يكتفى بالهروب فقط بل ويمتد تخطيطه إلى وقف تعقبه والبحـث عنـه بعـد هـذا الهروب؟.. هل يعنى هذا أنه باع مصر إلى الأبد حتى أنـه ترك بها شهادة تثبت وفاته قبـل أن يغادرهـا؟.. وزوجتـه فاطمة - زميلتنا اللبنانية الرقيقة التى أحبتـه - ألـم يفكـر فيها؟.. أم أنها كانت في خطته التى ستكتمل بانضمامها إليـه بعد عامين ليعيشا معاً في بيروت؟.. التفت ياسر إلى فاطمـة وحنان وهو يعتذر:

- : صدقينى.. هذا مادار بخاطرى.. ولكنى وأنا أتشمم أخبار إبراهيم في الكلية اكتشفت أن هناك عديداً مـن الشائعات تُحلّل سبب اختفائه.. ولم أجـد بـين هـذه الشائعات خبراً واحداً عن أنه قد مات حتى أعلـم أن كذبته قد انتشرت وآتت أكُلها.. وقد عرفـت سـبب موت هذه الكذبة في مهدها.. وعرفت أن هذا سـببه يعود إلى شخصى أنا.. فقد احتار قائد الوحـدة فـي الطريقة المثلى لتقديم العزاء إلـى أهـل إبـراهيم.. وكيف سيرسل ضباطه للعزاء في شـخص لا يعلـم

أهله أنه موجود بينهم لسرية انضمامه؟.. وربما يكون ظهورهم المفاجئ عند أهله مـدعاة إلـى الثرثـرة والتساؤل وفضح هذه السرية.. وقد وجد هذا القائـد الحل الأمثل عندما هداه تفكيره أن أقوم أنـا زميلـه السابق في الكلية بالإنابة عنهم في تقـديم العـزاء.. وعندما نصحنى بضـم واختيـار بعـض المـدنيين الآخرين معى ادعيت الموافقة ثـم أعفيـت هـؤلاء المدنيين فيما بينى وبينهم من هـذا المشـوار الـذي ادعيت أنى سأتولاه مع بعض زملاء الدفعة.. وبهـذا لم تنتشر فكرة موته بعد إلغائي فكرة العزاء فيه..

لم أكن أعلم أن تورطى سيمتد إلى ما بعد هروبه وأننى يجب أن أظل محتمياً في الأكاذيب التى راحت تتراكم حـول الكذبة الكبرى.. وأنه يجب أن أستعد لكذبة جديدة أحكى لهـم فيها عن رحلتى لعزاء أهل إبراهيم.. حتى أننى فكـرت أن أبحث عنهم وأذهب إليهم فعلاً لإثبات حسن نيتى وعدم علمى بحقيقة أمره إلا أننى تراجعت فمثل هذه المفاجأة ستجعل أهله يبحثون عن جثته الوهمية ويتصلون بجهة عمله ويحصـلون

على شهادة الوفاة وتنفجر قضـية ربمـا تصـيبنى إحـدى شظاياها..

لقد هز القائد رأسه أسفاً وأنا أحدثه على انفراد في مكتبه حول ما وصل إلى علمى من أن المرحوم إبراهيم المقطـوع من شجرة لا يوجد من أقدم له العزاء فيه سوى أمـه التـى انهارت في غيبوبة مازالت تحت وطأتها حتى الآن.. ولهـذا فقد ألغيت فكرة العزاء.. على الأقل في الوقت الحالى..

لقد هز القائد رأسه أسفاً مرة أخـرى وهـو يشـير لـي بالانصراف.. وعندما أدرت له ظهرى منصرفاً وصلت إلى سمعى همهمته الطيبة:

" لا حول ولا قوة إلا با "

- ٣٦ -

كان ياسر هذا ذكياً وجريئاً.. اسـتطاع أن يلمـح الخـط الفاصل بين الجبن والشجاعة.. والشعرة الواهية بين الخوف والجسارة.. ويتفادى الانزلاق عبر هذا الخط وتلك الشـعرة فيما لا يحمد عقباه..

لقد كان يتوقع أن يوصيه إبراهيم على زوجته فاطمـة.. ولما لم يفعل هذا تأكد ياسر أن إبراهيم برجولته المعروفة لم يطلق هذه التوصية لتأكده أن ياسراً لن يفوته ذلك.. والأسباب يعلمها إبراهيم ولن يفصح عنها.. وهي الأسباب التـى راق لياسر أن يفصح عنها الآن من أنه تمتع ضمن من تمتع مـن الكثيرين من أبناء الدفعة بكرم مستتر غمرهم به إبـراهيم.. فمكتبه العامر في رأس التين كان يتحول لـيلاً إلـى أتيليـه للرسم وإنهاء المشروعات المفروضة لدرجات أعمال السنة.. وأن الضيافة الحاتمية من طعام وشراب لـم يكـن يكتفـى إبراهيم أن تأتينا من المطاعم العادية فقد كان حرصه واضحاً أن يتعامل مع المستويات الأعلى في كـل شـئ.. ملبسـه.. ومأكله.. ومشربه.. وكل مظاهر الحياة المطلوبـة حولـه.. وكان من عادته أن يرهف السمع للتعـرف علـى الأحـوال

المالية لنا نحن المحيطين به.. وكثيراً ما كان يسارع بحشـر أوراق البنكنوت في جيوبنا حشراً قبل أن نبحث عـن كلمـة اعتذار واحدة.. وينصرف قبل أن يسمع منا كلمة شكر..

- : كان راجل.. " هكذا لخّصه ياسر في كلمة واحدة "

قالت حنان إن فاطمة سالت دموعها وهـي تسـمع هـذا التلخيص الرائع لحبيبها الذي مات على الورق.. وهرب على الأرض..

ومن خلال دموعها هتفت فاطمة:

- : هالحين.. شو بتنصحنا ياسر؟..

" هذا هو بيت القصيد.. "

هكذا تمتم ياسر بينه وبين نفسه.. وقبل أن يطلق نصائحه تساءل:

- : احنا دلوقت تلاتة عارفين الموضـوع ده.. وكـرم حيعرف من حنان.. نبقى أربعة.. والأخ اللـي أنـا كلفته يكلم كرم نبقى خمسة.. المفروض الخمسة دول في مصر كلها هما اللي عارفين إن إبراهيم عايش.. وهربان.. لكن المفروض يتعاملوا مع ذكـراه كأنـه

ميت حقيقي.. لسبب واحـد كـان لازم اسـتدعيكم وأعرفكم عليه..

وفي استعراضه لمخاوفه راح المهنـدس ياسـر يوضـح لفاطمة وحنان أن إبراهيم عبد القادر بكل ما فيه من جـرأة واندفاع وإصرار على مواصلة التحرك نحو هدفـه - أيـاً كانت علامات الخطر والإنذار المضيئة في آخر الطريق أو على جانبيه - نسى في غمرة هذا الاندفاع أنه أتى بجريمـة من الممكن أن توصف أو تعد ضمن جرائم الخيانـة.. بـل والخيانة العظمى.. فالرجل ولى هارباً من بين جدران جهاز حساس ومن الممكن أن يوصف هروبه في زمن الحرب أنه يعمل لصالح جهة أجنبية لأنه اطلّع بالفعل على أمـور فنيـة وحربية تدخل ضمن الأسرار الهامة، وفي مثل هذه الحالـة وفيما لو ثبت لوحدته أنه فر من الخدمة وأن مسـألة موتـه كانت للتمويه فإن اقتران تمثيلية الموت بحقيقة الهروب ستثير عوامل التشكك والريبة وستتم مطاردته في الداخل والخـارج للقبض عليه ثم شنق هذه الرأس الخائنة..

تبادلت فاطمة وحنان نظرات الدهشة والانزعـاج.. فقـد كان ما يعتمل في نفوسهما قبل دقائق هـي الدهشـة فقـط..

الدهشة لهذا السيناريو المحكم المدهش الـذي قـام إبـراهيم برسمه وتنفيذه حتى يحقق لنفسه هروباً منشوداً من مصـر.. – هذا إذا نحينا جانباً مدى حاجته لهـذا الهـروب وسـبب إصراره عليه – ولكن ما أضيف إلى مشاعريهما هـو ذلـك الانزعاج الذي ترتعد معه الفرائص لما تسمعانه من مخاوف يمكن أن تترتب على وصول خبر هـروب إبـراهيم عبـد القادر إلى وحدته العسكرية..

راحت فاطمة تبحث في حديث المهندس ياسر عن صيغة المبالغة والتهويل فلم تجد لها أثراً.. فالرجل يتحـدث بشـكل منطقى وعاقل ومتزن وأنه إزاء ما وصل إليه من إشـاعات تملأ جو الكلية من أن إبراهيم قد ولّى هارباً خـارج الـبلاد ملأه الخوف من أن تتدحرج هذه الإشاعات وتصل إلى حيث لا يحبها أن تصل.. لذا فقد بادر بطلب التحدث مـع فاطمـة حتى يحدد لها أمرين: الأول أن إبراهيم حي يـرزق وأنـه بالفعل غادر البلاد.. والثانى أنه على المستوى الرسمى يعتبر في رحاب ا .. هكذا تقول ملفاته في الوزارتين.. الحربية.. والزراعة.. ولذا يجب التعامل بجديـة مـع هـذه الحقيقـة الأخيرة..

هتفت فاطمة:

- : وشو المطلوب ياسر؟..

وبكل بساطة أجابها وهو يعتدل في مواجهتها:

- : تاخدى العزا في إبراهيم جوزك.. يعنـى تعتبريـه فعلاً ميت ومش حتشوفيه تانى.. لأن من الصعب إنك تشوفيه تانى..

لم يكن المهندس ياسر يعلم أن فاطمة ليست هي الوحيـدة التى تتجرع الهم والفزع من كأسٍ - كشكل علامة الاستفهام - تركه لهم إبراهيم.. وحتى عندما انصرفت من عنده فاطمة ومعها حنان ظل على جهله بحقيقة شلة المهمومين الفزعين: ضحايا إبراهيم.. والديه وشقيقه الذين انتهوا من قضيته منـذ زمن واتفقوا مع أنفسهم أنه قد مات بالنسبة لهم.. ثم عنايات وولدها إبراهيم.. ثم هدى وما في بطنهـا.. وفاطمـة هـي الأخرى وما في بطنها.. والمجموع تسعة.. وكلهم يـدخلون في تصنيف الدرجة الأولى من القرابة.. وكلهم فـي رقبتـه بحكم الشرع والقانون والعرف والدم وكل ما يلزم الأسـوياء بما في أعناقهم..

قالت حنان وهي تذكرنى بشئ نسيتُه ونحن نَعد ونُسـمى من داس إبراهيم على قلوبهم وفر إلى بعيد..

- : ومصر؟.. إنت نسيت مصر.. إبراهيم خدعها زي ما خدع نسوانه وأولاده وأهله..

وافقتها من قبيل المجاملة.. فما تقوله حنان يدخل في باب تحميل الأمور أكثر مما تحتمل أو في نطاق الوجاهة التى لا لزوم لها.. فكيف ترفع عقيرتها بشعارات وطنية أمام قلب لا يضع الأم والأب والأخ والابن والزوجة في مكانهم الصحيح من قلبه؟..

ولكنى آمنت بما تقوله حنان - واقتنعت فعلاً بملحوظتهـا من أن إبراهيم نسى مصر بل وخدعها كسائر من خدعهم – عندما درات معركة أكتوبر وتحرك أبناء مصر لغسل عارها واسترداد كرامتها.. فقد كنت أقول لحنان متسائلاً: لو أنا في مكان إبراهيم.. أياً كان مكانه الآن.. سرير دافئ في حضـن امرأة دافئة.. أو يخت سياحى يجوب به أحد الأنهار كالتايمز أو السين أو الدانوب.. أو أعلى مقعد وثْيـر وهـو يسـتمتع بأوبرا راقية في فيينا أو باريس.. ثم عاد إلى غرفته ليشـاهد من نشرات الفضائيات الشباب البسيط من أبنـاء الفلاحـين

والصعايدة يسوقون اليهود أمامهم سوقاً كالبهائم وأن الشباب المتعلم –مثله- من الجامعيين يديرون المعركة بتقنية رائعـة واظبوا على تعلمها عندما انقطعوا لها ناسين كل ما وراءهم من أهل وعمل في سبيل ذلك.. ما الذى سيتحرك فـي قلـب إبراهيم وهو يرى نفسه هكذا بعيداً منزوياً مخزياً؟.. هل من الممكن أن ينتحر؟.. أعتقد أنه لابد أن ينتحر؟..

كانت نظرة إشفاق واحدة صوبتها نحـوى حنـان كافيـة لردعى عن سرد مثل هذه الأسئلة المثالية التى لا تتناسب مع الشخص الذي أتحدث عنه.. وحتى تهدئ من روعى ذكّرتنى حنان بنماذج من البشر لا يرقى إبراهيم إلى بعض ما فـيهم من الخسة والنذالة والنـُكران.. وركزت مثلها على وجيـه ثري يتمرغ في نعمة ا ورزقه.. ثم تكتشف إذا حاورته أنه ملحد لا يعترف أصلاً بوجود ا .. إذن فهناك مـن يتنكـر للأهل.. وهناك من يتنكر للوطن.. وهناك من يتنكر جـل جلاله.. ثم أردفت وهي تتحرك نحو المطبخ لتعد لي كوبـاً من الشاي..

- : المهم دلوقت فكّر إزاى نخلّى هدى تنسى إبراهيم.. ونخليها تبطّل تروح للمشايخ.. وتسيبها من الشـعوذة

اللي واخداها دى.. إنسـى إبـراهيم بقـى.. إنسـاه خالص..

وتذكرت أننى قلت هذه الكلمة لأخيه كمال منـذ ثمـانى سنوات..

- ٣٧ -

كانت فاطمة حائرة بين أن تستخدم شهادة وفـاة زوجهـا المزورة في إفساح الطريق أمامها لنيل حريتها كاملـة.. أو تلتزم بما تعرفه ونعرفه معها من أنه حى يـرزق.. إنهـا لا تستطيع أن تطرح هذا السؤال على من تتوسم فيـه صـحة الفتوى.. فلسوف تبدو أمام من تسأله كالبلهاء التى تسأل عن حكم الشرع في علاقتها بزوج ميت على الورق وحـي فـي الطبيعة.. وإذا أصرت على سؤالها فسوف يحق لمن يسمعها أن يدير قرص الهاتف ليضع أمام الشرطة رسالة تليفونية بها بلاغ عن حالة تزوير فجة من الممكن أن تتيح لامرأة ما أن تتزوج رجلين في وقت واحد!!.

قالت لنا إنها رغم اقتناعها الداخلى بحديث ياسر فإنها لن تجرؤ على تنفيذ توصيته بإعلان موت إبراهيم لتشارك فـي مزيد من التمويه والتعقيد لقضية لا تـدرى كيـف سـتتحدد أبعادها في المستقبل القريب أو البعيد.. ومادام إبراهيم حيـاً يرزق كما يقول ياسر فانها يجب أن تتأكد من ذلك من خلال قوائم المسافرين بطريقة لا تثير الشك أو الارتياب لدى أهلها أو لدى المسئولين في مطار القاهرة.. وأنها في حالة تأكـدها

من سفره سترهن نفسها أى عدد من الشهور جالسة بجـوار التليفون في انتظار محادثة يجب أن يقوم بها إبراهيم لزوجته - وتلك طبائع الأمور – ووقتها ستطلب منه الطـلاق مـرة أخرى.. أما إذا اختفى في دهاليز قلبه الأسود ومارس هجره الأبدى غير المبرر لذويه كما فعل مع أهله.. فإنهـا سـتتقدم إلى المحكمة لطلب الطلاق من زوجها الغائب من منطلق أنها في الأصل لا تعلم مسألة موته الوهمى..

لقد استعدت فاطمة بتسليح نفسها لعمل هـذه المواجهـات باستخراج وثيقة زواج بديلة عن المفقودة أو المسروقة فربما يكون المطلوب منها أن تبرزها في المطار أو في المحكمـة والأهم من ذلك أن تسجل بها اسم مولودها القادم مقروناً باسم أبيه..

واتصلت بنا فاطمة – ذات يوم – وهـي متجمـدة مـن الذهول والفزع فقد تأكدت من قوائم المسافرين أن إبـراهيم عبد القادر لم يغادر البلاد وأنها ركزت بحثهـا فـي قـوائم المغادرين في الميعاد الذي حدده المهندس ياسر ثـم بالغـت فبحثت في القوائم السابقة واللاحقة لهذا اليوم.. دون جدوى..

تسللتُ بعدها إلى المهندس ياسر لأضع أمامه هذه المفاجأة التى سمعها منى بعقل مشدوه وعينٍ زائغة ولم أجد من رأيٍ لديه سوى محاولة التشكيك في قدرة فاطمة على بحث هـذا الموضوع، ومع التماسي العذر لحيرته وضعت أمامـه كـل عوامل الإقناع بأن فاطمة كان برفقتها أنـاس ذوو حيثيـة.. كانوا يذللون لها سبل البحث والتنقيب حتى إنهم فحصوا قوائم كل شركات الطيران ولم يتوقفوا عند شركة واحدة..

وكان لابد من استغلال زيارتى لياسر في التعرف علـى أي آثار في الوحدة لموت إبراهيم عبد القادر فأفـادنى بـلا مبالاة وبشئ من الاقتضاب أنه لا أثر ولا آثار، لأن ظهـور إبراهيم في الوحدة واختفاءه بعد فترة قصيرة لم يترك الأثـر العميق الذي تحدثُه العشرة الطويلة بين من يعملون في مكان واحد ناهيك أنه كان في خطته كما يبـدو ألا ينفـتح علـى المحيطين به في علاقات شخصية واكتفى بعلاقـات العمـل الروتينية التى كان متحفظاً – حتى – في تبادلها.

قارنت بين هذه الآثار المعدومة لإبراهيم في موقع عملـه وبين مثيلتها في بيوته الهشة.. كانت هدى تتجه قُـدماً فـي مشروعها وتحيا على آمال من صنعها ولا تلقى بـالاً لشـئ

آخر سوى الاحتفاظ بحبها وإعزازها لزوجها الغائب وكل ما يمت له بصلة.. ونحن بدورنا لم نعد نلقى بالاً لأحلامها التى لا تفتأ ترويها بشهية كلما التقينا بها.. الأحلام التى تراه فيها صامتاً لا يتحدث.. يحمل وجهاً مملوءاً بالحزن والحيرة..

أما عنايات فقد استسلمت لهدى عندما تضافرت داخلها كل القناعات النفسية والمادية من أن مشروع هـدى هـو فـي صالحها وصالح ولدها في كل الأحوال..

أما فاطمة فقد أكدت لنا أنهـا الخاسـرة الوحيـدة فـإن مبرراتها تقول: إن عنايات قد توقفـت عـن التفكيـر فـي الزواج.. ولا يمكن لهدى هي الأخرى أن تفكـر فـي زوج جديد.. فلقد اكتفت كل واحدة منهن بتجربتين فـي الـزواج أوصلتاهما إلى القناعة والاكتفاء بنصيبهما في الدنيا.. ولـذا فإن بقاءهما على ذمة إبراهيم حتى يودعا الحياة أمر هو في جوهره لن يعطلهما عن مسيرة الحياة إن لم يكن في حقيقتـه قد شكّل أمامهما سداً لأى طامع أو مريض.. فكون الأنثـى على ذمة رجل غائب عنوان يمكن احتماله عن عنوان الترمل أو الطلاق.. وقد راحت تثبت ذلك من خلال سلوك إبـراهيم نحو زوجاته.. فلقد طلّق عنايات دون أن يرمش له جفـن..

وتهيأ لتطليق هدى لحساب الاكتفاء بفاطمـة.. ولـو وافقتـه فاطمة لفعل ذلك فوراً دون أن يرمش له جفن أيضاً.. معنـى هذا – كما تقول فاطمة – أنه اختار فيهـا الجمـال والحـب والشباب والرقي والزمالة وراهن عليها في سبيل كـل هـذه المزايا.. ولما رفضته وتمسكت برفضها لم يجد سبباً للبقـاء فرحل ضارباً عرض الحائط بكل شئ لأنه لا يعنيه في الدنيا شئ... سوى ما يبتغيه.. وما كان يبتغيه هي فاطمة..

فاطمة تريد القول إنها بناء على نفس المزايا التى جعلـت إبراهيم يتمسك بها يجب أن تحصل على حريتهـا لتسـتمتع بهذه المزايا: الجمال والحـب والشـباب والرقـي والعمـل والطموح.. فليس من الممكن أن تتساوى بعنايـات وهـدى وتجلس يداها على خدها في انتظار طائرها الشارد.. وقبـل أن نفسر – خطأ – هذا التحول في مشاعرها قامت فأوضحت لنا أنها ليست نادمة على تجربتها معه.. بل هي تعتز بكـل يوم وكل لحظة منحتها له أو منحها لها.. وأنها عندما تركت له قلبها يفعل به ما يشاء وأيامها ينفقها كما يشاء كانت تفعل هذا بكل إرادتها.. وكونها قد استجابت لرجاء ونـداء هـدى الطيبة للحفاظ على الجنين وضمه بعد ولادته إلـى ربـوع

جنتها العامرة بالحب والحنان فإنما فعلت هذا استجابة لخاطر آخر نبيل سرى في وجدانها لا يقل نبلاً عن مشروع هـدى وهي أن تضع لنفسها جـذوراً فـي مصـر.. وأن ولـدها المصري سيكون كعبتها التى تحج إليها كلمـا راق لهـا أن تتمسح في عطر نيلها الجميل.. كما قالت إنها لم تلتفت إلـى صياح أمها وتشنجها وانهيارها الذي وصل إلى حد الهـذيان لتمنعها من الاحتفاظ بطفل من هذا الشيطان في رحمها حتى لا تحتفظ له بأى ذكرى في الحياة.. وكان ردها على أمها هو أن: هذا يا أمى نوع من القتل العمد وجريمة لا أملك الجرأة على فعلها ليس خوفاً من ا فقط ولكن خوفاً من ضـميرى الذي سيعذبنى مدى الحياة.. وأن ما في بطنها لـيس سـوى أمانة أودعها صاحبها شرعاً وثقة ولا يحـق لهـا أن تلقـى بأمانته إلى الجحيم.. وكانت هذه الكلمات تثير جنون الأم التى راحت ترفضها رغم إيمانها بكل ما فيها من صدق.. ولكـن كراهيتها لإبراهيم " ذلك المخادع الشيطان ".. ورغبتها فـي قطع كل ذكراه جعلتها تسخر من حديث فاطمة بـل وتصـر على تنفيذ مشروعها الأسود بالتخاص من هذا الجنين..

ولما كان إصرار فاطمة على موقفها في الحفـاظ علـى جنينها يفوق إصرار أمها على التخلص من هذا الجنين فقـد تطاير الشرر بينهما في صدام يومى وصياح كـان يتعـالى حتى يصل إلى الخدم والحراس..

لم تهدأ إلا بعد أن همست لها حنان في التليفون:

- : أنا خايفة عليكى يا فاطمة.. تعالى عيشي معانـا.. إبعدى عن ماما دلوقت..

***

- ٣٨ -

لم تكن زوجتى حنان تتخيل أن هؤلاء الأهل الجدد الـذين يملأون عليها حياتها وشقتها في الإسـكندرية لسـن سـوى امرأتين ضرتين لرجل كان يجب أن يكون هو زوج حنـان نفسها.. فما إن علمت هدى " بحركة الجدعنة " التى قامـت بها "البنت اللبنانية " واختيارها أن تعيش معنا حفاظـاً علـى صحتها وعلاقتها بأمها ثم حفاظاً على جنينها.. ثم اختيارهـا السابق للتضحية بعامٍ من دراستها.. حتى أسرعت إلينا فاتحة أحضانها وقلبها وكل خزائن حبها وأموالها لرعايـة فاطمـة التى تحمل أمانة غالية.. " من الغالى "..

قالت حنان إنه يجب تسجيل هذه الحالة الفريدة من الحـب بين ضرتين.. حالة تتسم بالغرابة لأننا لم نعـرف إلا علـى عكسها.. وما يزيد من غرابتها أنه لا توجد نقطة التقاء واحدة أو نقطة اتفاق واضحة بـين المـرأتين.. لا الجنسـية.. ولا الثقافة.. ولا البيئة.. ولا التربية.. ولا السلوك.. ومع هذا فإن الحب الذي برعت هدى في إطلاقه وبثه برعت فاطمة فـي تلقّيه وضمه إلى قلبها ثم أعادته إليهـا مزيـداً مـن الحـب والامتنان.. وكأنها نسيت أنها حامل مثـل فاطمـة وأنهـا "

برنسيسة " تُخدم ولا تَخدِم.. إلا أن مشوارها من المطبخ إلى سرير فاطمة بصينية الطعام لم يكن يمدها بنشوة العطاء قدر ما يمدنى أنا وحنان ببهجة الحب.. وحلاوة الدهشة.. وكانت تلاحظ دهشتنا وإعجابنا لما تفعله وتلمح سؤالاً بريئاً – نخجل من طرحه – يقف على طرف ألسنتنا.. فلا تأبه لدهشتنا ولا تفخر بإعجابنا.. ولا تلتفت إلى عذاب سؤالنا الحـائر (هـل أموالها كثيرة إلى حد الانفاق على أبناء ضرتيها؟..).. وحتى لا تزداد دهشتنا لما تفعله مع ضرتها فاطمة كانـت تسـرب إلينا حكايا متفرقة عن معسكرها الآخر الذي تقيمه في طنطا ويجمع ضرتها عنايات وولدها إبراهيم.. كان تقول إنها الآن تجلس معنا براحتها لأنها مطمئنة على حسن إدارة منزلها في طنطا الذى تتولاه عنايات.. فقد علّمتها متابعـة المدرسـين الذين يحضرون لمحمد وإبراهيم.. والـرد علـى تليفونـات العملاء والموردين في طنطا حتى إذا تحركت هـدى إلـى مكتبها في الإسكندرية بعد زيارتنا والاطمئنان على فاطمـة تبدأ بالحصول على تقرير كامل من عنايات عـن برنـامج العمل والأولاد والمدارس..

لقد كان عجبنا وإعجابنا يزداد بها عنـدما تتحـدث عـن عنايات - التى كانت خادمتها ثم أصبحت ضرتها -.. خاصة عندما أعلنت أنها شريكتها.. قالتها لنا بكـل بسـاطة وبكـل حب.. " أجل.. شريكتى.. مكتب اسكندرية هذا.. من الـذى أسسه؟.. إبراهيم.. طبعا هل تعرفون كم تضاعفت أمـوالى خلال ست سنوات بسبب هذا المكتب؟.. لن تصدقوا.. أكثـر من خمسين ضعفاً.. ماذا أخـذ إبـراهيم لنفسـه مـن هـذا المكتب؟.. لا شئ.. أنفق فقط على دراسته ومظهره الفاخر.. كان عفوفاً.. المال بالنسبة له هو الوقود الذي يحرك به عجلة اليوم فقط.. هل اقتسم إبراهيم أموال الشركة معـى قبـل أن يختفى؟.. لا طبعا.. أليس لإبراهيم على الأقل حق النصـف في أموالى التى أدارها وزادت على يديه والتى ننهض حتى الآن على أساساته وقواعده؟.. إنه يعتبر شريكا لي حتى فـي غيبته.. لقد رفض أن أضم اسمه إلى سجلّى التجارى.. ومع هذا فقد نويت النية أمام ا أنـه شـريكى.. هكـذا تقـول الأعراف والأديان.. ولغة السوق.. إذن فأنا لا أنفـق علـى ولده إبراهيم من جيبى.. ولكن من رزق أبيه.. ولـن أنفـق

على ابن فاطمة من جيبي.. ولكن من حصة أبيه.. ومـادام المال موجوداً فلأضم إليه البنين وأتمتع بزينة الحياة الدنيا.. "

إنها تعاود الحديث عن إبرهيم كلما أتيح لها ذلـك حتـى لكأنها تتحدث مع نفسها:

إنتم مش عارفين أنا كنت إيه قبل إبراهيم.. واحدة غنيـة وتايهة.. كل الناس عنيها على فلوسي.. هو الوحيـد اللـى كانت عينه على أنا.. شخصى أنا.. وطلبنى فـي الحـلال.. لأنه ما يحبش يقرب للحرام (!!) أنا كنت أعرف إيـه عـن المكاتب والموظفين والسجلات والاستيراد والتصدير.. كـان كل شغلى كام تاكسى وكام عربية بمقطورة وشـوية فاكهـة وخضار بنتسلّى فيهم.. قاللي: فلوسك يا هدى تحت جزمـة السواقين.. شوية شوية كل ده حخلّصك منه بس ادعى لـي أخْلص من الثانوية العامة بنت الكلب دي وخلى بالك معايا.. كان خلاص مفيش بينى وبينه أي حاجز.. جوزى حبيبـى.. زي ابنى.. باسهر معاه عشان ياخد الثانوية.. ماكنتش أقـدر أغيب عنه يومين إتنين.. أجيله جرى من طنطـا.. يضـحك ويقول لي أنا شامم ريحتك يا هدى من ساعة ما طلعتى مـن طنطا.. وياخدنى في حضنه زي ما أكون أنا بنته الصغيرة..

وهنا أخذتها نوبة بكاء.. جعلت فاطمة هى الأخرى تـرد عليها بنوبة مماثلة.. مما جعلنى أنا وحنان نوارى ابتسـاماتنا حتى لا نجرح مشاعرهما ونفسد هذه الدراما المتألقة عاليـة الحس والصدق والشعور..

" أنا مش عارفة إيه اللي جراله؟.. مين اللي زعله؟ "..

ثم تهدأ قليلاً.. لتلتقط أنفاسها:

"هو خاف على شعورى لو عرفت أنـه كـان مِتْجـوز قبلى؟.. ولاّ خاف على شعورى إنه اتجوز على..؟.. يعنـى هروبه ده حب..؟.. حب ليه؟.. اللي يخاف على شعور واحد يبقى بيحبه.. طيب ما بيجى يشوفنى دلوقت.. أدينى عرفـت مين اللي كان متجوزها قبلى.. ومين اللي إتجوزها بعـدى.. لازعلت منه.. ولا من عنايات.. ولا من فاطمة.. ولا زعلت من نفسي.."

وهنا ارتجفت شفتاها وبدأت في بكاء جديد:

" وأزعل من نفسي ليه ؟.. أنا لو قصرت في حقه كنـت أزعل.. دا يوم ما قال لي ينفسي أجيـب ولـد منـك الـدنيا ماكانتش سايعانى من الفرحة.. رحت زي الهوا.. عرفت كل الناس إنى إتجوزت من الواد الحليوة المهنـدس إبـراهيم..

ماخلّيتش حد يفتح بقّه.. وسبت نفسي للحمل علـى طـول.. وطول مانا شايفة رزقنا بيزيد وشغلنا بيتوسع أعرف إن احنا ضميرنا حلو.. وربنا معانا.. "

وعندما هدأت تماماً.. وبدا عليها الارتياح لإطلاقها هـذه الشحنة من الشجن وتلمس ذكرى حبيبها الغائب.. التفتت إلى فاطمة..

- : بصى يا حبيبتى.. أنا مش حاقاطع وأقول لك على اللي أنا ناوياه دلوقت.. نِستنى لما ربنا يِكْرمنا واللي في علم الغيب يحصل.. بس ولاد إبراهيم لازم يتربوا مع بعض.. وأنا يا حبيبتى ماليش فضل فـي كـده.. الفضل فضل ربنا.. وخير أبوهم.. ورزق أبـوهم.. ومجهود أبوهم.. بـس عشـان مـاتفكريش إن أنـا باضحى بحاجة من عندى.. دا حقكم وحق ولاده..

لحظتها همست في أذن حنان:

- : هدى يا حنان جاوبت على السؤال اللي كان علـى لسانّا.. ومكسوفين نسأله..

قالت حنان وهي تمسح دمعة بطرف منديلها:

- : مظبوط..

***

- ٣٩ -

كان اليأس قد استبد بفاطمة.. بعد أن اختفـى إبـراهيم – فعلاً – في دهاليز قلبه الأسود ومارس معها ومع من حولها هذا النوع من الهجر المباغت أو الاختفاء المخطط له بقـدرة لا تتفق مع قدرة الآدميين..

إلى أن جاءها صوته على التليفون – فجأة – وبلا سـابق إنذار.. اعتدلت بعد أن قامت مفزوعة من نومها وهى تحاول التعرف على صوته كالمذهولة.. لقد مضى على اختفائه أكثر من عامين.. مما جعلها تكرر سؤالها عن اسم المتحدث.. ولم تأبه بضحكاته الساخرة المصحوبة بكلمـة اسـتغراب عـن سرعة نسيانها لصوته.. فقالت له:

- : أنا ما نسيت صوتك بس.. أنا قربت أنساك.. إنـت بتتكلم من وين؟..

- : من بيروت..

- : إنت ما غادرت مصر يا إبراهيم.. ولاّ هادى كدبة جديدة.. أنا تأكدت بنفسي من المطار إنك لسه موجود في مصر..

- : أنا غادرت مصر عن طريق البر.. دخلـت مـن حدودنا مع ليبيا في آخر لحظـة.. واحـد صـاحبى كشفنى خفت يبلّغ فيه.. غيرت اتجـاهى مـن بـاب الحرص..

- : وايه اللي خلاّك تهرب من مصر؟..

- : مش عارف.. بس ما كانش ممكن أسـتحمل إنـك ترمينى.. وهما كمان يرمونى فـي الجـيش..كنـت يائس.. وكان لازم أعمل حاجة..

- : يا ريتْك ما سويت هالحاجة..

قاطعها بسرعة وأفهمها أنه ما طلبها حتى تشـنّف آذانـه بكلمات التوبيخ أو العتاب.. وهو لم يخْتر هذا التوقيت بالذات ليتحدث معها فيه.. ولكنه يحمد ا أن توقيته جاء مناسباً مع فكرته أنها قد تخرجت ونالت شهادتها ولذا فقد آن الأوان أن تشاركه حلمه القديم بأن تغادر مصر بشهادتها لتلحق به فـي بيروت لبدء حياة زوجية ومهنية وعملية جديدة.. تلك الحيـاة التى كان يحلم بها منذ زمن بعيد والتى في سـبيل تحقيقهـا رفض الانصياع إليها في طلب الطلاق..

- : إِنتَ ما إِنتْ عايش في هالدنيا.. مـن قـال إنـى اتخرجت؟.. أنا باقي لي سنة يا أستاذ..

- : ليه يا فاطمة.. إنت اتأخرتى سنة؟ رسبتى؟..

- : إنت ما بتعرف ليه أنا اتأخرت سـنة؟.. عجيـب.. عجيب..

- : وأعرف منين يا فاطمة؟.. أنا مش قادر أوضح لك أنا كنت فين المدة دي.. أنا هنا في بيروت من أسبوع واحد.. على بال ما عرفت تليفونك..

- : وكمان نسيت تليفـونى.. ا .. ا .. بـص: لازم تعرفْنى إنت كنت فين طول العامين اللي فاتوا.. قبل أنا ما أوضحاك أى شئ..

- : طيب علشان تصدقى كلامى أطلبينى علـى الـرقم ده... رقم فندقي في بيروت.. علشان إمكانياتى مـا تستحملش أعمل لك مكالمة طويلة.. الأسعار عنـدكم نار..

***

كان حلمه الذي خطط له أن يطير إلى لبنان.. بيـروت.. فأعد تذاكره وتأشيرته وتهيأ للسفر في موعد اختـاره مسـاء ذات الخميس الذي فاجأه فيه زميله ياسـر عـوض بزيـارة مقتحمة لم تكن في حسبانه.. لقـد شـاهد ياسـر الحقائـب الجاهزة.. التى يعلوها جواز السفر وتذكرة الطائرة.. وكـان ذكياً في قراءة حالة استعداد واضحة للهروب.. فصارحه بما يعتمل في صدره من شك لما يخطط له.. ولـم يكـن مـن الممكن مواجهة هذا الذكاء وتلك الصـراحة بعكسـهما مـن الغباء والكذب.. فوافقه فوراً على صحة اكتشافه ثم خاطـب فيه شهامته ورجولته أن يحتفظ بهذا السر ثم أفصح عن سر آخر سيعرفه فيما بعد وهو أنه سيكون فـي عـداد المـوتى رسمياً بعد أيام.. لقد قال له ذلك حتى يوقفه عن التفكير فـي كسب موقف بطولى مع السلطات على حسابه.. وحتى يغريه بالانتظار عدة أيام ليسمع مثل غيره مسألة المـوت.. مـوت زميلهم إبراهيم عبد القادر.. ذلك الخبر الذي سيصل إلى كل الزملاء في الوحدة في الموعد الذي خطط له الميت.. إبراهيم عبد القادر نفسه.. لقد كان ما يصبو إليه إبراهيم هو أنه فيما لو استجاب ياسر عوض لإغراء الانتظار – فضولاً - لسماع

خبر الموت فقد حقق لإبراهيم كل ما يرغبه.. بـأن يتوقـف مؤقتاً عن الإبلاغ عنه حتى يسمع حقيقة الخبر المرسوم.. ثم يتوقف نهائياً عن الإبلاغ عنه إذا سمع فعـلاً ذلـك الخبـر المرسوم.. ومع هذا وخوفاً من تقلب القلوب التى لا يأمنهـا نزل إبراهيم بحقائبه في أعقاب زائره الغير منتظر وبدلاً من أن يتجه إلى المطار اتجه إلى موقف أحمد حلمـى ليسـتأجر سيارة خاصة راحت تنهب به الأرض إلى الإسكندرية فـي رحلة سريعة كسب فيها ود السائق الذي فهم مقصـده فـي الوصول إلى حدود ليبيا.. والذي توجه به إلى من يثق فـيهم من معارفه من سائقى خط ليبيا.. والذي بـدأ فـي مهمتـه العاجلة بتوصية من صديقه السائق الـذي أفهمـه أن هـذا الزبون:" سخى.. وكل أوراقه سليمة "..

وهناك في ليبيا – طرابلس ابتلع على مهل مذاقاً مخالفـاً لطعم مدينة أخرى غير مدينة بيروت ذات الطعم اللذيذ الذي أحس بحلاوته من حديث فاطمـة وحـديث كـل الفنـانين المصريين الذين زاروا هذه العاصمة وعاشوا فيها وامتلكـوا بها بيوتاً جميلة وعشقوا نساء جميلات.. وسرحوا ومرحـوا

وطرحوا قلوبهم قمحاً للعصافير وشـارات علـى صـدور النساء..

وها هو آخذ في ابتلاع هذا الطعم الجديد لمدينة مخالفـة اختارها بين يوم وليلة وهبط إليها – فعلاً – قبل أن يـتمكن من التعرف عليها بعقله أو بقلبه..

في طرابلس وجدهم يزيلون عن مدينتهم غبار الماضـي ويعيدون طلاء وجهها بمسحة جديدة تتناسـب مـع مـذاق الحاضر.. وجدهم ينفضون عنها ثوباً قديماً متهالكاً لا يليـق بثراء أهلها ويستعدون في منظومة عالية الإيقـاع لتزيينهـا بثوب جديد..

قالوا له إنهم في ثورة البناء الحالية بحاجة إلى مهندسين.. فقال لنفسه إذن فلأنتهز هذه الفرصة وأعيش في هذا الـوطن المفاجئ لفترة.. وإن لم أقبله ويقبلنى فلأذهـب إلـى وطـن آخر.. وهنا أحس أنه قد أصـبح عصـفوراً طليقـاً يمتلـك الفضاء.. كل الفضاء.. وأن هناك أشجاراً كثيرة في أوطـان كثيرة في انتظاره أينما ووقتما يأتى ليحط عليها..

دلوه على مقيم مصري له شأن كبير ولديه شركة يمكنـه أن يعمل بها.. ذهب إليه فتفاهما وتبادلا الإعجاب والمـودة

منذ اللحظات الأولى فلم يكلفه استلام العمل الكثير من الوقت كما لم يكلفه استيعاب مهمة العمل الكثير من الجهد.. ولما لم يجد بغيته في خوض حياة مرحة بها سهر وانطلاق وفتيـات وشلة مؤنسة.. همس لنفسه: " لو استمر الحال هكذا فسـوف أموت ".. ولكنه سرعان ما آنس هدوءاً عجيبـاً راح يلمـس شغاف قلبه وهو يستقبل دفئاً شفيفاً كان يهب على روحه من قلوب الناس.. إنهم جيرانه الذين يتبادلون الحفاوة به.. والبائع الذي لم يتحمل أن يراه مغادراً المتجر وعلامات الأسف على وجهه.. لأن الجاكت الفاخر الذي أعجبه لن يبتاعـه إلا فـي الغد حتى يأتى بكل ثمنه.. وكان للبائع رأي آخر:" خذ كل ما تريد.. ومتاح لك السداد في أى وقت وبأى شكل تراه.. ومن العيب أن ترفض عرضى ".. لقـد اكتفـى بـدفء الطيبـة وحرارة المودة وصفاء القلوب من حوله لينسى بها ما كـان يتمناه من انطلاق ومرح كان يصوب إليهما نظراته وهو آخذ في شد رحاله إلى بيروت.. قال لنفسه: إن هـذا الانعطـاف الفجائي الذي أتى به إلى هنا والـذى حـدث دون تخطـيط مقصود هو توجيه إجبارى من الحظ ليرى - إلى أي حـد - أنه مازال هناك أناس في هذا الزمن تحكمهم الفطرة السـوية

وعفوية السلوك؟.. وليرى أن الطيبة الحقيقية لم تفقد مكانهـا في قلوب بعض البشر.. ومنهم هؤلاء القوم..

ولم يستمر تساؤله طويلاً إذ وجد نفسه بين يـوم وليلـة يشرب من كأس آخر.. كأس ليس كمثل كاسـه الأول الـذي أسكره شرابه الطيب الهنئ.. كان كأسه الجديد مليئاً بمـرارة الحنظل وقسوة الإهانة..

فلقد كان موت أحد العمال في حادث عمل قَـدرى هـو السبب في إهانته.. ذلك عندما تلقى كماً من سباب مقذع كاله له أحد الوجهاء الذين توافدوا على موقع العمل – وهم كُثـْر – فاضطر أن يعيد له نفس الإهانة بالسباب.. وما إن باغتـه ذلك الوجيه بصفعة على وجهه حتى ناوله إبـراهيم صـفعة مماثلة شدت صيحات الهلع والاستياء من القوم المتحلقـين.. ولما جاءت الشرطة بسرعة عجيبة وانتزعته مـن موقعـه انتزاعاً في التقاط سريع يشـبه الاختطـاف.. ولمـا أحـيط بالإهانات التى تتبعه أينما ذهب.. ولما كثر ترديد اسم خصمه - على طول مسيرته للتحقيق - مصحوباً بهالة من التعجب لذلك المصرى الذي جرؤ أن يمد يده على هـذا السـيد ثـم يشفقون على المصير الذي وضع نفسه فيه: أحس أنـه قـد

تورط في هذه الخناقة كما لم يتورط من قبل.. وأنه لم يتخـذ مقاييس الكياسة والحنكة ليتعامل بها في بلدٍ هو فيه غريـب ومع أناس لا يعرفهم تمام المعرفة متخليـاً عـن اسـتخدام مقاييسه السابقة في القرية أو في طنطا أو الإسكندرية.. ولـم يكن بحاجة إلى التأكد من أن هذا السيد قريب فعلاً من قلـب القذافي قائد الثورة وربما يكون أحد أقربائه المقربين.. ولـم يكن يعرف أنه أهان سيداً من الأسياد الآخذين فـي ترسـيخ سيادتهم ومكانتهم كملوكٍ جدد أزاحوا ملكـاً سـابقاً.. وبعـد واقعته التى سرت بين القوم والمواطنين سريان النـار فـي الهشيم كانت فرصة سانحة لهذا السيد أن يجرب قوتـه فـي الانتقام وترسيخ مفهوم تقديس مكانته الزاحفة فـوق رءوس البشر فأشار أن يلقوا بهذا المصرى في السجن إلى ما شـاء ا ..

وفي السجن كاد أن يكون معزولاً ليس من قبيل الإمعـان في عقابه قدر ما هو تحاشى التعامل معه من كل المحيطـين خوف أن يساء تقدير ذلك وتصل إلى الخصم المتعالى أسماء المتعاطفين معه.. ولما عرف من صاحب الشـركة – ذلـك المصرى صاحب الشأن – أنه قد سمح له بزيارته بصـعوبة

بالغة أحس إلى أى حدٍ أنه قد وقع في الخطـر وأن سـجون هؤلاء الناس فسيحة الوقت والمكان مثل كرم قلوبهم!! ولمـا رجاه أن يتدخل ليخرجه من هذا المكان لاحت علـى محيـا الرجل ابتسامة إشفاق إذ كيف يوصيه بالتدخل وهو لاهم لـه إلا استجداء الرحمة ليل نهار وجها لوجه مع كبـار القـوم ومنهم القذافي نفسه.. " لو كانت إهانتك له توقفت عند حـد السباب لهان الأمر.. ومن سوء حظك أنـك أصـبحت مـع السادات في قفص واحد.. فأنت أهنت واحـداً مـنهم.. أمـا السادات فقد أهان العروبة كلها لأنه يتقرب من اليهود عـن طريق واحد منهم اسمه كيسنجر.. والقذافي لا هم له في ليل أو نهار سوى السباب في مصر ممثلة في السادات.. ولـيس أمامه سوى مثل قضيتك ليشفى فيها غله.. لا تحـزن علـى نفسك فأنت قد أتيت بجرم تستحق عنه العقاب والسجن.. فما بالك بمن هم خارج السجن من المصريين.. لقـد أصـبحوا يتوارون حول أنفسهم خجلاً لما تكيله السلطة الثائرة هنا من سباب لمصر الآخذة في مداعبة اليهود والجلوس معهم علـى مائدة المفاوضات.."

" مالي أنا وما لليهود والمفاوضات والحرب والسادات؟..
أنا لا أعلم ماذا يفعل هذا السادات؟.. ولا يهمنى أن أعلم مـا يفعله.. ولكنه إذا كان قد وجد الحل فـي أن يـدير ظهـره للأشقاء الطيبين ضماناً لاحتواء الخصوم الخبثاء فأنا أوافقه.. لأنه على الأقل " قد فعل شيئاً ".. ومن يفعل لـيس كمـن لا يفعل.. المهم أن تفعل حتى لو كان هو الفعل الخطأ!!.. ومن قال إن إلقاء حجر – مجرد حجر – في بركة المياه الآسـنة هو فعل خطأ..؟.. فما أكثر الحجارة المهملـة ومـا أبـرح البحيرات العفنة التى تحيطنا.. "

ثم عاد فقال لنفسه: لشد ما كنت حريصاً علـى اجتنـاب السياسة.. وشد ما كنت ساخراً ممن يصفون عدائى للسياسـة بأنه نوع من السياسة.. بل تزداد سخريتى ممن يؤكـدون أن مشوارى في الحياة كان مرهوناً بذلك القارب القـوى الـذي صمد للأمواج العاتية.. قارب الدهاء والقفز علـى الثوابـت وإهمال قوانين القبيلة.. وتلك في نظرهم قمة السياسة.. حتى أن بعضهم أكد لي ومنهم ياسر عوض: أنت لا تحب السياسة شكلاً.. ولكنك تعيشها موضوعاً.. أنت يجب فعلاً ألا تنهـل

من بئرها فأنت البئر نفسه.. أنت الداهية الذي يأتى بالفعل ثم ينام ويظل الخلق في صحو ساهرين على تفسير هذا الفعل..

ثم عاد فالتمس العبرة مما حدث له:

ماذا أفادنى ذلك الحب الذي نلته من تلك القلوب الطيبة.. الجيران.. والباعة.. والناس في الأسواق..؟.. وهل كفـانى هذا الحب دفئاً أبعدنى عن الهوان عندما قدر لي أن أُهان؟.. هل كانت الطيبة مانعاً قوياً لإنقاذي وتخليصى من يـد هـذا السيد الجديد؟.. هل قال له أحدهم: قف.. أنت أهنت الرجل.. وهو قد رد عليك الإهانة.. فأصبحتما متكافئين؟.. لقد تواروا جميعاً ودفنوا رؤوسهم في رمال طيبتهم وهم يحزنون.. مثلما صاحوا جميعاً وعلوا بدهشتهم وهم يعجبون لوافد رد الإهانة وبكفاءة على واحد من ملوكهم الصاعدين.. إذن فلتظل أيهـا الشعب الطيب متورطا في طيبتك.. ولتظل أيضـاً مـأخوذاً بدهشتك.. وفيما بين الطيبة والدهشة ستسجل الأيام أنك مارد خامد..

قال لها: لقد وضع الأسياد رؤوسهم في نفـس رمـال الشعب الساذج وهم يمنحون لي حريتى فلم يمتّعـونى بعفـو صريح بنفس المقدرة التى حرمـونى فيهـا مـن محاكمـة

صريحة.. وكان الحل بالنسبة لهم وحفاظاً على شموخهم أن يسهلوا لي طريق الهروب بإيحاءات ساذجة وعبيطة أن أفعل ذلك دون خوف.. وكأنهم يجهزون لكلمة ستقال في مجالسهم: لقد هرب الجبان..

وعندما كنا نتبادل لهاث الأنفاس – بعـد هربـي - أنـا وصاحب العمل الكريم سألنى عـن مقصـدى فأجبتـه دون تفكير: إنها بيروت.. فأمدنى بباقي رواتبى عن فترة سـجنى وأصلح قدر الإمكان من شأنى المهان ومن وجـاهتى التـى لطخها القهر والحرمان وودعنى إلى وطنى الجديد..

عكفت أياما أطلب رقم تليفون شقتك مـع جـدتك.. بـلا جدوى.. وكنت أنتقل إلى تليفون شقتنا فـي سـتانلى.. بـلا جدوى.. يبدو لي أنك هجرت الشقتين.. وضاعت مفكرتـى التى تحمل التليفونات التى لا أحفظها.. أو التى لم أحـرص على حفظها.. لم أشأ أن أفعلها مع هدى وأفاجئها بمحادثة من العالم الآخر فلقد تركتها في جهلها بمصيرى حتـى تختـار بنفسها السبب الأكيد وهو الموت.. واثقاً من أنها ستتأكد مـن صحة ظنها عندما يصل إلى سمعها الـبلاغ الـذي تركتـه بوفاتى.. ومع حالة الخرس التى أصابت تليفوناتك ومع لهفتى

أن أبدأ خطواتى الأولى بدءاً بمحادثتك وتهنئتك بالتخرج ثـم دعوتك للحاق بي لم أجد مفتاحاً لذلك سوى البحث عن تليفون منزل السفير.. ذلك الرقم الذي استخدمته مرة واحـدة فـي حياتى وطار من ذهنى ومن سجلاتى..

- : ومن وين حصلت رقم الست ماما؟..

- : من شادى..

صرخت فاطمة من شدة الهلع.. مما جعل أمهـا تغـادر فراشها مسرعة لتضع أذنها على باب غرفـة نـوم ابنتهـا لتطمئن إن كانت ابنتها تعانى من كابوس في نومها.. ولكنها بعد دقائق اكتشفت أن ابنتها يقظة وتتحـدث مـع الكـابوس القديم.. الكابوس الذي اختفى وظهر فجأة الليلة.. إبراهيم عبد القادر.. فراحت ترهف السمع لتلتقط كـل كلمـة بحـرص شديد..

- ٤٠ -

لقد فهمت الأم أن شيطان ابنتها مازال غارقاً في غيـه.. ويجوب البلاد طولاً وعرضاً متحرراً من كل قيد وضـارباً عرض الحائط بكل القيم وأنه مثلها – تماماً – عـرف مـن فاطمة ولأول مرة أنه له ثلاثة أبناء.. إبراهيم مـن عنايـات الخادمة.. ويوسف من هدى المستشيخة.. ووليد مـن ابنتهـا فاطمة.. وأنه وهو الجبار الذي ألقى بهم في عرض الطريق من عليه ا بمن عالج جبروته ببلسم الرحمة وجمعهم مـن عرض الطريق.. تلك هي هدى بئر الحنان والمودة..

لم تتعجب الأم من أن ماراحت تفهم بعضه – الآن – من حديث ابنتها مع إبراهيم – كان إبراهيم يفهمه كلـه – ولأول مرة.. ولم تتعجب لأبٍ لم يعلم إلا بعد أكثر من عامين أنـه يملك في الحياة ذخيرة من ثلاثة أبناء ذكور كلهم من صلبه.. وكل واحد منهم من رحم آخر.. لقد تعجبت الأم لكذبة فاطمة التى صدقتها من أنها سلّمت طفلها لجليسة تثق فيهـا.. ثـم تعجبت لأن المكان الذي كانت تصحبها فيه لزيارته لم يكـن سوى منزل هدى ضرتها.. وأن الأطفال الآخرين لم يكونـوا سوى إخوة وليد من إبراهيم ذلك الأب الذي فر من حيـاتهم

قبل أن يصلوا إليها.. لقد كذبت فاطمة أو تجملـت حتـى لا تنزف الأم دماء جديدة من الحسرة أو دموعاً – علـى أقـل تقدير – إزاء خيبة أمل ابنتها فـي ذلـك المصـري الـذي خدعها..

ولكن ما أثلج صدر الأم هو ذلك الإصرار علـى طلـب الطلاق الذي أعلنته ابنتها في محادثتها والذي بدت فيه هادئة عاقلة في أول الأمر ثم ما لبثت أن أظهرت تمسكها لطلبهـا بلهجة يكتنفها التوتر مما أوضح للأم أن إبراهيم على الطرف الآخر يقابل طلبها بالرفض.. وعندما علا صوت ابنتها إلـى حد التشنج مستخدمة بعض العبارات الجارحة فـي تقريعـه تأكدت الأم أن ما تقدم عليه ابنتها الآن من خروج عن حدود اللياقة ليس إلا رد فعل لموقف أشد يواجهها به زوجها.. وما إن أقدمت فاطمة على استخدام أسلوب التهديد معه حتى بـدا واضحاً للأم أن ما يقدمه الزوج الهارب من رأى ليس سوى التهديد أو التمسك بألا يمنحها حريتها مـدى الحيـاة.. وإلا فلماذا هذا الفيض من السباب الذي انخرطت فيه فاطمة دون وعى؟.. ولماذا راحت تسرد عليه كل الأخطاء والخطايا التى تحتفظ بها له ومنها فراره المشين مـن التجنيـد وهروبـه

المخجل من مهمته مع جهاز المخابرات ثم تضـليل العدالـة للهروب من جرائمه بالوقوع في جريمة أشد وهي الإبـلاغ عن وفاته.. ثم أضافت إلى مثالبه جريمته الجديدة وهي التى سمعتها منه الآن: الهروب من السلطات الليبية.. صحيح أنه ذكر سبباً هيناً لدخوله السجن هناك ولكن من أدرانا أن هـذا السبب هو الحقيقة بعينها؟.. ألا يمكن أن تكون هناك جريمة كبرى استدعت احتجازه لمدة عامين قبل هروبه..؟ ألا يمكن أن يكون قد تورط في جريمـة مخلـة بالشـرف أدت إلـى محاكمته ثم عقابه بحكم قاسٍ تمكن بطريقتـه الشـيطانية أن يتخلص منه بالفرار؟..

لا شك أن فاطمة قد وقعت في خطأ جديد مـع إبـراهيم كشفت فيه عن خططها تجاهه بشئ من الصراحة والعفويـة التى تجعله يقرأ نيتها دفعة واحدة ويتخذ الموقـف المضـاد لتحاشي الأضرار التى قد تصيبه مما تنتويه فاطمة.. وهـي هنا تكرر وبنفس السذاجة والتسرع ما فعلته معه في الجولـة الأولى.. عندما هددته بالفضيحة وتأليب هدى وعنايات ضده إن لم يطلقها.. لحظتها أحس أنه على وشك أن يخسـر كـل

شئ.. فأعطى ظهره لكل الأشياء واختفى وكـأن شـيئاً لـم يكن..

ولا شك أنها في هذه الجولة الجديدة من التهديد لم تكـن تملك من تهديدها سوى إعلانه فقط.. فكيف ستطوله للانتقام منه وهو غير موجود أمامها جسماً ورسماً وغير موجود في الحياة رسمياً.. فمن الواضح أنها أطلقت صـيحاتها المهـددة بفعل الغيظ وتفريغ كل ما لديها من كبت وإحساس بخيبة أمل كانا يمزقانها من الداخل..

وهذا ما قالته لها الأم عندما فاجأتها بالدخول لحظة انتهاء المكالمة وبداية نوبة البكاء المتوقعـة.. فقـد ضـمتها إلـى أحضانها وراحت تهدهدها في محاولة لإعادة الهـدوء إلـى أعصابها ثم راحت تسرد عليها رأيها في كل ما سمعته منها من معلومات خطيرة..

سألتها إن كانت واثقة من صحة المكـان الـذي يتحـدث منه.. ومن أي مكان يتحدث؟.. واستمعت الأم مذهولة إلى ما تقوله ابنتها من أن إبراهيم يتحدث من بيروت وأنـه وبعـد أسبوع واحد من وصوله إلى هناك عقد علاقة مع ابن عمها شادى وحصل منه على تليفون الفيلا في القاهرة بعد أن فشل

في تحقيق الاتصال بأرقام تليفونات الإسـكندرية.." التـى لا يعلم أننا تخلينا عنها "..

سال لعاب الأم لهذه المعلومات الخطيرة وأكدت لابنتها أن إبراهيم قد سعى إلى حتفه بقدميه وأن وجوده في بيروت هو فرصتهم للانقضاض عليه وإجباره على شيئين أولهما منحها حريتها الحبيسة بتطليقها.. وثانيها ليتخلى عن حضانة ابنهما وليد لفاطمة مدى الحياة.. ثم راحت تستفسر عما سمعته منها الآن من الزج بوليدها وليد مع باقي إخوته ليصبح واحداً من ثلاثة تقوم واحدة مثل هـدى بتـربيتهم والإشـراف علـى مصالحهم؟.. وكيف لها أن تأمن وتأتمن ضرتها في الحفـاظ على صحة ومستقبل وليدها؟.. صحيح أن ما سمعته من ثناء أسبغته عليها فاطمة في محادثتها الطويلة مع إبراهيم جعلهـا تحس أنها أمام نموذج نادر من النساء الفضليات ولكن هذا لا يكفى لأن يجعلها جديرة بتربية ابنها.. وكـان رأى فاطمـة القاطع أنها كأم محبة لم يكن لها أن تدفع بوليدها إلى يدٍ تحنو عليه إن لم تكن قد وثقت بطهارة وتقوى ونقاء صاحبة هـذه اليد.. وأن أي طفل في الدنيا لو كان يتمتع بأم واحـدة فـإن وليدها قد حباه ا بأمين.. ربما ليعوضه عـن جفـاء الأب

وقسوته.. ثم عادت فأكدت لأمها أنها إن كانت حافظت على جنينها اقتناعاً ورحمة فإن ما ساعدها على هذا الحفاظ هـو ظهور هدى بقلبها المحب ومشروعها النادر الذي سـاعدها على التفرغ للدراسة والحياة.. دون أن يكـون ذلـك علـى حساب سعادة وليدها، ذلك أن هدى قد وضعت قولاً فصـلاً للحفاظ على سعادة الجميع..

وما لبثت فاطمة أن راحت تستدرج الأم لتعـرف منهـا تفاصيل ما تفكر فيه من تدخل لدق عنق إبراهيم.. إلا أن الأم ذات الذكاء النادر تعرف أن فاطمة – رغم مـا أبدتـه فـي محادثتها الأخيرة مع إبراهيم من ثورة واحتجاج – لم تكـره زوجها حتى الآن ولن تكرهه، وكل ما حدث من تحول فـي علاقتها به هو أنها لمحت الحد الفاصل بـين الانـدفاع فـي الحب والتورط في الذل والمهانة.. وأنها استطاعت أن ترسم هذا الخط وتقف عنده وهى ترنو إلى حبها بإعزاز وبلا ندم.. وترنو إلى كرامتها بنفس الإعزاز.. ومن هنا فقـد أحجمـت الأم عن الإفصاح عن خطتها لضرب إبراهيم خوفاً مـن أن تفسدها ابنتها المحبة ولكنها راحت تستمع إلى صوت ابنتهـا الهادئ الناعم -وهي ترجوها أن تؤجل مواجهتها لإبـراهيم

وتعطيها فرصة مفاوضته بنفسها حتى لو استدعى ذلـك أن تسافر إليه في بيروت – ثم راحت تقارنه بصوتها الذي كان منذ قليل زاعقاً ثائراً خارجاً عن حدود اللياقة.. وتعجبت الأم لأن ابنتها تحمل في قلبها صوتين: صـوت المحـب الـذي ينساب هادئاً دافئاً.. وصوت المدافع عن كرامته الذي يخرج ثائراً محطّماً.. وأنها في جلسة واحدة أتيح لها أن ترى ابنتها في الحالين.. وازداد تعجبها لهذه القدرة الفذة والسريعة فـي التحول والفصل بين المشاعر.. وتساءلت إن كان هـذا هـو الطريق إلى الجنون.. أم هو الجنون نفسه..؟

- ٤١ -

لم يكن إبراهيم يعلم أن هناك من اقتفـى أثـره.. وحلـل مواقفه.. وسجل تحركاته.. واستعد لتوظيف كل ما يصل إليه من معلومات في تضييق الخناق حوله لإجباره علـى مـنح فاطمة حريتها بتطليقها طلقة بائنة لا رجعة فيها..

ولم يكن يعلم أنه بات مكشوفاً حتى النخاع لحماته الذكيـة التى باتت تتميز غيظاً وثورة كلما ذُكر اسمه أمامهـا وأنهـا وجدت ضالتها عندما علمت أن شيطان ابنتها قد دخل بنفسه في قفصهم وهم الآن جاهزون لنزاله فـي ملعـبهم وعلـى أرضهم.. في بيروت..

وبما أنه كان قد سمع بنفسه كل عبارات التهديد والسباب التى كالتها له فاطمة.. وعرف أن زميله ياسر عـوض قـد أوضح لها ولحنان وكرم كل جرائمه.. ثم عرف أنه قد ترك وراءه في مصر ثلاثة أبناء ذكور كما تـرك وراءه معهـم عديداً من الحانقين الذين يمكنهم النيل منه إذا أرادوا.. أى أنه ترك خلفه في مصر: أبناء وأعداء..

وكعادته في الحذر والتحوط قرر مغادرة الفنـدق فـوراً منتقلاً إلى فندق آخر مختلقاً مبرراً من الخوف - أبداه أمـام

طاقم الإدارة - من تصاعد التحرش المسلح بين الفصـائل المتحاربة في الشارع اللبنانى وأنه عثر على أصدقائه الـذين كان يحاول العثور عليهم منذ وصوله إلـى بيـروت وأنهـم أجبروه على الإقامة معهم في " صيدا " فمنزلهم هناك يتمتـع بحديقة بها قبو.. وعندما قال له موظف الاسـتقبال – الـذي سرعان ما تصادقا وتحابا في هذه الفتـرة المحـدودة – إن "صيدا " نفسها لن تكون في مـأمن إذا تصـاعدت الحـرب الأهلية.. أجابه باعتزامه أن يقبـل عرضـهم بضـيافته.. " والموت يا سيدى إذا أقبـل فلـن يفاضـل بـين الضـيف والمضيف.. فكلاهما عنده سواء ماداما تحت السقف الواحـد المقصوف "..

وابتعد بشكل مقصود عن كل فنادق شارع " الحمـراء " وكان فيها فندقه الأثير الناعم الذي سرعان مـا سـجل بـه ذكريات محمومة للقاءات شبقة مع عدة فتيـات زرنـه فـي غرفته..

ولم يكن نسيانه للجاكت الانجليزى الفخيم الذي ابتاعه من طرابلس سوى طُعم قد تركه منزوياً فـي دولابـه بالفنـدق وأخفاه فيه لسبب في نفسه..

ولم تكن للنفحة المالية السخية التى وزعها علـى طـاقم العمل عند مغادرته سوى عربون لصداقة بينهم هو يرى من الآن أنها يجب أن تمتد حتى لو غادر فنـدقهم متجهـا إلـى أصدقائه كما فهموا منه..

وبعد ثلاثة أيام كان قد ظل فيها كامناً في فندقـه الجديـد بحى " الأشرفية " عمد إلى تليفونـه طالبـاً فندقـه السـابق مستفسراً عن الجاكت الذي نسيه في غرفته.. وكما توقع فقد راح يسمع من الطاقم من أن هناك ُأناساً جاءوا يسألون عنـه في شكل هجوم مقتحم.. وأن هذا الاقتحام تـم التمهيـد لـه بمحادثة تليفونية طلبه فيهـا شـاب لبنـانى اسـمه شـادى معروف.." وما إن قلنا له إنك قد غادرت الفندق بالأمس إلى مكان لا نعرفه حتى ثارت ثورته وأتى بصحبة مـن بعـض معارفه أو معاونيه واضحى الفتونة وظل مـع الإدارة فـي سؤال وجواب واطلاع على بيانات جواز سفرك وكأنه محقق رسمى من إحدى الجهات الأمنية.. دون أن يلتفت - شـادى هذا - إلى علامات الاحتجاج التى أحطناه بها متسائلين عـن جريمة -" هذا النزيل المصرى الأنيق الذي يطارده رغم ما فيه من طيبة وهدوء ورقى "- ولما لم يجد ما يقوله لنـا

من سبب مقنع لتلك الهجمة المذعورة حتى واجهناه بتأنيـب يناسب صفاقته وحذرناه من تكرار ذلك.."

لقد قص له المدير هذه القصة وقد شمل روايته بمزيد من الاعتذار دون أن يسأله – أدباً وتحضراً - عن سر خلافه مع هؤلاء الشباب ثم أبدى أسفه الشديد مرة أخـرى لأن: " الأخ حلمى الموظف المصري بالسنترال انسحب من لسانه وأفهـم هؤلاء الزوار أنك قد نسيت بعض ملابسك ومن المؤكد أنـه ستعود للسؤال عنها.. " ولذا فهم يلمحون أفراداً منهم علـى فترات متفرقة يراقبون الفندق في حالة من الإصـرار التـى كان يمكنهم بها أن يحولوا الفندق من الداخل إلى ثكنة أمنيـة لولا حالة المواجهة والتأنيـب التـى لاقوهـا مـن الطـاقم فأبعدتهم.."

ولأنه لم يكن قد صارح شادى معروف بمكان إقامته فـي ذلك اللقاء الوحيد الذي حققه معه للحصـول علـى تليفـون أقاربه.. ولأنه كان قد خدعه بقولٍ عن أنه مـدرس لفاطمـة بكليتها وأنها أوصته بعمل التعارف الواجب مع أقاربها الذين أمدته بعنوانهم.. وأنه سوف يعاود زيارته بعد انتهاء المؤتمر العلمى الذى جاء للمشاركة فيه.. فقد تخيل كمية الغل التـى

أصابت شادى الذي حصل – بالتأكيد - على كل المعلومات الحقيقية عن شخصه من فاطمة وأمها وهم يكلفونه بمطاردته والإمساك به..

لقد صفق لنفسه لأنه ابتعد في الوقت المناسب عن موطن اصطياده عندما توقّع الغدر من فاطمة ومن أمها.. ثم نعـى حظه الكئيب لأنه لن يهنأ بالإقامة في " بيـروت ".. عشـقه الجديد إذ لابد أن يغادر " لبنان " كلها مادام لن تطيـب لـه الإقامة في " بيروت ".. وكيف تطيب له الإقامة وهناك مـن يطاردونه بإلحاح وبيدهم حفنة من الأدلة أمدتهم بها فاطمـة لمؤاخذته وتهديده بها إن لم يمتثل لمطالبهم ويشرب راضـياً كئوس الذل من أيديهم؟..

وراح من جديد يخطط للهروب..

وتذكر " قاسم الحارثي ".. صديقه العربي وزميل دراسته وخريج كليته المقيم حالياً في وطنه بمدينة دبـى.. وغمرتـه موجة فرح طاغية عندما طافت أمامه صورة قاسم بوجهـه النحيف وشاربه الكث الذي استدار حول فوديه والتقى بلحيته الصغيرة.. ثم تذكر البريق الذي يصدر من عينيه الكحيلتـين الواسعتين وابتسامته الهادئة الرزينـة.. وصـوته الوقـور

العميق.. لشد ما سيسعد صديقه قاسم بوصوله.. ولشـد مـا ستستعد زوجته " غادة فاضل " أيضـاً بظهـوره.. فهـذان الزوجان الصديقان لن ينسيا أن إبراهيم لعب دوراً بطولياً في إقناع الأستاذ فاضل العدوى بأن الحب الذي جمع بين قاسـم وغادة لن تقف في طريقه حدود الأوطـان.. وأن إمكانيـات قاسم ستجعل غادة قريبة من أهلها كأنها بينهم.. ولن تنسـى غادة أن إبراهيم كان الأكثر حماساً لتتـويج حبهـا وقاسـم بالزواج عندما اقترح عليها أمام قاسم أنه فيما لو ظل والدها أستاذ اللغة العربية الريفي التقليدى متمسكاً بتقليديته متخوفـاً من تزويج ابنته لشاب عربي لأنهم كما يسمع يلهون بالنساء ويحولونهن إلى جواري وسرعان ما يتخلصون منهن بزواج جديد.. قال لها: لو ظل والدك على هـذه الحـال المتخلفـة فسوف أتولى عقد قرانك بنفسي وبعيداً عن أبيك.. ولتسافري مع زوجك رغم أنف الجميع.. كان شهماً وكانت ليالي الهـم تخففها ضحكاته.. وكان احـتلاك الظـلام تبـدده سـاعات المؤانسة التى يقضيها معهم إبراهيم.. حتى أن غيابه عنهمـا إذا طال أخذهما القلق والخوف من أن يخطئا الطريق..

قال له قاسم ذات مرة: أنت دون جـوان يـا إبـراهيم.. تعشقك البنات كما في أفلام فريد وعبد الحليم..

ولم ينس قاسم حتى اليوم القفشة اللذيـذة التـى رد بهـا إبراهيم على ملحوظته:

- : أنا.. وأنا لوحدى باكون عبد الحليم حافظ.. بس لما أكون معاكم: إنت بتكون عبد الحليم وغـادة بتكـون شادية.. وأنا.. عبد السلام النابلسى.. قاعد أحل لكـم مشاكلكم.. وألطّف الجو حواليكم..

***

- : آلو.. إزيك يا غادة..

- : مين..؟..

- : أنا إبراهيم..

- : إبراهيم مين..؟..

- : إبراهيم عبد القادر..

- : يا ا .. معقول.. إنت فين..؟..

- : أنا هنا في بيروت.. فين قاسم..؟..

- : قاسم عنده شغل في مسقط وراجع كمان أسبوع..
- : وبعدين..؟.. دنا كان لازم أكون عندكم بالكتير بعد يومين.. أنا فلوسي خلصت ومفيش معايـا حسـاب الفندق لمدة أسبوع..
- : لا تحمل هم.. في الصباح روح البنـك الإفريقـي اسحب أى مبلغ من حسابنا.. خد معك الجواز.. أنـا حاسجل اسمك قبل ما تروح.. فـاكر زميلنـا أنـور فاضل؟.. حاكلمه يقابلـك فـي البنـك ويستضـيفك الأسبوع ده في بيروت لغاية قاسم ما يرجـع.. إيـه الأخبار عندك في بيروت؟..
- : كلهم نازلين طحن في بعض.. مش بِنّام من صوت المدافع.. الناس دول رغم أدبهم ورقتهم وحوش فـي الحرب..
- : ربنا يستر.. ولسه الموضوع حيطول.. فيه مؤامرة كبيرة.. ارجع بسرعة.. إحنا بننصح أنور يقفل مكتبنا وييجى هنا.. السوق هنا بدأ يفتح ومـش ملاحقـين شغل..
- : شكراً يا غادة.. سلمى على قاسم..

هذه هي الدنيا الحقيقية.. هذا هو الثراء الحقيقي.. هذا هو العز المأمول.. والقدر المطيع.. اذهـب لتسـحب أي مبلـغ بالتليفون.. وسيقابلك مندوب مخصوص بناء على تليفـون.. وسيغمرك في ضيافته أسبوعاً بموجب أمـر بـالتليفون.. لا مشاكل.. لا عقد.. لا تسلط.. لا سيادة.. يبدو أن هـذا هـو المذاق الذي أصبو إليه.. دنيا سهلة مريحة.. هفهافة كثـوب الحرير.. لدنة طيعة كجسم فاطمة.. هادئة راضـية كقلـب هدى.. غبية لا تفكر كعقل عنايات.. أقسى ما في الأوطـان حدودها.. وأقسى ما في الإنسان محدوديته.. قاسم اليوم فـي مسقط.. ومع هذا يمكنه أن يمر على هنا غداً في بيـروت.. كما يمكنه أن ينطلق من بيروت إلـى القـاهرة ليحـل لـي مشكلتي مع فاطمة ثم يعود.. متى يحدث ذلك ببساطة وبـلا تأشيرات وأذون سفر واجتياز صفارات الإنذار في البوابـات بقلوب راجفة.. لقد نسـيت أن أتحـدث مـع غـادة بشـأن التأشيرة.. هي الأخرى لم تحدثني في ذلك.. إذن فلا توجـد مشكلة..

لقد تركت قومي في مصـر يلملمـون جـراح الهزيمـة ويستعدون لوثبة ظننتها حمقاء فجاءت عاقلـة.. وهـا هـم

يداعبون اليهود بالحوار، فلعلـه التمسـح الخبيـث لالتقـاط الأنفاس.. وتركت قومى في ليبيا يقيمون الأفراح لزوال ملك عقيم.. وينصبون الزينات لقدوم ملوك جدد.. ويا ويلهم مـن خواء القلوب والأدمغة.. وسأترك قومى فـي بيـروت تفـر عصافيرهم الآمنة من أعشاشها التـى طالتهـا الأفـاعى.. وسأذهب إلى قومى في دبى وقد جعلوا من خلاء صـحراء بلادهم وعاءاً أُسطورياً لاستقبال الغيث الجديد.. مـا الفـرق بين قومى هؤلاء وأهل قريتى وبيوتهـا؟.. خـالى شـحاته ومنزله العامر باللحم والسمك والفواكه الموسمية المسروقة.. وأبي عبد القادر المنير الذي رنا إلـى لقمـة طريـة تأتيـه مغموسة بالكرامة فعزت عليه.. فرضى بالهم.. ونام.. وعبد الهادي ابن خالتى الهلكان خلـف الحميـر والـذي أهلكتـه الحمير.. اختار بغباءٍ لأخيه كرم تعليماً متدنياً سريعاً وكأنـه يأتى بشهوته مسرعاً عند زوجته لكى ينام.. فلا هـو يحـب الشهوة.. ولا يحب الزوجة.. ولا هو يهنأ بنوم عميق.. حتى كرم نفسه الذي نال قسطاً من التعليم ظل محبوساً في عنـاء أهله إلى أن قمت بتحريره من غبائه بالقفز على طاعة الأهل والتمرد على قانونهم حتى يفتح لنفسه طاقة من النـور فـي

جدار حياته الأصم الكالح.. وما إن فعـل ذلـك واسـتجاب لتحريضى حتى تمتع بشيئين: الأمل.. وحنان..

- ٤٢ -

ما إن شاهده في صالة البنك الإفريقي حتى أسـرع إليـه ليرتميا في أحضان بعضهما البعض.. " يا ا .. أنت أنـور فاضل؟.. تذكرتك.. أنت من دفعة التخرج التى تلى دفعتى.. ادعيت أننى أعرفك عندما قالت لي غادة عن اسمك.. "

استلم – في لحظات – المبلغ الذي طلبه.. وخرج متمشياً برفقة أنور ليتناول الشاي في مكتبه.. ثم زاد انتشاؤه وهـو يصعد الجبل ملبياً دعوة مضيفه لتناول الغداء علـى القمـة الخضراء في " حريصة " والتى منهـا راح يشـاهد مدينـة بيروت مستلقية على رمال الشاطئ مستندة بجـذعها علـى خضرة الجبل المتدرج خلفها لتبـدو أبنيتهـا البيضـاء ذات القرميد الأحمر منثورة كحبات اللؤلؤ..

تناهت إلى سمعه شهقة إعجاب.. من فتاة لبنانية:

- : يا ا .. منظر يخطف القلب..

وراح يتذكر متى طرقت سمعه هذه الكلمـة.. آه.. فـي المنتزه وعند الحدائق الخلابة.. وفي شرفة فندق فلسـطين.. كان أول لقاء أعده لاستمالة فاطمة التى كانت برفقة جدتها..

قالت له الجدة الطيبة: وا انت خطفـت قلبـي.. لحظتهـا همست له فاطمة: وقلبي كمان..

سرح بخاطره بعيداً وهو يرنو إلى أمواج البحر الزرقـاء تتهادى نحو الرمال لتنكسر عندها وقد تحولت إلى كثبان من الزبد الأبيض الذي يركض خاف نفسه على امتداد الشـاطئ هامساً بلحنٍ كوشوشة العصافير.. ما أتعسنى وأنا العاشق يا " بيروت " أن أفر من بين يديك الحانيتين.. لـم نكـد نُكمـل طقوس التعارف حتى حرمـونى أن أنـال منـك واجبـات الضيافة.. وها هو بوم الخراب يتهيأ للتحليق فـوق بيوتـك العامرة عندما يحولها التناحر إلى أوكار لهذا البـوم الكـامن المتنمر لعشه الجديد..

عادا بعد هذه الرحلة الهنيئة إلى المكتب.. ليجد أن أنـور قد أعد له عرضين.. أولهما وهو قصير المدى: أن يسـتخدم تلك الشقة – وناوله مفتاحها – خلال إقامته القصـيرة فـي بيروت إلى أن يسافر إلى قاسم في دبي.. ثانيهما وهو طويل المدى أن يظل في بيروت للعمل معه فـي مكتبـه.. ".. ولا تلتفت إلى المخاوف التى يطلقونهـا عـن امتـداد الحـرب

الأهلية.. وحتى لو حدث ذلك فاللبنانيون لن تفـارقهم ذائقـة الخلاق والابتكار والتجديد حتى وسط لهيب المعارك.. "

شكره من كل قلبه وطلب منه خدمة واحدة..

- : جهز لي لفة رسومات هندسية مـن الأوراق اللـي مالهاش لزوم عندك.. لفة تكـون شـكلها محتـرم.. وخللى الخطاط يكتب عليها بخط جميل: إلـى سـمو الشيخ راشد آل مكتوم.. حاكم دبى.. ولـو حطيـت البادج اللي عليه اسم مكتبك يبقى أحسن "

كان أنور يعرف قدراً كبيراً من الحكايات التـى تحمـل مغامرات وشقاوة ضيفه إبراهيم عبد القادر فنظر إليه متسائلاً وهو يحس أن إبراهيم يبدع الآن حكاية جديدة فراح يسأله:

- : أى رسومات؟..

- : أى رسومات قديمة.. عاوز لفة نضيفة حتـى لـو ورق فاضي..

صمت قليلاً ثم سأله بأدب:

- : أقدر أعرف ليه؟..

- : علشان حسافر في أول طيارة لدبي.. حاطلع مـن هنا للمطار على طول..

- : معقول؟.. إنت قدامك أسبوع.. وقاسم مش هنـاك عشان يقابلك..

- : هو أي حد يروح دبى لازم يعرف واحـد اسـمه قاسم؟.. أنا حانزل دلوقت حالاً دبى.. أنا كده كفايـة على في بيروت.. بس خللى الموظفين يجهزوا لـي اللفّة دي.. لو سمحت..

ابتسم أنور بفضول وهو يسأله مرة أخرى:

- : وانت محتاج الرسومات الوهمية دي.. ليه؟..

فأجابه بشئ يشبه الجدية والالتزام:

- : دي حتكون تأشيرة الدخول اللي حادخـل بيها دبي..

لم يملك أنور نفسه من الضحك بصوت عالٍ دون أن يجد أي ميل من إبراهيم لمشاركته الضحك بل وجـده مشـغولاً بقرص التليفون يدير أرقامه في اهتمام ويتحدث:

- : آلو.. فندق نابولى.. مين معايا.. أهلاً يا بو على.. أنا إبراهيم.. الحمد .. أكيد.. أنا عارف وا .. من غير ما تقول.. يومياً؟.. كـام واحـد؟.. أربعـة؟.. وشادى معاهم؟.. يعنى سـاعات بتشـوفوه.. لا.. دا

موضوع كبير.. بيفتشوا عنى في الأشـرفية؟.. آه.. الحى اللي عرفوا إنى ساكن فيه؟.. يدوروا براحتهم.. عموماً أنا باكلمك عشان حـاجتين.. أول حاجـة إن الجاكت اللي نسيته ده اعتبره هدية منى ليـك.. لا.. لا.. العفو.. دى حاجة مش قـد المقـام.. العفـو.. العفو.. تانى حاجة لما تشوف شـادى وهـو واخـد النوباتجية بتاعته في المراقبة تبلّغه إن أنا كلمتكم في التليفون وجاى استلم الجاكت بعد يومين.. طبعاً هـو مايعرفش إن أنا متابع الحركات اللى بيعملوها.. سيبه على عماه لغاية مـا يقـابلنى.. وحتشـوف بنفسـك الموضوع.. بس انت بلّغه الرسالة دي.. شكراً.. يـا بو على.. سلّم على الشباب..

ووضع السماعة في هدوء وراح يحملق في أنـور الـذى كان يحاول أن يضع تفسيراً لكل هذه الألغاز التى سمعها تواً من إبراهيم والتى لم يفهم منها شيئاً معيناً ولكنه أحـس مـن مجمل ما سمعه أن إبراهيم يواجـه بعـض المتاعـب مـع مجموعة من الأشخاص الذين يراقبون وصوله إلـى فنـدق نابولى.. وأن منهم واحداً اسمه شـادى.. ومـن المؤكـد أن

شادى هذا لبنانى كما يشير اسـمه.. إذن فالأربعـة الـذين يساعدونه هم أيضاً لبنانيون.. ومن الواضح أيضاً أن إبراهيم يخدعهم جميعاً بما فيهم مدير الفندق.. فهو إن كان قد عقـد العزم على أن يطير اليوم إلى دبي.. فكيف يحـدد لمراقبيـه ميعاداً لمقابلته في الفندق بعد يومين؟..

لم يشأ أنور أن يضرب كفّاً بكـف علامـة الاستسـلام والحيرة والذهول أمام تلك الألغاز التى لم يفهمها.. وأمام هذا الضيف الذي لم يمض على وجوده في بيروت سوى أقل من أسبوعين استطاع فيهما الانخراط في علاقات أثمـرت عـن خصومات وعن مشاكل يبدو مـن عمقهـا قيـام خصـومه بمطاردته والتربص به تربصاً مستمراً عقـد علـى شـكل نوبتجيات لضمان الإمساك به..

" ما هذا؟.."

هكذا تساءل أنور فاضل..

" من منهما يسعى إلى الآخر.. هل هو الذي يسعى إلـى المغامرات أم أن المغامرات هي التى تسعى إليه؟ ".. هكـذا راح يتحدث أنور فاضل مع نفسه.. وكان الطاقم بالمكتب قد

جهزوا له لفافة ثرية الشكل مزينة بالعبارات التـى طلبهـا.. أخذها أنور منهم وسلمها إلي إبراهيم وهو يهمس له مبتسماً:

- : إبراهيم.. أدفع عمرى لو قلت لك إن أنـا فهمـت حاجة!!

فرد عليه إبراهيم على الفور وهو يبادله الابتسام..

- : مش مهم.. بس تعالى وصلنى المطار..

***

- ٤٣ -

دفع بجواز سفره الخالى من تأشيرة الدخول إلى الضـابط الانجليزى الجالس على الكاونتر في مطـار دبـي.. أعـاد الضابط تقليب صفحات الجواز مرتين بحثاً عن التأشيرة ثـم رفع إليه وجهاً محتقناً بالغيظ وراح يحدثه بكلمات سـريعة.. فأغرق إبراهيم نفسه في بئر البلاهة والعبط وراح يشير إلى لفافة الخرائط التى في يده ويردد:

- : آى آم جو تو شيك راشد.. ماكتوم.. برنس راشد.. ماكتوم.. كويكلى.. كويكلى.. بليس.. بليس..

لم يفهم الانجليزى شيئاً محدداً ولكنه أحس ببعض أهميـة الرسالة التى يحملها هذا الشاب إلى الحـاكم.. فأشـار إلـى مساعديه من الموظفين الوطنيين وطلب من أحدهم أن يفهـم ما يقوله هذا الشاب ويعيده عليه.. هذا ما فهمه إبراهيم مـن حديث الانجليزى إلى مساعده.. وكان هذا ما يريده إبـراهيم لأنه تمكن من إقناع الموظف الخليجى بأنه اضـطر للحـاق بأول طائرة أقلعت من بيروت إلى هنا ناسياً أنـه لا يحمـل تأشيرة سفر من فرط عجلته والتزامه بتسليم هذه الرسـومات الهندسية الهامة إلى قصر الشيخ راشد.. وهو قد جهز نفسـه

للعودة بعد يومين.. ثم عمد فأخرج تذكرة الطائرة التى تحمل بطاقة وتاريخاً للعودة بعد يومين.. ثم اقترح على الموظـف الوطنى الاحتفاظ بالجواز والتذكرة لديهم.. فهو حتما سـيعود بعد انهاء مهمته التى لو لم يتممها لنال غضب الشيخ راشـد هو ومكتبه الاستشاري في بيروت..

كان حديثه مقنعاً وهادئاً ولكنه كان مرهوناً بنظرة فضول يلقيها هذا الانجليزى - أو الوطنى الذي معه - على هـذه الرسومات الهامة التى يحملها.. وبما أنهم لم يفعلوا ذلك فقـد بات مرهوناً بنتيجة هذا الحديث الجانبى الذي يدور بين كـل الطاقم المكون من الانجليزى ومسـاعده الـوطنى وبعـض الضباط الوطنيين الذين انضموا إليهما مكونين حلقـة بحـث وتفاهم لهذه الحالة العاجلة والفريدة في الـدخول.. وعنـدما شاهدهم يهزون رءوسهم علامة أنه – لا مانع – وهم قادمون إليه صفق لنفسه.. لا لأنه نجح في اجتياز بوابة دبـي بـلا تأشيرة.. ولكن لأنه نجح في الابتعاد عن سفارة الإمارات في بيروت للحصول على هذه التأشيرة.. فقد كـان واثقـاً بـأن التجمع الذي كان يراقبه على باب فندق نابولى يوجد تجمـع آخر مثله على باب سفارة الإمارات للإمساك به هناك عنـد

دخوله إلى هذه السفارة.. (فقد أكدت فاطمة لأمها أن إبراهيم حتماً سيفكر في الاحتماء بصديقه قاسم في الإمارات وسيطير إليه.. هكذا سمعت منه ذات مرة أن إعزازه لقاسم وحبه لـه ترسخ لديه حتى جعله إحدى ذخائره في المستقبل إذا راق له خوض العمل في بلاد البترول..)

إبراهيم لم يسمع بأذنه ما قالته فاطمة لأمها.. ولكنه سمعها بمشاعره الخبيثة.. وحذره الثعلبي وتحوطه العتيـد وذائقتـه التآمرية التى لم يكتسبها وينميها فقط بتجاربه ولكـن لأنهـا ولدت معه..

وفي فندقه المتواضع بدبي النامية عمد إلى التليفون متحدثاً مع فندق نابولى ومع مديره حسن الباشا..

- : أهلا يا بو على.. انت أعطيـت الميعـاد لشـادى معروف؟.. كويس.. طيب ممكن تعطينـى تليفونـه عشان أكلمه بنفسي.. أيـوه معايـا ورقـة وقلـم.. اتفضل.. هيه.. هيه.. هيه.. شكراً يا بو على.. باتكلم منين؟.. حاقولك بعدين.. لا وا   مانا خايف.. معقول أخاف منك؟..

وأسرع مهتاجاً إلى محادثة شادى.. فهو بهـذه المحادثـة يضرب أكثر من عصفور بحجر واحد.. إذ إنه في الواقع لن يكون متحدثاً مع شادى بقدر ما سيكون متحدثاً مـع فاطمـة وأمها.. والوسيلة هي: شادى الذي سيبلغهما كل شئ..

لقد وجد شادى نفسه طرفاً في محادثة مباشرة مع غريمه المصري الذي هبط بيروت بمظلـة مملـوءة بالإزعـاج.. وطرح شادى سؤالاً سريعاً وهاماً يريد أن يعرف به من أين يتحدث إبراهيم.. صارحه إبراهيم بمكانـه ولكنـه قبـل أن يصارحه بذلك طلب منه أن يرسل من يجمع رجاله من أمام فندق نابولي ومن أمام سفارة الإمارات.. وسأله شادى عـن: من منهما يراقب الآخر؟.. وكيف عـرف أن رجالـه هنـا وهناك.. فطمأنه إبراهيم عن أنه لا يجمـع الرجـال مثلـه لمراقبته وتحديد خطواته ولكنه يجمع أفكاره ويراقبه بعقله.. وقد علق شادى على ذلك بكلمة كانت هي مفتاح الحوار..

- : شو خيو.. وا الحكْى اللي حكيته عنْك أم فاطمـة صحيح.. ما كنت مصدقها إنك بها الخطورة.. قلـت لها أنه لما جيتنى كان قدامى واحد جنتلمـان يشـبه نجوم السينما أقول لها يا مدام هادا ما يمكـن يكـون

لص.. اقنعتنى بشئ واحد.. طلبت منى أسألك كيـف وصلت لعنوانى وهما ما أعطـوك العنـوان.. بـا صحيح كيف وصلت لعنوانى؟.. وتخـدعنى وتـألف رواية إنك أستاذ فاطمة وعندك مؤتمر علمـى.. يـا أخى مادمت هربان بالسرقة حقـك.. إيـش تبغـى منهم؟..

تركه إبراهيم يأتى بكل ما عنده ليفهم الصورة الإجراميـة التى صورته بها حماته الجريحة.. وليكتشف أنه لـم يكـن الوحيد الذي أكل عقل شادى المسكين بكذبة عبيطة قبـل أن تدهس عقله الحماة بكذبة سـوداء.. لقـد وارت عنـه كـل المعلومات الحقيقية.. وأتت بقصة بوليسية شحذت فيها همـة حبيب فاطمة القديم لتقوية إرادته فـي الإمسـاك بغريمهـا إبراهيم.. " وأول ما تحجزه في الشرطة كلمنى أكون عنـدك في نفس اليوم أكيد المجوهرات لسه ما اتصرف فيها "..

حاول إبراهيم أن يتخيل نوع المشاركة التى أسهمت بهـا فاطمة في هذه الخطة العبيطة فلم يجـد صـدى لأفكارهـا المعتدلة ففهم أن كل هذه الخطة من تصميم حماته التى خانها ذكاؤها.. صحيح أنه كان من الممكن أن تنجح خطتها فيما لو

كان هو من النوع قليل الحيلة الذي سينتظر مفاجأة القـبض عليه وإيداعه السجن حتى تأتى صـاحبة المجـوهرات مـن مصر.. وما لم تفكر فيه هذه السيدة هو إمكانية فشل خطتهـا لو تنبأ بها غريمها وهو حر طليق.. وهذا ما حدث...

عرف أنها أعفت نفسها وأعفت شادى من حديث طويـل عن علاقتها الحقيقية هى وابنتها.. بإبراهيم.. خوفاً مـن أن تنال سخطاً مضموناً من الحبيب القديم ولـن تضـمنه فـي صفها.. أما إذا أدى دوره في الإمساك باللص المزعوم ويقوم بتسليمه لها وكله فخر ورجولة فما أسهل أن تحكـى لـه أو لغيره بعد ذلك القصة الحقيقية التى سيفاجأ أنها مختلفة تماماً عما روته له.. وبما أنه ليس من المهم أن يفاجـأ أو يعلـق فسوف يكون من المهم أن يشاركها في إجبار هـذا الشـاب الوسيم على تطليق فاطمة وإنهاء هذه الاجراءات في بيروت وتوثيقها في السفارة.. ومن المؤكد أنه سيشارك في ذلك بهمة جديدة فربما يضمن قلب زوجة عمه العاصية عن تمكينه من قلب ابنتها..

وبهدوء شديد وبصوت ملئ بشـجن الـزوج المطعـون والحبيب المصدوم راح إبراهيم يروى لشادى قصـته.. ولأن

شادى كان لا يمكن أن يقتنع بكل ما يرويه إبراهيم فقـد راح يسمع منه باستخفاف واثقاً أن هذه رواية جديدة يقـوم ذلـك المخادع بارتجالها على الطرف الآخر من التليفـون ولأنـه يحمل مفاجأة لنسف كل قصته المخترعة تواً فقد أمهله حتـى ينتهى من سردها ثم سأله:

- : تبغى تقول إنك برئ.. وإنك مش لـص؟.. مـش مكسوف؟.. وجالس تألف رواية جديدة؟..

خاب ظن إبراهيم في تلك العقلية التى يخاطبها.. فكيـف يظل هذا المتخلف متمسكاً برواية حماته ولا ينجذب بأى قدر إلى الرواية الحقيقية التى أهمل فيها إبراهيم الدفاع عن نفسه في موضوع السرقة.. وكان إهماله لذلك من قبيـل تحقيـر التهمة وعدم الاهتمام بها:

- : بقى يا حيوان بقالي نص سـاعة باحكيلـك بكـل صراحة وانت متمسك بأنى لص؟..

فوجئ شادى بوجه آخر وشخص آخـر ولهجـة أخـرى ووصف جديد لشخصه بأنه حيوان.. تلجلج لحظات ابتلع فيها الصدمة قبل أن يقول له صائحاً:

- : ما أنا بحيوان يا لص.. يا مصري يا كلب.. مـين سرق مفاتيح شقة كرم ابن خالته من الجاكـت فـي الكلية ودخل نهب الشقة.. أنا والا إنت يا حرامى..؟

في لحظات فهم إبراهيم أن حماته استخدمت حكاية بريئة روتها لها فاطمة بعد أن سمعتها من كرم وحنان.. وأنها لوت عنق الحكاية وقامت بحشرها في بنود خطتها كحالة إثبـات لاتهاماتها الموجهة لإبراهيم عن أنه لص محترف..

كان إبراهيم قد تعمد وهو يحكى لشادى عن قصة زواجه من ابنة عمه فاطمة عدم التطرق إلى الحديث عـن العلاقـة التى كانت بين فاطمة وشادى والتى قام شادى فيهـا بسـلبها عذريتها في لهو المراهقة.. لقد كان يعرف التفاصيل وأماكن اللقاءات الغرامية التى كانت تحدث من خلف ظهر الأهـل.. ومثل هذه التفاصيل تكون عادة ملك لفاعليها وقليل ما يطلـع عليها شخص ثالث.. إلا أن توجه فاطمة المذنبة إلى غسـل ماضيها أمام الرجل الذي أبدى استعداده لقبول هذا الماضـي جعل الاعتراف الباكى من فاطمة مقدمة للصفح المطلـوب.. ومن هنا فقد كان نبل الاعتراف بالتفاصيل منها له من الوزن الإيجابي ما يصل إلى نبل المغفرة..

لقد أغفل إبراهيم اللجوء إلى هذه التفاصيل رغم أهمية ما كان يقوم به من نسف اتهامات حماته تأدباً ونبلاً وترفعاً عن الخوض في شرف فتاة هى في واقع الحال زوجته التى يحبها إلى درجة التمسك بها مهما كلفه ذلك..

سأله إبراهيم: مكتبك فيه جهاز تلكس..؟..

أجاب شادى بعصبية: موجود.. ليش بتسأل..؟

قرر إبراهيم توثيق حديثه الذي لم ينجح به في الدخول بشادى إلى بوابة الاقتناع والتصديق..

- : اعطينى رقمه.. بعد ساعة حيكون عندك ثلاث ورقات.. ورقة بصورة عقد الزواج.. وتأشيرة دخولى من حدود ليبيا منذ أكثر من سنتين.. وورقة بدخولى إلى لبنان من أقل من شهر.. يا أستاذ أنا بعيد عن مصر من ثلاثين شهر.. طليقة عمك ساكتة ليه عن مجوهراتها المدة دي؟.. وموضوع شقة كرم: الوحيد اللي يحكى لك عنها هو كرم نفسه.. حاعطيك تليفونه تتأكد بنفسك.. وللأسف أنا مضطر أقول لك فيه حاجة أكتر من الوثائق.. فيه حقيقة بتقول إنك أنت اللص الفعلى.. لما سرقت شرف بنت عمك..

واسـتغليت ضـياعها مـا بـين أمهـا وأبوهـا المتطلقين..وبما إنى جوزها فأنا الوحيد اللي عـرف هذه المصيبة وسترت شـرف الإنسـانة اللـي أنـا حبيتها.. الواقع إنك بتشاور علي بتهمة صغيرة إنـى لص مجوهرات.. بس أنا دلوقت باشاور عليك بتهمة أكيدة أنك سرقت حاجات أكثر مـن المجـوهرات.. سرقت شرف بنت عمك.. لو سمحت.. خد تليفـون كرم.. وادينى رقم التلكس.. ودى آخر مكالمة بينـى وبينك.. والمطلوب منك سيان اقتنعت أو لـم تقتنـع بصحة كلامى تبلغ فاطمة وأمها إنى لو رحت آخـر الدنيا.. ووصلت لآخر العمر مش ممكـن أطلقهـا.. عشان إبنى.. وإبنها.. يفضل معانا.. ولو مفيش بينـا ولد اسمه وليد برضه مش ممكن حاطلقها..

تبادلا التليفونات والتلكس وكل منهما يحمل صوتاً مليئـاً باللهاث.. إبراهيم بفعل الانفعال.. وشادى بفعل المفاجأة التى راحت تزيح أكاذيب طليقة عمه ليحل محلها حديث يقتـرب من اليقين أدلى به غريمها.. وعمد إبراهيم إلى إنهاء المكالمة مؤكداً لشادى المذهول أنه لن يعيد طلبه لتحقيق حديث آخر..

فهذا آخر حديث بينهما.. وليفهم ذلك.. وليفهمـه لأقاربـه.. فلتتفرغ فاطمة لنيل شهادتها هذا العام.. ولتراع وليدها وليد.. " حتى أعود إليها "..

فمتى العودة؟.. وكيف العودة؟.. هذا ما لا يعرفه.. كل ما يعرفه أنه طائر يهيم في الفضاء.. طائر لا يحمل هم العـودة لأيٍ من أعشاشه الثلاثة.. حتى لو اجتمعوا في عش واحد.. فالأعشاش ما هي إلا زنازين.. وذؤابات الشجر ليست هـي القمم الشماء لمثله كطائر.. فهو طائر مختلف لا يغريـه أن يغادر الفضاء حتى لو دلوه على أرض يقولون عنهـا إنهـا الجنة.. فجنته ليست على الأرض.. جنته في مكـان مـا لا يعرفه لعلها في دهاليز الفضاء أو لعلها في رحابة العقل الذي لا يهدأ.. ولن يهدأ..

- ٤٤ -

راحت أجهزة التليفون ترن فيما بينـى وبـين وفاطمـة معروف.. وفيما بين زوجتى حنان وفاطمة.. ثم حنـان وأم فاطمة.. " لقد تحدث إلينا قريبكم شـادى.. كيـف تتهمـون إبراهيم أنه سرق شقتنا.. لماذا تزجون بأسمائنا في اتهـام لا يليق به أو بنا.. أين إبراهيم؟.. ألا تعرفون أن آخر محطاته هي الخليج؟.. إبراهيم الذي لا يرحم نفسه من المؤكد أنه لن يرحمنا ولن يرحمكم.. لقد أسأتم إلينا يا فاطمـة.. قبـل أن تسيئوا إليه "..

وفي الجانب الآخر انتقل الحوار إلى الصـالون الفخـيم لسيدة الأعمال اللبنانية التى راحت تتأمل ما سمعته من لـوم لها أبداه كرم في أدب وأعلنته حنان في استغراب ثم صرخت به فاطمة في عصبية.. ثم راحت تتأمل ما هو أهم.. كيـف أفلت منها هذا الشيطان وهو على هذا البعد؟.. كيف نجح إلى هذا الحد في قراءة أفكارها وكيف فهم خطتها وكأنـه كـان يسمعها من الغرفة المجاورة؟.. ثم راحت بعد ذلـك تتأمـل صياح شادى وشماتته في الحال الذي وصلت إليه مع الشاب الذي اختارته – بديلا عنه – زوجاً لابنتها.. لقد أكد لها أنها

صاهرت الشيطان وأنها وقعت في شر أعمالها وأنها اختارت السجن الطويل لفاطمة مقابل الحرية البلهاء لزوجها الرحالة..

وكان شادى من الحماقة بالقدر الذي لم يخجل فيه من دفع الدماء خجلاً إلى وجه فاطمة عبر التليفون وهو يؤكد لها أنها ما تزوجت رجلاً شهماً قدر ما تزوجت قواداً تحملت كرامته المفقودة أن يحمل على كتفيه فتاة ذات شرف ملـوث يسـيل عار شرفها على رأسه دون أن تهتز رجولته..

قالت له في عصبية دون أن تتذكر أن أمها بجانبها..

- : إبراهيم ما هو بقواد يا سافل.. إبراهيم كان إنسـان اتحمل غلطتك الحقيرة لما سرقت شرفي.. وين كنت أروح بعاري معك يا جبان؟..

فغرت الأم فاها دهشة ومادت بها الأرض واهتزت بهـا المرئيات.. هل هذا صحيح؟.. هل ما سمعته من ابنتهـا الآن كان سراً طوال هذه السنوات وضعته في قلبها.. واحتفظ بـه إبراهيم دون أن يستخدمه خنجراً في ظهر ابنتها يبرزه لهـا كلما راق له استعبادها؟.. إنه – وتلك هي الغرابـة – يقـف على الضفة الأخرى.. يقف على شـاطئ العشـاق.. يبـدى تمسكاً مبالغاً فيه بفاطمة رغم كل شئ.. وهذا ما قاله شادى..

وسبق أن قاله لفاطمة بل وهذا سـر ضـياعه الاختيـاري وهروبه الأرعن..

- : فاطمة.. إنتِ كِتير كِتير أسأتى لأمك قبل ما تسـيئ لنفسك.. عمرى ما كنت حافكر أنتقم من الشـاب ده وأنا عارفة إنـه حـافظ علـى شـرف بنتـى.. ا يسامحك.. آديكى سامعة ابن عمك اللي مـن لحمـك اتهمه بأنه قواد.. إحنا كتير ظلمنا إبراهيم.. بـاتمنى اعتذر له قبل ما موت.. يقصف ربـي عمـرى إن فكرت تانى أأذيه.. بس دلوقت أتأكـدت إن شـادى ملعون مثل كل عيلته ومـنهم بيكـى.. لا تآخـذينى بنتى.. وكان لي حق أنقذك منه.. لكن إنـت طايشـة سلمتى نفسك لجبان في الوقت اللي كنت أحميكى فيه من هالجبان..

انطوت فاطمة على نفسها وهي تشعر بالخزى لما انطوى عليه موقفها من سلبية حتى أن أقل ما يمكن وصفها به هـو التنكر والنذالة.. هذا ما تسمعه من أمها التى تحول موقفهـا من النقيض إلى النقيض لمجرد علمها بما فعله إبراهيم مـن

احتواء نادر لعار ابنتها.. وهو ما سمعته قبل ذلك من جدتها التى صاحت في إبراهيم ذات مرة ألا يطلقها..

راحت فاطمة تعيد تقليب الأمر بين يديها فإذا كان إبراهيم قد أعلن أمامها قبل أن يغادر الوطن أنه قد رسـم مسـتقبله وأيامه القادمة في لوحة رومانسية اكتفى فيها بوجودها – هي فقط – بجواره في هذه اللوحة.. وها هو الآن وبعد أن غادر الوطن في رحلة اغتراب بلهاء مازال متمسكاً بمطلبه.. فهذا ما بعثه إليها في شكل رسالة لها ولأمهـا وضـعها شـادى أمامهما بكل غيظ وحماقة.. فإذا كان هذا هو موقفه الذي ينم عن حب مطلق.. كانت تتمنى ذات يوم أن تضع يديها علـى مدى حقيقته.. فلماذا تصر الآن على رفض هـذا الحـب؟.. ولماذا تجعله يعانى من هذا الرفض..؟..

ارتعش بدنها وهي تتخيله في غربته الاختيارية نهباً للقلق والتوتر والحزن بسببها فتمنت لو أتيح لها أن تطير إليه طيراً لتطلعه على ما يعتمل في صدرها الآن من مشاعر غريبـة راحت تلح عليها في خضم هذه الأحداث المزعجـة.. تلـك الأحداث التى كانت بمثابة النصف الفارغ في كوب ممتلـئ

حتى وقت قريب والآن أصبحت هي النصف الممتلـئ فـي نفس الكوب..

ولكن من أين تأتى به؟.. وكيف لها أن تتحدث معه؟.. لقد قال شادى إن إبراهيم أفلت منه في بيروت بعد أن طار إلـى الخليج.. ومعنى هذا أن إبراهيم الآن يتمتع بالأمل الذي تمناه ذات يوم وهو أن يعمل على مقربة من صديقه الخليجى قاسم الحارثى وزوجته المصرية غادة فاضل.. لكم تمنت فاطمـة أن تكون قد تعرفت على قاسم الحارثي وغادة اللذين غـادرا مصر إلى بيتهما في الخليج قبل أن تلتحق هي بكلية الهندسة في المدينة التى شهدت وشاهدت حبهما ومغامرات إبـراهيم من أجلهما.. لكم قص لها إبراهيم عن تلك المغامرات وكيف كان شاهداً خاط همومهما مع همه حتى صاروا أصحاب هم واحد.. حتى أنها إذا اختفت من كليتها واختفى قاسم من كليته وشقته فقد كان من السهل على إبراهيم أن يعرف أين همـا الآن.. إنهما بين الخُضرة والناس.. يتناجيـان.. ولـم يكـن يحتار كثيراً في أن ينطلق إليهما عند حديقـة الشـلالات أو حديقة أنطونيادس أو حديقة المنتزه.. ولكـم كانـا يتعجبـان عندما يجدانه أمامهما بابتسامته الجميلة وقوامـه الممشـوق

ووسامته المبهجة.. ويزداد تعجبهما عندما يحتار هو نفسـه في كيفية إصابته للهدف وهو يحدد مساره نحوهمـا دون أى معطيات تساعده على ذلك سوى إحساسه.. بل وكما يقول: " إحساسه الأكيد "..

ذات مرة تعمد أن يقترب منهما ببطء صامت ومن خلـف ظهرهما ليسمع عن أي شئ يتحدثان وهاله أن يجـد غـادة تنخرط في بكاء مرير على الأريكة الرخاميـة فـي حديقـة المنتزه.. وهاله أن يجد قاسماً يشاركها الدموع بـين وقـت وآخر مؤكداً من خلال دموعه أنه لن يتخلى عنها حتى لـو اضطرته الحاجة إلى سفح هذه الدموع أمام والدها المرتجف المتعنت..

تراجع إبراهيم دون أن يكمل لقاءه بهما.. ولم يعرف قاسم ولم تعرف غادة أن هذه الحادثة كانت علامة فارقة في موقف إبراهيم الذي أقسم لهما أنه لم يكن يعرف أن الحـب بهـذه القسوة الجميلة وهذا الجمال القاسى حتى شاهده في عيونهما ومن بين دموعهما.. لقد أقسم بعدها أن يذيب الصخر الجاثم على قلب والد غادة مهما كلفه ذلك من جهد.. وظل محتفظـاً

بهذه القصة حتى أتيح له أن يقصها عليهما مختاراً الوقت المناسب لذلك بعد أن لان قلب الأب وزغردت الأم..

قالت فاطمة لنفسها: غادة فاضل جربت لوعة الحب.. فليكن هذا المرض الجميل هو مفتاحي للدخول عليها وإشراكها في أن تساعدنى للعثور على حبى الضائع.. والعثور على إبراهيم حتى يعرف أننى ثُبت إلى رشدى.. وأنه ليس من السلوك المتحضر أن أدمر حبى لرجلى بحجة أنه تشاركنى فيه امرأتان.. لا.. بل امرأة واحدة.. لا بل امرأة حالية وامرأة سابقة.. لا.. بل خادمة سابقة.. وسيدة أخرى حالية.. لا يهم.. يشاركنى فيه من يشاركنى.. ألا يمكننى وأنا التى أنتمى إلى وطنٍ متحضر ويؤمن بالحرية – أن أتخذ هدى نموذجاً لهذه الحضارة وتلك الحرية النبيلة؟.. لقد كانت هدى تعمل تحت أقدامى كالخادمة حباً في إبراهيم الذي تعرف أنه قد أحبنى.. لقد كانت تنسى آلام حملها وتهرع إلى غرفتى في شقة حنان وكرم للاطمئنان على.. هل هذه بنت البلد المصرية التى أسمع عنها؟.. لو كانت هي كذلك فما كان لي أن أستمد حكمتى إلا منها.. إنها تحافظ علىكل شئ جميل.. وتحترم الثوابت.. وتعشق العشق..

وتعطى كل ذي حق حقه.. بل إنها تفتعل الحقوق لتؤديها إلى أصحابها.. فمن قال إن لفاطمة ووليدها حقاً في أموال هـدى لمجرد أن إبراهيم موظفها في العلن وزوجها في السر كـان يدير لها مكتب الإسكندرية وأنه حقق للمكتب مكاسب جمـة يحق له أن يحصل على نصفها.. وبالتالي فازوجتيه الأخريين ووليديه منهما نصيب في هذا المكسب؟.. أليس هذا اختراعـاً نبيلاً وجميلاً مهدت به طريقا أكثر نبلاً وأكثر جمالاً لاحتواء امرأتى زوجها وأولادهما؟.. فإذا كانت هذه السيدة التـى لا تملك إلا ثقافة الحياة قد صالحت نفسها وصالحت من حولهـا واستخدمت عاطفتها الجياشة استخداماً إنسـانياً نـادراً.. إذا كانت قد فعلت كل ذلك فلماذا أتشـبث أنـا بتلـك الأنانيـة الممقوتة.. والغرور التافه.. ولا أتخـذ مـن هـدى مـثلاً يحتذى..؟..

بحثت فاطمة عن الزميل الذي أكدتُ لها أنه يعرف رقـم تليفون قاسم وغادة والذي شاهدته بنفسى يسجله لإبـراهيم.. وبعد أن حققت مطلبها وامتلكت في يـدها مفتاحـاً صـغيراً تستطيع أن تلج منه إلى عالم زوجهـا الواسـع المترامـى.. قررت اللجوء إلى الحكمة التى طالما سمعتها من إبـراهيم..

حكمة.. " أن تفعل شيئا.. أى شئ.. لا تقف جامداً.. المهم أن تتحرك.. حتى لو كانت هذه الحركة خاطئة.."

- ٤٥ -

كان الشيخ راشد المكتوم في مجلسه السابح في غـلالات البخور الرقيقة والضحكات الصافية يتأمل صورة المهنـدس المصري في جواز سفره ويتساءل كيـف لهـذا الشـاب أن يخترق الحواجز قاصداً الوصول إليه وقد مضت خمسة أيـام دون أن يصل؟.. وماذا كان يقصد بذلك الانفلات المقنـع؟.. وأى رسومات هندسية كان يحملها؟.. وإذا كان قصده ينطوى على براءة فلماذا لم يصل؟.. أما وقد ظهر أنه اختفى وترك أوراقه بمكتب المطار مضحياً بها بسهولة ألا يمكن أن يكون متحركاً الآن في ربوع البلاد بأوراق أخرى مزيفـة؟.. وإذا كان يتحرك بهذه الكيفية ألا يمكن أن يكون مبعوثـاً يحمـل الأذى للبلاد؟..

قال أحدهم إن هذا الشيطان تشير رحلتـه المسـجلة فـي جواز السفر أنه رحل من القاهرة إلى ليبيا ومن ليبيـا إلـى لبنان ومن لبنان إلى هنا.. وأنه لم يمض عليه في لبنان أكثر من ثلاثة أسابيع.. ولكنه ظل في ليبيا ما يزيد عن عـامين.. من الواضح أنه ينتمى إلى منظمة شيوعية.. فماذا كان يفعل في ليبيا..؟.. وماذا كان يفعل في لبنان؟.. ولماذا دخل بهـذه

الطريقة البوليسية؟.. لابد أن تكون الشرطة جادة في البحـث عنه.. فالقذافي يسلك طريق عبد الناصر في مناوءته الملوك والأمراء.. ومازالت ذاكرة الناس تحمل الحوار الشرس الذي دار بين القذافي وبين الملك فيصل في مؤتمر قمة الخرطوم.. والذي عنّفه فيه الملك فيصل قائلاً: تعلم يا بنى كيف تخاطب الملوك.. القذافي يريد أن يقتفى آثار مجد عبد الناصر.. يريد أن يكمل مسيرته بطريقته.. وها هي علاقته بالسادات تتراوح بين الهدوء الذي يسبق العاصفة وبين العاصفة نفسها.. فقـد لمح أن السادات يداعب أمريكا ويضـرب عـرض الحـائط بتوجهات زملائه الحكام الثوريين في ليبيا والسودان والـيمن وسوريا والعراق.. ولذا فالقذافي يعمل علـى قيـادة هـؤلاء الحكام الثوريين وتأليبهم ضد الحكام في المغـرب والخـيلج والسعودية.. وربما يكون لمصرع الملك فيصل في مجلـس حكمه بطريقة مجهولة علاقة بهذا المخطـط.. ألا يمكـن أن تكون قريحة القذافي الثورية قد أوصلته إلى إرسال مبعـوث إلى كل حاكم من هؤلاء ليقتله؟..

أعاد الشيخ راشد تقليب أوراق الجواز بين يديه وهتف في بعض رجال بطانته أن يسرعوا بالقبض على هذا الشيطان..

وقبل أن ينهض رئيس الشرطة من مجلسه مد يده إلى الشيخ راشد طالباً جواز السفر..

- : ليش تبغاه..؟
- : أبغى أكبر صورة هالمجرم وأعلقها على الحوائط.. ونعطى مكافأة للي يدل عليه..
- : زين.. زين.. اتفضل..

***

- : آلو.. من فضلك أبغى أكلم غادة فاضل..
- : أنا غادة فاضل.. تحت أمرك.. مين حضرتك؟..
- : يا هلا.. كيفك يا غادة.. لعلك بخير..؟
- : أهلا بيكى.. الحمد .. مين معايا؟..
- : أنا فاطمة معروف إنت ما بتعرفينـى.. بـس أنـا أعرفك كويس من حديث إبراهيم..
- : إبراهيم؟.. إبراهيم مين؟..
- : إبراهيم عبد القادر صديق قاسم..

وعلا صوت غادة بنبرة ترحاب كانـت مؤجلـة لحـين التعرف على اسم المتحدثة..

- : أهلا بيكى.. حضرتك تعرفي إبراهيم..؟

- : طبعاً.. أنا مراته..

وانخفض صوت غادة هارباً إلى منطقة التساؤل والغرابة فراحت أسئلتها المبعثرة تنم عن بعـض الحيـرة والتـردد ومحاولة التركيز..

- : حضرتك بتتكلمى منين؟..

- : من مصر..

- : وإبراهيم فين؟..

- : إبراهيم عندكم في دبي..

- : لأ.. إبراهيم لسه في بيروت.. واحتمال يوصل دبي بعد يومين..

- : لا.. لا.. صدقينى.. إبراهيم غـادر بيـروت مـن خمس أيام.. وعندكم في دبي الحين..

- : مش ممكن لأنه لو نزل دبـي أول حاجـة كـان حيعملها هو إنه يتّصل بقاسم..

- : عجيب.. أنا كده انشغلت أكتر عليه.. وحياتك يـا غادة أول ما يوصل تكلمينى حاعطيكى رقم تليفونى..

لم ترتح غادة لمحتوى هذه المحادثة.. والأخبار التى بهـا والمتناقضات التى تحملها.. فكيف تكون هـي زوجتـه ولا تعرف أخباره..؟.. ولماذا تقول إنها انشغلت عليه أكتـر؟.. معنى هذا أنها كانت مشغولة عليه قبـل هـذه المحادثـة.. وانشغلت بعد المحادثة.. أكثر..

- : لا تؤاخذينى يا فاطمة.. أنا أول مـرة أعـرف إن إبراهيم متجوز..

فهمت فاطمة أن غادة تريد أن تتأكد أنها زوجة إبـراهيم فراحت تسرد عليها كل الحكايات التى سمعتها من إبـراهيم حول قصة حب قاسم وغادة.. حتى تفاصيل اللقاءات بينهمـا تعمدت فاطمة أن تستطرد في سردها لتتمكن من جذب قلـب غادة الطيب المحب.. ويبدو أنها قد نجحت في ذلـك وهـي ترى بشائر جذبها لهذا القلب عندما جذبت ضحكاتها الرائقـة وهي تُسمعها وصف إبراهيم لنفسه في فيلم قاسم وغادة بأنـه عبد السلام النابلسي وقاسم وغادة هما شادية وعبد الحلـيم.. ثم وهي تسمعها قصة الدموع المسفوحة قلقاً على الكرسـي

الرخام بحديقة المنتزه.. وبعد أن كان للقهقهة فعلها في ربـط قلب المرأتين وبعد أن كان لحديث الحب فعله في إدارة رأس غادة التى تذكرت أيام حبها الحالم لقاسم الذي أصبح فـارس حياتها وأميرها غير المتوج الحريص على أن تحيا في كنفه حياة الأميرات اللاتى تزورهن في قصورهن بحكم اقتـراب زوجها من حكّام البلاد.. وبعد أن أحست فاطمـة بالراحـة النفسية تجاه غادة التى تبادلت معها الاطمئنان والود قالت لها فجأة:

- : دخيلك يا غادة.. ساعدينى..
- : تحت أمرك.. إطلبى..
- : إبراهيم هربان منى.. طفشان.. أنا أسـأت إلـه.. وكمان الست أمى.. كان ممكن أروح لـه بيـروت أقابله.. لكن ماما خربطت الدنيا وبلّغـت عنـه إنـه سارق مجوهراتى.. اضطر ينزل لدبي.. إليكم..

تذكرت غادة أن إبراهيم في حديثه معها أشار إلى عـدم إمكانية بقائه في بيروت أسبوعاً كاملاً بسبب إفلاسـه ولـم يتطرق إلى أي حديث حول أي متاعب تحيطه.. ولما راحت غادة تفهم الكثير من التفاصيل عن هذه المتاعب في مصـر

وليبيا ولبنان تلك التى أحاطت بإبراهيم أو أحاط نفسـه بهـا أخذها الإشفاق عليه وتضاءلت أمامها مشكلة فاطمـة قياسـاً بهموم إبراهيم ذلك الطائر الذي يرفرف بجناحى القلق فـوق ربوع البلاد.. لعله طائر الهم الهائم المحلق عالياً بعيداً عـن أرض الناس رافضاً أن يحط الرحال إلا إذا وقع على طيور من شاكلته.. ولعله لم ولن يجد هذه الطيور..

- : اطمنى يا فاطمة.. أنا مش حيهدا لـي بـال إلا إذا عرفت طريقه وبإذن ا حاكلمك..

***

عاد قاسم من عمان إلى دبي ليسمع من غادة تلك الأخبار المزعجة عن صديقه إبراهيم عبد القادر الذي انقطعت عنـه أخباره منذ أربع سنوات.. وهذا الانقطاع لو كان بعضه بفعل الزمن والتلهي في جهاد الحياة فإن أكثره بفعل إبراهيم الـذي يرى في المراسلة مضيعة للوقت ولا طائل من ورائها وأنك مادمت بعيداً عنى بجسمك فلن تطول روحي روحـك عبـر ورقة عبيطة بها بعض كلمات الشوق البلهاء.. يومها قال له قاسم أخشى أن تكون وجودياً.. أى أنك لا تؤمن إلا بما يوجد أمامك.. ساعتها هتف له إبراهيم.. أنا لا أعرف الوجودية..

ولكن إن كانت هي كذلك.. فأنا وجودى.. لحظتها داعبه قاسم قائلاً: ولكنهم أنكروا ا لأنه غير موجود أمـامهم.. فارتـد إبراهيم على عقبيه قائلاً: دول ولاد كلب.. أنا مش وجودى.. بس مش حاكتب لك جوابات.. كبر مخك يا قاسم بـس لمـا تنزل مصر فوت عليا.. ولو وحشتك إبعت لي وأنا أروح لك تشوفنى وارجع على طول.. كده أسهل..

تذكر قاسم هذا الحوار وابتسم في إشفاق وأسـى وتأمـل عبارته اللذيذة " وأنا أروح لك تشوفنى ".. ولم يقلها " وأنـا أروح أشوفك ".. ولما سأله لماذا لـم يقلهـا هكـذا أجـاب ضاحكاً: " عشان المشوار يبقى على حسابك.. مش إنت اللي عايزنى؟.. "

ما هذه اللذة التى تعيش داخل هذا الإنسـان؟.. مـا هـذا الحضور والشهامة والمعايشة والذكاء؟.. ما هذه الهالة مـن الصخب التى تحيطه أينما ذهب؟.. ها هو يسمع مـن غـادة بعض ما قالته عنه زوجته فاطمة.. تلاعب بـوزارتين فـي مصر وغادرهما بعيداً عن حدود الوطن تاركاً لهما ما يثبت أنه ميت.. وعندما خرج من مصر أخذ معه كرامتـه ولـم يتركها على بوابة ليبيا.. والدليل أنه استخدمها في الدفاع عن

نفسه.. ثم انسحب إلى لبنان وأخذ معه دهاءه وجسارته.. ثـم انسحب إلى دبي آخذاً معه ذكاءه وفطنته..

أعاد قاسم هز رأسه في حيرة وذهول وهو يطلـب مـن غادة أن توقظه بعد ساعتين حتى يذهب إلى مجلـس الشـيخ راشد في المساء.. ولم تمض ساعة واحدة حتى رن جـرس التليفون من مجلس الحاكم طالباً من غادة أن توقظ زوجهـا فوراً..

ودون أن يخرج قاسم عن هدوئه ورزانته تناول السماعة ليسمع سؤالاً مباغتاً من وزير الشيخ يسـأله عمـا إذا كـان يعرف مهندساً مصرياً اسمه إبراهيم عبد القادر.. فأجابه قاسم دون تفكير أنه يعرفه..

- : حق المعرفة..؟..

- : حق المعرفة..

فصاح الوزير في هيستريا طالباً من قاسم أن يحضر فوراً وبلا تردد إلى مجلس الشيخ.

وفي السيارة راح قاسم يشق طريقه إلى مجلس الشـيخ – متثائباً - في إرهاق.. وما إن لمح صورة إبراهيم عبد القادر على أحد الحوائط حتى أخذته اليقظة وهزه الانزعاج وتوقف

أمام الصورة متأملاً وقارئاً " صاحب هذه الصـورة يمثـل خطورة على أمن البلاد من يعثر عليه أو يعرف الطريق إليه فليبادر بإبلاغ السلطات ".. لحظتها أخذته اليقظة وراح ينهب الطريق بسيارته إلى قصر الشيخ وهو يعد العدة لمواجهة ما سيلقاه من حصار وإزعاج حول علاقته بإبراهيم الذي أتـى إلى دبي بهالته المشهورة من الصخب والجسارة..

راح يسمع منهم وهو مكفهر الوجه ما يحكونه عن هـذا المتسلل عمداً إلى البلاد بكذبة مريبة.. ثم اختفائه عن العيون اختفاء مريباً..

وما إن هدأوا حتى راح قاسم يرتب أفكـاره ومعلوماتـه ترتيباً منطقياً مبتدئاً بتلك القصاصة التى وجدوها مختبئة مـا بين غلاف الجواز وجلدته وفيها أرقام بعض التليفونات ومنها تليفونه.. وحكى لهم عن صاحب كل تليفون: فاطمة زوجـة إبراهيم اللبنانية المقيمة في مصر وزميلتهم في نفس الكلية.. وشادى ابن عمها المقيم في لبنان.. وحماته اللبنانية المقيمـة في مصر والمتآمرة ضده عن طريق شادى لإجبـاره علـى تطليق زوجته.. وأنور فاضل شريك قاسم في مكتب بيروت والذي أتى منه إبراهيم بلفافة الرسومات الوهمية.. وبعـد أن

فرش قاسم – بهدوء - هذه القاعدة من المعلومات راح يربط فيما بين بعضها البعض متخيلاً ببراعة الطريقة الذكية التـى يتصرف بها إبراهيم.. بادئاً بما يعرفه عن إبراهيم من أنه لا يمد يده إلى شخص ما طلباً للمال.. ولم يسـتنكف قاسـم أن يحكى للحضور ما أسر له به إبراهيم عن نفسه من أنه فضل أن يعمل حمالا وهو طالب حتى لا يمـد يـده لأحـد مـن معارفه.. وبدلاً من أن يمتهن في نظرهم كحمال زاد قـدره في نظرهم كإنسان خاصة عندما فرض زعامته عليهم..

لقد ربط قاسم هذه المعلومة بمعلومة جديدة سـمعها مـن زوجته غادة وهي أن إبراهيم استكثر علـى نفسـه البقـاء أسبوعاً في بيروت حتى يعود قاسم من عمان وأوضح لهـا بأن أمواله قد نفدت وأنه لا يملك ثمن إقامته في الفندق ويبدو أنه قال لها ذلك متوقعاً أن تدعوه فـوراً للحضـور دون أن ينتظر قاسم أسبوعاً كاملاً في بيروت.. ولما لم تفعل هي ذلك لأنها كانت تملك الحل الأنسب في تمكينه من الحصول على المال من حسابهم في بيروت ثم تمكينه من الإقامة هناك عند شريكهم أنور فاضل فقد أسقط في يـد إبـراهيم واسـتجاب لطلبها ولكنه وظّف وجوده في المكتـب الهندسـي لصـالح

مؤامرته بالدخول إلى دبي بلفافة رسومات ولـيس بتأشـيرة دخول.. ثم انفلت بطريقته بعيداً عن المتربصين به.. والذين كان إبراهيم يراقبهم بقلبه وعقله بنفس الطريقة التى كان يرى بها غادة وفاضل أيام الإسكندرية فـي حـديقتهم المفضـلة ويصيب الهدف دائماً في توقع الحديقة الصـح مـن ثـلاث حدائق - في كل مرة -..

لقد هبط إبراهيم إلى دبي واختار أن يبتعـد عـن منـزل صديقه قاسم الغائب حتى يعود.. فليس من اللائـق حسـب الطريقة العربية أن يزور الصديق بيت صديقه المتزوج فـي غيابه مهما كانت أهمية الزيارة وخطورتها.. فهناك قاعـدة وهناك ثوابت لا يوجد ما يجبر الضيف على تجاوزها.. هكذا قال لهم قاسم ما استطاع أن يقرأه في رحلة صديقه إبراهيم..

لقد أخذ الحضور يتبادلون النظرات الحائرة والتى تحمـل في طياتها بعض الإعجاب بذلك الشخص الخارق الذي يرونه مجسماً أمامهم: بهى الطلعة جميل الشكل جبار العقل مفـرط الذكاء ولأن أحدهم كان يتمنى أن يكون كل ما قالـه قاسـم مهندس المجالس صحيحاً فقد هتف:

- : ليش ما نطلب فاطمة هادى.. وهـا اللـي اسـمه شادى.. وأم فاطمة.. وشريكك أنور فاضل.. هـات راعى التليفون يا ولد يطلب ها الأرقام لجل تتأكد..

ارتاح قاسم لهذا المطلب فقد كان على وشك أن يطرحـه بنفسه إثباتاً لصدق حديثه.. وراحت هذه القصاصة المعجـزة تأخذ طريقها إلى السنترال الذى راح يحول لهـم أصـحاب التليفونات واحداً واحداً.. وكان إغراق الشيخ في الاسـتماع إلى حديث فاطمة الشجن بادياً على ملامحه.. وكان استغراقه في الأسى الذي في صوت أمها وندمها على ما فعلته واضحاً أيضاً على ملامحه.. وكان فزعه من صفاقة شادى ووقاحته في الحديث عن إبراهيم مؤيداً لما سمعه عن دوره المخجل.. أما عن البلاهة التى غرق فيها أنور فاضل وهو يرى نفسـه في مواجهة حاكم البلاد الذي راح يسـأله عـن الرسـومات الفارغة التى أرسلها مع المهندس المصـرى.. فقـد جلبـت ضحكات المجلس وهو يرى شيخهم الوقور قد أخذتـه روح المداعبة مناولاً السماعة لمهندس مجالسه قاسم طالباً منـه أن يعرف من شريكه أنور هذا نوع الرسومات التى أرسلها مع المصري إلى حاكم دبي..

ولما وجد أنور فاضل نفسه بعيداً عن أذن الشيخ وقريبـاً من أذن قاسم قال له:

- : الحقنى يا قاسم.. إحنا حنروح في مصيبة.. إبراهيم صاحبك خد ورق فاضي وورق فيـه أى رسـومات وكتب عليها اسم مكتبنا.. الراجل ده يا قاسم كان فيه ناس بيطاردوه.. وكان عاوز يهرب منهم بأي شكل..

وهنا ركز قاسم على هذه المعلومة وراح يسأله بصـوت عالٍ عن سر هؤلاء الذين يطاردون إبراهيم.. وكيـف كـان يحاول الإفلات منهم؟.. وكان قاسم بدوره ينقل ما يقوله أنور فاضل إلى الحضور ليتثبتوا من صدق ما قاله قاسم لهم..

وبعد أن انتهت المكالمة تـنفس الجميـع الصـعداء فقـد تحركت الحقيقة بنفسها إليهم ووضعت نفسها تحت أقدامهم.. وأصبح رئيس الشرطة في حل من مواصلة مطاردته لهـذا المصري المتآمر.. ولم يعودوا بحاجة إلى التخوف منه.. فهو كما قال لهم قاسم وثبتت صحته كان يحاول النجاة بنفسه من مؤامرة حيكت ضده.. مؤامرة اعترفت بها سـيدة الأعمـال اللبنانية.. وحكت عنها فاطمة.. وأثبتها شادى.. واحتار فـي

تفسيرها أنور فاضل.. وفسرها قبلهم قاسـم بقلـب وعقـل الصديق الصدوق الذي يفهم خبايا تفكير صاحبه..

قال الشيخ في هدوء ورزانة:

- : ما دام صاحبك هذا يا قاسم بهـا الـذكاء وهـادي الفطنة ليش ما يوظفها إيجابياً في شغلكم؟..

رد قاسم مؤيداً:

- : هذا المفروض طال عمرك..

فأطلق الشيخ أمره السامى:

- : ابحث عنه.. وشغّله معـك.. وإنـت يـا راعـي الشرطة.. اسرع وشيل الخرابيط اللي على الجدران..

***

- ٤٦ -

مضى أسبوعان ولم يظهر إبراهيم.. ممـا جعـل القلـق والتوتر يعتمل في صدر قاسم وزوجته غـادة.. وأصـبحت مهاتفات فاطمة الباكية هي القلـق الـذي يواكـب قلقهـم.. وأصبحت ردودهم المتلعثمة هي الطريق إلـى كشـف قلـة حيلتهم في العثور على زوجها الغائب وفشلهم في إقناعها أنه لم يصبه أذى.. وأنه ليس كما تتوهم رهن الحبس في قصـر الشيخ.. وأن إبراهيم لم يكن رهن التحقيق في جريمـة مـا عندما سألها الشيخ عن قصتها معه.. ولكـنهم اضـطروا أن يحكوا لها عن الخطة الماكرة التى دخل بها إبـراهيم الـبلاد مستخدماً اسم الحاكم.. وطمأنوها أن موقفه لدى الحاكم تحول من النقيض إلى النقيض بعد ثبوت عدم ضلوعه في مـؤامرة ما ضد البلاد.. والدليل أنه أوصى قاسم أن يشركه معه فـي العمل بهندسة المجالس..

وعندما رن جرس التليفون بعد منتصف الليل في منـزل قاسم لم يقم مذعوراً شأن زوجته غادة بل تنـاول التليفـون بهدوئه المعتاد..

- : آلو.. أيوه.. مين؟..

ثم صاح فجأة كالمذعور..

- : إبراهيم؟.. يخرب بيتك إنت فين يا جبان؟.. تقـول فين؟.. بندر عباس؟.. في إيران؟.. ا يخرب بيتك.. إيش وداك إيران يابنى آدم؟.. لا.. لا.. إنت تكذب يا إبراهيم.. هادى عملة جديدة من عمايلك يا شَيطَان؟.. إنت ناسي إنك ما عندك جواز سفر؟..

ثم جلس يستمع إليه لحظات طويلة وغادة متعلقة بأذنهـا وعينها على التليفون.. وما إن انتهى من الاستماع إليه حتى هتف بأنفاس لاهثة:

- : يخرب بيتك يا هالمصري يا شيطان.. سرقت جواز واحد من الفندق؟.. تفلت من مصـيبة تـدخل علـى مصيبة تانية.. وبعدين؟.. إيش حنسوى هـالحين؟.. إعطنى تليفونك واتركنى أفكر إيـش حنسـوى فـي موضوعك هادا وأطلبك بنفسي..

وجلس قاسم على سريره ملقياً برأسه بين كفيه طالباً مـن غادة أن تسعفه بفنجان من القهوة التركى وسيجارة..

إن إبراهيم الآن لم يعد صديقاً له - فقط – هـو مسـئول بحكم الصداقة عن استقراره وإتاحة الأمن له في بلاده دبـي..

ولكنه أصبح محسوباً عليه لدى السلطات ولدى الشيخ راشـد شخصياً.. وأن كل ما فعله إبراهيم وصار يفعله سيدخل بـه في نطاق المساءلة والحرج.. وما إن أتى الصباح حتى كـان قاسم قد استقر على رأيٍ مقنع أدلى به إلى الوزير القـابض على جواز سفر إبراهيم فقد همس إليه بأنه قد عثـر علـى إبراهيم وأنه قد أعطاه الأمان وأن إبراهيم من فـرط خجلـه ورغبته في مقابلة الشيخ مقابلة لائقة وشرعية طلب أن يغادر البلاد للحصول على تأشيرة دخول من أقرب دولة ويحضـر بنفسه لمقابلة الشيخ بعد عدة أيام.. واقترح قاسم على الوزير أن يذهب بنفسه مع إبراهيم للحصول له على تأشيرة دخـول من بندر عباس.. وعندما حاول الوزير الإدلاء برأي آخـر ماطله قاسم وطرح أمامه رجاء ألا يفسد خطته مع إبـراهيم متعهداً أنه سيأتى به بنفسه طالباً من الوزير إبقاء هذا الأمـر طى الكتمان حتى ينتهى منه..

ولما كان قاسم له رصيد كافٍ من الثقة والمحبـة لـدى الشيخ راشد حاكم البلاد وكل جهاز الحكـم .. فقـد رضـخ الوزير المسئول عن إدارة القصر لرأيه وسلمه الجواز بعـد أن حصل على توقيعه فوق تعهد مكتوب باسـتلام الجـواز

مقابل الحضور بنفسه بصـحبة صـاحب الجـواز لمقابلـة الحاكم..

وفي اليوم التالي طار قاسم إلى بندر عباس ليقابل إبراهيم في أحد الفنادق الصغيرة ليجده على الحال الذي يعرفه عنـه عبر تلك الفتيات الصغيرات اللاتى يحطنه في غرفته.. كمـا وجده على غير الشكل الذي يعرفه فهو الآن يمتلـك لحيـة صغيرة وشارباً معقوفاً ينحدر إلى اللحية شأن لحية وشـارب قاسم..

وبعد أن كشح إبراهيم البنات الصغيرات وهو يضـربهن في دعابة على مؤخراتهن اعتدل إلى قاسـم وسـأله لمـاذا وضعوا صورته على الجدران في دبي؟.. فأمهله قاسم عـن سماع الإجابة حتى يعرف سر هذه اللحيـة وهـذا الشـارب وعلاقتهما بحالة الفسق التى يشم رائحتها في غرفتـه.. لـم يجبه إبراهيم عن شق السؤال المتعلق بشكله إلا عندما أحضر جواز سفر رجل أعمال سورى لـه نفـس اللحيـة ونفـس الشارب.. ثم وضع إبراهيم على عينيه نظارة طبيـة وفـرد الجواز بجوار وجهه ليتأمل قاسم إلى أي حد كان الشكل بين صاحب الصورة وبين إبراهيم في هيئته الجديدة متطابقاً..

قال إبراهيم: لقد كلفنى التحول إلى هذا الشكل أسـبوعين حبست نفسي فيهما داخل بيت شعبى قمت باستئجاره بعيـداً عن الفنادق حتى إذا خرجت من هذا البيت إلى المطار أكون أنا " غيث مرتضى السـكرى ".. صـاحب الجـواز نفسـه المسافر إلى بندر عباس..

وفي إجابته عن الشق الثانى من السؤال.. بشأن البنـات قال إبراهيم إنه لا يحب البنات الساقطات.. وهؤلاء البنات لم يصلن إلى مرحلة الاحتراف في البغـاء ولكـنهن الزهـور الضائعة في مستنقع حكم الشاه بحثاً عن لقمة العيش.. فهـن يقبلن القليل من المال والكثير من المتعة.. وهذا هو مطلبـه لأنه مثلهم لا يملك إلا القليل من المال.. ويطلب الكثير مـن المتعة وأنه لولا قلة المال لما استدعاه في هذا التوقيت.. فمن الحماقة مغادرة هذه الجنة بما فيها من حور عين لأى سـبب حتى لو كان رأسي مطلوباً في دبي..

- : انت فعلاً رأسك مطلوبة في دبي.. الشـيخ راشـد طالبها.. مش لجل يقطعها.. لكن لجل يشـغّلها فـي البزنس.. الشيخ بفراسته قرأ شخصيتك وطلب منـى أقوم بتوظيفها إيجابياً..

- : أنا هرجع معاك وعلى ضـمانتك.. مـش عشـان البزنس اللي بتقول عليه.. لكن عشان احتمال أخونا " غيث مرتضى السكرى " محتاج " يسـافر لـولاده.. أول مشوار حاعمله أروح شركته أسلمهم الجـواز.." اللي ماعرفش إزاي لقيته مرمى في الشارع.. "

ثم اعتدل إبراهيم في جلسته مستعداً أن يصـغى باهتمـام إلى إجابة قاسم عن سؤاله الـذي سـيطرحه الآن متناسـياً مشاكله ومغامراته كأنها لم تكن..

- : قوللى.. إنت كنت في عمان بتعمل إيه؟..

- ٤٧ -

داعبه الشيخ راشد قائلاً – وهو يتأمل ما فيه من جمـال ووسامة -:

- : ليش ما تسوى مغامراتك هادي في السينما؟.. إنتو يا مصريين عندكو رشدى أباظة.. بيك يصـير فيـه بمصر اثنين رشدى أباظة؟..

ضج المجلس بالضحك وإبراهيم يغالب الابتسام في وقفته المؤدبة أمام الشيخ الوقور.. وبجانبه صـديقه قاسـم الـذي أوصاه ألا يبادل الحاكم تبسطه في الحديث وألا يغريه بساطة الشيخ ودماثته فيقوم بإزالة الحواجز البروتوكولية في حضرة سلطان البلاد.. وقد فعل إبراهيم كل ما أوصاه به صـديقه.. حتى أن وقفته تلك أتت – من فرط تأدبها - بعكس ما كـان يتوقعه الحضور من أن يشاهدوا ولداً متحركاً ثرثاراً فأخذهم الاستغراب حتى صاح أحدهم..

- : وا يا أخى حالك يثير العجـب.. كـل هـالأدب والتواضع ما يجوز مع اللي سمعناه عنك..

قال إبراهيم في سره " هو الرجل ده عـايزني أتشـقلب قُدامه واعمل أراجوز.. ولا إيه.. بالظبط؟.. "

وغالبته ابتسامة ماكرة تنضح ببريق العفرتة، وظل علـى صمته مما جعل الشيخ بفطنته السوية يكتشف أن هذا الشاب لا يتحدث قدر ما يفعل وأنه – ولا شك – واقع تحت تـأثير وصية من صديقه قاسم بمنتهى الالتزام وعدم تركـه نفسـه على سجيتها في التبسط والمداعبة ..

رفع الشيخ صوته الوقور هاتفاً:

- : يا قاسم.. خير صديقك بين إنه يعمل معك أو ينضم لجماعة الفايد.. أكيد الفايد يقدر يسـتفيد بـه.. آهـو مصري من جماعتكم..

- : حاضر.. طال عمرك..

ثم تراجع قاسم خطوتين للوراء فقلده إبـراهيم ثـم ألقـى السلام وخرج أولاً يعقبه إبراهيم الذي ودعه الحضور بنظرة باسمة..

وفي ساحة القصر الفسيحة وبينما قاسم يتجه إلى سـيارته كان إبراهيم يلكزه هامساً..

- : مين الفايد ده..؟.. مين الفايد ده؟..

فأمهله قاسم بإشارة من يده أن يصبر فسوف يشرح له كل شئ..

وبعدها فهم إبراهيم أن محمـد الفايـد رجـل الأعمـال المصري وابن مدينة الإسكندرية هو أشهر رجال الأعمـال الذين يعملون بدبي والشارقة علـى الإطـلاق وأن علاقتـه توطدت بحاكم البلاد عندما جاء يتفقد إحدى سفنه العاملة في نقل البضائع وجاء يعمل علـى تعويمهـا بعـد أن أصـابها عطب..

قيل إن الحاكم هو الذي بادر فطلـب أن يحضـروا هـذا المصري لمقابلته.. وقيل إنه هو الذي سعى لمقابلة الحاكم.. وكيفما كانت الحقيقة فلقد خرج محمد الفايـد مـن المقابلـة بحزمة من التوجيهات والمطالب التى يجب عليه البدء فـي تنفيذها وأهمها إنشاء عدة أرصفة لاستقبال وإرسـاء السـفن العملاقة.. فقد لمح الشيخ أن الازدياد الملحوظ فـي أسـعار البترول وزيادة الطلب عليه بعد حـرب أكتـوبر تسـتدعى الاستعداد لذلك الخير الذي في طريقه أن يهب على الـبلاد.. كما فهم إبراهيم أن محمد الفايد هذا كانت قد تجمعـت كـل مؤهلاته الشخصية من وسامة ولباقة وطمـوح فـي نظـرة

إعجاب نالها من سميرة خاشـقجى أخـت رجـل الأعمـال السعودى عدنان خاشقجى الذي كان يعمل الفايد فـي إحـدى شركاته.. وتحول الإعجاب إلى حب وانتهـى الحـب إلـى زواج.. وكان هذا الزواج فاتحة الخير علـى ذلـك الشـاب الطموح ابن الإسكندرية عاشق البحر.. وقـاهر المحيطـات برحلات النقل التى لا تهمد..

همس إبراهيم لنفسه متسائلاً عن تلك المصالح التى تسير في طريقها قدماً إذا سار الحب في طريقه قدماً.. فهدى التى أحبته قبل أن يحبها وضعت أموالها في صف الحب فثقلـت كفته.. ومن المؤكد أن سميرة خاشقجى بنت البادية كانت هي نفسها هدى بنت طنطا عندما فعلت ذلك.. فقد كسرت التقاليد ولم تعبأ بقانون القبيلة وتحيزت للحب.. ثـم الحـب.. ثـم الحب.. وراهنت بكل شئ حتى تمتلك قلـب الرجـل الـذي أحبته.. وكما لو كان يخاطب بعض منتقديه راح يهمس: ألم أقل لكم..؟.. لقد كان ما أفعله مـن مواءمـة بـين الحـب والمصلحة في سوق الخضار وموقف التاكسى لخدمة ثريـة أحبتنى.. كان يفعله محمد الفايد في عـالم البتـرول ودنيـا الموانى لخدمة مليونيرة أحبته.. وأن ما كانت تتلقـاه هـدى

آخر الليل من حصيلة المال ومحصلة القلب والجسد هو نفس ما تذوقته وسكرت به سميرة خاشقجى مع محمد الفايد.. يـا ا .. إذن فلم أكن وحدى ذلك المربوط في خـيط حريـري متين اسمه المصلحة يمتد من قلبي إلى قلبها.. كل ما هنـاك أن هذا الخيط كان مغموساً في عطر الحب... والنشوة..

- : على فكرة يا قاسم أنا باحبك.. والشيخ طلب منـك إنك تخيرنى.. بس أنا اخترت خلاص..

- : عساك اخترت الفايد..

- : أيوه..

- : عارف إنك نذل.. تبغى تسافر وتهيم على وجهك..

- : أسافر فين.. (قالها متهللاً)

- : لندن.. الفايد مكتبه الرئيسي في لندن..

صاح إبراهيم فرحاً:

- : كمان؟.. لندن.. أموت في لندن.. أموت في لندن.. أموت في ديك أم الانجليز.. يا عم لايمنـى علـى أم الفايد ده خلينا نخلص..

راح قاسم يضحك ويعيد تأمل صديقه إبراهيم عبد القـادر الذي لم يتخل لحظة عن مرحه وشقاوته ثم يتأمل قوله عـن نفسه إن ا خلقه حراً وسيظل حراً ولن يفعل إلا ما يؤمن به حتى لو كان شراً.. وأنك: " كلما أعطيت ظهرك للدنيا أقدمت عليك ".." وما عليك إلا أن تغتنم اللحظة المرحة لتمرح بها.. وتتفادى الهموم.. فلا يوجد في الدنيا ما يستحق الهم ".." كله محصل بعضه "..

ثم يتذكر أحاديثه الضاحكة ومنها قوله عن أبيه " كل مـا فعله أبي هو أنه أتى بي إلى هذه الدنيا في لحظـة نـزوة.. وكانت علاقته بي لا تزيد عن إعطاء الأوامر والنظر إلـى باحتقار إذا نفذتها.. وينهال علي بالضرب إذا لـم أنفـذها.. عقـّدنى ف عيشتى.. لا يضحك.. مكشّر علـى طـول.. لا يبحث عن مزاياي قدر ما ينقب عن أخطائي.. إيـده بتاكلـه على طول.. عايز يضرب.. أحسن حاجة عملها إنه سـمانى إبراهيم.. لأنى بعد كده عرفـت إن سـيدنا إبـراهيم كسـر الأصنام.. فرحت قوى إن أنا اسمى على اسمه.. وقلت أنـا كمان لازم أكسر الأصنام.. وأولهم صنم أبويا اللي قاعد على المصطبة السيجارة بترعى فْ صوابعه وهو مش حاسـس..

وكمان أحسن حاجة في أبويا إن اسمه "عبد القادر " هو طبعاً جدى غلطان إنه سماه كده.. لأنه ثبت أن أبويا مش " قادر " يعمل حاجة.. وعاش طول عمره مش " قادر " يعمل حاجة.. كان بيخاف من خالى شحاتة.. عشان خالي شحاتة كـان زي الشحاتين فعلاً.. واخدين نص الدنيا.. بس خـالى واخـدها بالعافية.. "

- : أخبار خالك شحاتة إيه؟..

صاح فيه إبراهيم: يا عم إنت: أقولك لايمنى على محمـد الفايد تقوم تقول لي خالك شحاتة أخباره إيه.. أنـت جرالـك إيه..؟..

وبإصرار عاود قاسم سؤاله دون أن يتوقف عن الضحك:

- : بجد.. صحيح.. أبغى أعرف أخباره؟..

وبهدوء ومرارة وسخرية أجاب إبراهيم:

- : هتكون أخباره إيه؟.. زمانه في البلد عامل فيها عدنان خاشقجى وراسم فيهـا دور المليـونير.. وهو ابن كلب شحات..

ثم صاح مرة أخرى بعصبية مفتعلـة فـي وجـه قاسـم الضاحك بوقار:

-   : يا عم باقول لك لايمنى على محمد الفايد تقول لـي خالك شحاتة..

وفي منزل قاسم الذي هو فيلا رائقة يتماوج في جنباتهـا النعيم كما يرفرف الخير والبهاء.. انتهى إبراهيم من تناول الغداء على مائدتهم العامرة وكان في قمـة تألقـه ونشـاطه النفسى البادى من نكاته اللاذعة وقفشاته المباغتة.. وعنـدما انسحبت غادة لتوصى الخدم بإعداد الشـاي تسـربت إلـى غرفتها وطلبت فاطمة في الإسكندرية.. إنها في هذه اللحظة تقوم بالوفاء بوعدها فـي أن تحـدثها إذا عرفـت طريـق زوجها..

وحينما أقبلت عليه متهللة وبيدها سماعة التليفـون.. لـم يستطع إبراهيم أن يفسر سر هذا التهلل وتلك البشاشة التـى ينضح بها وجه غادة وهي تخاطبه:

-   : فيه ناس حبايبك عايزينك..

-   : أنا ماليش هنا حبايب غيركم.. (قالها وهـو يأخـذ السماعة باستغراب)

وبعد لحظات من إطلاقه لهذه الجملة المداعبة زالت عـن وجهه سيماء المداعبة عندما وجد أن زوجته فاطمة هي التى

تحدثه.. تمهل قليلاً حتى يلتقط أنفاسه من وقع المفاجأة وبـدا لقاسم وغادة أنه يتلقى منها كلمات تتسـم بالعتـاب والحـب والاحتجاج على قسوته عليها.. ذلك أنه قال لها متسائلاً:

- : وكمان بتلومينى؟.. بدل ما تلـومى نفسـك إنـت والست ماما عشان مـدبرين لـي قضـية سـرقة.. ومشغّلين شادى لحسابكم..

وظل يستمع لها بعد هذه الكلمات محاولاً التماسك والهدوء رغم أنفاسه اللاهثة والتوتر البادى على ملامحه.. ويبدو أنها كانت تدافع عن نفسها على الجانب الآخر.. كما يبدو أنه كان يرفض هذا الدفاع.. إذ قال لها:

- : وشادى عرف من مين إن أنا أخذت المفتـاح مـن جيب كرم ابن خالتى وفتحت شقته من وراه.. إنتـى عارفة إن أنا دخلت الشقة علشان أحط له بوكيه ورد مش عشان آخد حاجة منها..

ابتسم قاسم وبادلته غادة الابتسام وهما يعرفان لأول مـرة هذه الطريقة الجديدة لإهداء الزهور.. وهزا رأسـيهما بمـا يعنى أنه لا غرابة أن تكون هذه طريقة مبتكـرة واختراعـاً جديداً للإهداء قام به إبراهيم عبد القادر..

وبعد أن عاد إلى الاستماع لردهـا - زال الهـدوء الذي ران على وجهه -.. وبعد أن ظلت فاطمة تتحدث لفترة طويلة قال لها:

- : أنا كنت متمسك بيكى حتى قبل ما أعرف إنك جبت لي ولد وكنت مستعد أطلق هـدى زي مـا طلقـت عنايات..

عاد قاسم إلى الابتسام وهو يشير إلى غادة رافعاً ثـلاث أصابع في الهواء من كفه الأيمن وهو يحملـق مندهشـاً:" ٣ نسوان "؟.. فأحنت غادة رأسها وهي تواري ابتسامة وتكـتم ضحكة.. لتستمع إلى باقي الحديث:

- : أنا عارف إن هدى جدعة وأحسن واحدة فيكم وبنت أصول وأنا عمرى ما حطلقها ولا حاضحى بيها.... مش عشان هي كمان جابت لي ولد.. لأ.. بس عشان هي مخلصة.. مش زيك.. قاعدة تدبر لي مؤامرات.

عاد قاسم يشير لغادة بإصبعين.." أى أن إبراهيم أنجـب طفلين " وراحا يصغيان باهتمام إلـى ردود إبـراهيم علـى فاطمة تلك الردود التى يكتشفان منهـا الآن تطـور الحالـة

الاجتماعية لابراهيم عبد القادر في سطور قليلة إلى أن قـال لها:

- : اسمعى.. أنا عمرى مارتَحتْ لمامتـك ولا مامتـك ارتاحتلى من يوم عنايات ما زارتها وعرفتها إن أنـا مخلّف منها واد..

هنا لم يتمالك قاسم نفسه من الانفجار في الضحك وهـب واقفاً - على غير عادته الرزينة- ليخفى ضحكة عاليـة لـم يتمالك من كتمانها حتى أنه اضطر أن يهرول بعيداً حتـى لا يظهر أثر ضحكته العالية في التليفون عند الطرف الآخـر.. وهرولت غادة خلفه.. وقد اعتراها الخجل والخوف مـن أن يسئ موقفهما هذا إلى إبراهيم ظنّاً منه أنها السـخرية.. فـي حين أنها لا تعدو أن تكون وقْع المفاجأة التى لم يعرفاها من أن إبراهيم يمتلك هذه الثروة البشرية: ثلاث نساء.. وثلاثـة أولاد.. في هذا الوقت القصير من العمر وكأنه قد فعل ذلـك خلسه وغافل الزمن..

لقد انتحى قاسم جانباً وهو يضرب كفّاً بكف ويـردد فـي صوت خفيض أمام غادة..

- : ا يخرب بيتَك يا إبراهيم.. معقول؟!! هـادا لـو جلس على التليفون قَدر ربع الساعة حنعرف الحـين أنه عنده أربع نساوين.. يعنى خلّص مقرره الشرعي.

فتهمس له غادة:

- : وطى صوتك.. أنا خايفة لا يزعل.. تعالى.. بطّـل ضحك وروح اقعد تانى جنبه..

ثم عادا – قاسم وغادة – وهما يسحبان خطواتهما بحـذر متجهين نحو إبراهيم الذي كان صامتاً يستمع إلـى زوجتـه ويبدو جاداً في الاستماع ومنصرفاً عمن حوله.. وفجأة عـلا صوته..

- : اسمعى.. اوعى تفكرى إنى بعد اللي حصل لسـه متمسك بيكى.. أنا لما اندلقت عليكى حضرتك طلعتى فيها ووصل بيكى الأمر إنك عايزة تذلينى.. وأنا لسه مافيش مخلـوق يقـدر يـذلنى.... إنـت طـالق.. ارتحتى..؟

وطرق سماعة التليفون بشدة وهو يغلـق الخـط منهيـاً المكالمة في عصبية.. ثم هب واقفاً متجهاً نحو الشباك عاقداً كلتا يديه في خصريه مرسلاً نظراته إلى بعيد وهو منصرف

تماماً عن قاسم وغادة اللذين كانا يتبادلان النظرات المذهولة لهذه المفاجأة التى أنهى بها إبراهيم مكالمته..

عمدت غادة إلى التليفون وراحت تـديـر القـرص الـذي تسرب صوته إلى أذن إبراهيم الذي ناداهـا دون أن يلتفـت خلفه ودون أن يعدل من وقفته:

- : غادة.. لو سمحتى.. متطلبيهـاش دلوقـت.. هـي منهارة ومش حتفهمى منها حاجة.. دى إنسانة الواحد لازم يبيعها.. على الأقـل مـافيش داعـى تكلميهـا قدامى..

بادرت غادة فألقت بالسماعة إلى موضعها مرسلة نظرات التساؤل والرجاء إلى وجه زوجها قاسم الذي تخلى فجأة عن ضحكه الهستيرى واكتسى وجهه بذلك الأسى الوليـد لتلـك المأساة التى انعقدت فجأة في صالونه بـين زوج وزوجـة.. زوج أصدر حكمه بالطلاق على زوجة كانت تحاول جذبـه إلى جنة الوفاق..

***

- ٤٨ -

في البر.. وعند الخلاء الشاسع.. وأسفل خيمـة الشـعر التليدة.. وفوق سجادة سميكة: تمدد الصديقان وقـد اسـتندا بظهريهما على الوسائد المرصوصة وأمامهمـا " تُـرمس " الشاي الساخن والبيالى الصغيرة.

لقد اختار قاسم أن يخرج بصديقه إبراهيم إلى الصـحراء القريبة لينعما بالكون المفتوح والسـماء الرائقـة والنسـمات المرحة التى تداعب النباتات البرية المتناثرة في هذا الوقـت من الخريف..

هناك عند الأفق المترامى تبدو مدينة دبي الناميـة قائمـة كالأشرعة البيضاء الراكضة عندما بدت كذلك مـع ركـض السحاب الهائم وعلى متن الكثبان الرملية التى تحجب أجزاء من استلقاء المدينة على خط الأفق..

هتف إبراهيم: هي دي الخيمة اللي الملـك فيصـل قـال لكيسنجر ان إحنا مستعدين نرجع نعيش فيها..؟

ضحك قاسم لهذه المشاغبة وفهم مـن طريقـة السـؤال الماكرة أن هناك إجابة مخالفة تتوارى خلف السؤال..

أجابه قاسم: أنا لو متأكد إنك حتتكلم جد في السياسة كنت اتكلمت معك.. لكن انت رافض هالموضوع من يومك.. كتير

حاولنا معك ترشح نفسك في اتحاد الطلبة.. كـان نجاحـك مضمون.. لكن انت مخك كان مقفول.

رد عليه إبراهيم وقد اعتدل وراح يصب لنفسه كوباً مـن الشاي..

- : تعرف يا قاسم أنا باشم السياسة فين؟.. في شـكل المدن.. وشئ غريب جداً بيحاصرنى ويخلينى أشـبه المدن بالستات.. باحِس بالمدن حسب شـكلها.. فيـه مدينة تحس إنها مقهورة وبتنام من المغرب.. وفيـه مدينة تحس إنها مش هاممها حاجة وبتسهر للصـبح ومش مهم ترجع متأخرة.. وفيـه مدينـة متخططـة ومدينة عشوائية.. بالظبط زي الست الشياكة والست المتبهدلة.. وفيه مدينة مستحية وفيه مدينة جريئـة.. وكل مدينة حسب راجلها.. يعنى حسـب حاكمهـا.. حسب سياسته..

ضحك قاسم لهذا التشبيه الذي لابد أن يتمشـى مـع مذاق إبراهيم وهواياته المفضلة فقرر أن يشاغبه..

- : طيب قوللى.. القاهرة أى ست فيهم؟..

- : القاهرة دي ست غريبة جسـمها عجـوز ووشـها شباب.. لو لبستها على الموضة تليق.. لـو لبسـتها شعبى تبقى آخر حلاوة.. بس سلوكها مرتبط بالراجل اللي بيحبها.. لو بيصلى تصلى معـاه.. ولـو هـو منحل.. تنحل معاه..

- : واسكندرية؟..

- ا على اسكندرية.. ست عايقة.. نايمة بالطول على طول.. وشها ناحية أوروبا.. وضهرها للصعيد..

ضحك قاسم عالياً..

- : ووين رجليها؟..

بادله إبراهيم الضحك: ورجليها في ليبيا..

تذكّر قاسم أن إبراهيم مر على ليبيا في رحلته..

- : قوللى.. طرابلس.. إيش تكون في المدن.. قصـدى في الستات؟..

رسم إبراهيم علامات الجد على وجهه..

- : صدقنى أنا ما اعرفش ليه حسيت إنها بنت كانـت تايهة ولما أهلها جابوها لقوهـا متبهدلـة.. شـعرها

منكوش وهدومها متقطّعة.. ووشها متلطّخ ومرهـق وتعبان..

ثم ابتسم وهو يؤكد:

- : أنا على كل حال سايبهم بينضفوها ويلبسوها هدوم جديدة عشان العريس الجديد..

- : قصدك القذافي..؟..

- : أيواااه.. القذافي..

- : وبيروت؟..

- : ست: جمالها مالى الكون.. متكوعة على الجبـل.. وممددة رجليها في البحر.. ورابطة منـديل أخضـر على راسها.. من جمالها أهلها طمعوا فيها.. بيروت هي الست الوحيدة اللـي حيغتصـبها أهلهـا.. زنـا المحارم.. دا من حلاوتها.. للأسف.. أنا سايبهم وهما بيحاولوا يقلّعوها هدومها..

- : عكس طرابلس..؟..

- : عكس طرابلس..

تساءل قاسم:

- : ووين رحت تانى؟.. آه.. بندر عباس؟..

أجاب إبراهيم مهموماً:

- : آه.. بندر عباس واخواتها.. دول بنات حاوين زي القمر.. بس جعانين عشان أبوهم قافل علـى الأكـل وواخده كله لنفسه.. راجل أنانى.. جشع مش واخـد باله أن بناته ممكن يتاجروا في شرفهم عشان ياكلوا.. ياريت كده وبس.. دا بيوزع رزقهم ع الأغراب..

- : تحكى عن شاه إيران؟..

- : أحكى عن زفت إيران..

ثم تنحنح قاسم بخبث وصوب نظرة فاحصة إلى إبراهيم:

- : باقي دبي يا بطل.. إيش تقول في دباااي؟..

واجه إبراهيم نظرة صديقه الفاحصة بنظرة ممتلئة بالجرأة والجدية:

- : شوف.. من ساعة ما علّقتوا صورتى على الجدران عرفت إن انتوا ناس عايشين في خوف.. وافتكـرت على طول الست الجميلة الحلوة الغنية اللي قافلة على نفسها ومش راضية تتجوز علشان الناس طمعـانين في فلوسها.. الست دي يا قاسم بتوصل للحظة جمالها

بيروح وفلوسها بتكون متساويش حاجة.. في حـين إنها لو شالت الخوف من قلبها واتجوزت والعرسـان شغّلوا فلوسها حتكون ست عجيبـة.. عمرهـا مـا تعجز.. وتفضل شباب على طول..

هتف قاسم مستغرباً:

- : يا ا .. يا ا عليك.. إِنْتْ شيطان إِنْتْ.. تِدرى إنك قلت الحين ملخص كل سياسة المستقبل اللي بيخططوا لها.. كأنك كنت جالس مع الحكّام.. عجيب.. عجيب إنت..

- : يا عم أنا ماليش دعوة بالحكّام.. ولا السياسة.. ولا المستقبل.. طلبت منى أكلمك على شـوية سـتات.. كلمتك عليهم.. أقعد حال براحتك..

ثم ملأ صوته بنبرة جادة وحالمة:

- : تعرف يا قاسم؟.. أنا نفسي أشوف كل مدن العالم.. أشوف كل ستات العـالم.. أنـا باحسـد الطيـور.. وساعات أقول: ليه ربنا ماخلقنيش طيـره.. أطيـر براحتى وأبعد عن الناس براحتى.. وأنزل لهـم فـي

الوقت اللي أنا عايزه.. وأهرب منهم في الوقت اللي أنا عايزه..

قال له قاسم:

- : ما فيش غير إنك تبقى زي عدنان خاشـقجى.. دا بنى آدم طاير على طول.. نُص عمره في الطيارة.. وطيارته عبارة عن فيلا متحركة.. فيلا طايرة فـي الهوا.. فيها كل الإمكانيات ولما يتقّل فـي الشُـرب ويكون مطلوب في اجتماع مهم على التليفون بيقـدر يفوق نفسه في دقايق.. يدخل السـاونا.. ياخُـد دش ساخن بالحيل.. ووراه دش بارد بالحيل.. صـدمة.. يعمل صدمة لأعصابه عشان يِفُوق..

سأله إبراهيم باهتمام:

- : وبيحب الستات؟..

أجاب قاسم:

- : ههييه.. حياته كلها ستات.. البيسـين.. أى حمـام سباحة في أى قصر من قصوره ماينزلهوش إلا لمـا يكون مليان بنات من أوروبا.. كلهم عريانين..

تدلى فك إبراهيم من الذهول:

- : إبن الإيبيه.. من أوروبا؟..

وتذكر واقعته الوحيدة التى من هذا النوع الخاشقجى عندما غطس خلف فاطمة في بانيو حمامها عندما فارت المياه الدافئة حولهما من سخونة الأجساد اللاهثة.. والأنفاس الحارة.. وسرح بخاطره بعيداً وهو يتخيل نفسه مكان الخاشقجى المتميز والعامر كونه بالمال والنساء.. وتألم ألماً حقيقياً في داخله عندما سرح به خياله في مأزق حتماً سيواجهه في حمام السباحة إذ كيف ستسعفه قدرته الرجولية على الانتهاء من كل هؤلاء البنات دفعة واحدة.. كيف سيكون منظره أمام الباقيات عندما ينتهى من واحدة أو على الأكثر من اثنتين ويتوقف.. إذن ماذا يفعل هذا الخاشقجى؟.. هل يقبل على نفسه أن يبدو أمامهن رخواً وهزيلاً؟.. أوه.. فهمت.. إن هؤلاء المليونيرات يجلبون المنشطات التى تُشعل حاستهم في مثل هذه الولائم العامرة.. ومادام العلم يحل كل المشاكل الإنسانية ويطاردها لصالح راحة الإنسان فمن المؤكد أنهم توصلوا إلى حل يحفظ للرجل فحولته الدائمة.. حل يضيف لأغنياء المال غنى الرجولة التى لا تهمد..

- : وين سرحت يا إبراهيم؟.. شايفك سارح..؟..

قال إبراهيم ضاحكاً:

- : باعمل مقارنة بـين حمـام سـباحة فيـه راجـل وخمستاشر بنت.. وبين بانيو فيه راجل وبنت..

فهتف قاسم:

- : الراجل اللي في البانيو ده يبقى عدنان.. بس علـى وسخ..

وقهقهه الصديقان لهذه الدعابة ثم نهض قاسم خارجاً مـن الخيمة قاصداً السير في الصحراء فتبعه إبراهيم.. سارا جنباً إلى جنب والهواء يداعب جلباب قاسم وعباءته.. ويقذف بذيل جاكت إبراهيم إلى الوراء.. وظلا يتوغلان في المسير حتى غابا بعيداً عن العيون.. والشمس آخذة في الأفول.. والهواء يحمل إلى الخلاء همس السؤال الأول الذي بعثه قاسـم إلـى صديقه إبراهيم:

- : أبغى أعرف يا إبراهيم قصتك مع عنايات وهـدى وفاطمة.. نسوانك.. المدن حقّك.. المدن اللـي انـت جالس تهجرها.. مدينة.. مدينة..

- ٤٩ -

لم يكن قاسم في حاجة إلى معرفة مواصفات الوظيفة التى تليق بإمكانيات إبراهيم عبد القادر الشخصية ثم الفنية وهـو يعد ملفّاً بأوراقه ليقدمه إلى مكتب رجـل الأعمـال محمـد الفايد..

قال قاسم لإبراهيم: كدت أتحول إلى شاعر وأنـا أضـع مواصفاتك.. وجدت نفسي لا أضـع مواصـفات مهنـدس معمارى قدر ما يجب أن أضع مواصفات لشخصية سندبادية تعشق الترحال والفـرار.. والغريـب أن التعبيـر الوحيـد المتعارف عليه في كل عقود الأعمال لوصف مسمى وظيفة المهندس الذي يشرف على مشروع ما من بدايته حتى نهايته هو " مهندس مقيم ".. أى أن الإقامة شرط ملازم لوجود هذا المهندس على رأس العمل..

- : كيفْ الواحد يِقْنعهم إنك تكون مهنـدس " غيـر " مقيم..

ثم عاد قاسم فتذكر الخواطر التى كانت تهاجمه وهو يعـد توصياته في تقريره وتمنى لحظتها لو كانت هناك مرونة في هذه التقارير الجافة بحيث تسمح له أن يكتب كل ما يعن لـه

من مشاعر كأن يقول لهم: لو كانت بناياتكم عالية الطوابـق فاختاروا له الطابق الأخير لأنه يحب أن يكون قريبـاً مـن الطيور.. ولو كانت لديكم وظيفة تتطلب الترحـال المتكـرر فهي له.. وهو لها.. ولو كان مكان العمل لديكم عبارة عـن طائرة فاحجزوا له وظيفة دائمة عليها.. ولو كان بإمكـانكم إحلال كائن بشري محل جهاز التلكس فليكن هذا الكائن هـو إبراهيم عبد القادر.. فهو كتلة من البـرق المتجمـد والـذي يمكنه أن يسيل عند الطلب..

ولأن قاسم لم يكتب هذه الأحاسـيس - ولا يسـتطيع أن يكتبها - فقد تمكن من طرحها وشرحها بطريقة مداعِبة أمام المدير الانجليزى الذي كـان يتلقـى الأوراق بكـل الحـب والاهتمام من المهندس قاسم أحد أهـم الشخصـيات التـى يتعاملون معها من رجال حاكم البلاد.. وعندما يلمـح هـذا الانجليزى من خلال حديث قاسم أن هذا المهندس المصـري يتمتع باهتمام الشيخ راشد ثم عندما يلمح في نفس الحديث أن قاسماً نفسه تمتع وهو طالب بحب واهتمام هـذا المهنـدس عندما كانا زميلين في كلية الهندسة بالإسكندرية.. وأن قاسماً إذا كان قد خرج من مصر بزوجة - هي درة حياته وألقهـا

البسام - فقد خرج أيضاً من مصر بالتعرف الفعلى على كلمة يسمعها كثيراً وهي " الصداقة الحقة ".. ممثلة فـي شـخص إبراهيم عبد القادر..

لقد كان هذا المدير الانجليزى يصغى باهتمام إلى قاسـم ويشاركه الضحك لهذه المواصفات الفريـدة فـي شـخص صديقه.. والمواصفات الفريدة في الوظيفة التى يتمناها لـه.. وقد تمنى هذا الانجليزى في داخله ألا يكتفى بهذه المشـاركة الضاحكة وإنما عقد العزم أن يشارك في تلك الحميمية وذلك الدفء الإنسانى الذي يطغى على المعاملة لدى أبناء الشـرق وبين بعضهم البعض.. فما أكثر مـا شـاهده مـن اخـتلال الموازين الرسمية وإجهاض معاييرها العلمية مقابل التحيـز إلى تسجيل موقف عاطفى أو إنسانى أو عائلي.. فهذا الميزان الدافئ تهون أمامه كافة الموازين الباردة والجامـدة والتـى يؤديها حاسب آلى ضخم لا قلب له ولا عواطف..

ابتسم الانجليزى ابتسامة متفائلة وطلـب مـن قاسـم أن يوصى صديقه أن يستعد لشيئين: مقابلة مستر فايد بعد ثلاثة أيام وفور عودته من لندن.. ثم يستعد لشغل الوظيفة المناسبة وهي " ضابط الاتصال " بالمجموعة..

وعندما راح قاسم يستفسر عما يختفى خلف هذا المسـمى من مهام وما تتطلبه هذه الوظيفة من إمكانيات زاد الانجليزى من مساحة ابتسامته ثم سأل قاسم بلطف:

- : ألم تطلب لصديقك وظيفة طـائرة؟.. تلـك هـي الوظيفة الطائرة..

وراح يذكّره بما شاهده بنفسه من نجاح الفايد فـي جلـب الشركات الألمانية والإنجليزيـة الكبـرى لتصـميم وتنفيـذ الأرصفة العملاقة وكيف جهز أذرعها الخرافيـة لاحتضـان الناقلات الرهيبة.. ثم ما شاهده بنفسه من قوافل الخبراء التى تهبط إلى البلاد وقد انتقاهم الفايد بناء على طلب الحاكم وتـم التعاقد معهم للتنقيب عن البترول وكيف أن النجاح المطـرد في تفجير ينابيع الخير والكشف عن أسرارها يسير قدماً.. ثم كيف أغرت تلك النجاحات باقتحام مجالات جديـدة لتحقيـق نجاحات أخرى في ظل الثقة التى تزيد وتتنامى فيمـا بـين الفايد وحكّام البلاد..

إن ما يجهز له الفايد من مجال جديد هـو تقليـد الـدول الكبرى في بناء الأبراج العملاقة للسكْنى والأسواق العملاقة للتسوق.. ولم يشغله ما شغل الحاكم من تساؤل عمن سيشغل

تلك الأبراج من بشر يسكنون أو من سيشغل تلك الأسـواق من بشر يبيعون ويشترون.. إن البلاد بالكاد تخطو خطواتها الأولى نحو رفع الطابق الواحد إلى طابقين أو أكثر.. وإزاحة البيوت الطينية الشعبية لتحتل أماكنها فلل صغيرة.. فمـن ذا الذي سيتحمل قلبه أن يرفع بصره إلى أعلا السماء ليشـاهد آخر تلك البناية العملاقة التى سيغرسونها رويداً رويداً حتـى إنها ستنفلت من نطاق مقـاييس القلـب والبصـر؟.. قالـت الدراسة إن المساحة المحدودة للأرض تستدعى اللجوء إلـى فكرة التوسع الرأسي وأن مدينة نيويورك المطرزة بناطحات تتسابق صعوداً إلى السماء إنما أفلتت من حصـار المحـيط وأحد ألسنته.. أما فكرة التعايش مع هذا السـموق القسـرى فسوف تتغلب عليه إرادة التطور والعلو التـى تعـيش فـي داخلنا.. وأنه إن ظلت بناية واحدة مرهوبة الجانـب شـكلاً فسوف تكون بعد سـنوات غيـر بعيـدة مرغوبـة التملـك موضوعاً..

لقد حصل الفايد على الضوء الأخضر لعمل أول ناطحـة تجمع بين السكنى والتسوق.. وهو يعد لطرح تصميماتها بين مختلف بيوت الخبرة في انجلترا وفرنسا وإيطاليـا وألمانيـا

وأمريكا.. ويجهز لطرح تنفيذها بين هذه الدول المتقدمـة.. ويمهد لتلقي عروض مختارة ينتظرها من الدول المتقدمة في كل مجال.. فالإيطاليون أبناء دافنشى ومايكل أنجلو قهـروا مادة الرخام والجرانيت.. والانجليز بلغوا أعلى شأوٍ من الدقة في الأعمال الميكانيكية والكهربائية.. والفرنسيون في اللانـد سكيبنج.. والألمان في البناء بالرافعات العملاقة والأمريكـان هم الخليط من كل هؤلاء.. ولا تنس الهولنـديين وافتتـانهم بالزهور..

وخاص الخواجا إلى سؤال يعرف إجابته عند قاسم:

ألا ترى أن وجود مهندس عربي يحقق الاتصال ويضبطه بين كل هؤلاء شئ مهم؟..

هز قاسم رأسه موافقاً.. ثم راح يتخيل صـديقه إبـراهيم متنقلاً بحقيبتـه السمسـونايت إلـى خبـراء هـذه الـدول وعواصمها.. وحانت منه التفاتة خفيفة الدم إلى الانجليزي ثم سأله:

- : قلت لي ماالسم الوظيفة؟..

فرد الانجليزي بجدية:

- : ضابط اتصال..

وبنفس الجدية سأله قاسم:

- : ألا يمكن أن نسميها (طائر اتصال)؟..

وعندما فهم الانجليزي النكتة ومغزاها أطلق ضحكة عالية اهتز لها صدره السمين.. فبادلـه قاسم ضحكته بنفس الدرجة من العلو دون أن يهتز فيه شئ من جسمه النحيل سوى قلبه الذي انتشى لهذا التوفيق الذي انتهى إليه مسعاه مـن أجـل صديقه إبراهيم عبد القادر.. سندباد النساء.. والمدن..

- ٥٠ -

مضى أكثر من عامين وهو رهن الإقامة في لندن مدينـة الضباب والعراقة.. ولأن قاسم يعلـم أن صـديقه مشـغول بالتحليق في أجوائه الخاصة فلم يشغل باله به.. ولـم يعشـم نفسه بتلقى تليفون أو رسالة من كائن هو يعرف أنه مشغول بالطيران والحب..

ولكنه عندما تلقى تليفوناً من سنترال القصر محولاً إلـى مكتبه بادر فحيا محدثه كالعادة:

- : يا هلا..

وفوجئ أن المتحدث يرد بالانجليزية:

- : هالو مستر كاسم..

وبعد لحظات عرف أن المتحدث هو مستر " كلاوسـتن " أحد الاستشاريين الانجليز وقد جاء لينهى مهمة رسمية تتعلق بعمل جسات تأكيدية للتربة.. ثم حاملاً لرسالة شفوية إليه من إبراهيم.. كل ما فيها أنه بخير وسعيد " ويبلغك السلام "..

تساءل قاسم: هل هذا كل ما استطاعه إبـراهيم.. بضـع كلمات مع خواجة.. وسلام عابر بالانجليزية..؟

وأحس أنه ولا شك محروم من الإطلاع على حياة نابضة بالحركة يعيشها إبراهيم.. ومحروم من حكايـات لا تنتهـي حلاوتها حققها إبراهيم.. ومحروم من مغـامرات صـارت مسجلة ومكتوبة على صـفحة الـزمن عاشـها " بالتأكيـد" إبراهيم.. ولا يعرفها غيره.. وتذكّر قاسم ذلك اليـوم الـذي ذهب فيه مع صديقه إلى الصحراء قبل الأصيل وعادا قـرب الفجر.. عادا وكل منهما في وضع مختلف.. فإبراهيم أرسل من صدره تلالا من الحكايا عن زوجاته الـثلاث.. وقاسـم حمل في صدره شجن أربع سنوات غابها عن إبراهيم وحمل تفاصيلها العجيبة يومها دفعة واحدة.. لقد سأل قاسـم نفسـه أليس من الحرام أن يكون إبراهيم هذا كتوماً ومكتومـاً إلـى هذه الدرجة..؟.. لو لم أساله عن قصص زواجه وزوجاتـه هل كان سيقصها علي من تلقاء نفسه؟.. إننى أشك في ذلك.. فهو لا يجيب إلا بقدر السـؤال.. ولا يميـل إلـى الثرثـرة والاستعراض.. هو يفعل الشـئ.. وكفـى.. هـو مؤسسـة متحركة بلا جهاز إعلام.. هو شـاعر لا ينشـر قصـائده.. وقاص لا يستمتع إلا بأحداث رواياته السرية وحده..

لقد تسال قاسم بقصد وإصرار لمقابلة مستر " كلاوستن " متكئاً على فكرة ساذجة أمسكها في يده.. إنها رسالة مكتوبـة منه إلى إبراهيم يقول له فيها:

" وكنت أظن أنك على الأقل ستسألنى عن مدى اهتمـامى بإرسال ورقة الطلاق الموثقة إلى فاطمـة.. تلـك الخطـوة الأخيرة التى كلفتنى بها قبل سفرك.. ولكنك كعادتـك تـدير ظهرك لكل الأشياء.. حتى صديقك قاسم.. يا أخـى اخـتش على دمك.. وحدثنى في التليفون.. هل أنا أحد أبنائك حتـى تنسانى إلى هذه الدرجة؟.. صحيح أنك نذل.. عمومـاً أنـا أعذرك لعلمى أنك مشغول بتحقيق أول استعمار عربي فـي التاريخ لبلاد الانجليز.. استعمار غرف نـوم الإنجليزيـات بواسطة مندوب عربي متمكن.. حاسب علـى نفسـك مـن الزهرى والسيلان.. هناك واقٍ من المطاط يسـتخدمونه.. لا تفعل مثل الصعيدى بلدياتكم وتلبسه في رأسك.. المخلـص.. قاسم.."

قالوا لمسـتر " كلاوسـتن " إن مهنـدس القصـر جـاء لزيارتك.. فوجئ الخواجا أن ضيفه هو " مسـتر كاسـم "..

واستغرب أن إبراهيم لم ينّوه عن وظيفة صديقه الهامة عندما حمله رسالة شفوية إليه..

في أول المقابلة كان مستر " كلاوستن " – وهـو رجـل متوسط العمر ممشوق الجسم يبدو لمن يشاهده فـي الوهلـة الأولى مهذباً ورقيقاً وخجولاً – متحفظـاً فـي لقائـه وفـي استقباله لأسئلة قاسم حول صديقه إبراهيم وفي ردوده عليهـا حتى أن قاسماً أحس بما يعتمل في صدر هـذا الانجليـزى المؤدب من لجوء مقصود إلى التعامل الرسمى متـأثراً بمـا أضفوه من وصف عليه من أنه مهندس القصر.. فقـرر أن يكسر هذا الحاجز ليغرى "كلاوستن " بالحديث.. فراح يسأله بشكل مباشر عن مدى استفادتهم من إبراهيم معمارياً ومـدى تأثيره في شكل وجوهر التصميمات التى يقومون بإعدادها.. فراح " كلاوستن " يوضـح أهميـة وجـود إبـراهيم فـي مجموعتهم بعد أن قدمه لهم مستر فايد فقد كانت خطـوطهم الأولى تتسم بالعصرية الشديدة أى أنهم بـدأوا فـي تسـكين العرب من حيث انتهوا إلى تسـكين الانجليـز.. فـالمطبخ المفتوح على صالة الطعام إلا من حاجز عـريض يسـتخدم كبار أو سرفيس.. والحمام الوحيد في الشقة الصغيرة موجود

عند غرف النوم.. والمدخل الوحيد للوحدة السكنية يؤدى إلى صالة وحيدة يستخدمها الرجال والنساء على حد سواء.. لقـد كانت كلها أفكاراً خاطئة حتى مستر فايد نفسه كان لا يعلم أن ما وضعناه من خطوط إن هي إلا الخطأ بعينه.. عندما أبدى إبراهيم اعتراضه وتحذيره من أن هذه الوحـدات مصـممة لسكنى الأوربيين وليس لأبناء العرب.. فالعربي لن يقبـل أن تهل زوجته على الضيوف الجالسين في الصالة وهي مقبلـة من الخارج.. ولن يقبل أن تبدو أمامهم متحركة في المطـبخ تعد لهم واجبات الضيافة على مرأى منهم.. ولـن يقبـل أن يتوغل الضيف عند غرف النوم ليستخدم الحمـام الخـاص بالأسرة..

قال " كلاوستن ": لقد انكفأ إبراهيم علـى لوحـة الرسـم بطريقته المعهودة.. وهنا سأله قاسم: أى طريقة عهـدتموها فيه؟..

قال الرجل إن إبراهيم الذى لا يشغل نفسـه بالتـدخين أو الشراب أو الطعام إلا قليلاً إذا جلس على لوحته قلما يغادرها إلا لجلب أحد المراجع أو الأدوات أو الاطلاع على شئ يهمه في لوحة زميل آخر.. باختصار.. إنه أكثر الزملاء إنتاجاً..

وأكمل " كلاوستن".. انكفأ إبراهيم على لوحتـه وأتـى لنـا بتصميم يتسم بالخصوصية.. وقد ناقشناه فـي عيـوب هـذا التصميم من أنه معقد ويتطلب مساحة أكبر.. ففهمنا منـه أن العرب لا يحبون البيوت الضيقة.. وأن الحوش السماوى في البيت الاسلامى القديم كان امتداداً لرحابة البيت المسـقوف.. وأن من يؤمنون بعورة صوت المرأة لن يقبلوا خلطها - في المداخل والصالات والمطابخ والحمامات -.. مع الرجـال.. فالحراملك هو مدخل النساء والسلاملك هو مدخل الرجـال.. وتلك الأسماء ورثها المصريون من الحكم العثمـانى أثنـاء حرصه على التقاليد العربية.. ولابد أن نأخذ في الاعتبار - هكذا قال إبراهيم - - أن ما حرص عليه المصـريون فـي أوائل القرن من ستر وتستر على صوت وشكل المرأة فـي تصميم منازلهم ثم راحوا يتخلون عنه تدريجياً لابد أن نعـود به إلى العرب الآن وهم يجهزون لحياة عصرية جديدة.. فهم لن يعميهم بريق الرخام وارتفاع الطوابق عن مـاهو أهـم: الخصوصية الشديدة..

لقد انتهينا إلى مستر فايد ليرى المساحات المستهلكة فـي مداخل للجنسين وصـالات جلـوس للجنسـين وحمامـات

للجنسين.. ومطبخ يتوسط الوحدة يدير ظهره للرجال إلا من فتحة بحجم قاع الكوب لإرسال خرطوم النارجيلة من المطبخ إلى مجلس الرجال.. ووضع مستر فايـد تصـميم إبـراهيم نصب عينيه.. كما وضع إبراهيم نفسه في عينيه..

ثم تذكر كلاوستن أن المسجد الذي خصصوا له دوراً في الناطحة كانت خطوطه ولمساته مستوحاه بقدر كبير من عقود وفتحات الكنائس في تبسيط عصري.. وأسرع إبراهيم إلـى المكتبات ليأتى لنا بمرجع هام عن المساجد يلتقط منه تفاصيل الكوابيل والمقرنصات والأحجبة والعقود وتفاصيل زخـارف المحراب ويقول لنا ضاحكاً: أراكم تجهزون لمستعمرة جديدة في هذه الناطحة.. ألم تغادروا هذه البلاد وينتهى اسـتعماركم لها منذ سنوات؟.. هل ستعودون إليها بجرسونيرة في شـكل شقة وكنيسة في شكل مسجد..؟.. هل تريدون العـودة إلـى احتلال نفوسهم! بعد الجلاء عن أرضهم؟..

ثم عاد " كلاوستن " يؤكد لقاسم مدى إخلاص إبراهيم في العمل ومدى حبه لزملائه ومدى حب زملائه له..

فاجأه قاسم بسؤال غير متوقع: وزميلاته؟..

تنحنح كلاوستن وكأنه يراوغ الدخول في منطقة شـائكة: ماذا تقصد؟..

أجابه قاسم بخبث وأوضح له أنه مشغول من أجل صديقه إبراهيم الذي كان في بلده مصر يتسم بالخجل والخوف مـن المرأة لدرجة اجتنابها.. ولا يدرى إن كانت هـذه المواقـف المعادية للمرأة قد ظلت على عهدها فيه؟.. فهو يخشى عليـه من المتاعب في بلد اخترع موضة المينى جوب.. وقدم للعالم فريق البيتلز.. والسيارة الرولزرويس..

اتسعت حدقتا " كلاوستن " وهو يسمع هذا التقريـر عـن إبراهيم ثم ارتدى ثوب الفخر بسرعة شديدة وهو يطمئن قاسم عن أنه الآن ولأول مرة يستطيع أن يضع الفتاة الإنجليزيـة ضمن المآثر شديدة الأهمية للإنجليز لكونها قد جذبت واحـداً مثل إبراهيم من عالمه السفلى المقبض إلى عـالم متنـاقض تماماً عالم الحب والانطلاق والمرح والرحابة.. لـيس هـذا فحسب.. إذ يبدو مقارنة بما يسـمعه " كلاوسـتن " الآن أن إبراهيم لم يكتف بالتخلى عن ماضيه فقط.. بـل يبـدو أنـه يحاول تعويض هذا الماضى بنهمٍ شديد بل وبجسارة شـديدة فهو لا يكتفى بصديقة واحدة لفترة طويلة بل يعقد صـداقات

متعددة في فترة محدودة غير عابئ بما يجره عليه ذلك مـن متاعب..

وعندما يتوقف " كلاوستن " عن السرد قليلاً فإنما يفعـل ذلك حتى يتمتم بينه وبين نفسه.. " أوه.. أنـا لا أصـدق أن إبراهيم هذا كان شخصاً مقفولاً.. تلـك سـتكون مفاجـأتى للزملاء الذين يتساءلون عن حقيقة معدنه البشرى..

لقد تعمد قاسم أن يمتطى موجة خبثه المصطنع سادراً في غى الذهول والاستغراب لما يسمعه عن صديقه إبراهيم مـن تحول تاريخي في حاسته تجاه المرأة.. كان قاسم يفعل ذلـك ملقياً بشباكه غير البريئة إلى بطن " كلاوستن " ليجذب بهـا أكبر قدر من الصيد الثمين..

لقد أصبح إبراهيم انجليزيا كالانجليز.. يعشق شاى الساعة الخامسة.. وسباقات الإلبوم.. ولعبة الكريكت.. وجلسات يوم الأحد حول النار.. وحلوى البودنج فـي أعيـاد المـيلاد.. ويطرق المنازل الناعمة لصديقاته الناعمات.. لا يشـاركهن شرب الويسكى الجيد حول المواقد فهو لا يحـب الشـراب ولكنه يشعل مواقده الخاصة فوق الأسرة المخملية.. وبقدر ما كان مسرفاً في عطائه الميسور بغرف النوم المغلقة فقد كان

مسرفاً في هداياه.. جنتلماناً في انتقـاء القـرط المناسـب.. والفرو المناسب.. والبارفان المناسب..

" إبراهيم هذا يا مستر كاسم شـخص لا نعـرف: متـى ينام؟.. أو كيف ينام؟.. روعته أنه لا يقرب الخمر.. لو كان يقربها ضمن ما يقربه من سهر وجنس لكان اليوم هالكـاً لا محالة.. لكن يبدو أن ابتعاده عن مثالبها قد تحول إلى طاقـة تضاف إلى طاقته المبذولة فيما يحبه.. هل تدري أنه طـار إلى الجهات الأربع في المملكة المتحدة.. لقـد حقـق أربـع رحلات إلى أربع جهات مع أربع صديقات.. كل رحلة مـع صديقة بعينها.. في الجنوب قفز من المانش إلى باريس.. ثم عاد فشاهد مدن " كانتروبورى " " وبرايتون" "وبورتسماوث ".. وفي الشمال أطل على الأطلسى من مـدن " فورسـو" " وديك " "ودرنيس ".. وفي الشرق أطل على بحر الشمال من مدن " ساوث " " شيلدز " و"ساندرلاند " و"ميدلز بورج " وفي الغرب أطل على بحر ايرلاندا من " ليفربول" و"برستون " " وسانت هيلز "..

لقد أحسسنا بالخجل لأننا أبناء " غليوم الفاتح " " ويوحنا " و"هنرى الثامن" و"اليزابيث " و" فيكتوريا " تخلينا عن ذائقتنا

التاريخية في حب التنقل والمغادرة وانكفأنـا داخـل بـؤس المدينة الواحدة..

لقد بدأت الغيرة تأكل مشاعرنا الأرستقراطية ونسـترجع عن طريق إبراهيم فكرة الترحال وترتيب رحلة جديدة مثلـه لأجازة نهاية الأسبوع.. أوه.. إذن لا يجب على الانجليز أن يفخروا أنهم احتلوا أمريكا فقط.. لقد فتحوا قلب " إبراهيم آبد الكادر " لحب النساء والمدن.. هذا اكتشاف جديـد.. مسـتر كاسم.. هل تدرى مستر كاسم ماهو الشئ الذي يحب إبراهيم أن يفعله إن لم يجد شيئاً يفعله.. كان يتـرك سـيارته التـى باعها.. ويستقل الباص الأحمر ذا الدورين.. ويحتل كرسـياً في الدور الثانى.. ويطوف لندن في عدة دوائر متصلة يكون في أغلبها نائماً.. كأنه يريد أن يهزم إيقاع الحيـاة السـريع عندنا بإيقاع أكثر سرعة من عنده..

هز قاسم رأسه متعجباً (كأنه) يعرف هذه المعلومات عـن إبراهيم لأول مرة.. وأوصى " كلاوستن " ألا يخبر إبـراهيم أنه قد عرف منه هذه المعلومات: إذ إننا يا أبناء العرب نعيب على أنفسنا سرعة التخلى عن قيمنا الدينية ومبادئنا الشـرقية منغمسين في لذة الغرب – إذا ذهبنـا إلـى هنـاك - دون

حساب لتعاليمنا الدينية.. وأنا لا أريد أن يعرف إبراهيم أننى ضبطته متلبساً بـالتخلى عمـا نحـرص عليـه مـن قـيم ومبادئ!!.."

هز " كلاوستن " رأسه مقتنعاً بروح توصية قاسم وواعداً بتنفيذها.. ثم أضاف من عنده خبراً.. وهو أن كل صـديقات إبراهيم لاحظن أنه كأنما يبحث عن شئ ما وأنه رغم تركيزه الشديد في كل ما يفعله يبدو كالتائه.. وأن تماسكه الملحـوظ رغم المجهود الذي يبذله في العمل ثم في الانطلاق والسـهر يخونه للحظات عندما يتمكن منه الإرهاق ويهاجمه سـلطان النوم فيتولاه الهذيان ويلقى برأسه الثقيلة على صفحة منضدة الرسم البيضاء ويغيب عن الدنيا ساعة كاملة تعلمنـا كيـف نحترم أهمية أن يهنأ فيها براحته المسروقة تعويضـاً عـن ساعات نومه المهدرة..

لقد هرب إبراهيم من ضراوة الخمر وأسلم نفسه لضراوة الحياة.. لقد أفلت من هذيان السكر ووقع تحت طائلة هـذيان البحث عن المجهول.. تقول إحدى صديقاته إنه قال لها أنـه سيظل يطوف العالم باحثاً عنها.. سألته: من هي؟.. قال لهـا مدينة عالية.. يمر السحاب من فوق رؤوس سكانها.. وتلتقط

الطيور طعامها من فوق قبعاتهم.. ثم عـاد فقـال لصـديقة أخرى إن من يبحث عنها ليست هي المدينة كما كان يظـن ولكنها امرأة.. امرأة لا يستطيع أن يصفها.. لأنهـا بالتأكيـد غير موجودة.. ولذا فمأساته هى أنه يداوم البحث بإصـرار عن شئ هو يعلم مقدماً أنه غير موجود..

ضحك قاسم وهو يطرح سؤاله الأخير " لكلاوستن ":

- : هل هذا هو الجنون..؟

أجابه " كلاوستن " بثقة:

- : لعلها عبقرية مدفونة في عقل شارد..

راق لقاسم أن يعيد ترتيب الجملة بشكل آخر..

- : أو لعله عقل مدفون في عبقرية شاردة..

تأمل " كلاوستن " الكلمات الجديدة بأدب ثم هتف:

- : ربما!!

- ٥١ -

لم تمض ستة أشهر حتى وفد إلى دبي مستر " بوننجتون " شريك "كلاوستن " على رأس طاقم الإشراف على التنفيـذ..

وكان أول ما فعله هو السؤال عن المهندس قاسـم ليسـلمه رسالة من مستر " كلاوستن "..

لقد تأثر كلاوستن بحميمـة الشـرقيين ودفء عواطـف العرب وهو يوظف مشاعره الطيبة لصالح طمأنـة صـديق منشغل على صديقه الشارد – كما اتفقا معاً على تلك التسمية – فراح يكتب لذلك المنشغل عن ذلك الشارد..

لقد بدا من خطاب " كلاوستن " – الذي يملك قدرة ملفتـة للنظر في التعبير الأدبي – أنه بعد عودته من لقاء قاسـم – وحصوله على المعلومات المفاجئة عن إبراهيم عبد القادر – راح ينظر بعين جديدة وفاحصة لهذا المهندس المصري الذي انفلت عياره فجأة في عاصمة الضباب.. لقد راق لمسـتر " كلاوستن " هذا أن يكسب ود قاسـم عـن طريـق شـهيته المفتوحة دوماً للتعرف على أخبار صديقه إبراهيم.. فكتب له خطاباً بالتفصيل..

أما مابدا موازياً لهذا الخطاب هو أن مستر " بوننجتون " نفسه وبناء على مشاركة قلبية لصديقه وشريكه " كلاوستن " بات يعرف الكثير عن إبراهيم وعن المحادثـة التـى دارت حوله بين شريكه وأحد أهم الشخصيات في قصر الحـاكم..

ولذا فقد جاء هو الآخر ولديه ما يمكن أن يقـال فـي نفـس الموضوع..

وكان ما فهمه قاسم منهما أن إبـراهيم - بـدلاً مـن أن يستثمر مجهوده الواضح المبذول مع الطاقم في ترسيخ اسمه وشخصه في مجموعة الفايد ويوظف علاقته المتصاعدة مـع الفايد نفسه في الحصول على الترقي والاستقرار - بدا لمـن حوله أنه لا يحمل الاكتراث اللازم بفكرة الاستقرار ولا يبدى الاهتمام الكافي بهذه المسألة.. بل سرعان ما راح يفكر فـي الانضمام إلى أيٍ من المكاتب العديدة التى تعرف عليها مـن خلال عمله في المجموعة والتى تنتشر في عـدة عواصـم متفرقة من العالم الأوروبى.. وربما نكون بحاجة إلى تعبيـر أكثر عمقاً نضعه بديلاً عن كلمة " تعـرف عليهـا " هـذه.. فالتعرف لدى إبراهيم له شكل آخر وطابع آخر ومذاق آخر.. فهو لا يكتفى مثلنا بالمعلومات المكتوبة في بطاقات التعارف والتى تحوى الاسم والعنوان وأرقام التليفونات.. ربما يفعـل ذلك في الحالات التى لايجذبه بريقها.. أما في تلك الحـالات التى يرى أهميتها بحسه الترحالى فهو يخصها بنظرة عـين

الطائر الذي يتأمل ما تحته بتفحص وإلمام ثم ينقض سـريعاً على رزقه..

لقد صوب نظراته إلى إيطاليا واقتطع لهـا وقتـاً ومـالاً لرحلة باع لها سيارته ووضع برنامجها مع صديقته "أولجـا" المهندسة الإيطالية عاشقة الترحال والتى تعمل في مكتـب " فرانكو ألبينى " بروما.. والتى جاءت - ضمن ما تهواه من ترحال - لتزور صديقتها الإنجليزية " ناتاشا " فـي مكتـب المجموعة بلندن.. تلك الزيارة التى التقت فيها بإبراهيم..

مثل هذه الفتاة الإيطاليـة بقوامهـا الممشـوق وسـاقيها المرمريتين اللتين يكشف الجيب القصـير عـن مفاتنهمـا.. وشعرها الأسود الفاحم المنسدل على الجانبين بنعومة أكـدت استدارة وجهها الأبيض المشرب بحمرة خفيفة – كان لابد أن تلفت نظر إبراهيم.. وكان لابد لضحكتها الناعمـة الخافتـة الموحية بأسرار الأنوثة الدفينة أن تحرك مشاعره المتنمرة.. ولم يحرم إبراهيم من وسيلة لبدء مغامرة جديدة هـو يعلـم مقدماً أنه ظافر منها بهذا الملاك القادم من روما.. أولجـا.. التى تحمل وجهاً كوجه الملكات اليونانيات المعبـودات فـي الزمن القديم.. أولجا التى يبدو أنها تسللت إلى هنـا تاركـة

مكانها شاغراً بين فتيات الكارياتيد اللاتى يحملن مقصـورة معبد الأريكتيون على هضبة الأوكروبول المقدسة.. الفتيـات الممشوقات اللاتى نقصن واحدة هي أولجا التى تسللت مـن بينهن إلى هنا..

سرعان ما انهالت على خاطره أنفاس الربى الناعسة فـي جبال الجرانيت في بيامونت.. ورائحة زيت الألوان الساحرة في فرشاة مايكل انجلو.. ورطوبة الأحجار التى تقاوم الزمن في مبنى الكولوسيوم.. ورائحة الصلصة الحمراء التى تغمر خيوط الدخان مع خيوط الإسباجيتى في أطباقها اللامعة التى تعكس أضواء المطاعم الساهرة.. وتخيل نفسه يحيط خصـر أولجا بأحد ساعديه وهما يتحاوران علـى كرسـيين بأحـد مطاعم روما.. أو نابولى.. أو ميلانو..

هو لا يؤمن بالبدايات الساذجة.. ولا بالمداخل العبيطـة.. ولكنه يعشق الاقتحام القوي.. وفلسـفته ألا يبـدو الاقتحـام اقتحاماً.. كما لا يبدو قوياً.. لقد كفاه فقـط أن تبـدأ " ناتاشا " بتقديم صديقتها " أولجا " إلى الموجودين وهو منهم.. وكفاه فقط أن تعطِيهِ أولجا أذنيها لتسمع بعض أسئلته.. ثـم تلاحظ أولجا أن أسئلته تتدرج من نوع العمل الذي تؤديه في

مكتبها.. ونوع المشاريع التى يعملون بها.. إلى إمكانيـة أن تقوم بمساعدته في الحصول على عـروض منافسـة مـن الشركات الخبيرة بتوريد وتركيب الرخام والجرانيت؟.. ثـم تسمع تعبيراً منه عن مدى حسن حظه أنه التقى بها هنا فقـد كان يرتب نفسه لرحلة يزور فيها مصانع بعـض أصـحاب العروض.. ولكنه كان متباطئاً حتى يرى حلاً لمشكلة اللغـة الإيطالية.. فهو كممثل للمالك يستطيع أن يطرح عليها تقـديم هذه الخدمة بمقابل.. ثم قام بتضـفير بعـض مصـطلحات البيزنس مع عبارات الغزل ليكسب قلب وعقل فتاتـه التـى خلبته لبه منذ الوهلة الأولى..

- : عندما أقدم لك فاتورة عن أتعابك في نهاية المهمـة لن يخسر مكتبى نقوداً تناليها عـن مهتمـك قـدر ماكسبته أنا من بهجة العمل معك..

وعندما تقول له أولجا وهي مغمورة بالسعادة:

- : العمل معى؟.. هذا التعبير غير دقيق.. الصحيح هو أن تقول: العمل عندى.. أنت تريدنى في عمل مؤقت عندك..

فيقوم إبراهيم في لمسة دلال مقصودة بتحكيم زميلته ناتاشا فيما بينه وبين صديقتها أولجا:

- : ناتاشا..؟.. ألا ترين معى أننى عندما أسـير مـع أولجا في الشارع.. أليس من المحتم أن يعرف مـن يرانا أنها هي صاحبة العمل وأنا أحد موظفيها..؟..

فتصرخ أولجا في مرح ودلال:

- : أنا أصغر منك فكيف أكون رئيستك؟..

فيجيب بسرعة بلهجة يكتنفها الغزل:

- : القيادة ليست بحكم السن.. ولكن بحكم الجمال..

فترد له المجاملة بسرعة:

- : وأنت الآخر جميل.. وتكمل في سـرها:" جميـل للغاية.. "جميل جداً.. أيها الفرعون..

يقول " بوننجتن ":

لم تهنأ " ناتاشا " بالوقت الذي خصصته لمرافقة صديقتها الإيطالية فقد أصبح هذا الوقت من نصيب إبراهيم والذي لـم ينس في غمرة جولاته مع أولجا أن يصطحب ناتاشا زميلتـه المتزوجة إلى عدة دعوات على العشاء أو الغداء في المطاعم الراقية مبدياً سخاء مقصوداً فوق سخائه المعـروف ليـنعم

بنظرات الدهشة والامتنان.. مـن أولجـا ثـم مـن ناتاشـا وزوجها.. وعندما تسافر "أولجا" يكون في وداعها بالمطار.. لقد أصبح الوداع مؤثراً وعاطفياً دون إدعاء لذلك فهو بالفعل قد غرق في حب " أولجا " ومن المؤكد أنها هي الأخرى قـد أحست بذلك عندما صعدت الطائرة وهي تحـاول أن تلملـم شتات عواطفها.. وعندما جلست طارحة رأسها إلى الخلـف على مسند الكرسى مغمضة العينين مسترجعة لحظات البهجة والمرح والسهر البرئ الذي تمتعت فيهـا بهـذا المهنـدس المصري الجميل.. راحت تتساءل: ماذا حدث؟.. ثم راحـت تبحث عن إجابة لهذا السؤال الذي يعلو من أعماقهـا وتلـك الرجة الخفيفة التى راحت ترفرف بين جنبيها..

ويستطرد بوننتجن:

كنا نقوم باستقبال مكالماتها اليومية ونحولها إلى إبـراهيم على مكتبه ولم يفلح أحدنا في الإمساك بكلمة واحدة يسـمعها مما يقوله لها وكنا نعجب لهذا الحديث الخافت: كيف تسـمعه هي على الطرف الآخر؟.. كان يتحـدث هامسـاً ويتحـدث طويلاً.. يضحك فى هدوء.. ثم يضع السماعة بنفس الهدوء.. ويعود إلى عمله بثقة شديدة وتركيز أشد..

بعدها... طار إلى روما.. وغاب طويلاً.. وعـاد بـنفس هدوئه وصمته ولكنه بدا لنا مشغولاً شارداً آخذاً في ترتيـب أموره الشخصية بجانب أمور العمل معلناً من آن لآخر أمنيته أن ينتهى بأقصى سرعة من تسليم الرسومات للشركات التى رسا عليها تنفيذ الناطحة وعمل عقود العمل لهـم ثـم يقـوم بالبحث عن مدخل مناسب للسيد محمد الفايد حتى يسمح لـه بالانصراف.. وراح يجهز نفسه لإقناع الفايد بأنه لا يهـرب من العودة إلى دبي لمتابعة التنفيذ بعـد أن تـابع التصـميم والترسية في لندن.. ولكنه وجد فرصته السانحة فـي مكـان جدير أن يتمسك به..

كنا نلمس الإعجاب المتبادل بين مستر فايد ذلـك الـنجم الصاعد بسرعة الصاروخ في عالم المال وبين إبراهيم عبـد القادر الذي لم نسمع منه ذات مرة أن له مـثلاً أعلـى فـي الرجال.. ولكن ما بتنا نسمعه من عبارات الإعجـاب التـى يطلقها إبراهيم حول مستر فايد جعلتنا نحس أنه ربما يكـون قد عثر على ذلك المثل الأعلى.. فمستر فايد نفسـه يعـيش فكرة الوطن بطريقته وهي: أن وطنك هو مساحة العالم كلـه طالما لا توجد حواجز تمنعك من اختيار مساحتك الخاصـة

بداخله.. أما عن الأسرة فيجب أن تكون هي قافلتك الصغيرة التى تتبعك في كل حلقات طيرانك... ولذا فقد اكتفى الفايـد بذلك الابن الوحيد الذي أنجبه من سـيدة الأعمـال سـميرة خاشقجى التى كانت بمثابة قاعدة انطلاقه كصاروخ بشـرى والتى لم يستمر زواجه منها سوى عدة سنوات ونسى بعـدها فكرة الزواج وراح يجول داخل تلك الدائرة الفسـيحة التـى أحاط بها نفسه.. دائرة العمل المتصل..

ثمة تشابه بين بين رجـل الأعمـال الكبيـر وموظفـه الصغير.. تشابه استطاع أن يلمحه إبراهيم ويردد عبـارات الإعجاب نحو مستر فايد ولكن مع احتفاظه لنفسـه بخطتـه الخاصة في اقتحام الحياة.. فهو لا يرنو إلى المال والثـراء قدر ما يرنو إلى ارتشاف السعادة كلمـا أتـيح لـه ذلـك.. وسعادته تتجدد دوماً في أحضان مدينة جديدة أو فـي دفء امرأة أخرى..

يقول كلاوستن في خطابه:

كنا نتمنى أن يتحرك إبراهيم مع الطاقم إلى دبي للإشراف على التنفيذ وهي المرحلة العملية والهامة التى يسـعد بهـا المهندسون عندما يشاهدون أفكارهم التـى تحملهـا الأوراق

تتحول إلى كيان ضخم تحملـه الأرض.. ولكـن يبـدو أن إبراهيم من النوع الذي يطوى صفحات كتابه بإصرار من لا يحب أن يعود لمراجعة أي صفحة من صفحاته القديمة.. أو حتى محاولة تأملها لأى سبب.. ومدينة دبي التى كانت إحدى محطات رحلته إلى أوربا يبدو أنها صارت مجرد ذكرى لأنه اختار أن يمضى إلى غايته الجديدة.. مدينة أولجا.. وفتاتـه روما.. أقصد: مدينة روما.. وفتاته أولجا..

- ٥٢ -

كنت قد اتفقت – أنا وحنان – مع فاطمة أن نحجب عـن هدى كل ما لدينا من معلومات وأخبار أصبحنا نتابعها حول إبراهيم.. حتى خبر طلاق فاطمة الذي وقع علينا كالصاعقة اخترنا أيضاً أن نحجبه عن هدى.. ذلـك أن هـدى تعـيش ذكراها مع إبراهيم بشكل حالم اكتفت فيه ببث دعواتها الليلية إلى ا   أن يرده لها بالسلامة.. وقنعت فيه بأحلامها الهائمـة حول الحبيب الغائب تلك الأحلام التى كنا نحـاول ربطهـا بالواقع الذي نعرفه ونتعجب لتلك الرموز التى لا يبقى سوى أن نفسرها لها بما نعرفه..

لقد اتفقنا نحن الثلاثة أن نتركها تنعم بما تبقى لهـا مـن تهاويم الماضي وذكراه وألا نُلهب حواسها من جديد بأمل واهٍ سيفسد عليها متعة الحياة التى اختارتها.. وقد داخلتنـا هـذه القناعة بصحة ما نفعله عندما اتخذنا من موقف إبراهيم نفسه تجاه زوجته دليلاً وحجة.. فطالما أنه لم يفكـر لحظـة فـي محادثتها حتى لكى يخبرها أنه حي يرزق.. فلمـاذا نتـولى نحن هذه المهمة دون أن نقدم دليلاً على ذلـك؟.. ودون أن

نأمل أنه سيؤكد هذا الدليل عندما - يخطئ – ويحقق محادثة ما ذات يوم لها..

لقد اخترنا لها الهدوء والتفرغ لمشروعها النادر الذي تقوم فيه برى ثلاث شجرات بماء الود والحنان.. وهـي لا تفتـأ تردد بين الحين والآخر قولها المتكرر: "سيعود إبراهيم يوماً ليجد في انتظاره ثلاثة رجال من ظهره يقوون صلبه عنـدما يكبر ".. وكلما مرت الأيام ونما الأطفال أمام عيوننا ونمـت مداركهم وظهرت ملكاتهم كلما راودنا إحساس طيـب بـأن أنجح المواقف هو موقف هدى.. وأنبل المشاريع هو مشروع هدى.. وأنها رغم بساطتها تنطوى على عمق رائع ليس من السهل قراءته إلا بعد تفحص شديد..

لقد أوصلتها تلك البساطة العميقة إلى حل لمشـكلة الأب الميت أو الأب الغائب أو الأب الذي ذهب ولم يعـد.. فقـد عرفَتْ أن الحرب هي أكثر الأماكن التـى لا تضـمن فيهـا عودتك إذا ذهبت إليها.. والتاريخ يقول إنهـم ولـدوا قبـل الحرب بقليل.. إذن فلتكن رحلة الأب الطويلة هي رحلته إلى الحرب.. وغيبة الأب الغامضة سببها الحرب..

لقد راحوا يكبرون وقد جبلوا على التطلع اليـومى إلـى صورة جميلة – لرجلٍ وسيم– معلقة على الحائط.. وقبـل أن يتعلموا الأسئلة عنها كانوا يعرفون الإجابة:" إنها صـورة بابا ".. وعندما طالت قاماتهم حتى استطاعوا أن يلمسوا إطار الصورة على حائطها كان إبراهيم – وهو أكبرهم – يؤكـد لهم أنه شاهد والده على هذه الهيئة الجميلة قبل أن يذهب إلى الحرب.. ويتذكر إبراهيم الصغير تلك الزيارة التى شاهد فيها أباه في سيارة حمراء حينما ملّس على خديه براحته الدافئـة ومضى سريعاً دون عودة.. ثم يتذكر إبراهيم الصـغير أنـه انتقل إلى رغد العيش في منزل هدى هانم بعد هذه الزيارة.. فهل من رابط؟.. ويكتشف – تدريجياً – أن ثمة رابطا هامـا وهو أن هدى هانم والمهندسة فاطمة هما أما يوسف ووليـد أخويه الصغيرين من ذلك الأب الغائب.. وقد تأكد له صـحة كل هذه العلاقات عندما شاهد منذ شهور قليلة اللافتة التـى تتصدر مكتب السيدة هدى برأس التين.. فهى تحمـل اسـم الشركة بخط عريض.. ثم تنوه بخط أقـل سـمكاً بعبـارة:" أسسها المهندس إبراهيم عبد القادر عام ١٩٦٨ ".. ويحـاول إبراهيم أن يجمع كل تلك الخيوط المتناثرة.. فهو من مواليـد

عام ١٩٦٨.. وأخواه من مواليد عام ٧٣.. وكلهـم مـن أب واحد لا تجمعهم أم واحدة.. ولكن تجمعهم مربيـة واحـدة.. وأنه لم يجد إجابة لأسئلة أقضت مضجعه..

فلماذا تأتى المهندسة فاطمة إلى منزل الإسكندرية وتقـيم فيه معهم ما شاء لها الإقامة برفقة ابنها وليد الذي تنطلق بـه أيضا ما شاء لها ذلك؟..

ولماذا تتحرك بكل الحرية فيما بين الشقة ومكتـب رأس التين دون أن يجد أمه تتمتع بهذه الحرية في الحركـة بـين أملاك أبيه؟..

ولماذا تحجمت حركة أمه عنايات فيما بين طنطا والقرية دون أن تزوره في الإسكندرية؟..

ولماذا يرى العلاقة مفتوحة بين هدى هـانم والمهندسـة فاطمة اللبنانية.. ولا يراها كذلك مع أمه؟..

ولماذا يسافر هو إلى أمه في طنطا لزيارتها هناك برفقـة السيدة هدى ولا تأتى أمه لزيارته بالإسكندرية؟..

ولماذا يحس دائماً أن أمه تتمتع بدرجة أقل في المعاملة؟..

لماذا يحس بامتعاض يبدو على وجه محمد شاهين ذلـك الشاب اليافع ابن السيدة هدى المقيم دوماً فـي طنطـا كلمـا شاهده في زياراته إلى أمه هناك؟..

ويكتشف الصبى إبراهيم إبـراهيم عبـد القـادر أنـه – وياللغرابة - لا يملك من تميز يحسده عليه أخـواه يوسـف ووليد سوى ما يقصه عليهما من لقاء مع أبيه.. ذلك الرجـل الجميل الذي يشبه نجوم السينما.. والذي ترك مهام الاستعداد للحرب خصيصاً وجاء مسرعاً للسلام عليه.. ثم ذهب إلـى الحرب ولم يعد..

واتضح أن إبراهيم الصغير لم يحرم من قريحـة خياليـة التكوين تجنح إلى مزج الحقيقة بالخيال بشكل نـاعم فـراح يطور من قصة لقائه بأبيه ويوسع من نطاق أحـداثها حتـى يخلب اب مستمعيه: يوسف ووليد.. اللذين لا يملكـان مثلـه موهبة القص ولا ملَكته.. وكثيراً ما كان يعود إلى تكرار ذلك دون ملل مستمتعاً بتلك السيطرة التى مكنته بها هذه الزيـارة من عقلى أخويه..

ثم يعود إبراهيم الصغير فيتذكر ويتأمل روعة اللقاء بينـه وبين أمه وكيف يكون عيداً خاصاً بينهما تُؤثره فيه بالهـدايا

والطعام المنتقى على مرأى من هدى التى تبادلهـا إسـباغ الكرم على إبراهيم في منزله الثانى.. ولكنه لا يدرى سر هذه الأسئلة الطويلة والمتكررة التى لا تمل أمه من طرحها عليه في كل زيارة حول شـكل المهندسـة اللبنانيـة؟.. وشـكل ملابسها.. وهل تجئ مع أحد الرجال أم تجـئ بمفردهـا؟.. وهل تنام كل ليالي زياراتها في غرفة ولدها وليـد أم تنـام خارج المنزل ثم تعود في الصباح؟.. وهـل تتحـدث معـه وتعطف عليه مثل السيدة هدى أم أنها لا تهتم بـه؟.. وهـل تهتم به أكثر أم تهتم بيوسف ابن السيدة هدى؟.. وهل تـأتى لكم جميعاً بالهدايا والحلوى أم تأتى بها لوليدها وليد فقـط؟.. و... ألا تسمعها تتحدث عن أبيك؟.. وإذا تحدثت عنه فمـاذا تقول؟.. وهل هي تتهامس كثيراً مع السيدة هـدى حتـى لا يسمعها أحد؟.. و... ألم تقتـرب منهـا ذات مـرة لتسـمع همسها؟..

ولقد خرج إبراهيم - الذي يحمل الكثير من هيئـة والـده ووسامته- بشعورٍ ساعده فيه لماحيته وذكاؤه أن أمه بقدر ما تحب السيدة هدى إلا أنها تأخذها الغيرة – وليس الكراهية – من المهندسة فاطمة.. ولذا فقد بات يعطى إجاباته بعض مـا

تود أن تسمعه أمه.. كأن يقول لها إن فاطمـة هـذه سـيدة عادية.. وملابسها محتشمة.. وتحبه.. وتعطف عليـه.. ولا تغادر المنزل طوال زياراتها لولدها إلا معنا فـي رحـلات التنزه التى تصحبنا فيها بسيارتها.. وأنها لا تعامـل ولـدها معاملة خاصة أمامنا.. إلى آخر تلك التقارير التى تقترب من الحقيقة ولكنها ازدادت وضاءة وإشراقاً في رسـم شخصـية جذابة لفاطمة بفعل قريحة إبراهيم الموروثة من أبيه..

لقد تمكنت هدى – دون أن يبدو أن ذلك من تخطيطها – من إيهام الأبناء الثلاثة أنهم يعيشون في كنف والدهم.. وأنه بينهم دون أن يروه.. وأنه يسعد بنجاحهم.. ويسعد لهذا الحب والتعاون الذي يتبادلونه فيما بينهم.. ولم تتردد في أن تجلس بينهم على فطور الصباح وتقص لهم الرؤيا التى شاهدت فيها الأب يشير مسروراً إلى الصورة التى حاول ولـده إبـراهيم نقلها ورسمها في كراسته نقلاً من صورة الحائط.. فقد عرف أن إبراهيم هذا يحبه.. بعد ذلك قالت لها المربية إن يوسـف ووليد ظلا طيلة النهار يأتيان بالأوراق والأقـلام ويجلسـان أمام صورة أبيهما محاولين تقليد أخيهم إبراهيم فـي رسـم صورة الأب الغائب.. حتى ينالا حبه مثل إبراهيم.. لحظتهـا

أغلقت هدى الباب على نفسها وراحت تبكى لتغسل عن نفسها وحشة الألم والحزن والأمـل الـذي يضـيع مـع الأيـام المتسارعة..

وعندما خرجت وقد جففت دموعهـا طلبـت مـن وليـد ويوسف أن يعرضا عليها الأوراق التى حاولا فيهـا رسـم صورة الوالد.. وراحت تثنى على ما تراه واختارت مع كـل منهما أفضل ما رسمه وقررت أن تصنع له إطاراً حتى يسعد أبوهما بما رسماه له عندما يعود.. فقط يجب أن يضع كـل واحد اسمه والتاريخ أسفل الرسم..

- : انزلى دلوقت يا مبروكة.. اعملـى لكـل صـورة برواز عند الاستوديو اللي جنبنـا.. أحسـن بـرواز عنده..

ولم تستطع مبروكة أن تفسر لصاحب الاستوديو إصـرار سيدتها على تأطير تلك الخطوط الغامضة بإطـار مميـز.. وعندما فهم الرجل منها أن هذه هي صورة الأب الغائب كما يراه أولاده.. استغرب إلى أي حد نجح الفن السيريالى فـي غزو مشاعر الأطفال وأحاسيسهم ومع هذا فقد قال لمبروكة:

- : على كل حال هي زيادة فلوس.. ستك مش عارفـة تودى الفلوس فين؟..

وأشارت مبروكة بأصابعها الخمسة مفرودة فـي ظهـره الذي أداره لها حتى لا يحسد ذلك العز الذي تعيش فيه مـع سيدتها هدى.. وأولادها الثلاثة..

- ٥٣ -

بنفس الإحساس الذي كان يودع به عنايات ليدخل مدينـة هدى.. وبنفس الترتيب الذي كان يهنأ فيـه بهـدى ويجهـز لدخول مدينة فاطمة.. غادر إبراهيم لندن متجهاً إلى رومـا مدينته الجديدة التى وقعت عينه عليها ليمهـد سـبل حياتـه القادمة بها.. ولم يعد يدرك السبب الحقيقي في إصراره على هذه النقلة: هل هي روما التى نادته أم هي عيون أولجا التى جذبته..؟.. لقد اختلطت الأسباب لديه حتى أنه لم يعد يـرى روما سوى خلفية رمادية هائلة تملأ فـراغ إعـلان ضـخم كأفيشات السينما ولكنها تبدو كذلك خاف وجه أولجا البـارز الذي يملأ المكان بشعرها المنسدل حتـى أكتافهـا ووجههـا المستدير وأنفها الشامخ كملكات الإغريق..

قصد فوراً عنوان أولجا في مكتبها لبدء مهمة مرافقتها له لزيارة مصانع أصحاب عروض الرخام والجرانيت... قالت له أولجا: أنت يا إبراهيم كالجبال الإيطالية فيك حدة وارتفاع وانسيابية وقسوة.. وكرم شديد..

تساءل بدهشة: وما هو كرم الجبال الشديد؟..

قالت أولجا بحب: لقد منحتنا الجبال مواد كريمة جعلتنـا نعشق الفخامة والجمال ووزعت كرمها علينا بطول سلاسلها الممتدة في جسد إيطاليا السامق.. فالجرانيت في " بيامونـت ".. والحجارة المتكتلة في " صقلية " والرخام السماقي فـي " أويجى " والحجر الجيرى في " روما " وضواحيها.. وأفخر الأنواع في محافر جبال الألب.. وكلها هبة الجبال للفنـانين وعباقرة المعمار والمثّالين..

وتوقفت لحظات في تمهل لتلتقط فكرة جاءتها الآن: أتمنى في أجازتك السنوية أن تطير معى شمالاً لترى الكرم الـذي منحته جبال الألب للسهول التى امتدت تحت أقدامها.. يجـب أن تشاهد سهل "البو " بحقوله ومراعيه وقراه ومزارعه التى تتلقى ما تمنحه لها الجبال من ماء يفيض منهـا إلـى تلـك السهولة فيمنحها الحياة.. وسوف أدعوك في هـذه الرحلـة لزيارة مصنع أبي وفندق أمى في الشمال.. يجـب أن تـرى المتعة التى حققها لنا أبي مدى الحياة عندما هاجر بنـا مـن الجنوب القاسي إلى الشمال المزدهر.. فعندما اختار ميلانـو لصناعته لم يخترها لإقامته.. جعلنا نقيم فـي كاسـتروكارو ليقطع ساعة بالسيارة ذهاباً ومثلها في العودة بـين الجبـال

الشاهقة الخضرة.. فأصبح الذهاب إلى العمل متعة.. والعودة إلى المنزل أكثر من متعة..

وراحت تحكى له عن والدها:

عمره الآن خمسة وستون عاماً ومازال مملوءاً بالنشـاط والحيوية.. أنجبنى وهو في سن الأربعين.. كنا في منتصف الخمسينات عندما قرر أن يتركنى وأنا طفلة مع أمى وأخـي الأكبر في " فيزوف " مدينة البركان الذي لا يفتأ يرسل علينا حممه الملتهبة وغيومه الرمادية.. ثم انطلق مع من انطلقـوا نحو الشمال في أكبر هجرة داخلية شهدتها إيطاليا.. كان قـد سئم المجتمع الجنوبى المغلق على أسياده من ملاك الأراضى الشاسعة والخدم المقهورين.. وكان عندما يسأم المشقة فـي ممارسة الزراعة يتجه إلى السياحة في مواسمها فيترك أمى وأخي في " فيزوف " وينطلق شمالاً إلى نـابولى ثـم إلـى جزيرة كابرى ليمتّع زبائنه السياح كل عام بشطائره الخفيفـة من اللحم المشـوى وكاسـاتا الفواكـه.. ورغـم علاقتـه بالزراعة.. وحبـه للسـياحة.. إلا أن عينـه كانـت علـى الصناعة.. فهرع بمدخراته إلى " ميلانو " بعد أن أنجبنـى.. وكانت المدينة آخذة في ترسيخ نفسها كقاعدة صناعية كبرى

تعج بالبنوك الكبرى والشركات الدولية والمكاتب التجارية الضخمة والكيانات الكبيرة.. وكان من الواضح أنه لا مكان لأمثال أبي من البورجوازيين الصغار الباحثين عن مكان في هذا الزحام الموحش.. فالحصول على مسكن مع هذا التدافع البشرى للعمل في المصانع كان حلماً صعباً يهون بجانبه حلم الحصول على عمل في المصنع نفسه.. كان أبي يحلم بإنشاء مصنع صغير لأدوات المنزل الكهربائية.. أو للملابس الجاهزة.. أو المفروشات.. وكان يملك الدراسات المجهزة لأى من هذه المصانع.. وبدلاً من أن يكون الزحام وضيق الفرص باعثاً على اليأس والعودة إلى " فيزوف " لمواصلة صراعه اليائس في الزراعة التى يتحكم فيها كبار الإقطاعيين، استطاع والدى أن يتسلل بمشروعه إلى ضواحى ميلانو واختار مصنعه على أحد الطرق الهامة الموصلة إليها مؤكداً أنها مجرد سنوات قليلة ستمضى وتدخل هذه الضاحية في إطار مدينة ميلانو نفسها.. وحلاً لمشكلة السكن تسلل بسيارته باحثاً عن أجمل القرى القريبة فوجدها هناك على مسافة ساعة تقطعها بين الخضرة الجميلة والجبال المورقة.. " كاستروكارو ".. وعندما شاهد هذه القرية علت في داخله

حاسته السياحية وقرأ الازدهار القادم مسبقاً فاشترى منـزلاً بها له حديقة فسيحة وقام بتحويلها إلى فندق صغير وعزل به مدخلاً يؤدى إلى مسكن خاص لأسرته.. لقد نما هذا الفنـدق اليوم بعد أن شغل المساحة الخالية مـن الحديقـة الخلفيـة.. وتقوم أمى على إدارته..

لقد ظل أبي يؤسس مملكته الجديدة في ثقة وصبر ويعـود إلينا مشرقاً بالفرحة وهو يرى أحلامه تنمو بين يديـه فـي الشمال الفسيح آخذاً في تصفية متعلقاته تدريجياً في "فيزوف " واعداً أمى أنه في اللحظة المناسبة سيعود ليحملنـا جميعـاً إلى عالمنا الجديد.. فهو يربط نمو مصنعه في إنتـاج أدوات المنزل الكهربائية ووقوفه على قدميه بنمـو طفلتـه أولجـا ووقوفها على قدميها.. إنه لا يريد أن يشغله مصـنعه عـن أولجا.. ولا تشغله أولجا عن مشروعه.." فلتكن لك أولجا ".. وليكن لي مصنعى.." هكذا قال لأمى.. ثم أضـاف:" حتـى إتمام نموهما ".

ثلاث سنوات كاملة قضيتها من طفولتى في " فيزوف ".. ومازالت تعلق بذاكرتى صورة لسماء صـافية لا تلبـث أن تتحول إلى لون الرماد.. وصورة أشجار الزيتون الضـخمة

والكرمة والشمندر بألوانها الزاهية لا تلبث أن يعلوها الرماد الآتى من فحيح الجبل.. وأصبحت ذكرى الجنوب في خيالى هي الأب الغائب والجبل القاسي والأشجار المظلومة.. وكـم عرفت إلى أي حد يتمتع أبي بذكاء عبقري عندما اصـطحبنا دفعة واحدة إلى عالمنا الجديد.. لنشهق جميعاً أمامـه شـهقة الفرحة والدهشة والسعادة.. يومها: لم يشأ أن يهبط بنا فـي ميلانو.. فاختار أن يهبط بنا في جنوى لنسـتمتع بمشـاهدة الريفييرا الساحرة وفي سيارته التى انتظرنا بها أحد موظفيه أخذنا طريقنا المحاط بالطبيعة الخلابة إلى " بافيا " التى يقـع بها مصنع أبي قرب ميلانو.. وكم كنا نتوقف لنلتقط الصور التذكارية قرب نهر " البو " الساحر.. وزادت أعداد اللقطات التذكارية ونحن نتجول في مصـنعنا مبهـورين.. وفـي " كاستروكارو " علت فينا شهقة الفرح ونحن نتجول في أرجاء الفندق الصغير الذي ستديره أمى.. وفي الجزء المخصـص لسكنانا أسرع أبي بكل نشوته وقوته فحملنى ضاحكاً مسروراً إلى غرفتى التى اختارها لي قرب الحديقة الأمامية التى تقـع على الطريق الرئيسي المزدان من كـلا جانبيـه بأشـجار الشربين وفي جزيرته الفسيحة تقع أشجار الزيتون الضخمة..

هذه الغرفة حتى الآن هى عالمى الأثير تتغيـر معالمهـا دوماً بتطور سنوات دراستى.. كم كنت أعـود إليهـا بكـل الحنين لاهثة من روما وأنا أدرس العمـارة لأضـيف إلـى مكتبتى بها كتبى الجديدة ورسـوماتى الجديـدة وأشـعارى الأخيرة..

وكم تمنيت عندما اخترت العمل فـي مكتـب " البينـى " بروما بعد تخرجى أن يكون من ضمن منقولاتى هـي هـذه الغرفة نفسها التى حملـت كـل دفء حيـاتى: طفـولتى.. وصباى.. ومراهقتى.. وشبابى..

لقد نجح أبي في رسم طريق أسرته بعناء وصبر وعلّمنـا أشياء كثيرة في هذه الحياة.. أولها: العمل.. وثانيها: العمـل: وثالثها: العمل.. ثم تأتى بعد ذلك فسحة الـنفس والـروح.. والانطلاق إلى عـالم المعرفـة.. السـفر.. والـرحلات.. والمشاهدة.. والقراءة..

إنه رجل ديموقراطى.. هادئ.. رزين.. يوائم بـين مـا يمليه عليه عقله.. وماتمليه عليه عاطفته.. وافق على فكرتى في قضاء أجازاتنا السنوية بزيارة إحدى الدول في عام.. ثم عمل سياحة داخلية في إيطاليا في العام الذي يليه.. وهذا نوع

آخر من المواءمة.. ثم ترك لي حريـة اختيـار رحلاتـى الخاصة.. شرط ألا تتعارض مع رحلات الأسرة الجماعية.. بعد أن انضمت إلينا زوجة أخى وطفلاها.. كما تـرك لـي عمل البرنامج الخاص برحلات الداخل.. وكانـت فرصـتى سانحة أن أشاهد كل ما مر على من أعمال خالدة درستها في فن العمارة.. وكل أوجه الفنون.. هل تتصور أننا ذات رحلة لم نتمكن في أسبوع كامل من حصـر اللمسـات المبهـره " لمايكل أنجلو".. وجيوتو.. وبرونوليتش.. ورافاييـل.. فـي تجميل مدينة فلورنسا.. حتى أننى صحت في أبي: لماذا لـم تختر فلورنسا لصناعتك؟.. لو كنـت راشـدة عـام ١٩٥٥ لوجهتك إلى هذه المدينة..

وراحت أولجا - التى تتحدث إلى إبراهيم وهي تعلم أنـه معمارى مثلها – تسرد له ما يمكن أن يكون قد شاهده فـي كتب العمارة وشاهدته هي في رحلاتها السياحية..

ما أبهج قصر سان آنج على ضفة نهر التيبر الذي عمره ألف سنة.. وما أروع معبد بشوم بمقاطعة كمبانيا الذي عمره ألف وخمسمائة سنة!.. و ياالسحر كاتدرائيـة ميلانـو التـى عمرها خمسمائة عاماً.. هذه الأعمـال الخالـدة ومشـيدوها

العباقرة هم أجدادنا الذين ورثنا عنهم الذوق الرفيع في خدمة الجمال.. وجعل مبدعى العالم يطلقـون علينـا " أسـياد الديزاين ".. وأصبحنا نحب تنظيم الأشياء بدءاً من مكونـات المائدة وانتهاء بتخطيط المدن.. وأصبحنا نحن هواة الـتلاؤم الجمالى.

وتوقفت أولجا لحظة عن سردها الشيق لتاريخهـا الـذي تحبه لتضع أمام إبراهيم حقيقة تعتز بها:

إذا كنت تعلـم أن المهندسـين المعمـاريين والرسـامين والنحاتين الإيطاليين هم الذين قاموا بعمل القصور الفخيمـة في أقطار العالم كله ومنها قصور الملوك في فرنسا وروسيا القيصرية في الزمن القديم.. فاعلم مجـدداً أن الأمـريكيين لجأوا إلى الفنانين الإيطاليين أنفسهم من أجل زخرفة مبنـى الكابيتول في واشنطن.. في الزمن الحديث.

كان إبراهيم ينتظر منها أن تنتهى من سـرد كـل هـذا التاريخ الخاص والعام بكل هذه الشـهية المفتوحـة للسـرد المتواصل ولا يعلم إلى أين ستصل به أو تصل معـه فـي النهاية..

راح يتأملها بعين ليست كتلك العين التى تأمل بها وجهها الرائع ومفاتن جسدها الرصين عندما شاهدها على طاولـة " ناتاشا " في لندن.. عينه الآن تتأمل عقلها وفكرها وحـديثها الذي لا يهدأ.. واكتشف أنها رغم أنوثتها الصارخة لا تملـك غرور التباهي بتلك الأنوثة بل تتعامل معها كأنهـا صـاحبة مقاييس من الجمال لا تلفت الأنظار.. وكأن أنوثتها لا تدخل دائرة اهتمامها.. واحتار إبراهيم في تحليل ذلك.. فلو كانـت مشاعرها المتواضعة تلك من قبيل الثقة فقد كـان يمكنـه أن يقرأ ذلك.. أما لو كانت من قبيل اللامبالاة فهذا يتنـافى مـع حرصها على فخامة ما تلبسه ونصاعة لمساتها في وجههـا وشعرها..

من الواضح أنها تعطى كل شئ حقه.. ولم تنس أن تعطى إبراهيم حقه من الكرم في مدينتها لقاء كرمه الشديد معها في مدينته لندن.. كانت تساعده في حمل الأوراق والكتالوجـات وهي تدور معه على المصانع في روما وضـواحيها علـى ضوء العناوين التى حملها معه.. وكانت تشـجع أصـحاب العروض لإضافة مميزات لشروطهم حتى تغـريهم بإسـناد أعمال الرخام لهم في دبي.. وكانـت تقـدم إبـراهيم لهـم

بالإنجليزية التقديم المشرف له كممثل لصاحب العمل ومتلقى العروض وضابط اتصال بين المالك ومجموعات التصـميم والتنفيذ.. ثم رفضت أشياء كثيرة.. رفضت أن يتولى إبراهيم الانفاق عليها أو على نفسه في وجبات الغداء أو العشاء التى يتناولها معها خارج فندقه.. ثم رفضت أن يسـتأجر سـيارة لمشاويره فاستخدمت سيارتها.. ثم رفضت فـي النهايـة أن تتلقى فاتورة لأتعابها منه كما وعدها في لندن..

كانت تدخل به محلات البتـزا والاسـباجيتى والبطاطـا المقلية وتدفع الحساب معلنة أنها اقتصادية رغـم امتلاكهـا للمال الكافي.. ولا تحب أن تسرف في أموالها لـذا فهـى لا تنشد المطاعم الفخمة.. ثم أفهمته أنها تجيد الطهى.. ولكنهـا لا تستطيع أن تدعوه إلى مسكنها ليتأكد من ذلـك.. " ولكـن عندما تزورنا في رحلتك القادمة وتقيم في فنـدقنا الجميـل بكاستروكارو سيكون لدى الفرصة السانحة لإشـباعك مـن طعامى المميز "

كان يتأملها بقوامها الممشوق وساقها المطروحـة علـى الساق الأخرى في جلستهما على أحد المقاهي المنتشرة على الأرصفة الفسيحة ويتابع حلقات الدخان التـى تنبعـث مـن

سيجارتها الأمريكية ويراها بزاوية بروفيل وقد مدت بصرها بعيداً عبر هذا الميدان الفسيح..

كان يشاغبها فسألها: يبدو أنـك هنـا.. وعقلـك فـي "كاستروكارو "؟..

أشارت له إلى النصب التـذكارى الفخـيم ذي الأعمـدة الشاهقة وتلك العشرات من الدرجات الرخامية التى تصـعد بزواره إلى صحنه المرتفع:

- : هذا المبنى عمره مائة وعشرون عاماً.. لم تسألنى عنه.. أراك لا تسأل؟..

أصابه الحرج.. فقد كان يتأمل جسدها مشغولاً بـه عـن النصب التذكارى.. وخرج من حرجه مسرعاً:

- : ولماذا أسأل؟.. وأنت تقولين كل شئ.. ولن تبخلى على بأي معلومة؟..

شكرته على حسن ظنه وأكملت:

- : لقد شيدنا هذا النصـب لـذكرى الملـك فيكتـور عمانوئيل.. ملك إيطاليا الشهير..

ثم فاجأته بسؤال:

- : إذا كنت ترى أننى لا أبخل عنـك بالمعلومـات.. فلماذا تبخل أنت على بها؟..

- : ماذا تقصدين؟..

- : أقصد أن الإيطاليين أصحاب حضـارة عريقـة.. ولكن المصريين أصحاب حضارة أكثـر عراقـة.. ألستم أنتم الفراعنة؟.. لماذا لم تحدثنى عنهم؟..

قبل أن يرد استأذنته أن تكمل سؤالها:

- : آسفة.. فأنا أطلب منك تاريخ بلادك ولا أريـدك أن تفعل مثلى وتروى تاريخك الشخصى.. ليس من حقى أن أطلب ذلك منك إلا إذا قمت أنـت بـه طواعيـة مثلى..

استخدم طريقة الفهلوة المصرية الشهيرة:

- : أولجا.. أنت تقفين بـي أمـام المعابـد والأبنيـة وتشرحينها لي لأننى في ضيافتك هنا كسائح.. مـاذا يتبقى لي لكى أشرحه لك من معابدنا عندما تحضرين لزيارتى في مصر وأقوم بضيافتك؟.. إذن ما الـذي سأقوله لسائحتى الجميلة هناك.. مادمت سأقوله لهـا هنا؟..

هللت فرحة كالأطفال وهي تصفق بكلتا يديها:

- : صحيح؟.. ستدعونى إلى مصـر؟.. سـترافقنى؟.. سأرتب هذه الرحلة مع أسرتى.. سوف أبلغهم بـذلك من الآن.. شكراً يا إبراهيم..

وأفلت إبراهيم بأعجوبة من خجل كان سيعتريه إذا حاول أن يتذكر مجد أجداده وأعمالهم ليشرحه لها.. فهو لم يشـغل باله بتلك الأمجاد.. أما ما حمد ا عليه أنها لم تتمسك بـأن يشرح لها تاريخه الخاص وجعلت هذه المسألة اختيارية.. فقد كان هناك مزيد من الخجل سيعتريه وهو يبحث عـن شـئ واحد مشرف في جهاد أسرته نحو العلا كما جاهد السـنيور بولس والد أولجا للوصول إلى العلا مع أسرته..

لحظتها أخذه الهم والضيق والشعور بالضآلة لأن أولجـا ألقت به دون أن تدري أمام نفسه يتأملها.. وتاريخه يتأمله.. وهو الذي قد نسى ذلك.. وهو الذي لا يعرف التأمل.. وهـو الذي إذا عرف التأمل ومارسه فلن يجد ما يتأمله.. وهو الذي إذا وجد ما يتأمله لوجده كله حسرة وخيبـة أمـل وحصـاد هشيم..

لقد نظر إلى داخل نفسه بسخرية وتمتم:

- : من أين أتيت لي يا أولجا؟.. ماذا تريدين أن تعرفي عن " السنيور " والدى عبد القادر المنير؟.. الذي ولد على مصطبة هي نفسها التى سيموت عليهـا وهـي التى مازال جالساً عليها الآن بسيجارة ملفوفـة مـن التبغ الردئ ترعى نارها في أصابعه حتى تُذكِّره أن يلقيها جانباً.. ماذا تريدين أن تعرفي عنى يا أولجـا وأنا الذي ما تأملت إلا جمالـك وقوامـك ووجهـك المضئ ولم أتأمل عقلك إلا متأخراً..؟.. ماذا تريدين أن تعرفي عن أسرتى؟.. أبي لم ولن يفعل مثل أبيك فينطلق من الجنوب الأعجف إلى الشـمال السـمين لسبب واحد هو أن أبي هذا لا يعرف الشـمال مـن الجنوب.. أنتم يا أولجا بدأتم مسيرتكم في الصـناعة بعد الحرب كما بدأناها نحن بعد الثـورة.. وحـدثت عندكم المعجزة.. وغابت عنا المعجزة.. فتعالى يـا أولجا لتبحثى معى عن السبب.. ربما يكون السـبب أننا لا نزرع مثلكم أشـجار الزيتـون فـي جـزر الشوارع.. ربما يكون السبب أنكم احتميـتم بـإرث أجدادكم ونحن اختفينا فيه وأخفيناه.. لقد قلت لي يـا

أولجا بكل فخار إن بلادكم هي بلاد الشمس والبحـر والجبال والأماكن المقدسة.. وقلت لـي إنهـا بـلاد الأمس واليوم ووطن المتاحف والآثـار والأغنيـات الرقيقة والمطاعم الشعبية الصاخبة.. هل تدرين يـا أولجا أن كل ماعندكم عندنا..؟.. بل إن عنـدنا منـه المزيد.. إذن فلا تفخرى بكل هذه المظـاهر لأنهـا متكافئة مع مالدينا من مظاهر.. ولكـن يمكننـى أن أدلك على مالم تفخرى به - وهو ميزتكم التى تنقصنا -: إنه العدل.. هل تسمعين عنه؟.. نحن أيضاً نسمع عنه.. ولكننا لا نراه.. أولجا.. يا ملاكى الهابط تـواً من عالم اليقظة لتحركى عقلي السـادر فـي عـالم الغفلة.. دعينى أخلو بنفسي.. دعينى أسـافر بلسـان الغافل الذي يلهج بشكرك.. وأرجـوك.. أرجـوك.. حدثينى في التليفـون.. حـدثينى كثيـراً.. حتـى لا أنساك..

- ٥٤ -

تذكر أنه منذ اثنى عشر عاماً سطا على قلب فتاة لبنانيـة في حضور أمها من خلال كلمة واحدة لذات الأم.. كانت هذه

الكلمة هي اسم شادى.. وعنـدما راح يسـترجع الأحاديـث الطويلة لفتاته الأثيرة أولجا كان يبحث فيها عن مدخل يمنحه الفرصة لحديث في العواطف.. ولاحت له الفرصـة عنـدما تذكر ما قالته عن نفسها أنها تكتب الشعر.. ورغم أنه كـان يرفض الشعر مثلما رفض السياسة وتخلـى عـن الطـرب وتخلى عن كرة القدم فقد قرر أن يلج إليها عبر هذا البـاب الشفيف..

قال لها محاولاً استدراجها إلى منطقته:

- : يقولون إن ترجمة الشعر من لغته الأصلية يفسده.. ومع هذا فأنا أدعى أننى سأحس بشعرك الإيطالي إذا قدمته لي بالانجليزية..

وكذب عليها عندما سألته بشغف إن كان يحب الشـعر.. ولكنه لم يستطع أن يثبت ذلك عندما طلبت منه أن يلقى عليها بعض ما يحفظه.. فقد تعلل بعجزه الغريب عـن حفـظ أى شئ.. خاصة الشعر..

هزت رأسها آسفة وراحت تبثه عبـر صـوتها الرقيـق وملامحها الحالمة بكلمات تاه في معناها ولكنه أحس بقيمتهـا عبر هذا الصوت الرقيق وتلك الملامح الحالمة..

وتذكر مراكب الجندول البطيئة

ودراجات الشغب المعربدة

وصخور الدولوميت

وكلماتنا المنمقة

وأحاديثنا التى نتبادلها بالأيدى

والأصوات العالية

وسوف تنام هانئاً

عندما تحتفظ في سمعك

بصدى أغنياتنا الرقيقة

وصوت الماندولينا النابوليتانية العذبة

لسوف تنام هانئاً

مستقبلاً أحلامك السعيدة

لأننا بلد الأحلام

أثنى على ما سمعه منها وكله غيظ إذ لم يجد في شـعرها ما يصبو إليه من كلمات يعلم أن الشعر في العالم كله مملوء بها.. كلمات العشق والغرام والوله وفراق الحبيب.. وتمنـى لو واتته الجرأة في أن يصارحها بأن هذه الأشـعار تـذكّره

بعبارات الدعاية السياحية.. تمنى لو فعل ذلك حتى يستثير فيها مكامن الشعر الذي يسمع عنه.. الشعر الذي يجسد مشاعر الرجل تجاه الأنثى.. أو الأنثى عندما تناغى الرجل..

حاول أن يستزيدها القول وهو يزيدها الثناء الزائف حتى يصل إلى بغيته الخبيثة فبدا وجهها متهللاً وهو يحمل براءة ما تورطت فيه من انخداع دون أن تدري..

أيتها العجلة الأمريكية القاسية

رفقاً بعظام العظماء

لا تدورى على رفاتهم

ألأنهم ليسوا من أبنائك؟..

أو لأنه قد ضاعت منكم الفرصة – وللأبد –

أن تقدموا للحضارة الإنسانية

واحداً مثل ميكافيللي

وعظماء آخرين مثل

جاليليو وبترارك وبكاسيو

هل يكفيكم فخراً أن قدمتم للبشرية

صورة شائهة

لراعي البقر الشهير؟

كاد أن يضرب رأسه في الحائط.. فقـد واصـلت مـن إغاظته دون أن تدرى.. فبدلاً من أن يراها تطارد مشاعرها الأنثوية لتكون مدخله إليها يجدها تطارد آيات المجد والتاريخ والعظمة التى تحملها في قلبها لوطنها.. وراح يستعيد أسماء من ذكرتهم من عظمائها الخالدين.. ميكافيللي..؟.. يعرفـه.. وجاليليو؟.. أيضاً يعرفـه.. ولكـن مـن همـا بتـرارك.. وبوكاسيو؟..

قالت له وفي صوتها نبرة أسى لأنه لا يعرفهما:

- : بترارك هو رائد التيارات الشعرية الجديـدة فـي إيطاليا.. أما بوكاسيو فهو رائد فن القصة..

أخذه الخجل وهو يقدم لها اعتذاره:

- : أوه.. الشعر، والقصة؟.. آسـف لأنهمـا خـارج اهتماماتى..

لقد منحها مفتاح الغرابة وهي تتأمل فرعونها الجميل الذي انبهرت بوسامته وأسلوبه العذب في مخاطبة المـرأة.. لـو كانت السياسة وربما تاريخ المعمار خارج اهتماماتـه كمـا عرفت من قبل.. والآن هي تسمع منه أن الشـعر والقصـة يقعان أيضا خارج هذه الدائرة.. إذن ماذا يا تـرى سـتلقاه

مستحوذاً على اهتماماته..؟ " أخشى أن يكون إناء الاهتمـام فارغاً لديه.. " هذا ما قالته لنفسها وهي تؤجل فكرة اقتحامها له حتى تعثر على اللحظة المناسبة.

انتظرت منه أن يعلق على إحدى قصيدتيها بعد أن عرف منها اسم رائدى الشعر والقصة فلم تجد منه ما يشـير إلـى رغبة في ذلك وكأنه لم يسمع شيئاً.. فاهتاجـت مشـاعرها واختارت أن تناقشه في الحادث الذي طغى علـى مقـدمات الأنباء العالمية مساء اليوم والتى كانت تستعد أن تبـدأ بـه جلستها معه لولا أنه قد انعطف بها نحو الشعر..

- : يبدو أنك لم تعلم أنه مات؟..

- : مات؟.. تقصدين من؟..

- : رئيس بلادك.. السادات..

تحرك منزعجاً على مقعده.. تحـت تـأثير المفاجـأة.. وهتف:

- : متى؟.. وكيف مات؟..

فهمت أنه لا يتابع قنوات الأنباء في فندقه:

- : اليوم.. قتله بعض الشيوخ..

تساءل: شيوخ؟.. من هم هؤلاء الشيوخ؟..

أجابته: رجال لهم لحى طويلة..

هتف: الإسلاميون.. أوه.. إنهم هم.. يا ا !!هـل قـ ـُتل على أيديهم؟.. أتاك هي النهاية؟..

وألقى وجهه بين راحتيه حزناً وألماً..

راحت تهدئ من ألمه وهي تسأله:

- : ولماذا أسميتهم بالإسلاميين؟.. هل الإسلام عنـدكم يبيح القتل؟..

هتف معترضاً:

- : لا.. لا.. إنهم يتمسحون بالـدين للوصـول إلـى غاياتهم السياسية؟..

هتفت هي الأخرى:

- : أوه.. ميكافيلليين؟.. جعلوا الإسلام وسيلة!!

أيدها فوراً:

- : بالضبط..

ثم راح يتذكر ما تأمله ذات يوم من توجهٍ بدا للعيان فـي شخص السادات وسياسته عندما أدار ظهره لأبنـاء العـرب محدثاً قطيعة فجة معهم حتى يعطى وجهه لأبناء صـهيون.. يومها أيده بقلبه قائلاً:" دعوه يفعل شيئاً.. فأنتم لا تفعلون أى

شئ ".. ولكن يبدو أنه كان مطارداً ممن لا يؤيدونه بقلـوبهم أو عقولهم..

قالت له أولجا: إنهم الأمريكان..

سألها: ماذا فعلوا به؟..

أجابته: تركوه يموت.. مثلما تركوا شاه إيران لمصيره..

عاد فسألها: ولماذا يفعلون ذلك؟..

أجابته فوراً: لأنهم انتهوا من توظيفه لصالح أغراضهم.. مثلما وجدوا شاه إيران لم يعد صالحاً لهم..

تساءل في ذهول: ألهذا الحد؟..

واجهته بلهجة رقيقة لا تخلو من لوم:

- : كنت أظنك ستفهم ذلك من خلال قصيدتى الثانية..

علا في داخله صوت ريفي متأوف:" تانى؟!!.. قصـائدك مرة أخرى؟.. ارحمينى ".. ولجأ فوراً إلى الفهلوة:

- : لا.. لا.. لقد فهمت.. تلك العجلة التى يركبها راعى البقر ويطحن بها العظام.. كيف ذلك؟.. لقـد فهمـت طبعاً..

أبدت بعض السرور لا لأنه قد فهم ولكن لأنها جذبته إلى النقاش..

قالت له: لعلك تعلم أننى لا أقصد بالعجلة في شعرى تلك المركبة التى نعرفها بشكلها المادي.. ولكنه الإسقاط الـلازم نحو دولة بلا حضارة لم يعد لها هم سوى سـرقة وتشـويه الحضارات العريقة.. ومنها حضارتكم.. وحضارتنا.. وهـا هي نتائج مساعيهم الخبيثة في العصر الحديث.. كم حاكمـاً مسلماً قتل بيد أحد رعيته في تاريخكم؟.. ومتى حدث ذلك..؟

راح يتذكر فأسعفته معلوماته الأولية في وقت وجيز:

- : منذ ألف وأربعمائه عام قتلوا الخليفة عثمان وقبلـه قتلوا الخليفة عمر بن الخطاب.. كان ذلك فـي بـدء الاسلام..

قالت له:

يمكننى أن ألمح في هاتين الـواقعتين اللتـين لا أعـرف تفاصيلهما عدم وجود محرض أو طرف ثالث بـين القاتـل والمقتول.. ولو كان هذا قد حدث في بدء الإسلام فربما يكون ذلك مرجعه إلى تصاعد العداء التقليدى لأى دعوة جديـدة.. والآن وقد استقرت دعوة الإسلام فكيف يقتل أحـد الرعيـة حاكمه؟..

راح يستفسر منها:

- : إذن فأنت تشيرين إلى أمريكا بأصابع الاتهام..
- : هل ترى سوى ذلك؟..
- : وهل هناك سوى أمريكا؟..
- : أجل.. هناك اليهود.. خصمكم التقليدى الآخذ فـي تعطيل مسيرتكم.. لا تنس سؤالك الحائر حول نجاحنا في إحداث معجزة صناعية.. وتعثركم في عمل نفس المعجزة رغم بداياتنا في نفس التوقيت.. ورغم ثقـل مهمتنا في إزالة ما يعوق ساحة الانطلاق من آثـار أحدثتها الحرب العالمية.. ذلك الشئ الذي لم تتعثروا فيه مثلنا..

وراحت أولجا تفنّد وتشرح وتؤكد وتثبت كل ما تقوله بما تملكه من ثقافة رحبة وهو يتأمل رأسـها الجميـل وثغرهـا الوضاء الذي يفتر عن أسنان كاللؤلؤ.. وعـاد لتأمـل هـذا الرأس الجميل قائلاً لنفسه.. " مازلت سطحياً يغرينى جمـال المظهر.. ولا يعنينى جمال الجوهر.. هذا رأس ثمين.. وماذا عن أثمن ما فيك أيها التعس.. هل هي رجولتـك؟.. اشـبع بها.. فليس لك أن تعرضها إلا في أسواق الغوانى.. أما هنا.. فقد بانت سوءتك الفكرية أمام أولجا.. أولجا التى لم تلمح فيك

حتى الآن أى ميزة.. حتى كرمك العربي الشهير ردت عليه بكرم أوربى عاقل.. وحتى إغراء المال الذي حاولت أن تلقيه في طريقها داست عليه ورفضت تناولـه لتُرسـخ كرمهـا العاقل.. أولجا يا إبراهيم اكتشفت أنك تعانى من خصاء شديد في الفكر وترهل شديد في قوام سيف ذائقتك الثقافيـة.. لقـد جلَستَ إليها أيها المسكين وأنت تبحث عن طريـقٍ لسـيفك الآخر فذبحتك بسيف عقلها البتّار.. ما أشقاك أيها الخصى؟.. وما أتعسك ولم يظهر منك أمامها سوى سوءة الجهل والغفلة وظلام الإرث الممقوت.. إرث الركود واللامبالاة ومطـاردة وهم الرجولة.. وأسطورة الفحولة.. وبوح النفوس الجائعـة للجنس على دفوف ألف ليلة وليلة.. ثم الهروب مـن الـذات إلى أوكار اللذات.. والانفلات من قبضة الأرض العطشـى لعطاء الجوارح إلى تسلق قمم الأشجار البليدة فـي أنصـاف الليالي.. وسفح الدموع الكاذبة حزناً على الحظ العسر الـذي حرمك من المال ووهبك الفقر.. الحظ الذي جعلك تنحدر من ظهر أب غيبه الفقر في عالمه.. وغيبه الجهل عـن عالمنـا ..!"

" لقد عدنا إلى الحظ يا إبراهيم لنسأله عن سوء ما فعلـه فيك فقال لنا وهو يبحث عن اسمك في دفتـر المفقـودين.. إبراهيم.. إبراهيم.. عبد القادر.. المنير.. أوه.. هـذا هـو.. كان من المقدر له أن يكون أحد ثلاثة تسمع الأقوام عـنهم.. ولكنه لم يلتفت إلى حنجرته الدافئة التى كـان سـيحتل بهـا مكانة عبد الحليم حافظ.. ولا لرأسه وقدميه الكرويتين التـى كان سيحتل بهما مكانة صالح سليم.. ولا لعقله الذكى الـذي كان سيحتل به مكان مصطفى مشرفة.. لقد التفت إلى أتفـه أعضاء جسمه وأقواها.. حاولت أن أثنيه عن ذلك منذ طفولته فلم يرعو.. لقد تركته لشأنه.. فاتركوه – مثلي – لشأنه.. ولا تخدعكم أحزانه.. وانتظروا ما سوف يلقاه.. مسكين.. فسوف يكتشف بعد فوات الأوان أنه راهن على الـوهم.. وطـارد المدن والنساء ظناً منه أنها الأحضان.. وهو لا يعلـم أنهـا الأحزان.. كل الأحزان.. "

***

- ٥٥ -

في الصحن العميق لشاطئ ستانلى المتعـدد الطوابـق.. وأمام كابينة في الدور الأرضى كانت هدى وفاطمة تجلسـان للاستمتاع بالشمس الحانية القريبة من ظـل الكبـائن وهمـا ترقبان الأولاد على الرمال القريبة يلهون ويتصايحون.. لـم تعد المرأتان بحاجة إلى التأكد من أن إبراهيم ابـن عنايـات يتولى دور الأخ الأكبر الحقيقي لأخويه ويحنو عليهما بشهامة الريفيين التى اكتسبها من نشأته الريفية طوال سبع سـنوات عاشها مع أمه في القرية حتى انتقل مبهوراً وسـعيداً إلـى حياته الجديدة مع هدى.. ولم تعد المرأتان بحاجة إلى التعرف على عمق ذلك الحب الذى يكنه ولداها يوسف ووليد لأخيهما الأكبر إبراهيم..

كانت هدى تتحدث عن مدرسة الرمـل الثانويـة التـى اختارتها لإبراهيم في أول عهده بالتعليم الثـانوى.. وتعـود فتتحدث عن المتاعب التى تَلْقاها في السـوق مـن ضـراوة المنافسة مع عتاة المستوردين الذين يتهربون من الجمـارك في بقايا هجمتهم الانفتاحية التى من المتوقع أن تتراجع بعـد

مرور عامين على موت السادات وانتهاء نفوذ رجاله ومنهم أفراد أسرته..

كانت فاطمة – التى لم تتـزوج ثانيـة – ترنـو بعـين الذكريات إلى واجهة شقتها في إحدى العمارات المطلة على الشاطئ.. شقة الزوجية أيام طليقها إبراهيم طائرها الشـارد وذكر العش الثرى الذي ترى أفراخه اليتيمة – دون يـتم – تلهو على الرمال وفي داخلهم ألم دفين.. فهم لا يملكون مـن الأب إلا صورته.. ومن ذكراه إلا ما تحكيه لهم هدى هانم أم الأمهات..

هناك حديث محبوس في صدر هدى تتمنى لو أطلقته الآن وتخلصت من ضغطه المكتوم في نفسـها.. إلا أنهـا وفـي مسلسل هرج الضحكات التى تعودت عليه منى ومن حنـان وفاطمة تعلّمت كيف تخفف من ذِكْر الأحلام التـى لا تفتـأ تقصها علينا كلما قابلناها..

قالت لنفسها: ما معنى أن يأتينى إبراهيم في شكل طـائر جميل عريض الصدر له ريش زاهى الألوان مملوء بالحيوية والبهاء؟.. وما معنى أن أراه أمامى يتقافز في نشاط ثم يطير في انسيابية فتطير روحى خلفه في الفضاء لأراه يمرح فـي

حب فوق الأشجار العالية؟.. وما معنى أن يخفق قلبي مـن الخوف وأنا أراه ينتقى أشجاراً تبرز من أغصـانها أشـواك طويلة؟.. وما معنى أن أراه يطوف حولها وكأنه في غيبوبة ناسياً ما يقترب من صدره من أشواك منتصبة كالرمـاح؟.. إنه لا يسمع صرخاتى.. لا يسمع نداءات تحذيرى.. يبدو أن صرخاتى ونداءاتى لا تصل إليه.. يبدو أنها في الأصل لـم تخرج من حلقى.. يبدو أنه لا يرى الأشواك التى تقترب من صدره الجميل العريض.. يبدو أنه لا يـرى هـذه الشـوكة الطويلة الحادة المشرعة في الهـواء.. إنـه يـنقض عليهـا سريعاً.. إنه يتجه بإصرار إلى هذه الشـوكة الحـادة.. إنـه يواجهها بصدره.. إنه يرشق صدره فيها.. لقد نفذت الشوكة إلى قلبه.. ها هو صدره الجميل قد تضرج بالـدماء.. إنـه يصرخ.. يصرخ.. يصرخ.. وها هى صـرخاته تخفـت.. تخفت.. تخفت.. لقد مات.. مات الطائر الجميل.. ها هو قـد تدلى في الهواء على قمة شجرة الشوك العاليـة معلقـاً فـي إحدى الأشواك البارزة..

ارتعشت وهي في جلستها عندما تذكرت مأسـاة الطـائر الجميل الذي أرسل إليها آهاته الأخيـرة قبـل أن يمـوت..

تعجبت فاطمة لتلك الرعدة التـى ألمـت بجسـد صـديقتها للحظات ثم زالت.. انحنت عليها وسألتها عما يلم بهـا مـن ألم.. فأعادت هدى سرد حلمها الدموى على فاطمة بعـد أن فاض بها كتمانه..

حاولت فاطمة أن تخفف من وقع هذا الحلم عـن هـدى فراحت تحدثها مسترجعة ما قرأته مطابقاً تماماً لحالـة هـذا الطائر وأن ما حدث معه في حلم هدى هو نفس ما يحدث في واقعه اليومى.. إنه طائر الشوك الذي يختـار نهايتـه بيـده فيطوف على جميع الأشواك ليختار منهـا شـوكته القاتلـة فينقض عليها بصدره.. وعندما تنفذ الشوكة إلى قلبه وتتدفق منه الدماء يرسل إلى العالم صرخته الأخيرة.. الصرخة التى تعلن عن نهايته.

كانت فاطمة - محتمية في ثقافتها – تؤكد لهدى طبيعـة هذا الطائر.. ولم يكن لدى هدى ما يمنعها من تصديق ذلـك إلا أنها تعود فتسأل: ما مغزى ذلك؟.. ثم تعود هدى فتطرح على نفسها مفردات حلمها المقبض.. فالطائر هو إبـراهيم.. والأشجار العالية هي غربته.. والأشواك هي قسوة القلـوب حوله.. أما الدماء فهي - كما تسمع – تُفسد الحلـم وتلغـى

حالة الموت الموجودة فيه.. إذن فإبراهيم مازال علـى قيـد الحياة.. إبراهيم لم يمت.. ولكنه في مأزق.. وعندما ترتـاح لتلك التفسيرات تعود فتطرحها على فاطمة التى توافقها على كل شئ ماعدا شيئاً واحداً وهي أن الأشواك التى تقصدها لا ترمز إلى قسوة القلوب حوله بل إلى كثرة النسـاء حولـه.. فتسألها هدى عن مدى تأكدها من أن الشوكة في الحلم تعنى المرأة.. فتجيبها فاطمة بأنها تعتقد ذلك لسببين.. الأول هو أن هدى أكدت أن الطائر هو إبراهيم.. وما دام هو إبراهيم فلن يحاط إلا بالنساء.. أى الأشواك.. والثانى أن الشوكة نفـذت في القلب.. وبهذا يكتمل الرمز.. فالمرأة لا تدخل إلى الرجل إلا من قلبه.. ثم راحت فاطمة تحيط تحليلاتها بروح الفكاهة حتى تنتزع هدى من أوهامها فتؤكد لها أن إبراهيم إذا كان قد اقترن بثلاث نساء في عدة سنوات فمن المؤكد أنـه عـرف أكثر من ثلاثين امرأة في هذه السنوات العشـر.. إبـراهيم عالمه ملئ بالأشواك يا هدى.. الأشواك تـدخل فـي أقـدام الناس.. ولكنها تدخل في قلب إبراهيم.. لأن إبراهيم يمشـى على الأرض بقلبه..

لم ترتح هدى لتلك التحليلات كما لـم تـرتح مـن قبـل لعبارات النقمة وخيبة الأمل التى تعاود فاطمة إرسالها حول سيرة إبراهيم من آن لآخر.. ولكنها في هذه الجلسة أكـدت لفاطمة أن غياب إبراهيم ليس هو الموت.." فإبراهيم حـى.. إبراهيم كان معنا وكان بعيداً عن أهله وتركهم يعتقدون أنـه مات.. لأنه قرر أن يبتعد عنهم.. إنه يفعل معنا نفس ما سبق أن فعله مع أبيه وأمه وأخيه.. لعله انتقام السماء منـا لأننـا استحوذنا عليه ونسينا نصيب أهله فيه.. هناك من يسـتحوذ على إبراهيم يا فاطمة.. هناك من جعله ينسانا ".. وهنا تعود فاطمة إلى مرحها المصطنع وتؤكد لها صدق تفسيرها لحلمها مادامت هي تؤكد أن هناك من استحوذ على إبـراهيم.. أى على قلبه.. إذن فهى امرأة.. وتبعاً للرمز في حلمها.. فهـى شوكة..

وتنظر إليها هدى في بلاهة.. وتتمتم لنفسها:

رائحة إبراهيم تهل على من بعيد.. كما كانت رائحتى تهل عليه في الإسكندرية.. وأنا قادمة إليه من طنطا.. إبراهيم في الطريق.. إبراهيم في الطريق.. إلينا.. إبراهيم في الطريـق إلينا... يا فاطمة.

- ٥٦ -

أولجا: تلك الفتاة الرقيقة لم تتحيز لرقتها وتنصرف إلى أنوثتها قدر ما تحيزت وانصرفت لتطبيق كل ما تعلمته من أبيها من تحويل الأشياء.. وتشغيلها.. فهو الرجل الذي حول وجهته من الجنوب إلى الشمال.. وهو الذي تحول من الزراعة إلى الصناعة.. وهو الذي حول منزلاً ريفياً إلى فندق كبير.. وهو الذي حول المواد الخام في مصنعه إلى ثلاجات وغسالات وأفران.. وهو الذي حول أيام شبابه القاسية إلى أيام هانئة في خريف عمره.. إنه بولس ماستريانى ليكيشو.. مثلها الأعلى وصديقها الحميم.. به شموخ الجبال ورحابة الوديان ورومانسية الربى الحالمة والمكللة بالندى في غَبَشْ الفجر.. يؤمن بمجد بلاده ويقرأ تاريخها ويتعقب آثاره.. وكما قالت عنه أولجا من قبل فهو المتمكن - وبكل تحضر - من رسم الخط الحريرى بين نداء العقل ونداء العاطفة.. فتحمل قسوة البعاد عن أسرته حتى يجهز لهم عالمهم الجديد ينقلهم فيه إلى الشمال الزاهي من الجنوب المتجهم..

حاولتْ أولجا أن تتخيل فرعونها الجميل إبراهيم حـاملاً لتلك السمات البارزة في شـخص والـدها.. وتمنـت لـو استطاعت أن تصيبه بهذه العدوى.. فلقد عرفت من صديقتها " ناتاشا " الإنجليزية أن إبراهيم يحب النساء ويقبـل علـيهن بنهم شديد وأن هذا الإقبال يشير – من فرط غرابته – إلى ما يمكن أن تسميه عقدة.. وأن هذه العقدة صرفته عن التـزود بأشياء كثيرة.. وهي لا تنكر ما لمحته في عينيه مـن شـبق ورغبة وهو يأكل جسدها خلسة بعينيه.. كما تعتـرف أنهـا أغلقت باب قلبها ووارت عاطفتهـا وسـارت فـي دربهـا المحبب: وهو أن تتناول الأمور بشكل عملى وأن تركز على مهمتها معه.. ذلك أنها تمكنت مـن تجاهـل ذلـك الطـرق الخفيف وذلك النقر العصافيرى التى باتت تحسه يعلو علـى باب قلبها.. قالت لنفسها:" لن أكون واحدة ممن مررن فـي طريقه ومضين عنه ومضى عنهن ولن تخور قـواى أمـام وسامته ودعوته إلى الحب تلك المقـروءة فـي عينيـه دون غموض.."

كم تمنت لو احتفظت به.. وكم تمنت لو صـمد أمامهـا، وكم تمنت لو استجاب لمزايا عقلها الـذي إذا تربـع داخلـه

فسرعان ما سوف يتربع داخل قلبها.. قالت لناتاشا عنه: إنه تمثال فرعوني جميل يفتقد بعض الطرقات الخفيفة التى تهذب ملمسه.. قالت لها ناتاشا: لو انجر إبراهيم خلفـك طواعيـة ودون أن يدرى أنك تهذبينه.. إذن فهو يحبـك.. ثـم أبـدت ملاحظتها حولـه من أنه – ومنذ عودته من رحلته إليها في روما – يركن إلى الصمت والهدوء.. ويتخلى تدريجياً عـن صديقاته.. وأنه وقع تحت رهن الاتزان - ما عـدا قفزتـه الطفولية إلى تليفونك – ماذا فعلت به يا أولجا؟.. قالت لهـا وعلى فمها بسمة مريرة: كل ما فعلته أننى طفت به على كل الحدائق التى أحبها.. ما عدا حديقة الحب؟! – قالت ناتاشـا ضاحكة: إذن فهو يفكر: كيف ينتصر..؟

أجابتها أولجا: وأنا بدورى جالسة أتوقع: متى أنهزم؟..

هذه المرة هو الذي طلبها بالتليفون..

- : أولجا.. لدى عرض مغرٍ بالانضمام إلى مجموعة " هنترش بتشنج " في ألمانيا.. المسئول عن المجموعة دكتور مهندس مصرى تعرفت عليه فـي مشـاريع الفنادق.. إنه يجهز لدخول مسابقة كبـرى لتصـميم مركز حضارى ضخم بمدينة جدة السعودية.. رسـم

لي دوراً مهماً قبل وأثناء وبعد الفـوز بالمسـابقة.. المجموعة لها شريك سعودى يتولى إدارة فرع جدة.. اتفقوا على شخصى كضابط اتصال بنفس مقومـات عملى السابق مع مجموعة الفايد.. أولجـا.. سـنفوز بهذه المسابقة.. عقد التصميمات التنفيذية بـه سـبع أصفار.. ملايين الريالات.. سنطير إلـى نيويـورك للنظر إلى القاعة الكبرى للاجتماعات بمبنـى الأمـم المتحدة.. سنضع في مركز جدة قاعة أكبـر منهـا.. أولجا.. اسمعينى.. لقد علّقت مـوافقتى علـى هـذا العرض المغري بموافقتهم على انضـمامك معـى.. أريدك بجوارى هناك.. وإلا سـأظل بجـوارك فـي روما.. أولجا.. لا تتعجلي في الرد.. ادرسـى هـذا العرض.. أتمنى أن توافقى عليـه.. أطلبينـى فـور موافقتك..

تلاحقت أنفاسها وهي ترى عالماً فسيحاً من الرحابة ينفتح أمامها.. هل هذا هو إبراهيم؟.. هل هذا هو عالمه؟.. عـالم الأصفار السبعة والملايين واللهفة للفوز بمسابقة كبـرى؟.. واللهفة للسفر إلى نيويورك؟.. والسعادة بموقعـه الجديـد؟..

ومع هذا فقد وضع كل هذه المغريات في كفة لن تُـرجح إلا بوجودها معه.. إذن فما قالته " ناتاشا " لي هو الصح بعينه.. هذا الرأس الفرعونى يقدم قربان حبه لذلك التاج الرومانى " لن أطير إليهم إلا معك.. وإلا فسوف أبقى بجـوارك!! مـا أجملك أيها الملك الصغير.. توت عنخ أمون.. يـا صـاحب الوجه الذهبى اللامع..

عمدت أولجا إلى فهـارس وكتالوجـات بيـوت الخبـرة الألمانية في هندسة العمارة.. بحثت عن اسم هذه المجموعـة الألمانية.. هنترش بتشنج.. المكتب الرئيسي يقـع بمدينـة " دوسلدورف ".. الشريك المفوض – تلك هي صورته – أستاذ جامعى ورئيس قسم العمارة بجامعـة المدينـة.. مصـرى متفوق.. أعمال المجموعة منتشرة في كل بقاع العالم.. لهـم تواجد واضح بالخليج والسعودية.. سلسلة فنـادق مـاريوت تتمتع بتصميماتهم.. وهذه فنادق أخرى.. ومتنزهات عامة.. وأحزمة خضراء.. ومكتبـات.. وقصـور أمـراء.. إنهـا مجموعة ثرية بالخبرة المكثفة.. لقد حط إبراهيم المحاق على أرض مليئة بالخير العميم..

قالت لأبيها ضاحكة: يبدو يا أبي أنه لا مفر من أن يتعامل أحفاد موسوليني مع أحفاد هتلر.. الأحفاد الأبرياء سيسلكون طريقاً آخر..

ضحك بتؤدة متوقعاً ما تقصده بذكاء:

- : أجاءتك فرصتك الملائمة في ألمانيا..؟..

صفقت لذكائه..

-: أجل..

قال لها:

- : عهدي بك تدرسين خطواتك جيداً مثل أبيك..

أيدته قائلة:

- : وسأحضر إليك بتقريري مكتوباً.. بت أحمل الكثير من الوثائق..

سألها:

- : متى تحضرين..؟

قالت له:

- : عندما تكون ذراعي مشبوكة في ذراعه ونحضـر إليك معاً..

هتف على الفور:

- : أوه.. ذلك المصري الذى حدثتنى عنه..

قالت له:

- : أجل..

سألها:

- : وما علاقته بالموضوع؟..

أجابته..

- : هو صاحب الموضوع.. جاءه العـرض لشخصـه فربط موافقته عليه بوجودى معه..

تمتم بصوت مرتفع:

- : أخشى أن يكون قد أحبك..

سألته:

- : ولماذا الخشية؟..

قال لها:

- : هؤلاء الناس لا يكتفون بامرأة واحدة يا أولجا..

طمأنته قائلة وهي تداعبه:

- : السيد بولس ماستريانى ليكيشو..؟

أجابها:

- : نعم يا ملاكى..

لاحقته:

- : لا تشغل نفسك بهذا الشأن.. لأنه لا يشغلنى..

قال لها:

- : إذن فأنا في انتظاركما في (كاستروكارو)..

- ٥٧ -

ودع حياته في لندن وطار إليها في روما.. وودعت هـي حياتها في روما وطارت معه إلى ميلانو.. ومنها بالسـيارة إلى (بافيا) حيث أطلعته بكل فخر على قلعتهم لصناعة أجهزة الكهرباء المنزلية.. ثم بالسيارة مرة أخرى إلى كاستروكارو عبر الطريق المستقيم الذي يخترق الجبال ليعبراها من أنفاق طويلة أو يطير بهما فوق الوديان على أعمدة عملاقة.. كان قلبه ينخطف – على حد التعبير اللبنانى – عندما يمد بصـره نحو السحاب ليلمح كوخا أبيض مغطى بالقرميد الأحمر يحتل قمة الجبل الأخضر.. بينه وبين نفسه كان يحسد ساكن هـذا الكوخ العالي الجميل.. راح يسألها: كيف يصعد السكان هنـا إلى بيوتهم العالية.. قالت له: لو ركزت قليلاً فسوف تلمـح بين الخضرة خطا أسود كالذي ترسمه بالقلم الفلوماستر على أوراقك.. هذا الخط هو الطريق الذي يحيط الجبل في صعود انسيابي لولبي.. هتف من فوره.. أوه.. لمحته.. لقد عرفتـه بأعمدة الأسلاك التليفونية التى تسير معه.. ثم لمح فتى وفتاة يجلسان على ربوه معشوشبة.. كانا مجرد نقطتين بيضـاوين نطق بياضهما بفعل الجنة الخضراء التى تسبح خلفهما.. قال

لها وهو يتابع تلك اللقطة التى تتراجع خلفه: مـا أميـز أن يتخلى المرء عن القيادة في هذا الطريق!.. إنى أتابع جلسـة حب رائقة بين حبيبين على القمم الخضراء.. كلمات الحـب هنا لها شأن آخر.. قالت له وهـي تركـز بصـرها علـى الطريق.. لا أحد يوقف الحب عن النمو.. الحب ينمو حتـى في الكهوف الخربة.. الحب ينمو في القلب ثم يمتد خارجه..

تذكر قريته التعسة التى تنام في خجـل علـى الطريـق المؤدى إلى الإسكندرية مروراً بكفر الزيات، وتأوف.. كيف تندرج " كاستروكارو " هذه الجنة.. تحت مسمى القرية هـي الأخرى؟.. ثم نظر إلى الطريق المزدوج الفسيح ذي الجزيرة الفسيحة الذي يأخذ الداخلين برفق إلى ميدان دائرى تحيطـه الأشجار.. وشاهد المنازل المتباعدة ذات الواجهات البيضـاء تتراجع عن حافة الطريق بمسافة رحبة بثت فيهـا الحـدائق وصفوف الأشجار العالية وثبتـت فيهـا المقاعـد الخشـبية اللامعة.. ها هما شيخان جلسا يقرآن.. وها هـي أم تـدفع أمامها مهداً متحركاً بطفلها النائم فيه..

دارت أولجا بسيارتها حول الميدان ثم اعتدلت في طريق تتشابك الأشجار متعانقة عند قممها لتلقي بظلالهـا عليـه.. هناك جدول صغير يقع على يمينه.. برغم ضيق الجدول فقد ضربوا حول حافتيه كورنيشا عريضاً ينتهى دربه المرصوف بألواح الحجارة الكلسية البيضاء إلى جزيرة ممتدة من العشب الأخضر راحت تميل مع حافة الجدول نحو الماء الصافي..

قال لها: تبدو هذه القرية لي كأنها مـن أمـلاك شـخص بعينه.. إنه يحافظ على نظافتها بإصرار من يحـافظ علـى أمواله..

ردت عليه وهي تنعطف إلى طريق الفندق:

- : كأنك تفهم ما حدث.. باختلاف واحد هـو أن هـذا الشخص الذي تعتقده ليس سوى لجنة بعينها.. لجنـة كأنها في حالة اجتماع مستمر.. لا يمكنك أن تطلـى شباكك من الداخل بلون مخالف.. لا يمكنـك إزالـة شجرة.. ولكن يمكنك إضافة عشرات الشجيرات فـي إطار خطة التشجير المرسومة..

وبعد أن أخذتهم الثرثرة الحميمة بعد المأدبة الشـائقة وبعد أن انتزع ضحكات أبيهـا وأمهـا وشـقيقها فيكتـور

وزوجته.. وبعد أن أحس الجميع أنهم نالوا حظهم من اللهـو والترويح.. وبعد أن تهيأت الأم للعودة إلى مكتبها في الفندق والأب للعودة بسيارته إلى مدينته برفقة ولده.. مدت أولجـا راحة يدها إلى إبراهيم ليصعد معها إلى صومعتها الأثيرة.. " ستتناول الشاى في تراس صومعتى.. وتشاهد " كاستروكارو " من الأدوار العلوية..

شاهد الجبل الرمادى الحنون الخفـيض الـذي يحـيطهم بذراعيه.. وشاهد خطوط الأشجار التـى ترسـم أشـباحها المتراصة شكل الكثبان التى تعلو منها.. الأشجار تنساب مع خط الأفق ثم تنخفض ذؤاباتها مع الوديان الهابطة أو تعلو مع التلال الصاعدة..

هتف: لو كنت شاعراً لكتبت الشعر من هذا المكان..

قالت له:

- : اخترت لك غرفتك في الفندق تطل على هذا السهل الجميل البعيد.. سأوقظك بـالتليفون لتشـاهد بـزوغ الشمس عند الشـروق.. وإذا أردت أن ترتـاح فـي غرفتك الآن فافتح شباكك لتشاهد الغروب..

بعدها راح يعلق بخفة دم - انبعثت من حالة السرور التى ألمت به - على صورها وهي طفلة صغيرة خاصـة تلـك الصور التى حدثته عنها من قبل.. ثم راح يعلق على أشيائها الصغيرة ورسوماتها المؤطرة وصور مشـروعاتها بالكليـة ودفاتر أشعارها وركن المكتبة العامر بأمهـات كتـب الأدب العالمى ويهتف: إنها غرفة مثالية لمهندسة معمارية لا تعرف الفوضى..

سألته: هل تعرف أنت الفوضى..؟

أجاب بسرعة: لست متأكداً من نفسى في ذلك.. ولكن مما لا شك فيه أن.. الفوضى هي التى تعرفنى..

علت ضحكتها الساحرة وهي تتجه إلى الشرفة الواسـعة لتشاهد معه الحياة النضرة التى دبت في الشارع فـي هـذا الوقت من الأصيل..

طافت بخياله – لحظتها – المرئيات الرمادية لمنازل كفر ستوتة كما كان يطل عليها مـن السـطوح مـع عنايـات.. وأصوات الباعة وصراخ النسوة وضجيج الأطفال الـذي لا يهمد.. وسرعان ما تخلص من تلك الخيالات التـى زحفـت على قلبه بوجع لا يدرى كنهه.. وعنـدما احتـوى ببصـره

منازل وحدائق ومتنزهات وطرق " كاستروكارو " في لقطـة شاملة.. تذكر منظر قريته وكيف كانت أمواجاً متراصة مـن القش الرابض فوق سطوحها المتلاصقة.. لقد احتـوى هـذا المنظر بعينيه من أعلى نقطة في لقطة شاملة عنـدما صـعد إلى قمة الشجرة لينتزع طرد النحل.. وهو صبى صـغير.. وسرعان ما تخلص من هذا الخيال الزاحف بإلحـاح بفعـل المقارنة التى راحت تفرض نفسها عليه.. فقد زحف عليه هو الآخر بوجع ألم بصدره.. لعله الوجع الذي لاقاه من عصـا أبيه القابع تحت الشجرة..

أما ماراح يحاول التخلص منه دون جدوى فهو السـؤال الذي ظل أمامه بلا إجابة.. أولجا تقدم لي بفخر كل الأشـياء التى تعتز بها.. تقدم لي طفولتها وصباها وشبابها في شـكل صور وأوراق ومذكرات ودفاتر ورسومات وهدايا.. وحديث لا ينتهى.. وابتسامات مشرقة.. وضحكات لا تتوقف.. أولجا استطاعت اصطحاب التاريخ خلفهـا والنـوم بجـواره فـي غرفتها.. أولجا وتاريخها الخاص والعام في حالة احتضـان دائم.. أولجا تستطيع أن تعود إلى نفسها كلما أرادت ذلـك.. أما أنا.. فأين أكون؟.. أين أجد نفسي؟.. أين أعثر علـى؟..

أين تاريخي؟.. هل تبعثـر تـاريخي بقـدر مـا تبعثـرت دروبي..؟.. هل تاه في تاريخى بنفس القدر الذي تهت فيه.. هل تفرق أشلاء في المدن.. أو بين النساء؟..

سمعها تهتف به: أين ذهبتَ بخيالك.. كنت أحـدثك منـذ قليل ولا تسمعنى.. التفت إليها وعلامات الحيرة بادية عليـه وسألها: - أولجا.. متى يبدأ تاريخ الإنسان؟..

فكرت قليلاً ثم أجابته:

- : عندما يحس بالسعادة الحقيقية..

تنهد بارتياح.. خاصة عندما أكملت:

- : لا يجب أن تكتب تاريخك التـعِس..

فردد خلفها: أجل.. لا يجب أن نكتب تاريخنا التـعس..

***

- ٥٨ -

وفي " كاستروكارو ".. جنة أولجا الهادئة، أمضى إبراهيم يومه الثانى وهو في ضـيافتها مشـغولاً بعمـل الترتيبـات اللازمة للسفر إلى ألمانيا.. فراح يتصل بالمجموعـة هنـاك

حتى يؤكد هذه الترتيبات.. كان يلمح أولجا تـروح وتغـدو أمامه لترتب وتجمع متعلقاتها.. كانت أذنها علـى التليفـون وكثيراً ما كانت تتوقف لتهمس له بكلمة أو تزوده بعبارة.

لم يكن باستطاعته أن يقاوم عادته المتأصلة فـي باطنـه بغسل أى جسم أنثوى – يمر من أمامه – بنظراتـه فحصـاً وتقييماً وأمنية ونشوة.. ولقد أفصح قوام أولجا عـن أشـياء كثيرة وباح له عن عمق ثرائه وهي ترفل أمامه في ملابسها المنزلية البسيطة والخفيفة.. فهذا البلوز الفضـفاض بفتحـة أكمامه النصفية الواسعة دلّه على كهف من المرمر عند الإبط العارى وسرق نظراته إلى استدارة النهد الغـافي المشـدود بحمالة راح لون حزامها يعلن عن ذوق مقصود يتناغم مـع لون البلوز ذي القماش الهفهاف.

وقبل أن تضبطه وهو يرنو إلى مشيتها الواثقة - بـدلال جسمها المتزن التفاصيل بفعل هذا البنطلـون الـذي شُـدت أرجله إلى أخمص قدميها بأستك رفيع - أخفى بصره بعيـداً وهو يبلغها:

- : أبلغونى من " دوسلدورف " أن الـدكتور شـرابي مازال في القاهرة.. وسيصل إليهم غداً

نصحته أن يكمل المكالمة غداً مع الدكتور شرابي نفسـه توفيراً للوقت والمال.. فنفذ ما قالته فوراً.

سرح بخاطره قليلاً وهو يتأمل شخصية الـدكتور محمـد شرابي.. بوجهه النيلي الأسمر ونظارته الوقـورة ووجهـه الطفولي البرئ وصوته الهادئ العميق.. كان قد قدمـه لـه مستر فايد في لندن.. إنه الاستشـاري المخصـص لمبنـى الفندق.. مشروع آخر يقوم بـه الفايـد موازيـاً لناطحتـه الواعدة..

قال له الفايد وهو يعرفه على ضيفهما القادم اليـوم مـن ألمانيا..

- : دكتور شرابي.. أستاذ كبير.. تعرفت عليـه مـن المجلات المعمارية.. تحيزت لخطوطه الباسلة وليس لأنه مصري مثلى ومثلك.. سيقدم لنا رسومات الفندق وملحقاته.. المارينا.. وحمام السباحة.. قلـت لـه إن الموقع العام عندك.. فسلمه إليه.. سنتفاهم معـاً فـي البرنامج.. وسـأدلى لكمـا بمطـالبي ورأيـي فـي جلستين.. بعد ذلك.. انسيانى..

سأل د. شرابي هامساً وهو يميل على إبراهيم:

- : الموقع العام؟.. موجود عليه المناسيب..؟

رد إبراهيم: اطمئن.. كل المناسيب موجودة.. حتى داخل البحر وضعنا مناسيب من أجل المارينا..

سمعهما الفايد فهتف للدكتور شرابي..

- : إبراهيم شاطر.. اطمئن.. هو بيعمل زيي.. يشتغل كويس.. ويهيص كويس.. اسكندرانى بقى.. اعتمـد عليه في أى حاجة.. وفواتيرك اطلبهـا منـه.. هـو بيبلغنى.. بكل شئ.. كل شئ..

حضر معهما الفايد غداء اليوم تكريماً لضيفه ثم غادرهما مبكراً وتركهما خلفه يكملان غداء العمل.. قال له الـدكتور شرابي فور انصراف الفايد.. إنه سعيد بوجوده فيمـا بينـه وبين الفايد فقد جاء ليقابل هذا الرجل ولديه بعـض الرهبـة التى يخشاها من غرور بعض رجال الأعمال.. ولكنـك يـا إبراهيم ستقوم بعمل التوازن المطلوب فيما بيننا..

لقد اكتشف إبراهيم أن د. شرابي هذا يتسم بالتواضع الشديد والبساطة الملفتة للنظر.. إذ مازالت الدهشة الطفوليـة تتملكه عندما تشد انتباهه مشاهد جديدة.. أو أخبار جديدة.. أو

تعليقات جديدة.. إنه يتذكر يوم أن كانا يسيران معاً في شارع اكسفورد..

- : إبراهيم.. إبراهيم.. رولز رويس.. رولز رويس

هكذا هتف الدكتور شرابي بشكل عفوي وطفولى عنـدما تهادت أمامهما سيارة رولز رويـس تخلـب اللـب.. ولأن إبراهيم كان قد شبع من رؤياها.. فقد سأله عن سر دهشـته فمن المؤكد أن شوارع ألمانيا مليئة بهـا.. " فألمانيـا دولـة غنية.. "..

لحظتها توقف د. شرابي عن السير.. ونظر مشدوها إلى إبراهيم وهو يتأمله.. وكأنما أصابه الحزن على هـذا الفهـم الخاطئ الذي يحمله إبراهيم تجاه الألمان.. فهو يظـن أنهـم يركبون الرولز رويس.. " لا.. لا.. أنت تفهم الألمان بشـكل مخالف ".. ثم راح يفهمه وبحرارة إقناع عالية إلى أي حـد يمثل الرجل الألمانى أكثر الرجال في أوروبا مـيلاً للحيـاة العملية.. " إنهم يصنعون المرسيدس لأثرياء العالم.. أو حتى قل لبعض لصوص العالم.. ولكنهم لا يقتنون سوى السيارات الفولكس الصغيرة فهى: اقتصادية.. وخفيفة.. لا تشغل حيزاً على الرصيف.. ويتملكونها بأقساط خفيفة.. "

- : على فكرة.. ألديك سيارة هنا في لندن..؟
- : لأ.. طبعاً..
- : سأرسل لك واحدة فولكس من ألمانيا.. هدية من مجموعة " بتشنج "..
- : بأي مناسبة..؟
- : بمناسبة التعرف عليك..
- : في مثل هذه الحالة يقوم المرتشى بإضافة قيمة الهدية إلى فاتورة الراشي.. فهل سأفعل ذلك؟..

توقف الرجل مرة أخرى وهو يتأمله بحرج وإعجاب:

- : أفهمت ذلك..؟ هل فهمت أنها رشوة؟..
- : إذن كيف ولماذا تُهدينى سيارة وعمر علاقتنا لا يزيد عن ثلاث ساعات.. يا دكتورى الطيب الجميل قلت لي الآن إنك سعيد بمعرفتى.. وأنك ارتحت لى.. وأنا بدورى أقول لك نفس ما قلته.. ربما تكون قد قابلت كثيرين ممن تقاسموا معك رزقك تحت دعوى تسهيل أعمالك.. لا شأن لي بك أو بهم.. فهذا حظك

معهم.. وحظهم معك.. أما أنا فسـوف أكتفـى بمـا سوف أناله منك من مكسب..

استفسر د. شرابي بحاجبيه المرفوعين عما يقصده عـن المكسب فواصل إبراهيم..

- : سأتعلم منك.. هذا ما سوف أكسبه..

- : تتعلم؟.. ألست أنت الذي ستقوم بتقييم تصـميماتى مع باقي الزملاء لدى مستر فايد؟..

- : كيف يقّيم التلميذ إبداعات أستاذه؟..

- : لا.. لا.. أنت تخلط الأمور.. هذا عملك..

- : أفهم أنه عملى.. وسأقوم به.. وكل ما سوف أقدمه إليك هو إحاطتك علماً بالشروط العامة ولوائح مجلس البلدية.. أما عن التصميم فتلك هي الحفلـة الرائعـة التى انتظر حضورها.. يكفينى أن أنتظر حضورها.. يكفينى النظر: وكونى سأحرر مذكرة مع زملائـى باعتماد التصميم تمهيداً لتحرير فاتورتك.. فهذه هـي كلمة الشكر التى سأقدمها لك.. مـن خـلال عملـى نفسه.

وبقدر ما كان إبراهيم قد نجح فـي اسـتيعاب شـخص وشخصية هذا المواطن المصري الناجح خارج بلاده بقدر ما حاول الدكتور شرابي الوصول إلى فكرة لاستيعاب شخصية إبراهيم.. الذي لخصه الفايد نفسه أمامه في عدة كلمـات.. " شاطر.. يعمل جيداً.. ويلهو جيداً ".. ولذا حفلـت لقاءاتهمـا المتعددة فيما بعد بالمكاشفة الشخصية التى تتيح لأى منهمـا التعرف على مذاق صاحبه واهتماماته.

أما مالم يقله إبراهيم عن نفسه وعن مغامراته فقـد كـان يتاح للدكتور شرابي أن توضع أمامه بعض الأحداث التـى تطير حكاياتها من أفواه الزملاء متنـاثرة عبـر دعابـاتهم ومشاغباتهم معه.. وكان د. شرابي يتوقف مع هذه الحكايات عند حد سماعها فقط فهو بحكم طبيعته الخجولة لا يجد لنفسه مكاناً أكثر من أن يسمع وأن يلوذ بالصمت.. ولكنه لم يجـد نفسه منحازاً للصمت والاستسلام عندما وجد إبراهيم يراوغه هارباً من السؤال الذي راح يلح عليه به " كيف تتحمـل أن تهجر مصر طوال عشر سنوات ولا تفكر في السفر إليها؟.. " ذلك أن إبراهيم وقع بلسانه فـي حديثـه معـه ذات مـرة وأوضح له أنه لم يسافر طوال هذه المدة.. ومع إصـرار د/

شرابي في السؤال.. وتمادى إبراهيم في المراوغة بدأ الحوار بينهما في تلك الجزئية ثقيلاً ولا يتسم بالراحـة والانطـلاق والشفافية شأن الحوارات الأخرى.. ورغم أن إبراهيم بذكائه المفرط كان قد فهم أن ما خلف إلحاح د/ شرابي لـيس هـو الفضول إنما هو البحث عن مشكلة ما تمنع إبراهيم من السفر تأهباً لإلقاء كل ثقله معه لحلها... إلا أن إبراهيم ظل حـائراً ومتردداً في فض سره الدفين أمـام هـذا الأسـتاذ الوقـور الهادئ..

وعندما راح د. شرابي يحكى عن نفسه وما حـدث لـه ولأسرته من اغتراب قسرى دفعوا إليه دفعاً أيام عبد الناصر ومطاردته لجماعة الإخوان المسلمين بعد حادث المنشية عام ٥٤ وكيف فروا بطريقة ما إلى ألمانيا، راح إبراهيم يرهـف السمع ولسان حاله يقول:" كلنا في الهم شرق "..

لقد لمح إبراهيم نُبل ما قامت به أسرة شرابي من فرار.. ولقد كان فراراً نبيلاً قياساً بفراره المخزى.. لقـد هـاجروا بعيداً عن نظام تعارضت سياسته مع مبادئهم.. وقد كان فرار إبراهيم به أنانية بذل نفسه وشبابه وقوداً يحافظ على أن تظل مع مثيلاتها محافظة على اشتعال ثورة الوطن.. ولذا فقد كان

خَجِلاً من الانطلاق في سرد حكايته بنفس الفخر الذي قام فيه د. شرابي بسرد حكايته.. فكيف له أن يفخر بالهروب مـن ساحة القتال..؟ وكيف له – حتى – أن يحكى للدكتور شرابي عن ذلك..؟ لقد التزم إبراهيم الصمت وهو مقتنع أنـه بهـذا الصمت سيحفظ لنفسه عند د. شرابي القـدر الكـافي مـن الاحترام رغم ارتيابه في صمته.. أما إذا تحدث عن قصـة هروبه من مصر فسوف يفقد كل ما يمكن أن يكون قد اجتمع له من احترام لدى هذا الرجل الطيب..

كان الدكتور شرابي – الذي أتيح له أن يهبط مصراً بعـد خفوت الصوت الناصري وبعد سنوات طويلة مـن الغربـة قضى فيها طفولته وصباه وشبابه متسلحاً بـالعزم والتفـوق حتى وصل إلى ما وصل إليه من أستاذية – يغذى حكاياتـه عن مصر بروح الأمل في حل مشاكلها وهي تنتقل – علـى استحياء – إلى النظام الرأسمالى بعد أن أخرجها السادات – على استحياء أيضاً – من نظامها الاشتراكى.. كان يحكـى أشياء كثيرة عن نفسه.. وعن المحيطين بـه.. وكيـف راح بعضهم يهبط مصراً ليشتم الأخبار مدفوعاً إلى ذلك الحـذر بمشاعر الجبن التى تحيط رأس المال.. وأنه – بالفعل – قـد

مضى عهد التأميم والمصادرة.. ثم راح بعضهم يعود إليهـا وفي حقيبته كثير من دراسات الجدوى الاقتصادية لكثير من المشروعات التى من السهل إقامتها لعدم وجود مثيل لها في منظومة أنشطة القطاع الخاص.. ثم راح د. شرابي يضرب الأمثلة بنفسه واتجاهه إلى المساهمة في إنشاء أحـد البنـوك الجديدة.. ثم صديقه د. سلمان الذي تمتلئ حقيبته بعدد مـن الدراسات الجادة لإقامة مصانع لمواد البنـاء أو الصـناعات الغذائية.. ثم تذكر د. شرابي شيئاً مهماً لاحظه في شخصـية السادات واستولت على إعجابه به.. وهو أن هـذا الرجـل اعترف بالضعف الإنسانى الذي من الممكن أن ينتصر لنفسه داخل نفوسنا مؤجلاً فكرة الوطنية والقومية وروح القبيلـة.. فقد لاحظ السادات عبر ما يصله من خطابات من المقيمـين في الغربة خارج الوطن أن بعضهم أهمل عن قصد أو هرب من أداء الخدمة العسكرية.. وأنهم موزعو الخـواطر بـين الدخول إلى مصر للاستثمار أو البقاء في الخارج هرباً مـن الوقوع تحت طائلة القانون..

وهنا كان إبراهيم يرهف السمع لما سوف يسمعه من قول وقرار صدر من السادات – هو لا يعرفه – وسوف يعرفـه

الآن، ويسمعه الآن، تحت وقع ضربات قلب تشتد حتى أنـه كان يسمع رجع صداها في أذنيه..

لقد كان السادات عملياً وبسيطاً - هكذا قال د. شـرابي - عندما سمح لكل هؤلاء بالعودة وعمل مصالحة مـع الدولـة مقابل دفع غرامة لا تزيد في مجملها عن ألف جنيه.. ومـن هنا فُتحت الأبواب لصديقه د. سلْمان الذي بادر بعمل هـذه المصالحة وهو الآن جاد في إنشاء مصانعه وابتنى لنفسه فيلا في المعادى يؤمها كبار القوم من رجال الأعمال.. ورجـال الدولة..

التقط إبراهيم أنفاسه التى كانت تلهث خلف عبـارات د. شرابي.. وازدرد ريقه المتعب.. واستعاد قوة حنجرته التـى كادت تجف ثم – وبأدب شديد – أوقف جليسـه الرائـع د. شرابي عن الحديث ليسمعه ما خفى عنه من قول ظل يبحث عنه منذ تعارفا.. وراح - وهو ينسحب من خجله تدريجياً - يعترف له بما ألم به من ضعف إنسانى – ذلك الوصف الذي اتكأ عليه السادات وهو يعـالج ضـحاياه – بعـد تخرجـه واختياره الهروب من مصر طريقاً خلفياً وبديلاً مخجلاً عـن البقاء هناك للانضمام إلى قوات الجيش المحاربة..

رفع الدكتور شرابي حاجبيه دهشة وهو يعثر الآن علـى ضالته.. وكانت دهشته تحمل في بريقها سؤالا يقـول: يـا رجل.. هل هذا ما كنت تخفيه عنى..؟.. وكيف لم تعلـم – حتى الآن – خبر ذلك التصالح التاريخي الذي قدمه السادات لبعض أبنائه في الخارج..؟.." لقد استفاد منه من وقعوا مثلك في ضعفهم.. وعادوا إلى مصر آمنين"..

ومنذ ذلك اليوم راح إبـراهيم يتأمـل باسـتغراب تلـك المشاعر الوليدة التى تتدفق في داخله.. وتلك الأحاسيس التى لم يسبق لها أن تسربت بذلك الهـدوء إلـى أعماقـه..إنهـا أحاسيس لم يفهم لها كُنْهاً رغم ما كان يأتيه علـى أجنحتهـا الشفافة من عبق الماضي: رائحة الخبز البلدي في أفران كفر ستوتة وبخار الفول والطعمية في الصباح البـاكر هنـاك.. وعرق عنايات المشوب برائحة الطبيخ الذي يحاول الانهزام أمام البارفان الذي ما كانت لتعرفه لولا محاولتها الـتخلص من رائحة الثوم والبصل، ورائحة السـمك الطـازج التـى تهاجمه من الأرصفة وهو في طريقة إلى مكتب هدى برأس التين، ورائحة البخور المريح للنفس والأعصاب الممـزوج بعطر هدى في غرفة النوم، ثم رائحة بخار الشامبو المعطر

المتصاعد مع بخار الماء الساخن في بانيو يحمل بفخر جسداً يتثنى تحت جبل شفاف من رغوة الشامبو.. إنه جسد فاطمـة المجنون بنفسه.. ثم رائحة الطين الخصب والأعشاب المبتلة على شاطئ ترعة كان يجـرى محاذيـا لشـاطئها بسـيارة يطاردها طفل صغير، ثم رائحة مقبولة لعرق ينبعـث مـن رأس هذا الطفل.. إنه ولده إبراهيم بشـعره الفـاحم النـاعم المنسدل..

هذا العبق الهادئ لم تحمله إليه الريح.. لم تسـعفه بشـئ منه.. لم تثلجه نسائمه النشوى من قبل بـبعض البشـرى.. فالماضي يزحف خجلاً حتى أعتابه.. الماضي يقف ذليلاً عند مشارف حاضره.. الماضي يطرق أبوابه.. خلّصنى من وجع قد طال بقلبي.. حررنى من ذاك الغيم القاتم يجتاح سمائي.. كم كنت صريعاً للغفلة وظلام الروح.. آهٍ يـا هـذا القلـب المذبوح.. فلترهف سمعاً منذ الآن لدبيبٍ يقترب إلينا..

حار وهو يرهف السمع إلى قلبه في تمييز صـوت هـذا الدبيب الذي يقترب من وجدانه.. هل هو دبيب الماضي الذي يرحل بسلام؟.. أم هو دبيب المستقبل الذي يقبل في خوف؟..

انتصبت صورة هدى الطيبة أمامه بوجهها الهادئ الجميل الوقور المحب.. ثم التفت إلى جسد " أولجا " الناطق بمقاييس الجمال العصري المتحرك منفلتاً من تماثيل بنات الكارياتيـد الحاملة لأعتاب المعابد الإغريقية..

زها بنفسه إذ هو يحتفظ من الماضي بقلب طيب تحملـه هدى.. ثم زها بقلبه وهو يعقد صفقة غربته الحائرة مع روح قوية ورائعة تحملها أولجا.. أنا لك يا أولجا.. فهل تكـونين لي؟.. إنني أُخمد في نفسي كل هواها الأرعن حتـى أليـق بروحك.. إنى أكسر في شطط الأهواء.. قد صرت أهذب في وجه قبولى هذا النمش المبثوث.. فخذينى يا أولجـا الحكمـة عبداً يرفل مختالاً في صحن بلاطك..

- ٥٩ -

كان الدكتور شرابي بكل مالديه من دماثة خلـق وكـرم عربي وتحضر أوربي يستمع إلى تفاصيل البرنـامج الـذي أعدته أولجا ووافقها عليه إبراهيم والذي سيقطعان به الطريق إليه في " دسلدورف " مقلعين من " ميلانو "..

لقد فهم الدكتور شرابي أن أولجا بما تملكه في داخلها من شغف بالرحلات وحب لارتياد المدن إنما قد وقـع طائرهـا الجميل على الطائر المماثل المحب لكل ذلك حتى الثمالـة.. وهو إبراهيم عبد القادر..

كما فهم الدكتور شرابي من خلال ماشاهده بنفسـه عبـر علاقة دامت ما يقرب من عامين - اقتـرب خلالهـا مـن إبراهيم وأنجزا فيها أكثر من مشروع للفايد - أن إبراهيم قد راهن على فرسه المختال " أولجا ".. ورهن لها باقي أيامه.. ولذا فإنه لم يدهش عندما ألح عليه إبراهيم أن يؤمن لأولجـا مكاناً معهم في مشروع المركز الحضاري مؤكداً له " مـدى ما تملكه " أولجا " من حسٍ معمارى عالٍ.. وخبرة ملحوظة في مجال التصميم.. ومجهود خارق لا يكـل فـي مجـال المسابقات.. إلخ " وبالطبع فإن الدكتور شرابي لـم يتجـه –

تأدباً – إلى إبراهيم بسؤالٍ عن الوقت الذي استطاع أن يضع يده فيه على كل هذه الإمكانيات التى اكتشفها في " أولجا ".. ولكنه غمغم لنفسه - فى استسلام محبب – قائلاً: إنه الحب.. ثم الحب.. ثم الحب..

راح د. شرابي يستمع إلى صوتها المرح السـعيد وهـي تعيد عليه تفاصيل الرحلة التى أعدتها حتى يصلا إلى مكتبه في " دوسلدورف ".. لم تكن تعطيه أخباراً صماء أو تسـجل أمامه نقاطاً للحركة تكتنفها تقليدية الإلقاء.. بل كانت - وبكل ما تملكه من رقة وخفة دم – تنهي إلى سمعه برنامجها هكذا:

- : هل يرضيك يا دكتور أن ترتفـع طائرتنـا مـن " ميلانو " لتهبط إلى "دوسلدورف" دفعة واحدة.. ونحن ننظر بحسـرة إلـي أوبـرا " فيينـا " وبحيـرات " سالزبورج ".. ونهر " الدانوب الأزرق "؟..

- : أوه.. هل ستهبطون في " فيينا " أولاً؟..

- : وهل يرضيك ألا يقضى إبراهيم ليلتين هناك.. ثـم ينطلق معى بالسـيارة إلـى "سـالزبورج " محاذيـاً البحيرات الغافية في حضن الجبـال الوديعـة حتـى

نتناول غداء وعشاء حالمين على ظهر باخرة راسية في نهر الدانوب الأزرق.. ثم نعود..

- : أوه.. أنت بالفعل شاعرة يا " أولجا "..

- : إذن فقد حدثك إبراهيم عنى.. لقد ضبطته.. إنـه لا يحتفظ بأسرارى.

- : وهل هذه أسرار؟.. لقد كان يقدم مؤهلاتك لنا حتى نقبلك زميلة له بالمكتب..

وتضحك أولجا بعذوبة:

- : وهل كان يجب أن أكون شاعرة حتى تقبلونى؟..

ويبادلها د. شرابي الدعابة..

- : الشِعر هو الذي رفع أسهمك لدينا.. أكملى.. وماذا بعد أن تعودا من "سالزبورج " إلى " فيينا "؟.. علـى فكرة.. لا تنسى أن تـزورى منـزل موتسـارت.. الموسيقار العظيم..

- : أجل.. أجل.. في خطتى أن نسجل زيارتنا لمنزلـه بالكاميرا في " سالزبورج".. ومن " فيينا " سنقلع إلى " ميونيخ "..

هتف د. شرابي:

- : هل هذه أيضاً في خطتكما.. ؟.. كنا نظـن أنكمـا ستسرعان إلينا.. بعد النمسا..

قالت له أولجا في استجداء لذيذ:

- : وهل يرضيك يا دكتور أن يفوتنـا أن نفـرح مـع الألمان ونشاركهم رقصهم وجنونهم في ليـالي عيـد البيرة..؟

هتف د. شرابي مرة أخرى:

- : أجل.. لقد نسيت.. برافو " أولجا".. أنت تدرسـين كل شئ.. ومن حظك أن تتوافق أيام العيد مع أيـام برنامجك..

- : لعلك شاهدت هذا العيد.. يا دكتور..

أجابها بسرعة وامتنان:

- : زمان.. في شبابي..

لاحقته بنفس السرعة والرجاء والمجاملة..

- : ونحن الآن في شبابنا.. دعنا نستمتع به.. وإن كنت قد عرفت من إبراهيم أنك مازلت شاباً..

شكرها على مجاملتها ثم أردف..

- : إذن ستحددان لي تاريخ وصولكما إلى " دسلدورف "..

فعدلت له المسار الذي يعرفه..

- : لا.. لن نأتى إلى " دسـلدورف " دفعـة واحـدة.. أيضاً..

هتف بصوت عالٍ وهو يداعبها:

- : أخشى أن تفاجئينى بالمرور على سويسرا وفرنسـا وهولندا.. وربما مدينة الأقصر في مصـر.. حتـى تصلى إلى دسلدورف.. ما هذا يا أولجا؟..

بادلته دعاباته وضحكاته المندهشة..

- : لا.. لا.. سنهبط في بون.. على بعد عشرات الكيلو مترات منكم.. أتدرى لمـاذا؟.. أريـد أن يسـتمتع إبراهيم برحلة أرضية على ضفاف نهر الراين.. نحن نعفيكم من استقبالنا بالمطار.. سنصل إلى باب مكتبكم بسيارة نستأجرها من بون..

- : من المؤكد أنك تعلمين تـاريخ الوصـول بـاليوم والساعة.. أفيدينى به حتى أتمـم إجـراءات حجـز الفندق لكما..

- : أجل.. أجل.. ١٢ سبتمبر.. ألا تدرى إنه عيد ميلاد إبراهيم؟.. صدفة غريبة لقد تفاءلت بها..

- : إذن سنكون في استقبالكما بالشموع.. أحييـك يـا أولجا على برنامجك الممتـع.. وأخشـى أن أحسـد إبراهيم..

قالت ضاحكة:

- : تحسده على الرحلة.. أم على رفيقة الرحلة؟..

قال ضاحكاً..

- : الاثنين معاً.. وعجلي بإعطاء السـماعة لإبـراهيم حتى لا أتورط في مغازلتك..

راحت تضحك بعذوبة وهي تناول السماعة لإبراهيم وهي تردد..

- : د. شرابي هذا.. رجل لذيذ.. تفضل..

وجاءه إبراهيم على السماعة وعلى ثغره بقايا ضـحكات كان يشاركهما بها عبر حوارهما الأخاذ.. وكان السؤال الذي

يتطلب إجابة محددة هو ذلك الذي طرحه د. شـرابي الآن.. والذي امتص من إبراهيم فوراً بقايا الضحكات وكسا وجهـه بعلامات الجد.. حيث راح يردد خلفه محتوى السؤال بشـئ من الحيرة..

- : أتحجزون لنا غرفتين منفصلتين أم غرفة واحدة؟..

في الفندق..؟ أوه.. غرفتين..؟.. أم غرفة واحدة؟..

توقفت أولجا عن السير وهي تمر مـن أمامـه وراحـت تتفحص علامات الحيرة التى كست وجه إبراهيم مـع هـذا السؤال وحين لاحظ هو ذلك.. وحين لم يجدها قـد أسـعفته بإجابةٍ ما بادر باللجوء إلى القول الطبيعـي الـذي تفرضـه العلاقة الهادئة التى تربطه بأولجا.. علاقة لـم تصـل إلـى الصداقة العميقة التى تباح فيها لغة الأجساد كما يحدث فـي أوروبا.. ولم تصل إلى بوح العواطف واعترافات القلوب كما يحدث في الشرق.. ولكنها تحمل إمكانية حدوث هذا البـوح وتلك الإباحة فيما لو خرجت أولجا من شرنقتها الشفافة وفيما لو كسر هو في داخله طوق الصمود القاتم..

بادر فهتف للدكتور شرابي بقولٍ رأت هي ما فيـه مـن كذب نبيل:

- : المطلوب أن يكون كل منا في غرفة مفردة.. وفي دور مختلف بالفندق..

ويبدو أن الدكتور شرابي قد تعجب لفكرة الدور المختلف هذه فطرح سؤالاً كانت إجابته من إبراهيم..

- : أجل.. لقد تفاهمنا في هذا.. تلك هي رغبتها.. وأنا وافقتها..

ابتسمت أولجا في دهشة وواصلت سيرها وهي تتعجب لهذا الفارس الذي اقتحم حصون الانجليزيات وسجل في ذاكرة لندن تاريخاً من الغزو الشرقي الشره لحسناوات شاطئ التايمز المغرور.. ثم وقوفه بحصانه الحائر وسيفه المغمد أسفل حصنها المسحور تائهاً وملتاثاً.. ثم هزت رأسها مرة أخرى في دهشة وعلى فمها ابتسامة حائرة..

كانت قد ابتعدت عندما راح إبراهيم يسمع من الدكتور شرابي بعض الأخبار التى أتى بها من مصر.. فلجأ إلى الحديث باللغة العربية بشئ من الهمس حتى لا يسئ إلى أولجا التى – لفرط أدبها – لم تتحدث مرة مع أسرتها باللغة الإيطالية في وجود إبراهيم بينهم..

كان الدكتور شرابي يحدثه عن لقائه بي ويشرح له دقائق هذا اللقاء الذي كاد أن يعصف بعقلى أنا كرم ابـن خالتـه.. عندما تلقت زوجتى حنان نداء من ولدنا مهـدى ذي الإثنـى عشر عاماً والذي كان قريباً من التليفون يقول:

- : ماما.. واحد اسمه الدكتور شرابي بيسأل على بابا..

لم يقل لها الدكتور شرابي: من هـو؟.. ومـاذا يريـد؟.. ولكنه عندما فهم منها أننى أتولى الإشراف على إنشاء قريـة سياحية بالغردقة قدم لها الرجاء أن توافيه بتليفونى هناك..

وفي موقعى هناك جاءتنى مكالمة تحمل صـوته الهـادئ المريح ثم سألني عن إمكانية أن ألتقى به في القاهرة.. لم يشأ أن يفاجأنى بذكر اسم إبراهيم فهو يعـرف مـدى حساسـية الأخبار التى يحملها ويحرص على كل التوصيات التى حملها له إبراهيم..

لا أدرى لماذا تذكرت حديث فاطمة الذي أغرقتنـى بـه دهشة وضحكاً ومرحاً وهي تحكى عن جلستها على الشاطئ مع هدى.. تلك الجلسة التى روت هدى فيها حلماً أكدت بـه لفاطمة أن روائح إبراهيم تهل عليها.. وأحسسـت أن تلـك الروائح التى تحدثت عنها هدى هي تلك التى تهل على أنـا

الآن من خلال هذا الصوت الهادئ للدكتور شرابي.. حتـى أننى لفرط شجنى بذلك الغموض الذى أتت بـه هـدى مـن حلمها وذلك التستر الذى يحرص عليه محدثى جازفت طلبـاً للراحة.. فقلت له:

- : أكيد سيادتك جايب أخبار عن إبراهيم ابن خالتى..

- : إكساكت..

قالها د. شرابي بسرعة.. ثم عاد إلى اللغة العربية..

- : بالضبط.. برافو.. أنا مستعجل.. عندى اجتماعات كتير.. حشوفك إمتى..؟..

- : سيادتك نازل فين؟..

- : في فندق الحسين.. حشوفك إمتى؟..

- : بكره.. الطيارة بتوصل بعد المغرب..

- : حانتظرك بعد صلاة العشـا فـي غرفتـى.. خـد رقمها.. وخد أرقام كل تليفوناتى في مصر..

كنت حريصاً في لقائي مع الدكتور شرابي ألا أطرق معه سوى الموضوعات التى أفهم أنه قد عرفها وحصل عليها من إبراهيم.. ولذا فقد جلست مستمعاً أول الأمر حتى أضع يدى

على مدى العلاقة بين إبراهيم وذلك البروفيسور المعمـاري المصرى الذي نهل حتى الثمالة من مدنية الغرب وهـا هـو يرتشف على عجالة بعض ما يتاح لـه مـن روح الشـرق وروحانية الدين عندما ينخرط بكل جوارحه في حمى ملكوت الأولياء وأضرحتهم.. وضعت يدى على نواحي التجمل التى أحاط إبراهيم نفسه بها.. فقد أفهم الـدكتور شـرابي أن لـه زوجة على ذمته في مصر اسمها هدى.. ولم يفهمه أن لـه مطلقتين.. ثم أفهم الدكتور شرابي أن له ولداً منهـا.. ولـم يفهمه أن له ولدين من مطلقتين.. ثم أفهمه – وياللهول – أنه هارب من البلاد فراراً من الجندية.. ثم أفهمه – ويالغرابة – بقصة موته المزيف..

لقد فهمتُ الحدود التى يجب أن أتحرك فيها وأنا أسـتعد لتلقي أسئلة ومطالب هذا الرسول الطيب الـذي لا يعـدو أن يكون هو " الروايح " التى ملأت روح هدى منذ أسابيع.. تلك " الروايح " الآتية من مجاهل الغيب وفيافي الـزمن وركـام الماضي الذي خلناه قد ولّى واندثر..

كانت المقدمة التى انطلق منها الدكتور شرابي هي أنه مع حبه الذي أخذ يتصاعد لشخص إبراهيم ومع شعوره الممـتن

بأن إبراهيم قد بادله هذا الحب.. فقد نجح في أن يثير مشاعر إبراهيم الدفينة ويزيح بعض ما تراكم على هذه المشاعر من غبار عندما وقع في هوة الجفاء السحيقة التى أبعدتـه عـن التفكير في العودة إلى مصر..

راح د. شرابي يقص لإبراهيم عن شهقة الفرح التى ألمت به عندما لمست أقدامه أرض مطار القاهرة عـام ٧٩ بعـد مرور خمسة وعشرين عاماً على غربته الاختياريـة هـو وأسرته عندما اختاروا ألمانيا مقراً لهم.. لقد خرج من مصر وهو ابن العاشرة وعاد إليها وهو ابن الخامسة والثلاثـين.. عاد باحثاً عن ذكرياته الساذجة فلم يجدها.. وجيرانه الأنقياء فلم يتذكروه.. وحديقة ميدانهم الخضراء بما فيها من كشـك موسيقى.. وكان المحزن أنه لم يجد الحديقة هناك ولم يجـد الكشك بها.. لقد هز رأسه ألماً لقومٍ لا يدرى ما هو مصيرهم وهم يتعاملون بهذه الطريقة الوحشية مع الخضرة فيزيلونها.. ومع الموسيقى فيهدمون أركانها.. ومع هـذا فقـد ظـل د. شرابي على حبه لمصر بنفس الدرجة التى كانت تلـوح لـه فيها صورتها في الأفق درة من المرمر وقطعة مـن النـور وفيضاً من الجنة..

قال لإبراهيم: إن الشعوب تحارب لحماية أراضيها وتدفع الآلاف من أبنائها إلى الموت في سبيل استرداد قطعـة مـن الأرض ربما لا تكفى المئات منهم.. ذلك أن غربتك معناهـا الاغتراب المؤقت بعيداً عن موطنك.. أى أنك حتماً ستعود.. والعودة لها خيار واحد.. وهو الزمان.. أى: متى ستعود؟.. وليس لها أى خيار في المكان.. فحتماً هو وطنك الذي ستعود إليه.. دعك من كل هذه الخيارات المفتوحة التى تجدها فـي حديث الشعراء ولا تجدها في الأمر الواقع فكيف تـؤمن أن وطنك هو العالم كله.. وأن بلادك هو أرض ا المفتوحـة.. إنها لغة الطيور التى لا تعرف الحدود المرسـومة.. ولكـن الواقع يقول إن هناك حدوداً مرسـومة.. وأن هنـاك تقاليـد بداخلها لكل شعب.. وأنك حتماً مطرود لـو خالفـت هـذه التقاليد.. هنا سوف تتذكر أن هذا المكان الذي طردوك منـه ليس هو وطنك.. وأن من طردوك منه ليسوا هم مواطنـوك بل إنك تجد أن أحد أوجه العقوبات الصارمة في عالم الساسة والمفكرين والمصلحين الذين تتعارض مبادؤهم مع توجهات أنظمة الحكم الظالمة هو النفى إلى خارج حـدود الـوطن.. فكيف ننفى أنفسنا بأنفسنا وكأن داخل كل واحد منـا حاكمـاً

ظالماً؟.. فتحرر يا إبراهيم من ظلمك لنفسك.. واقتـل ذلـك الحاكم المستبد الذي يعيش بداخلك..

قال د. شرابي: وبنفس القدر من الاستحياء الذي اقتـرب به منى إبراهيم ليبلغنى بحادثته في الهروب مـن المعركـة بادعاء الموت.. اقترب منى ليبلغنى أن له في مصر زوجـة وله منها ولد وأنه لا يتابع أخبارهما لأنـه اختـار أن تفهـم زوجته من تلقاء نفسها ومن عمق غيابه أنه مات.. ولذا فإنه إذا فكر في العودة فلابد أن يمهد كثيراً من المواقع.. أولهـا التمهيد للمصالحة مع الدولة.. وهذه المصالحة نفسها بحاجـة إلى رأى حصيف فأوراقه التى قدمها للحصول على الإعفاء تم قبولها وتم منحه شهادة الإعفاء.. وكون شـهادة الإعفـاء نفسها سليمة إلا أنها منحت بناء على حيثيات غير سـليمة.. فكيف يتقدم للمصالحة وهـو غيـر مـدرج فـي كشـوف الهاربين؟.. لأنه إذا اعترف بالحصول على الإعفاء بناء على شهادات وفاة مزورة لأبيه وأخيه فمن الممكـن أن تتحـول مصالحته مع الدولة إلى خصومة مع القـانون وأن يتركـوا القضية الأصلية وهي المصالحة ويضعوه أمام قضية جديـدة

وهي التزوير والتلاعب.. هذا هو السؤال الأول الذي أرسل إبراهيم في طلب بحثه وفحصه وإسداء النصيحة حوله..

أما السؤال الثانى فهو: هل نقوم بالتمهيد لهدى باحتمـال وصوله إذا كانت قد استسلمت لفكـرة موتـه.. أم نتركهـا لمفاجأة ظهوره المفاجئ معتمدين على قوة روحها وأعصابها القوية في تحمل المفاجأة؟..

ثم أضاف الدكتور شرابي ملحوظة اهتم بها إبراهيم وهي أن شهادة الوفاة المزورة التى أرسلها إبراهيم إلى جهة عمله حتى يحول دون مطاردته هي مجرد ورقة منفصلة عن كـل سجلات الدولة ولا تعنى ما فيها.. أى أنه غير مدرج - رغم هذه الورقة – في سجل الموتى.. ولذا " فلا يجـب أن تثيـر هذه الورقة اهتمامكم لأنه من السهل إهمالها لأنها لا تمثل إلا نفسها ولا تعنى شيئاً إلا لمن قدمها.. ونحن لا نعلم من الذي تقدم بها.. ودسها في الملف.."

هززت رأسي وقد استوعبت رسالة إبراهيم.. ثم تقـدمت برجائي إلى الدكتور شرابي أن يمهلنى يوماً حتى أرد عليـه وأُحمله رأيي قبل أن يسافر ذلك أننى سأعود إلـى زوجتـى حنان التى أثق في حسن تدبرها للأفكار والأمور..

- : إذن ستكون في الإسكندرية حتى بعد باكر..
- : أجل..
- : إذن انتظرنى هناك.. سوف أحدثك بالتليفون عنـد وصولى.. وأرجو أن أسمع رأيك..
- : إذن فهى فرصة حتى أجهز لإبراهيم رسالة سأظل أكتبها حتى يأتينى تليفونك.. فلدى الكثير الذي يمكننى قوله لإبراهيم..

- ٦٠ -

قلت لحنان وأنا أشير إليه: هذا هو د. شرابي..

وكان عند خروجه قد تخطى السياج الخشبي المـنخفض القائم على مدخل مسجد سيدى المرسي أبو العباس آخذاً فـي إدخال قدمه اليمنى في جوف حذائه وهو يتأمـل السـيارات المنتظرة بالساحة الخارجية للمسجد ليتعـرف فيهـا علـى سيارتنا التى وصفتها له بالتليفون..

أشرت له بيدى وأنا أخـرج مـن سـيارتى لاسـتقباله.. وخرجت معى حنان لمصافحته ونحن نردد كلمة " حرمـاً " التى تقال للمصلى بعد صلاته.. حاولَتْ حنان أن تتنازل لـه عن مقعدها الأمامى حتى يجلس بجانبى فرفض تماماً وأسرع باحتلال المقعد الخلفي..

قلت له أن يدلنى على المكان الذي يقترحه لـنجلس فيـه معاً.. فأشار فوراً على نادى الصيد الذي يحمـل عضـويته وراح يتغزل في جلسته المفضلة بهذا النادى والتى يحاط فيها بكل الأشياء التى يحبها.. فقلعة قايتباى خلف ظهره.. وسياج الكورنيش الدائرى في مواجهته بعماراته المطلة على البحـر وقد احتضنت بعضها البعض وهي تطل من علٍ على مراكب

الصيد التى تملأ صفحة المياه الممتدة وقد طُـرزت بأعـداد هائلة منها.. أما الشمس التى تسبح أشعتها الحنونة حولنا فقد كانت هي العروس التى جذبتنا..

رحنا نتحدث معه عن تجربتنا المعماريـة المتواضـعة.. وراح يحدثنا بكل تواضع عن تجربته العميقة الهائلة دون أن نلمس في حديثه جنوحاً إلى المباهاة أو التقعر.. وكـان مـا خرجنا به من هذا الحوار أنه كان حريصاً أن يفهم منا أكثـر ويضع يده على أشياء جديدة قبل أن يفهمنا بعض مـا لديـه ويضع أيدينا على الكثير من الرؤى الجديدة.. والغريب أنـه دون أن ندرى قد نجح في رفع قامتنا لتقترب من قامته عندما أبدى إعجابه بما نقوله وهيأ لنا الركض الهنـئ فـي تلـك المساحة المعقولة من الوقت التى تنازل لنا عنها طواعيه لكى يسمعنا..

وعندما حان الوقت للحديث عن إبراهيم تصـدت حنـان وقامت بطرح بعض الأسئلة على الدكتور شرابي كان مـن أهمها هذا السؤال: إلى أي حد يثق سيادته فـي أن إبـراهيم لديه النية في العودة إلى مصر؟.. وإذا كان الدافع إلى هـذه العودة هو استجابته لما طرحه عليه الدكتور شرابي من رأيٍ

مشجع أو من لومٍ محرج أو من إيقاظٍ مفاجئ لحسه الإنسانى فهل تكفى هذه العوامل لحثه على ربط نفسه مـرة أخـرى بوطنه من خلال مشروع طويل المدى؟.. وهنـا سـألها د. شرابي عما تقصده فكانت إجابتها أنهـا تخشـى أن يظهـر إبراهيم فجأة أمام أولاده في زيارة عابرة ثـم يختفـى مـرة أخرى.. ولذلك سيفسد علينا كل ما زرعناه في نفوس هؤلاء الأبناء من وهم نبيل أن والدهم قد ذهب إلى الحـرب ولـم يعد.. ولذلك فهى تُفضل أن يظل الأبناء محتفظين لأبيهم بهذه الخواطر النبيلة وتظل صورته المعلقة على الحائط محافظـة على مابها من قدسية وبهاء بدلاً من تحطيم هذه القدسية وهذا البهاء فيما لو ظهر صاحبنا في زيارة لا تعدو أن تكون كسراً قسرياً مؤقتاً لبرنامجه الأولى بالاهتمام ثم يختفى مرة أخرى ولا نجد وهماً نبيلاً آخر نزرعه في نفوس هـؤلاء الأبنـاء الذين كبروا وأصبحوا واعين بالحياة وما يدور حولهم..

لاحظت الذهول الذى يكسو وجه الدكتور شـرابي وهـو يستمع إلى حنان التى رفضت أن تتمشى مع اتجاهي في عدم إضافة أى جديد إلى معلومات الدكتور شرابي حول إبـراهيم

والتى استقاها من إبراهيم نفسه.. إذ قررت أن تخبره بحقيقة الوضع الاجتماعي لصديقه الجديد إبراهيم.

سألنى الدكتور شرابي عما يسمعه من صيغة الجمع عندما تتحدث حنان عن أولاد إبراهيم.. أليس ولداً واحداً؟.. أجابته حنان.. لا.. يا دكتور.. إنهم ثلاثة.. وكل ولد من أم مختلفة.. الشئ الصحيح الذي لم يكذب فيه هو أنه يملك زوجة واحـدة على ذمته.. إلا أنه حجب عنك ما يجب أن تعرفه من أنه أب لولدين آخرين..

وضع الدكتور شرابي رأسه بين كفيه.. واستند بسـاعديه على المنضدة.. وراح في صمت عميـق.. ثـم مالبـث أن واجهنا بوجه تكسوه علامات التفكير الجاد.. وما إن طـرح أمامنا بعض مخاوفه حتى أيقنت أنه تبعاً لما لمسه في حديث حنان من مصارحة ووضوح آثر هو الآخر أن يستخدم نفس ما استخدمته هى من مكاشفة وتعرية للحقائق مقتنعاً مثلها أن هذا هو الأسلوب الأمثل للطرح مادمنا بصدد بحـث مشـكلة بهذا التعقيد.. ومن هنا فقد صـارحنا الـدكتور شـرابي أن إبراهيم مشغول بحب مهندسة إيطالية ملكت عليه كل عقلـه وعاطفته وحياته.. ومن المؤكد أن إبراهيم لم يصارحها بكل

هذه الخلفية الاجتماعية وتلك العربات الثقيلة التـى تسـحبها قاطرته.. وهذا النوع من الإخفاء والتعتيم في حالة الـزواج من أوربية يمثل قنبلة موقوتة في بيت الزوجية يكون تفجيـر هذا البيت مرهوناً بنزع فتيلها..

لا أدرى لماذا ألحت على صورة الشوكة المدببـة التـى يطير إبراهيم حولها ليغرس فيها صدره.. تلك الشوكة التـى قتلت طائر الشوك في حلم هدى.. وابتسمتُ في مرارة وأنـا أتذكر تحليل فاطمة وتفسيرها لرمز الشوكة في هذا الحلم..

ولما رحنا - أنا وحنان - نضع أيدينا على قصـة حبـه لأولجا لفت نظرنا أن إبراهيم قـد تخلـى عـن اهتماماتـه النسائية المتعددة وراح يصلح من شأن نفسه حتى يليق بهـذه المهندسة أو هذا الحب الجديد..من هنا تأكـدنا أن إبـراهيم سيرتبط بهذه الفتاة إن آجلاً أم عاجلاً.. ولذا فإذا كنا نمهد له سبيل العودة أملاً في استقرار حاضره وإغلاق ملف ماضـيه فإن ما نفعله لا يعدو أن يكون قبض الريح.. ذلك أن برنامج إبراهيم في زرع أشجار جديدة من الشوك في حديقة أيامه لن يعطى أى قيمة لمحاولاتنا في اقتلاع الأشواك القديمة..

وبعد أن تنهد الدكتور شرابي طويلاً وهـو يعلـق كـل أطراف أصابعه على حافة المنضدة ويتراجع بظهـره إلـى الخلف طرح السؤال الختامى: إذن ماذا سنفعل..؟

وكأن حنان كانت تحفظ ما سوف تقوله عن ظهر قلب لذا فقد أسرعت بالإجابة: لن نفعل أي شئ.. يمكنه أن يهبط إلى مصر في أى وقت.. ولا يخشى السلطات في شئ.. فهو كما قال عن نفسه.. ليس هارباً.. ومادامت فرصته مفتوحة لعمل مصالحة إذا ما اكتُشف أمره فلن يعدم الحيلة في الحصـول على هذه المصالحة خاصة وهو على أرض مصر إذ سوف يقوم بها بنفسه.. ولكننا سنظل محتفظين بخبر اختفائه عـن زوجته وأولاده فهذا هو الشئ الأكرم لهم.. والأكـرم لـه.. والأسهل لنا نحن المحيطين بزوجة غريبة التكوين.. سـيدة تجمع بين السذاجة المضحكة والذكاء العجيب.. سيدة تجمـع بين طيبة الصوفيين وتحوط التجار ورجال الأعمال.. هـذه الزوجة انتصرت على هزائمها ولم تعترف بها.. وعندما فر منها زوجها دون سبب وبلا مقـدمات راحـت تلـتمس لـه الأعذار وتدعو له بالعودة بل وتُكمل رسالته.. إذن فمن العدل

أن ندعها سابحة في ملكوتها الخاص ومشروعها النبيـل ولا نفسده عليها..

وعندما آن لي أن أدلى برأيي الذي لا يختلف في كثير أو قليل عن رأى حنان فقد عدت إلى الماضي وتذكرت زيارتى التاريخية له في كفر ستوتة وكيف كان يعيش راضـياً – أو يبدو كذلك – في دنيا عنايات وعينه على دنيا هـدى.. ثـم تذكّرت ما كان منه عندما عاش في نعيم هدى وعينه علـى شباب فاطمة.. وتأكدت أن طائرنا المحلق طالما وقع بصـره الحاد على فرخ جميل فسوف يـنقض عليـه فـي الوقـت المناسب.. وعلى ضوء ما أسمعه من الدكتور شـرابي الآن من أن طائرنا الذي تعلم التحليق في أجـواء جبـال الألـب الشاهقة وسمع فيها حفيف أجنحته... وفوق أنهـار أوروبـا الرائقة وشاهد فيها صورته فهو حتماً هاوٍ.. هاوٍ على فرخه الجديد " أولجا ".. فيا سيدى.. طالما أن هناك أولجا، وهـي أنثى جديدة.. ودوسلدورف.. وهي مدينة جديـدة.. وعمـل جديد.. فما الذي سوف ترتبه له هنا.. إزاء ما يرتبه لنفسـه هناك؟.. دعنى أضم صوتى لصوت حنـان وأؤكـد لـك أن أفضل ما يمكن أن تفعله لإبراهيم هو أن تتركـه يفعـل مـا

يشاء.. وإذا بحثت لنفسك عن دور في حياته فلا تطمـع أن يكون هو الدور الذي لا يزيد عن دور المتفرج في قليـل أو كثير.. هذا لأنه خرج فوجد نفسه يؤدى الأدوار الصعبة على مسارح الآخرين – أى في حياتهم – ربما كان يسعدهم فـي الفصول الأولى ولكنه – أبداً – لم يكن يدرى أنه أشقاهم في الفصول الأخيرة.. كل منا في حياته لمسة من هـذا الطـائر الشارد لعلها بعض النقرات الخفيفة على زجاج غرف نومنـا حتى نصحو.. أو لعله نفس الزجاج الذي تهشم أمـام وقـع ضرباته.. حتى نفيق.. هدى هي الوحيدة التـى لـم يتهشـم زجاجها.. لأنها مازالت تصحو كل صـباح علـى نقـرات طائرها الشارد وهي ترنو إليه بكل هناء باعثة له في أجوائه العليا بكلمات الحب والامتنان ودعوات مخلصة إلـى ا أن يعود إليها سالماً من كل سوء..

***

- ٦١ -

من ميلانو إلى فيينا..

ومن فيينا إلى سالزبورج..

ومن سالزبورج إلى فيينا مرة أخرى..

ومن فيينا إلى ميونيخ..

ومن ميونيخ إلى بون..

كم طار الفرخان.. وحلّقا في الهواء..

كم انطلق القلبان.. وشقا الفضاء..

كم صعدا سلالم الطائرات بحيوية.. وهبطا منها بفـرح.. وربطا الأحزمة فوق المقاعد بحب.. وتخلصـا مـن قيـدها بسرور.. كم ألقت القبرة المتعبة برأسها على صدر الصـقر اليقظان ونامت حتى شبعت.. فأراح الصقر هو الآخر رأسه الذهبى على صدر قبرته الناعم الحنون.. ونام حتى شبع..

كم تجولا حول أوبرا فيينا طيلة اليوم واخترقا بنشاط كـل الشوارع المحيطة.. واستقبلا شمس النهـار الدافئـة علـى مقاهيها وتناولا الشطائر وهما يسرعان الخطى.. وكم شاركا الناس رقصهم الوديع حول المقاهي وفوق الأرصفة والتقطـا الصور المنتقاة للكنائس المذهلة والأقواس والنُصب والتماثيل

والنافورات والحدائق والبشر السعداء.. وكم راحا يمرحـان وهما يتعلقان بعربات المترو دون أن يعنيهما إلى أين تكـون وجهته.. فهما يريدان كل الاتجاهـات.. ويحتضـنان كـل المرئيات.. وقبل قدوم الليل.. يعود كل منهما إلـى غرفتـه المفردة لارتداء ملابس المساء واعداً الآخـر بلقـاء محـدد الوقت في بهو الفندق بعد أن يكونا قد اتفقـا علـى برنـامج السهرة.. وكانت سهرتهما الأولى في أوبـرا فيينـا.. وفـي طريقه إلى السهرة هبط إلى البهو في حلته المنتقاة بوسـامته الزائدة آخذاً جلسته في مواجهة المصعد حتى يراهـا وهـي قادمة إليه بملابس السهرة.. وما إن خرجت من باب المصعد حتى شهق من الذهول وكأنما تجمعت شهقات كل النزلاء في شهقته فأحدثت لها صدى ظل يتردد في أذنيه.. يا لتلك الملكة القادمة ترفل في ثوب البهاء.. هل هذه لي؟.. هل ستتجه إلى الآن مصافحة ومعانقة أمام كـل هـؤلاء الـذين يأكلونهـا بعيونهم..؟.. هل أنا رجلها المختار..؟.. هـل انتقـت هـذه الملابس الثمينة الفاخرة لترضينى؟.. هل لسـان حالهـا الآن يقول: ما رأيك يا إبراهيم؟..

تقدم إليها في خطوات مرسومة وواثقة كأنه المدرب على بروتوكولات القصور.. التقط يدها فقبلها فاقتربت منه ولثمته على خده..

رافقها إلى الباب وهو يريح ذراعه الأيمن على خصـرها رانياً بود إلى الحارس الذي سارع ففتح لهما الباب بانحنـاءة وسائق التاكسي الذي سارع هو الآخر ففتح لهما باب السيارة بترحاب.. وفي التاكسى.. التقط راحتها اليمنى مرة أخـرى وطبع عليها قبلة حنونة.. فتعلقت به بنظرة امتنان ألقتها على وجهه الطافح بالسعادة.. وراحت تتأمله بصمت.. كمـا راح يبادلها التأمل مأخوذاً هو الآخر بصمت ورهبة.. واكتفيا بهذا الحديث الصامت طيلة الطريق.. فلم يتحدثا.. فقد تراجعا عن إطلاق الحديث عندما تقدمت العيون فتحـدثت... وبـادرت الجوارح والقلوب فقالت ما عندها..

وبقدر ما نهلت عيناه من جمالها وفتنتها نهل عقله وفكره من ثقافتها وهي تهمس له شارحة لكل مشاهد الأوبرا التى لم يكن متعشما أن يخرج منها بشئ.. ولكنها سرعان ما صهرته معها.. أو لعله سرعان ما قرر أن ينصهر معها.. وهو قرار لم يتخذه بشأن الأوبرا فقط.. ولكنه كان قراراً أشمل يتعلـق

بكل أوجه الثقافة التى تمنى لو يجارى أولجـا فـي بعـض اهتماماتها الواضحة بها.. أما الـوداع الهـادئ عنـد بـاب المصعد عندما يعودان آخر السهرة.. فهو الوداع الذي تهتـز له القلوب ولا يبدو اهتزازها في أطراف الأصابع وملامـح الوجوه.. هو يعرف أنها ستغادره إلى غرفتهـا بجسـمها.. ولكنه سيظل محتضناً لها طيلة الليل في سريره عبر الخيال.. وهي تعرف أنها تودعه الآن لتنام وحيدة في غرفتها ولكنهـا تعرف أن الشوق إليه هو الذي سيظل معها في سريرها حتى تصحو وتقابله في الصباح..

لقد سار إبراهيم وحلّق في فلك كوكبه السيار راضياً وهو الذي تقول تجربته مع النساء إنه لم يلق بنفسه لهفة وهوانـاً أمام من يرغبها.. لقد تذكر ليلته الأولى مع عنايات وكانـت عيناها تدعوانه وقلبها يخفق بجانبه وأمنياتها تلاحـق ابنتهـا الصغيرة حتى تخلد إلى النوم.. لقد فهم كل ذلك.. ومع هـذا فقد أقنع نفسه أنها أفكار مراهقة تلك التى ألمت به وخرج من عندها وهو لا يعلم أنه ترك خلفه حريقـاً مشـتعلاً داخـل امرأة.. ولما فضحها ضعفها في الأيام التالية.. تقـدم إليهـا مسلحاً بقوته.. ثم تذكر هدى التى ظل يطـرق علـى قلبهـا

بهدوء حتى انفتح ولما رأى بابها مفتوحاً على مصراعيه أبى الدخول لأنه رفض أن يدخل زائراً ويمضى.. إنما كان يطمح إلى اعتلاء الكرسي المقدس.. كرسي صاحب الـدار.. ثـم تذكر فاطمة التى ظل يأكلها بعينيه أياماً وأحجم عن لمسـها إلى أن خارت قواها في حادثة المصعد ففهم أن ثمـاره قـد نضجت وآن له أن يلتقطها حباً من فوق غصونها المنحنية..

أما أنت يا أولجا.. فأنا أعلم أنك لست مثل الأخريـات.. لأنك تمتعت بما لم تتمتع به الأخريات من علم مسبق عنـى: من أكون؟.. فأنا أعلم " أن ناتاشا " قالت لـك عـن بعـض مغامراتى مع الانجليزيات وأن حبك لي أصبح هـو الحـب المتردد ما بين الإقبال الصريح أو الامتناع المحسوب.. فأكثر ما تخشاه كرامتك أن تضـعى نفسـك واحـدة فـي صـف الأخريات اللائي نلتهن بسهولة كما تبادر إلى سمعك.. وأكثر ما يخشاه قلبك أن أنالك وأفر منـك مـثلهن.. ولـذا فأنـت تحاولين النجاح في المحافظة على كما تحـاولين الانتصـار على نفسك في الابتعاد عنى.. وتلك هي المعادلـة الصـعبة التى أقرؤها في عينيك.. وفـي خطواتـك المتـرددة أمـام المصعد.. ولكنى سأظل على عهدى فـي احتـرام أعماقـك

النبيلة وليس كما يمكن أن يسميها غيرى " خطتك النبيلـة ".. وسأحترم هذا الجبن الرائع الذي يغلف رغبتك لي.. وسأصمد لذلك الدق العنيف الذي يزلزل رغبتى فيك..

كانا يتبادلان قيادة سيارتهما المؤجرة وينطلقان بها مـن " فيينا " إلى " سالزبورج".. تحيطهما السهول الخضراء ومـا يعلوها من بيوت ريفية بيضاء تعلو وتهـبط مـع الوديـان والكثبان.. ثم تبدو في الأفق سلاسل الجبال الرمادية الممتـدة وهي تلقى بظلالها الغافية على سطح البحيـرة التـى تمتـد بجوارهما موازية للطريق..

راح يقول لها: ما هذا الجمال..؟

فتقول له: إنه نابع من نفوسنا..

سألها: كيف؟..

فتجيبه: جرب النظر إلى نفس المنظر بنفس مكتئبـة لـن تجده بهذه الروعة.. وربما تجده مزرياً وموحشاً وخالياً مـن الجمال..

قال وهو يشاغبها: أنت فيلسوفة..

فتجيب بحماس: أنا أحب الحياة.. وأفهمها... ثم صرخت في هلع: تمهل.. تمهل.. انحرف إلى اليمين.. انحرف إلـى

اليمين.. وفي اللحظة الأخيرة تمكّن إبراهيم من تفادى سيارة قادمة من الاتجاه الآخر.. سيارة لم يتوقعها عند ذلك المنحنى الحاد الذي كان يجتازه.. لقد كاد أن يصطدم بسيارته وجهـا لوجه مع تلك السيارة القادمة.. وعندما أدار عجلـة القيـادة بشكل حاد ومباغت إلى اليمين خرجت بهما السـيارة عـن الطريق الممهد إلى الدرب الترابي المتعرج ثم راحت تعلـو وتهبط بهما إلى أن تمكن من السيطرة عليها قبل أن تصطدم بالصخور المجاورة.. كل ذلك حدث في لحظة مباغتة كانـا يسحبان فيها شهيق السعادة.. وما إن توقفت السيارة بعـد أن تجمدت أطرافهما ذعراً حتى تبادلا نظرات الدهشة وارتمـى كل منهما في حضن الآخر وظلا على هـذا الحـال دقـائق طويلة لا يسمعان إلا لهاث الأنفاس المـذعورة تتـردد فـي صدريهما..

همست له وهي في أحضانه: كدنا نموت..

قال لها مهدئاً: لن نموت الآن..

قالت متعجبة: كيف؟.. الموت يأتى في لحظة؟..

رفع إليها وجهاً مملوءاً بالرجاء: ا سـيؤخر لنـا هـذه اللحظة حتى نلتقى بالسعادة ونرتوى منها حتى الثمالة..

تعجبت مرة أخرى: لم أسمعك تذْكر اسم ا   كثيراً..

قال لها في هدوء: ا   في داخلى.. لا أنساه رغم انشغالى عن عبادته.. لانشغالي بنفسي..

وما إن واصلا المسير.. وصـدى ضـجيج الانحـراف المدوى يعلو في آذانهما.. وما إن هدأت مشاعرهما.. حتـى تذكر كل منهما ذلك الشئ الذي قاما بفعله دون اتفاق عنـدما ألقى كل منهما بنفسه في أحضان الآخر واحتمى به.. ودفـن رأسه في صدره.. وأطلق أنفاسه تتردد في حناياه..

قال لها: لماذا ارتميت في أحضانى؟..

أجابت: ولماذا ارتميت أنت في أحضانى؟..

قال لها: لا أدرى..

رددت هي الأخرى: وأنا أيضا.. لا أدرى..

سألها: ألا ترين معى أن العقل الباطن فينا أكثر صـراحة لدينا من عقلنا الظاهر..؟

سألته: تريد أن تقول إنه دفعنا لنفعل في لحظة ما أبعـدنا عقلنا الظاهر عن فعله في شهور؟..

أجابها: أجل.. وكان ذلك بشكل عفوى.. وبرئ..

قالت له: ومن الذي يضمن أن هذه العفوية وتلك البـراءة هي نفسها التى سوف يأخذنا إليها عقلنـا الظـاهر.. العقـل الظاهر دائماً له رأى آخر..

ابتسم لها في إعجاب.. وواصل القيادة..

- ٦٢ -

كانا وهما في الطريق يعرجان علـى القصـور الملكيـة القديمة ويشاركان السياح يومهم الجميل بالاسـتمتاع بتلـك الآثار الباقية من حياة نبلاء القرون الوسطى.. كانت تعليقاته المداعبة تضحكها وتضحك بعض من يسمعها من الجوار.. " تلك هي غرفة نوم الملك.. وفي الجناح الآخر غرفـة نـوم الملكة.. لماذا ينامان منفصلين.. هل طلبا ذلك من الـدكتور شرابي؟.. راحت تضحك بعذوبة مستمتعة بهذا الإسقاط اللذيذ في عبارته.. وزاد ضحكها عندما شاركهما الضحك سـائح شاب كانت قد وصلته العبارة فسأله ضـاحكاً: " ومـن هـو الدكتور شرابي؟ " فأجاب إبراهيم مستمراً في دعابته " إنـه الرجل الذي خلقه ا لنا ليتولى مهمة: كيف ننام؟.. وعلـى أى سرير؟... أليس في حياتك واحـد مثلـه؟ ".. رد عليـه السائح مستمراً هو الآخر في دعابته وهو يمضي بعيداً عنه " لا.. لا.. لست بحاجة إليه.. فأنا قد أقلعت عن النوم منذ زمن طويل "..

وفي مكتبات القصور ذات الصالات الواسـعة والأرفـف العديدة المرتفعة لاحظ أنها كانت تنصرف رغم وقتها الضيق

لفحص الكتب التى كانت تعج بها الرفوف وتتعجب مثله لهذا الكم الهائل من العناوين المختلفة في كل نواحى العلم والفـن والأدب وكلها منسوخة بخطوط الخطـاطين قبـل اختـراع الطباعة.. وتتعجب ويتعجب معها لذلك الحرص الشديد على تسجيل كل ما وصل إليه العلم من تشريح لمختلف النباتـات ومختلف أعضاء الإنسان.. ثم تُثنى ويثنى معها علـى ذلـك الصبر الدءوب علـى تسـجيل وقـائع الحـروب القديمـة والمعاهدات التاريخية.. ثم تسـجيل أدب الأدبـاء.. وشـعر الشعراء.. قال لها: كنت أظن أنهم لا يعرفون سـوى اللهـو والحب.. أجابته: لا توجد أمة تبنى حضارتها على شئ اسمه اللهو.. أنت الآن تشاهد بعض الوثائق التـى تشـهد علـى إصرار الغرب على اللحاق بالحضارة.. كنا نفعل ذلك عندما كان اللهو والجنس يطيح بعقولكم في الأندلس.. أمامـك الآن بعض أوراق الذاكرة.. تأكد بنفسك..

- : أنت يا أولجا.. تعرفين كل شئ.. كل شئ..

سخرت من جملته الأخيرة..

- : لو كنت قد عرفت كل شئ لتوقفـت عـن البحـث والقراءة..

أسرع إلى الاختفاء في دعاباته:

- : صحيح.. كنت ستفعلين مثلى.. وتتوقفين..

وابتسمت أولجا في مرارة لهذا الكائن المـتعلم الـذي لا يسعى إلى الثقافة.. والذي يدعى الآن – ساخراً – أنه بـات يعرف كل شئ ولذا فلم يعد بحاجة إلى البحث والقراءة..

وفي طريقهما إلى السيارة ليواصلا الانطلاق كانت تتأبط ذراعه وهما يتجهان مسرعين للاحتماء داخل السـيارة مـن رذاذ المطر الخفيف الذي بدأ ينهمر.. كانت تحدثـه وهمـا آخذان في العدو:

- : إبراهيم.. لا أدرى ما الذي يمكنك أن تضيفه إلـى حياتى؟.. ولكنى أحس دائماً أننى بحاجة إليك..

كان قد جلس على مقعد القيادة.. وراح يفكر في عبارتهـا وهو يلتقط أنفاسه.. ثم رنا إلى الأمام بنظرة متأملة.. أحـاط فيها عبر سياج الأشجار الوطيئة التى تحـيط " البـاركنج " بخطوط الجبال الانسيابية التى تبدو من خلف الزجاج المبلـل كامرأة جسورة ألقت بجسدها فوق الروابي لتستحم بـالرذاذ والندى..

- : أولجا.. أنا لا أفهم الحياة بتلك المقاييس الدقيقة.. لو كنت أعرف منذ نشأتى ماذا أريد لاختلفت معى كـل الأمور.. وربما لـم أكـن هنـا – الآن – جالسـاً بجوارك.. أنت يا أولجا تستيقظين من نومك مثل كل الناس الذين يعرفون ماذا سيفعلون فور صـحوهم.. ولكنى دوماً أحاول التذكر – فور صـحوى – أيـن أنا؟.. وما هو موقعى؟.. وما هي المدينة التى أنـام فيها الليلة..؟.. لقد اكتشفت أننى في حالة فرار.. بحثا عن الاستقرار.. ثم اكتشفت أننى أكره الاستقرار..

أعجبها حديثه عن نفسه فأوقفته بإشارة من يدها ألا يـدير السيارة.. ففهم أنها ترغب في مواصلة الحديث وهمـا فـي ساحة الانتظار.. فاتجه إليها مسـتديراً بكـل جسـده وهـو يتأملها.. فقالت له:

- : مشكلة بعض البشر أنهـم لا يجيـدون تشـخيص أنفسهم.. ولذا فهم يظلون سجناء لمعانـاتهم ولكنـى أراك تجيد تشخيص نفسك، ومع هذا فأنت لا تطلـب الدواء..

- : لعلى لا أطلبه.. لأننى لا أعرفه.. أو لعلـه غيـر موجود..

- : بل لعله موجود وأنت تتمادى في نسيانه.. أو الفرار منه..

لمح في حديثها أنها تملك ما يمكنها قولـه عـن حياتـه فسألها:

- : ماذا تقصدين؟..

- : أقصد: زوجتك وأولادك بمصر..

أحسن بصفير ناعم يخترق أذنيه فألقى برأسه على مِقْـود القيادة وظل صامتاً دون حراك.. ويبدو أنها كانت تعلم مسبقاً مدى تأثير هذه المفاجأة فأمهلته - قبل حين - عن الخـروج بها من ساحة الانتظار فراحت تبادله الصمت حتى يعود إليها من سروحه الشارد:

- : لماذا لم تخبرنى؟..

هكذا سألته وهي تصوب بصرها نحو الفضاء المترامـي والذي ينتهى عند كتل الجبال الرمادية السابحة تحت المطر..

أجابها وهو يرفع رأسه قليلاً عن المِقْود:

- : ولماذا أخبرك؟..

طرحت على الفور سؤالها المترتب على إجابته:

- : ألانك لم تكن ترى أهمية لذاك.. بالنسبة لي..؟

رفع كل جذعه النائم على المِقْود وواجهها هاتفاً:

- : العكس هو الصحيح.. لأننى كنـت أرى أهميتـك بالنسبة لي.. لقد خشيت أن أفقدك عندما تعرفين عنى هذا الماضي السئ..

سألته باستغراب:

- : وهل تُسمى هذا ماضياً سيئاً؟.. هل قمت بتكـوين أسرة رغم أنفك..؟.. هل كنت مسلوب الإرادة وأنت تفعل ذلك..؟.. الحقيقة أنا لا أفهمـك.. ألا تـرى أن إجابتك تمتلئ بالغرابة؟..

- : لعل إجابتى بدت لك هكذا.. لأن ما حدث معـى لا يخلو أيضا من غرابة.. لن أستطيع أن أشرح لك كل ذلك.. ولكن يمكنك أن تعودى إلى كلمتيك الأخيرتين: " رغم أنفى " و.." مسلوب الإرادة "...

ابتسمت في ذهول.. ابتسامة كلها مرارة.. فهى لا تصدق ما تسمعه ولن تصدق.. هل هو لا يحب أسرته؟.. وهل هـو الآن لا يفعل ما كان يفعله والدها وهم صغار عندما هـاجر

من جنوب البلاد إلى شمالها وظل مغترباً بها ووحيداً هنـاك ليمهد لهم حياة مترفة؟.. أليس لهذه الرحلة التى غادر فيهـا إبراهيم بلاده هدف منشود يسعى إليه..؟.. قال لها:

- : الرحلات هي غايتى.. ولم أضع في حسابي مرة أن تكون هي وسيلتى لشئ ما.. تماماً مثلما نفعل الآن.. نحن نستمتع بالمدن والناس والطبيعـة.. هـذا هـو الهدف..

- : ولكنه بالنسبة لي ليس غاية.. إنها وسيلة للتـرويح والمعرفة ونحن في طريقنا إلـى دسـلدورف لبـدء مشوار طويل في العمل والسهر والمنافسة..

- : لعله كذلك بالنسبة لك.. حالة مؤقتة.. ولكنها الحالة التى أنشد دوامها وأطاردها..

- : وإلى متى؟

- : لا أدرى..

- : إذن أنت لا تصبو إلى الاستقرار في دسلدورف؟..

- : لا أدرى.. ولكننى لو نادتنى مدينة أخرى فسـوف أذهب إليها.. لشد ما أكون ضعيفاً أمام نـداء المـدن الأخرى.. و.....

وألجمه صمت مفاجئ.. فأكملت هي متسائلة:

- : و.. النساء الأخريات..؟

صوب بصره في وجهها.. وراح يتأملها بإعزاز:

- : دعينى أصارحك القول.. عن النساء: ربمـا كنـت كذلك حتى عرفتك.. ولعلى منذ أن عرفتك وأنا آخـذ في عقد جلسات طويلة مع نفسي.. وعقد امتحانـات كثيرة لنفسي.. ووجدت أن تغيراً طارئاً قد ألـم بـي بسببك.. هذا التغير هو أننى لم أكن أجلس من قبـل مع نفسى.. ولم يسبق لي أن عقدت لهـا امتحانـاً.. وكونى قد صرت أفعل ذلك.. فهذا هو التغير..

- : وما الذي خرجت به من هذه الجلسات؟..

- : لم أخرج بنتائج.. ولكنـى شـعرت بأحاسـيس.. شعرت أننى في سـبيلى لمطـاردة أشـياء أخـرى واهتمامات أخـرى.. أشـياء واهتمامـات لا أدرى كنهها.. ولكن اليقين الذي داخلنى نحوها هـي أنهـا

ستكون إيجابية.. واليقين الآخر هو ما وصلت إليـه من قناعة الآن - أنها نفس القناعة التى وصلْتِ أنتِ إليها..

- : قناعة؟.. قناعة بماذا؟..

- : إحساسي الدائم بحاجتى الدائمة إليكِ.. أليس هذا ما اعترفت به الآن في أول حديثك؟..

أطرقت برأسها قليلاً وكأنها تتذكر تلـك العبـارة التـى صدرت منها رغما عنها وهي في ذروة إعجابها بشخصـيته الجريئة الأخاذة المتوهجة التى تغلفها موجة غير مفتعلة مـن الشقاوة اللذيذة وخفة الدم الظاهرة.. لقد كـان قبلهـا ينتـزع بتعليقاته الضحكات من السائحين والسـائحات رواد القصـر الملكى حول الصور الزيتية الضخمة المعلقة بملء الجـدار كاملاً لكل صورة.. وحول المفروشـات الأثريـة للـدواليب والأسرة والمناضد.. وحول مآدب الطعام.. وحـول قاعـات الاجتماعات.. وغرف الخدم والموظفين.. تذكرت أنها كانت ترى نظرات الإعجاب به في عيون السائحات العابرات وهن يبادلنه الضحكات وتحس بشئ من الغيرة تتحرك في قلبهـا.. ثم تحس بشئ من الفخر عندما تتعلق بذراعه أمامهن.. حتى

أنها وهى في طريقها للخروج معه تأبطت ذراعه بقوة وكأنها تخشى أن يفر منها إلى إحدى هؤلاء السـائحات.. أو كأنهـا تقول لهن: إنه رجلى.. وها أنتن ترينني متعلقة به..

خرجت من شرودها ثم رفعت إليه وجهها الجميل المبلـل ببعض قطرات المطر:

- : إبراهيم.. كنت تتحدث معى عـن بـراءة العقـل الباطن.. وما قلته لك عن مدى حاجتى إليك هو مـا أملاه على عقلى الباطن.. فلشد مـا قاومـت عقلـى الظاهر وأنا أخفى حبى لك ولا أجرؤ على التصريح به.. ذلك أننى كنت نهبـاً لكثيـر مـن المعطيـات المتناقضة.. أولها: ما أراه منك مـن إقبـال علـى واهتمام بي.. حتى أننى لم أفاجأ بشـرطك الوحيـد للانضـمام إلـى مجموعـة " بتشـنج " والـدكتور "شرابي".. هذا الشرط هو أن أكون معك.. لقد أكدت لي رؤيتى لك وصحة تأملى لمشـاعرك تجـاهي.. وكانت سعادتى بالغة لأننى تأكدت أن مالديك نحـوى هو الحب.. ولا شئ غير الحب..

لقد سارعت بزف بشرى سعادتى بحبك إلـى صـديقتى " ناتاشا " التى راحت تستقبل فرحتى بهدوء ثم راحت تسـألنى إن كنت قد ناقشت معك شكل علاقتنا القادمة.. ولما أجبتهـا بعدم أهمية ذلك راحت تلومنى على تفريطى ولأول مرة في استخدام حساباتى الدقيقة في مسائل الحياة.. قلت لها: الحـب تفسده الحسابات يا " ناتاشا " قالت لي: إلاّ في حالتك.. لابـد من استخدام الحسابات.. سألتُها: إن كانـت تقصـد مسـائل الدين.. فأجابتنى بلا مبالاة.. لا.. لا.. هذه المسائل لا تمثـل مشكلة.. ولما رحت أتأمل مراوغتها ظننـت أنهـا تقصـد علاقاتك القديمة فأفصحتُ لها عن ذلك.. فأجابتنى أيضاً بـلا مبالاة: لا.. لا.. هذه المسائل ينتهـى منهـا الرجـال بعـد الزواج.. ثم أضافت: إلا إبراهيم.. فصرخت فيها: ناتاشـا.. سأغلق التليفون.. ماذا عندك..؟.. وبكل هدوء قالـت لـي: ناتاشا وهي تمتص صرختى:

- : خبر واحد.. حبيبك إبراهيم هـذا لديـه زوجـة.. وثلاثة أبناء.. يعيشون في مصر..

من يومها.. وأنا أعيش نهباً لمشـاعرى المتناقضـة.. لا أستطيع أن أخفى حبى لك.. ولا أستطيع أن أعترف لك به..

ولا أستطيع أن أخفى سعادتى بحبك الظاهر لي.. ولكنـى لا أستطيع تفسيره.. فكيف يحمل هذا الرجل المثقـل بزوجـة وثلاثة أبناء وأسرة كبيرة كل هذا الحب العذرى لـي بهـذا القدر الذي لا يمكن تفسيره إلا بأنه صاحب قلب بكر لم يسبق له الحب والزواج؟.. لقد كنت أخفـى عنـك أحزانـى.. ولا أظهرها لك.. وكنت أبالغ في ابتعادى عنك.. وأنتظـر مـا سوف تفعله لكسر هذا التمنّع الذى أُبديه أمامك.. ولشـد مـا احترمت فيك احترامك لجفولى منك.. وقلت لنفسي: هـؤلاء هم العرب.. لا يقربون الفرس العاصي.. إلا بعد ترويضه.. وانتهيت من مناقشة هذا الحصار العاطفى الذى ضربناه حول أنفسنا وبدأت في مناقشة شئ آخر.. شئ من الأهمية بمكـان في حياتى.. وهو صراحتى مع نفسي.. ثم صـراحتى مـع أبى.. لقد قلت لأبى كل ما يمكننى قوله عنـك مـن أخبـار وتحاليل تعودت أن أخوضها معه في تناولنـا لكافـة أمـور الحياة.. ولكنى مع الأسف لم أكن صريحة مع نفسـى وأنـا أقترب منه لمصارحته بما أعرفه عنك.. لقد وجـدت نفسـى أحجب عنه – ولأول مرة في حياتى – جملة من المعلومات الهامة كان يجب أن يستخدمها وهو بصدد إسداء النصح لـي

حواك.. تغاضيت عن استخدام الأسلوب الأمثل الذي علّمـه لي في عقد الدراسات التحليلية لأى موضوع قيد البحث وقيد طلب النتائج والتوصيات الملائمة.. فما أتعس التوصيات إذا قامت على حيثيات خاطئة.. وهذا ما تعمدت أن أفعله ولأول مرة كما قلت لك.. والغريب أننى لجأت إلى هـذا السـلوك الخاطئ رغم علمى أنه يتعلق بمصيرى.. وكأنى كنت أتفادى الاصطدام برأي هو لابد أن يطرحه على مفاده أن: ابتعـدى عن طريق هذا الرجل.. فهو ليس رجلك يا " أولجا ".. أمـا الشئ الأغرب أننى لم ألمس في داخلى همسة من العتاب أو الألم لأننى كذبت على أبي.. وأنا التى كان يقض مضـجعى هفوة أرى أنها كانت لا يجب أن تلصق بي.. لقد فعلت مـا تفعله أنت الآن وجلست مع نفسي أناقشها فيما يحدث منهـا.. ووجدت أننى ولأول مرة أتحيز لغريزة الأنثى وأنا أواجه أبي وأواجهك وأواجه مصيرى.. وأن ما كنت أواجه به أبي مـن قبل هو الشئ الطبيعى لوقفة التلميذة أمام أستاذها.. والإبنـة أمام أبيها.. والباحث أمام مديره المسئول.. أما الأنثى أمـام رجلها فتلك هي وقفتى الخاصة.. ولابد لي أن أحميها بكـل جوارحى.. حتى لو استخدمت سلاح الكذب..

همهم بكلمات سريعة استطاعت أن تلتقطها حينما قال:

- : شئ غريب..

فسألته: ما هو هذا الشئ الغريب؟..

تمهل قليلاً وقال: كان الكذب أحد أسلحتى التـى أضـطر لاستخدامها وأنا أحاول المرور من عقبات الآخرين.. ولقـد اتفقت مع نفسي أن ألقى بهذا السلاح المزرى جانبـاً.. وأنـا أهيب بك الآن ألا تستخدميه لا تتعلمى استخدام هذا السـلاح بسببي.. يا أولجا..

راوغها سرور وليد وهي تلمس نصيحته المثلى التـى لا تصدر إلا من نفس تنشد الشفافية وتتجه إليها..

- : وهل أصارح أبي..؟..

- : صارحيه.. لأنك لن تكونى أول فتاة أوروبية تختار رجلها بعيداً عن خيار أسرتها..

- : نحن الجنوبيين.. ولدينا تقاليد..

- : بعض الجنوبيون عندنا أخذوا في تحطـيم بعـض التقاليد.. تلك طبائع الأمور والأمر الحتمى لمسـيرة الحياة.. ولكن لا تصارحى أبـاك الآن.. صـارحى نفسك أولاً.. واسأليها إن كانت تقبل هذا الرجل بكـل

ما فيه.. وكل ما عنده.. كل مـا فيـه مـن مزايـا وعيوب.. وكل ما عنده من حب اك ان يحمله رجـل آخر.. وكل ما عنده من ماضٍ مثقل بثمـار الغفلـة والمتاهة والرضوخ والسلبية.. اجلسي مع نفسك يـا أولجا لتحددى مصيرك معى.. ودعينى أجلـس مـع نفسي لأنتظر قرارك الذي سـيحدد مصـيرى فـي الحياة..

- ٦٣ -

كان لهذا البوح العفوى مقداره في علو مشاعر كل منهما تجاه الآخر.. لقد ظهر هذا وبشكل واضح فـي تصـرفاتهما الجديدة التى صارا يفعلانها بعفوية وبلا اتفـاق.. فـإن لـم يسارع هو بالتقاط راحة يدها ليطبق عليها براحتيه تسـارع هى باختطاف كفه الكبير الناعم وتضعه بين كفيها مرسلة له نظراتها الوالهة في صمت.. وإذا وجدا نفسيهما – فجأة – قد توقفا عن السير وضم كل منهما الآخر إلى أحضانه في هدوء – ودون قبلات– ويظلان علىهذه الحال في غياب كامل عن المارة والناس في الشوارع فلا يسأل أحدهما بعد الذى حدث: ماذا حدث؟.. فقد أصبحا يعرفان ما حدث.. ولا حاجة بهمـا إلى قول جديد بعد أن تعرفت القلوب على ما بها..

ولكنها لاحظت أن فتاها قد فقد مرحه المعتاد وأنه لم يعد يستجيب إلى مغريات المداعبة والفكاهة التى كـان ينشـرها حوله.. وكم تمنت لو يعود إلى ما عهدتْه فيه مـن مـرح لا لتطلق ضحكتها الناعمة الدالة على سرورها به ولكن لتخرجه عفويته من ذلك الشرود والصمت اللذين انسحب إليهما فجأة وبلا مبرر..

أطلقت ملاحظتها الجديرة بالإعلان حول مدينة سالزبورج وكيف تعيش هذه المدينة مفعمة بكل آيـات الفخـر بابنهـا الموسيقار العظيم " موتسارت ".. وكعادتها في ملاحقة تاريخ العظماء راحت تسرد له كل ما تعرفـه عـن هـذا الفنـان العبقرى.. وراحت تلتقط الصور التذكارية في منزله الـذي تحول إلى مزار سياحى لغرفة نومه وغرفـة مكتبـه وآلـة البيانو التى تركوها في نفس موقعها منذ أن مـات.. وأوراق النوت الموسيقية.. وتروح إلى المشرفين على المزار تبـث لهم أسئلتها التى لا تنتهى.. وتعـود إليـه مفعمـة بالشـجن والإعزاز مؤكدة لإبراهيم مدى ثقتها أن ا كما بعث الرسل والأنبياء إلى البشر لهدايتهم فقد بعث إليهم الفنانين ليمسـحوا حياتهم من التعب وكدر العيش.. وراحت تقـارن بـين مـا حرص عليه ملوك الفراعنة وملوك الرومان والإغريق مـن تخليد ذكراهم ببناء المعابد والأضرحة لأنفسهم قبـل مـوتهم وبين ما يحرص عليه البشر من صنع التماثيـل والنصـب التذكارية تخليداً لراحيلهم من الفنانين.. فبقدر ما اعتز الملوك بأنفسهم فخلدوها.. اعتز الناس بفنّانيهم فخلدوهم.. وشتان بين حالتى الإعزاز.. فالأولى لا تخلو من نرجسية.. والثانيـة لا

تخلو من امتنان.. وقد أمن إبراهيم على ما تقوله أولجا عندما وجد صور وتماثيل موتسارت تقابلهم في كل مكان..

وعند نهر الدانوب الأزرق وعلى ظهر باخرة مزدحمة بطالبي المتعة أخذ الحبيبان موقعيهما على كرسيين متجاورين تحت الشمس الدافئة وقد أضفى جلال الطبيعة الساحرة على قلبيهما مزيداً من دفء المشاعر.. قالت سائحة وهي ترى الشاطئين يقبلان عليها بروعة الأشجار وزهوة ألوانها والباخرة تتهادى بينهما في هدوء.. هذه قطعة من الجنة.. فما بالكم بالجنة نفسها؟!..

تذكرت أولجا واقعة رواها لها السيد البينى مدير عملها السابق في روما وراق لها أن تضاحك إبراهيم بروايتها عن أحد المكاتب الاستشارية الإيطالية الذي تقدم بمشروع لإحدى الحكومات الخليجية يعتمد في فكرته إلى إنشاء جنة على الأرض مثل الجنة التى وعد ا بها المسلمين في القرآن.. لم يكن يعلم هذا المصمم مدى ما لدى المسلمين من تقديس لفكرة الجنة وأنها تحمل لأصحابها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما وصفها الأثر النبوى الشريف.. وأنه ليس من الممكن – بناء على ذلك – أن

يتخيلها بشر.. ومادام هذا الإيطالي قد ادعى ذلـك إذن فهـو نصاب خطير.. ولم يجدوا حلاً لمعاقبته سوى أن يستجيبوا – أو يدعوا الاستجابة – لفكرته حتى يقطعوا أنفاسه في الذهاب والعودة ووضع الأفكار ورسمها وعرضـها علـيهم وهـم يعلمون – مقدماً – أنهم سيقولون له: ليست هذه هي الجنـة الموعودة.. فاذهب بجنتك من هنا ربما يشتريها منك أنـاس غيرنا..

ظنت أولجا أنها ستجذب من إبراهيم ضـحكاته – بهـذه القصة – أو تخرجه من شروده المفاجئ إلا أنه اكتفى بتعليق يتكون من كلمة واحدة: - يستاهل.. ثم لما وجدها قد انطوت على نفسها لأنه لم يتأثر بقصتها سارع فأضاف:

- : لو كنت مكانهم لاخترعت ناراً كالنار التى وعد بها ا الكفار وقذفته فيها قائلا له: أنت أتيت لنا بجنة ا لنجربها.. ونحن أتينا اك بنار ا لتجربها..

حاولت أن تضحك بمرحٍ كسابق عهـدها فلـم تسـتطيع واكتفت بالابتسام.. مما أوحى له بأن مهمته قد فشلت.. وفي طريق العودة إلى فيينا سألته وهـي جالسـة بجـواره فـي السيارة:

- : ما بك يا إبراهيم؟.. ما الذي أحزنك فجأة؟..

- : لا أدرى يا أولجا.. ولكنى الآن فقط وقبل أن تقدمى هذا السؤال كنت أتأمل كلماتك التى رددت على بهـا في هذا الطريق عندما استحسنت هذا الجمال البـديع لتلك الطبيعة الساحرة التى تحيطنا وكانت إجابتك أن الطبيعة قد بدت لنا ساحرة لأننا نتأملها بقلب سعيد.. ولو نظرنا إليها بعكس ذلك لوجدناها مزرية وخاليـة من السحر..

- : هل يعنى هذا أنك لم تعد ترى هذا الجمـال الـذي يحيطك؟..

- : لم أعد أحس به بنفس القدر السابق..

- : هل لديك تعليل لذلك..؟

- : لا أملك تعليلاً أو تحليلاً.. ولكن يبدو هذا من فرط جلوسي مع نفسي.. هذا الشئ الذى صـرت أجربـه هذه الأيام..

- : إذن فأنت حائر..

- : من المؤكد أننى كذلك.. وحيرتى هي أننى لم أعـد أعرف مدى صحة ما أفعله.. فهل كان هروبي مـن نفسي في السابق وشرودى منها هـو الشـئ الـذي يناسبنى؟.. أم أن محاولة عثورى على نفسى ولجوئى إليها هو الشئ الذي لا يناسبنى؟..

- : عثورك على نفسك هو الأفضل..

- : كدت أهلل لأننى أوشكت أن أعثر علـى نفسـي.. ولكنى سرعان ما اكتشفت أننى دخلت حرباً ضـارية خسرت فيها شخصاً أحبه..

- : من هو هذا الشخص..؟

- : رجل فوضوى كان يعيش بداخلى.. رجل لا يعبـأ بأى شئ.. يفعل كل ما يحلو له.. يقدم علـى الحيـاة بجسـارة.. لا يعـرف الحسـابات.. ولا يعـرف الموازين.. ولا يهمه رأى الناس.. ولا يعبأ حتى بكل الناس.. رجل مقتنع بكل ما يفعله.. رجل له مقـاييس خاصة به تختلف عن كل مقاييس البشـر.. لا أدرى لماذا أصابنى الهم لأننى أحاول قتل هذا الرجل المرح الجميل الطائر المعذب الذى أحببته؟..

- : إذن فأنت قادم يا إبراهيم علـى الاكتئـاب الـذي يصيب أصحاب " الرجيم " القاسي.. هم يتخلصـون من اللحم الزائد ولديهم شعور بالخسارة المطلوبـة.. وأنت تتخلص من مشاعر زائدة وسـلوكيات زائـدة ولديك شعور – غامض – بالخسارة القادمـة.. كـل منكما أقدم على هـذا التهـذيب البـدنى والنفسـى بمزاجه.. ولكنه يواجه التألم رغما عـن مزاجـه.. اطمئن يا إبراهيم.. فتلك حالة طارئة.. وسرعان مـا تعود إلى مرحك عندما تحس أنك تخلصت بقدر كبير من الأشياء التى تسعى إلى التخلص منها..

قال لها وهو يهدئ من سرعة السيارة:

- : أتمنى ذلك..

ثم توقف بالسيارة تماماً.. وهبط منها واستدار ناحيتهـا.. وفتح لها الباب..

- : هيا.. تولى أنت القيادة لباقي الطريق يـا طبيبتـى النفسية.. فمريضك قد تولاه التعب..

- ٦٤ -

هل يمكن للحب أن يهز تلابيب النفس بدلاً من إشـعارها بالسعادة؟..وما هو الشئ المقبض الذي انغرس فـي نفسـه وتسرب خلسة إليها من نفس الباب الذي تسرب منه الحب؟..

لقد صار يتعجب لهذا الهوس الجنونى الذي يستولى على الألمان وقد فارت نفوسهم بالبهجة كلما فـارت الزجاجـات والعلب بما في داخلها من شراب البيرة..

لقد كان على استعداد قبل أيام لمشاركتهم وليس الاكتفـاء بمشاهدتهم في صمت.. لا.. بل هو الآن آخذ في اسـتهجان هذا الهوس.. حاولت أولجا أن تخرجه مـن صـمته دون أن يبدو منها أنها تقصد هذا.. وفشلت.. فمنـذ أن عـادا مـن سالزبورج وأقاما ليلتهما الأخيرة في فيينا ثم راحا يسـتعدان في الصباح للطيران من فيينا إلى ميونيخ.. وطوال رحلتهما تلك وهي تبحث عنه ولا تجده إلا جسداً مرهقاً يستسلم للنوم على مقعده بجوارها حتى أنها راحت تتساءل إن كانـت قـد لمست في نفسه جرحاً قديماً جعلته يعاود الإدمـاء.. أم أنهـا لمست في رجولته شيئاً جعله يزدرى نفسه؟.. أم أنها أهاجت في مشاعره غبار الماضي الغافي فهبت عليه أتربته الرعناء

من كل حدب وصوب حتى لم يعد يستطيع أن يـدفعها عـن نفسه؟..

لقد توقعت أولجا أن رجلها ينحـرف بشـكل حـاد فـي منعطف خطير متجهاً إلى طريق مخالف.. وأنـه الآن يـزم شفتيه ويصم أذنيه ويغمض عينيه ويسكت القلـب الواجـف المرتعد وهو ينسل من نطاق الجاذبية إلى فراغ التحول..

قالت لنفسها إن ما يبدو من إبراهيم الآن أنه يأتى بالشـئ المخالف لتوقعاتها.. فبعد اندفاعهما العفـوى فـي أحضـان سلامة النجاة من حادث الطريق.. وبعد اندفاعهما العفوى إلى سرد خفايا القلوب.. وبعـد طرحهمـا جانبـاً لغـة الكـلام وانحيازهما إلى لغة اللمس والاحتضان.. توقعت أولجـا أن تنعم ببعض أحضانه - وقبلاته التى لـم تجربهـا – عنـدما يصلان إلى فندقهما في " فيينا ".. ولكنه ودعها عنـد بـاب المصعد كأى نزيل غريب وهو يتجه إلى غرفته حتى أنهـا وقد ألم بها السهد والقلق وجافاها النوم فكرت أن تدعوه إلـى غرفتها أو تزوره في غرفته أو تطلبه ليلتقيا في بهو الفنـدق ولم تجد لديها القدرة على هذا الاقتحام فراحت تستجدى النوم حتى أهلكها الأرق..

وفي الصباح وعندما قرأت ما كتبه هذا الأرق نفسه تحت جفونه ابتسمت له قائلة: لعلك لم تـنم مثلـى..أجابهـا فـي صراحة: أجل.. وكدت أطلبك لتنقذينى من ذلك وخفـت أن أفسد عليك نومتك..

سألته: ولماذا لم تنادنى؟..

قال وهو يهز رأسه في حيرة: لا أدرى ولكنـى أخشـى اقتحام عالمك..

ثم أضاف وهو يبتسم:

بمناسبة الاقتحام ذكّرينى أينما ووقتما تجـدين الفرصـة مناسبة لأقص عليك قصة طريفة حدثت معى.. قصة أعطيتها عنوان الاقتحام..

كانت تتجول بالكاميرا في الشوارع الراقصة حول البيـرة وتعلم أنه ينتظرها في أحد المقاهي التى تمتلئ بها أرصـفة ميونيخ.. أسرعت إليه وفي خطتها أن تجذبه للكلام مستخدمة تصريحه لها بذلك لكى تسمع منه قصة الاقتحام..

سألته: - هل اشتركت قبل الآن في حرب؟..

أجابها: - حرب؟.. وما الذي جعلك تسألين عن ذلك؟..

- : قصة الاقتحام التى وعدتنى بها؟.. هل حدثت فـي حرب؟..

ابتسم في مرارة وأجابها:

- : حروبي كلها يا أولجا كانت مع النساء.. ولأنى أعلم أنك تعرفين ذلك فأنا أعيده عليك دون ملل..

بادلته الابتسام الذي لاح على وجهها مشوباً بمرارة الغيرة وسألته:

- : إذن ستحكى لي عن إحـدى مغامراتـك لاقتحـام امرأة..

أجابها -: لا.. أنا لا أقتحم حدود النسـاء ولكنـى أهـئ نفوسهن أن يدعوننى إلى ما يطلبنه.. وغالباً ما ألبي الدعوة..

قالت ضاحكة -: إنها الخبرة المكتسبة..

أجاب بشرود: لا أحمل عنواناً لذلك.. ولكنها ربما تكـون الرغبة الملحة.. الرغبة الموجـودة فـي نفوسـنا جميعـاً.. والاختلاف الواضح بيننا هو قدرة كل منا على كبح جمـاح رغبته.. أو تقليلها.. أو تهذيبها.. أو تأجيلهـا.. إلا أن تلـك الفتاة البرازيلية التى سأحكى لك عنها حطمت كل ما أعرفـه عن مقاييس الرغبة..

التقى بها في حدائق الفرساى.. وكان قد لمحها وحيدة في القطار الذي استقله من باريس.. وعندما هبطا المحطة وراح كل منهما ينخرط في جموع الزوار المتجهين إلى الحـدائق عدلت من مسارها واقتربت من مساره.. كانت المسافة التى سيقطعانها على الأرجل حتى بوابات القصـر تقتـرب مـن الكيلومتر.. وهي المسافة التى كانت كافية لتقريب المسـافات بينهما.. اقتحمته بتقديم نفسها.. واقتحمته بطلب تقديم نفسه.. واقتحمته بذكرياتها عن هذا القصر الذي زارته فـي رحلـة سابقة.. ووعدته أن تضفى عليه خبرتها في التركيـز علـى المعالم الهامة لهذا القصر الشاسع الذي أجهد خيول الملكة في الزمن القديم فضربت لنفسها قصراً آخـر قـرب أطـراف الحدائق تخلد فيه إلى الراحة كلمـا أُجهـدت ولهثـت بهـا الخيول.. واقتحمته بالدعوة على غداء فاخر.. ورحلة ممتعة بعربة تجرها الخيول حول الحدائق والأنهـار.. ثـم أبـدت إعجابها به.. ثم أفصحت وبشكل عادى عن رغبتها أن تنجب منه ولداً.. " أريد فرعوناً صغيراً أربيه فـي بيتـى ".. راح يضحك في هستيريا لهذا الطلب الغريب وقد ظنهـا تلهـو.. وكلما زادت ضحكاته وانبعثت فيها آيات الهذر في نفسه كلما

بادلته الضحكات وتمادت في طلبها.. وراحـت ترسـم لـه خطتها أن يظل معها أياماً في باريس.. وأنها سـترتب لـه رحلة لتقديمه إلى والدها الثري في البرازيل.. لم يكن وجهها يحمل مقاييس الجمال الخلاب.. ولكنه يحمل سمات الارتياح والقبول.. أما جسدها فقد كان يحمل نداء الغواية إلـى نبـذ الوقار والركون إلى الخطيئة.. ولأنه لم يكن مستعداً لخوض هذه المغامرة إذ يجب أن يكون في الصباح على رأس العمل في مكتبه بلندن فقد قرر أن يهرب منها..

وعندما عادا من رحلتهما داخل الحدائق قبل الغـروب.. وبعد أن سجلت جذوع الأشجار ذكرى قبلاته الساخنة.. وبعد أن امتلأت أذناه بلهاث أنفاسـها الجائعـة وسـجلت عينـاه التواءات جسدها المتمرد راح يفكر في الهروب.. فاندس في غيبة منها إلى طوابير الزاحفين نحو الخروج.. وراح يسرع الخطى مهرولاً نحو المحطة.. وعندما تمكن مـن احـتلال كرسيه وهو آخذ في تهدئة أنفاسه اللاهثة وبينما هـو يطـل على الرصيف من شباك القطار وجدها تقف خلف الزجـاج تشير له بيديها في عبوس إذ إنها لا تملك إلا الوقـوف وقـد

تحرك القطار وأغلقت أبوابـه.. فبادلهـا الإشـارة بابتسـام والخجل يملؤه وهو يعلم سرعبوسها..

لقد ظن أن تلك المغامرة التى سيق إليها سوقاً قد انتهـت بعد أن رحل عنها بالقطار السريع.. ولكنه لم يظن أن هـذا الشرطى الذي دق على باب غرفته بالفندق في لندن له علاقة بعابدته البرازيلية.. وعندما رافق الشرطى إلى مركزه وجدها هناك.. لقد تعلقت في رقبته أمام الحضور وفي يدها سـاعة ثمينة.. ثم سحبته إلى الخارج وهي تحنى رأسها شكراً لرجال الشرطة الذين أتوا لها بهذا السائح المصـري الـذي نسـى ساعته الثمينة معها..

لقد تذكّر أنه في أحاديثه المبعثرة معها كان قد ذكر لهـا اسم الفندق الذي يعيش فيه في لندن ولم يكن ما ذكره فنـدقاً بالمعنى السائد ولكنه كان نُـزلاً للشـباب يتميـز بـرخص تكاليفه.. وكان من السهل أن تعدو خلفه من باريس إلى لندن وتكلف الشرطة بمهمتها للبحث عن اسم سائحها في عديد من النُزل التى تمتلئ بها لندن.. وقد نجحت في مهمتهـا.. وهـا هي الآن تعنقه في الشارع.. وتعطيه الساعة الثمينة.. وتؤكد

له أنها لن تتركه.. لن تتركه طوال رحلتها التى جهزت لهـا في لندن وحجزت لنفسها بها غرفة مزدوجة.. "

وتوقف إبراهيم عن الحديث علـى طريقـة المسلسـلات العربية التى تبحث عن التشويق بوضع نهاية سـاخنة لكـل حلقة.. وجلست أولجا - التى تستمع بكل نوازع الغيرة – في انتظار النهاية.. ولما غاب عن ذكر النهاية..

سألته: أكمل.. وماذا حدث بعد ذلك؟..

لم يجبها فوراً.. ولكنه سرح ببصره إلى بعيد.. ثـم راح يردد كلمات لا يبدو أنه يجيب بها على أولجا ولكنه يجيـب بها على سؤال تذكّره الآن..

- : تُرى هل نجحت هذه الفتاة المجنونة فـي مسـعاها بالحصول على ولد منى قبل أن تختفي تماماً..

ثم التفت إلى أولجا وسألها بكثير من الاهتمام:

- : هل من الممكن أن يكون لي ولد يعيش في البرازيل ولا أعلم عنه شيئاً؟..

لقد فجرت أولجا غيظها في شكل ضحكة هستيرية وإجابة كأنها الهذيان..

- : أنت الذي تسألنى؟.. كيف أجيبك وأنت لم توضـح إن كنت قد تركت النُزل الرخيص ونزلت معها فـي فندقها الفاخر.. من المؤكد أنك وقعت تحـت طائلـة اقتحامها اللذيذ.. واستجبت بإصرار لهـذا الحصـار المرغوب..

لم يجبها إبراهيم.. ولكنه هز رأسـه علامـة الإيجـاب فأكملت أولجا بنفس سخريتها السوداء:

- : إذن يمكنك أن تفاجأ ذات يوم وأنت تشاهد مبـاراة في كرة القدم بلاعب برازيلى اسمه " روبرتو إبراهيم ".. ويكون شيطاناً مثلك ولكن في لعب الكرة..

ثم نهضت واقفة:

- : هيا بنا.. أيها الوالد العالمى..

عرف أنها قد مسها السوء من حكايته فنـدم علـى هـذه الثرثرة التى لم يكن يقربها.. وعرف أنها في طريقهـا إلـى الفندق لتتحدث مع والديها في التليفون.. وعرف أنها متفجرة المشاعر.. فقرر ألا ينهض معها.. وطلب منهـا أن تـدرك مصالحها بمفردها ثم تعود إليه فـي جلسـته تلـك فسـوف ينتظرها.. فقالت له مؤنبة...

- : أخشى عندما أعود أن أجدك قد تمكنت من إنجـاب طفل جديد من امرأة صينية..

لحظتها أطرق برأسه إلى الأرض.. وقـد فهـم مغـزى تعنيفها.. وأنه الآن يتلقى التقريع الملائم تارة مـن نفسـه.. وتارة من الإنسانة الوحيدة التى وجد فيها نفسه.. ولكنه لـم ينس أن هناك شيئا ما يحنو على أحاسيس عذراء في داخله.. شيئا يبعث فيه الرضا والراحة.. شيئا يـذكره بـدش المـاء الساخن الذي يغسل الجسد بعد وعثاء السفر.. ويبعث علـى النوم بارتياح بعد رحلة يوم شاق في طريق موحل.

- ٦٥ -

تبدل الحال.. فبعد أن كان هو غارقاً في صمته وشـروده وهي تحاول إخراجه من كآبته.. غرقت هي فـي الصـمت والشرود وراح هو يحاول إخراجها من كآبتها..

وفجأة اهتزت الطائرة اهتزازاً عنيفاً فهرعت المضـيفات إلى ربط الأحزمة مع دعوة صارخة للركـاب أن يربطـوا جميعاً الأحزمة.. إنها رحلتهما من فرانكفورت إلى بون بعد أن قطعا المسافة من ميونيخ إلى فرانكفـورت فـي الرحلـة الأولى دون قلق.. أما هنا في الرحلة الثانيـة أخـذ القلـق يعتريهما في هذه المسافة التى لا تصل إلى نصف المسـافة الأولى.. فالمطبات الهوائية لا تقوى على حمـل الطـائرة.. والطائرة تسقط فيها بشكل عنيف ومفاجئ حتى أن صرخات الأطفال عندما علت أصابت الكبار بـذعر لـم يكـن فـي حسبانهم.. والطيار يعلن من قبيـل التهدئـة للنفـوس أنهـم يقتربون من مطار بون الذي يقع على مسافة لا تزيـد عـن خمس عشرة دقيقة.. وتمنى الركاب أن تمضى هذه المدة في أمان وفي سرعة وذلك بالخروج من هذه المطبات.. وعندما انزلقت الطائرة في مطب حاد سقطت علـى إثـره بعـض

الحقائب من رفوفها العلوية انطلقت بعض الصرخات الهلعـة وراح ارتطام الطائرة بالهواء يرتد رجع صداه إلى ضـلوع الركاب وقلوبهم التى كادت تنخلع..

تحولت أولجا وإبراهيم إلى قطعة بشرية واحدة.. مالا إلى بعضهما البعض بجسديهما في احتضان مـلآ بـه المسـافة القصيرة التى تفصلهما عند حاجز الكرسـيين.. هربـا مـن الموت الذي يحلق حولهما بالهروب إلى نفسـيهما.. تـذكرا واقعة السيارة في الطريق إلى سالزبورج.. وتـذكرا كيـف التحما في بعضهما البعض دون اتفاق.. وها همـا يلتحمـان بنفس الكيفية وهما في قلـب العاصـفة.. عاصـفة المـوت المحدق.. لم يرفع أى منهما رأسه من حضن الآخـر.. لـم يتحدثا.. أصبحا لا يسمعان سوى رجع أنفاسهما في حضـن صدريهما الملتحمين.. راح يحس بدفئها.. وراحـت تحـس بدفئه..

تسربت منها كلمة واحدة: سنموت..

فرد عليها وهو في مكمنه الدافئ بكلمة واحدة: لن نموت..

داخلها بعض الأمان لكلمته الواثقة وتأكده أنهما لن يموتا..

راحت تنهال على مخيلتها صور حية مـن قصـتها معـه..

القصة التى انتهت باختيارها للعيش معه والسير في طريقه.. لم تكن تحس بأى قدر من الغرابة أو الشعور بالتضحية وهي تلملم كل متعلقاتها الثمينة من غرفتها بكاستروكارو كى تتجه بها إلى المجهول مع هذا الإنسان الذي أحبها فأحبته.. تذكرت غرفتها والمنظر الخلاب الذي تطل عليه - أماماً – من ناحية الشارع – وخلفاً – من ناحية الجبـل الأخضـر.. تـذكرت والديها وأخاها وزوجته.. تذكرت الهدوء الذي يخـيم علـى حياتها والرضا الذي كان يسكن قلوبهم.. هي الآن تقع فـي هوة اختيارها الواثق.. هوة التحليق مع طائرها المختار فـي سماواته الهوجاء وطقسه المضبب.. أما هو فقد انهالت على مخيلته صورته وهو معلق على قمة شجرة الكازورين العتيقة خلف طرد النحل الذي كان نائماً وهاج على قدومه والنـاس تهلل مشفقة عليه من لذعات النحل.. وتحولت شجاعته إلـى فضيحة.. إنه الآن معلق في الطائرة يتلقى صدمات الخـوف داخل قلبه بديلاً من لذعات النحل في جسده.. كل ما هنـاك أنه مازال يحمل الأمل في الهبوط سالماً حتى لو وجـد أبـاه ينتظره بالعصا في صالة الترانزيت بمطار بون الدولى.. لقد ندت عنه ضحكة مكتومة عندما اكتملت في مخيلته الصـورة

الهزلية لمنظر والده وقد راح ينتظره بالعصا فـي المطـار إصراراً على تأديبه.. وهذه المرة فجريمتـه " أنـه يركـب الطائرات بكثرة "..

همست له دون أن ترفـع رأسـها مـن حضـنه: مـاذا يضحكك؟..

سألها: هل سمعتنى؟..

أجابته: أصبحت أسمع ما تفكر فيه.. ما الذي تذكرته حتى تضحك؟..

أجابها وهو يتلقى هزة الطائرة بلا مبالاة: أبي..

سألته: هل هو من النوع الذي يضحك..؟

أجابها: يضحك.. ويحزن في آنٍ واحد.. ذكرينى أن أقص عليك حكاية أخرى..

قالت: لا.. لا أريد حكاياتك.. أخشى أن تكتشف أنـت أن لك طفلاً خلف كل حكاية..

ثم أخذتهما هيستريا الضحك الأسود وهما مازالا عـالقين ومعلقين في بعضهما البعض.. لحظتها فوجئا بارتطام قـوى ثم أعقبه تصفيق حاد.. ها هو الطيار قد نجح فـي الهبـوط ولامست عجلاته الأرض.. وها هم الركاب يعبـرون عـن

سعادتهم به.. وبسلامة وصولهم.. وها هي تنزع نفسها مـن حضنه وتتأمل في وجهه بوجه ملئ ببقايـا ضـحكات كـان يسرقانها من دوامة الموت.. وعنـدما راح يتأمـل وجههـا الضاحك في المحنة صفق لنفسه أنه استطاع أن يخرجها من كآبتها.. تلك المحاولة التى فشل فيها قبل اهتزاز الطائرة بهما في الهواء..

قالت له: ها نحن ننجو للمرة الثانية من الموت..

قال لها: أخشى أن تكون الحوادث كالأزمات القلبية تتمكن من أصحابها في المرة الثالثة..

قالت له: أنا التى أقول لك هذه المرة أننا لن نموت الآن.. لن نموت قبل أن نتزوج..

هلل فرحاً: إذن فقد أثمرت أبحاثك عن قرار؟..

ردت بسرعة وهي تنهض لتتناول حقيبتهـا مـن الـرف العلوى:

- : لا.. خوفى الوليد من الموت هو الذي أثمر عن هذا القرار.. لشد ما كنت أحس بالندم – وأنا متعلقة بـك في الهواء – أننى لم أتزوجك بالسـرعة الكافيـة..

ووضعتك – بغباء – مثل باقي الأشياء فـي معمـل أبحاثى.. منك ا يا " ناتاشا "

لقد فهم على الفور أن كل أخباره قد جاءتها من " ناتاشـا ".. وأن ماضيه الذي يسعى خلفه قد تحرك من بيروت إلـى دبي إلى لندن راكباً متن النميمة فيما بين الأفواه.. ويمكنه أن يتخيل الآن أن شادى قد التقى بـأنور فاضـل.. وأن أنـور فاضل قد همس لمستر بوننجتون.. وأن الأخير قد همـس " لناتاشا ".. وأن " ناتاشا " حذرتها من ماضيه.. وأن " أولجا" الآن نادمة لأنها استجابت لهذا التحذير..

وفي طريقهما إلى " دسلدورف " بسيارة التاكسـى التـى استأجراها قال لها:

- : لم أكن أتخيل أنك ستصـلين إلـى قـرارك بهـذه السرعة.. كنت أنتظر مصيرى معك بفارغ الصبر..

التقطت راحة يده اليمنى ووضعتها بين راحتيها أسـندت الأكف الملتحمة على ركبتيها وقالت له وهي ترنو إلى سائق السيارة:

- : الآن.. وبعد قليل.. سينحرف بنـا السـائق إلـى كورنيش نهر الراين العظيم.. سنستمتع بهذا المنظـر

الخلاب.. حتى نصل إلى " دسلدورف ".. أنا سـعيدة لأنك لن تدخل على صديقك د. شرابي باكتئابك الذي قتلنى في سالزبورج وميونيخ.. وهي نفس السـعادة التى أشعر بها بعد أن تخلصت من اكتئابي..

- : الاكتئاب لم يخلق لمثلك يا أولجـا.. ربمـا خلـق لمثلى..

رفعت يده إلى فمها فقبلتها:

- : حتى أنت.. لا يجب أن تعرف طريـق الحـزن.. والحزن لا يجب أن يعرف طريقه إليك.. اليوم عيـد مولدك.. سوف نحتفل به كمـا وعـدنا د.شـرابي.. وسوف نفاجؤهم بخبر خطبتنا.. وبعدها سوف نقـرر ماذا نفعل..

قالت عبارتها الأخيرة.. وركنت قليلاً إلى الصمت.. ثـم عادت إلى الحديث:

- : لقد اتفقت مع نفسي على شئ بسيط جداً.. شئ في غاية البساطة.. أنه إذا كنت لا تملك مانعاً يمنعك من زواجى فأنا لك.. لأننى أيضا لا أملك مانعاً يمنعنـى

من زواجك.. ا .. انظر.. هذا هو نهـر الـراين..
هدئ سرعتك من فضلك..

التفت إبراهيم بحب إلى صفحة النهر وعاد إلـى صـفحة وجهها الوضئ فألقى عليه نظرة حانية.. وقال لها:

- : ألن تزعجك آثار حياتى الماضية؟.. تلـك الآثـار ستظل تطاردنى يا أولجا..

- : ولماذا نجعلها تطاردنا؟.. ولا نقترب نحـن منهـا بحب؟..

- : ماذا تقصدين؟..

- : أقصد أنك يجب أن تبحث عـن الصـيغة المثلـى لعلاقة تلزمك بالتردد على وطنك للاطمئنـان علـى أسرتك ثم العودة إلى أسرتك الأخرى بألمانيا.. أليس هذا حلا في غاية السهولة؟..

- : ولكنى لم أفكر فيه..

- : لأنك قررت ألا تفكر فيه.. قل لي: مثل هذه الحالة: رجل يتردد بين أسرتين واحدة في وطنه.. والأخرى

في موطن عمله.. هل هي حالة فريدة.. وأنك ستكون أول من يجربها؟..

- : لا.. أعتقد أنها حالة مكررة.. وتحدث كثيراً..

- : ومتى يخجل الرجل من ذكرها.. ويضعها موضـع الأسرار..؟

فكر قليلاً في مغزى سؤالها إلى أن فهمه..

- : إذا حجب الرجل هذه الحقيقة عن إحدى زوجتيه..

- : وأنت.. هل ستحجب ذلك عن هدى؟..

ابتسم لأنها تعرف اسم هدى..

- : أخشى أن تموت ..

- : تموت؟.. أتحبك هي لهذه الدرجة؟..

- : لا.. لا أقصد أنها ستموت بسبب زواجـي منـك.. ستموت عندما تعرف أننى مازلت على ظهر الحياة.. ستموت من المفاجأة..

تمتمت لنفسها: ما أقساك..

فتمتم لنفسه: أجل.. ما أقسانى..

همست له: هل مازلت تحبها..؟

قال لها بهدوء: إننى أضعها في موضع القداسة.. موضع الامتنان لنفسٍ اجتمعت فيها الروح الطيبة والعقل الســوى.. هي حالة يا أولجا لا يدركها المرء بسهولة..

سألته: ولذا فأنت لم تطلقها مثل الأخريات..؟

أجابها: فكرت في ذلك في لحظة نزق.. ولكنى تراجعــت فقد وجدتها طاقة من الروح تختبــئ فــي أركــان روحــى وتقويها.. لقد كنت أنانياً.. أكن لهــا الاحتــرام ولا أهــديها نفحاته..

فسرت حالته بشئ أخذته من أحاديثه معها:

- : مثل حبك وانصرافك عن عبادته..

أطرق ملياً وهو يفكر في قولها.. ثم رفع لها وجها مليئــاً بالحيرة.. وما إن راح يرنو قليلاً إليها حتى قرأ هلعاً شــديداً في عينيها وصرخة مدوية تطلقها.. وكانت لحظة مارقة تلك التى شاهد فيها آخر ما شاهده.. سيارة ضخمة تتخطى حاجز الطريق وتتجه إلى التاكسي الذي راح يراوغها في يأس.. ثم ظلام شديد.. ظلام شديد.. ظلام شديد...

- ٦٦ -

اقترب د. شرابي من سريرها في المستشفى وقـد علـت وجهه كآبة مظلمة.. وقف بعيداً حتى ينتهـى الطبيـب مـن فحصها.. كانت عيناها قد انشغلتا عن طبيبها وراحتا ترنوان إلى وجه د. شرابي بعين الرجاء.. كانت تحاول أن تفهم من قسماته ما تتمنى أن تفهمه حول إبراهيم الذي يرقد مـا بـين الحياة والموت في الغرفة المجاورة.. كانت تتمنى أن تستطيع الحركة حتى تذهب إليه لكى تراه بنفسها.. هذا هـو يـومهم الثالث وهي طريحة الفراش مقيدة الحركـة وهـو طـريح الفراش قيد الصمت والغيبوبة.. تذكرت كلماته الأخيرة وهما في السيارة " هدى ستموت من المفاجـأة إذا عرفـت أننـى مازلت أعيش على ظهر الحياة " ثم كلماته السابقة في تعليقه على حادثتى السيارة بسالزبورج والطائرة إلى بون.."أخشـى أن تكون الحوادث كالأزمات القلبية تتمكن من أصحابها فـي المرة الثالثة "

هذا الرجل يحمل قلباً عجيبـاً.. ونفسـاً قلقـة.. وحيـاة مضطربة.. ولكنه يحب كل هذه الأشياء.. هذا الرجل لابد أن يعيش لأنه يحبنى.. ولأننى أحببته.. كـان يضـحك ونحـن

معلقان في الهواء في انتظار الموت إثر سقوط الطائرة.. قال لي إنه قد تذكر والده.. تُرى ما الذي جعله يضـحك عنـدما تذكر والده؟.. تُرى ما شكل هذا الأب الذي أنجب هذا الولـد الجميل؟.. من المؤكد أنه يحمل له ذكريات طيبة من الحـب والمؤانسة.. من المؤكد أنه كان يدلـّله كثيـراً ويضـاحكه كثيراً.. من المؤكد أنه قد علّمه حب الانطلاق والمرح مثلما علمنى أبى حب العلم والرحلات.. آهٍ.. أين أنت يا أبـي؟.. أين أنت يا أمى ويا أخى ويا كل أسرتى الهانئة.. أولجا فـي مأزق.. أولجا في منعطف خطير.. أولجا رفرف حولها طائر الموت ثلاث مرات ويكاد أن يختطف حبيبها فـي الثالثـة.. أريدكم بجوارى.. وأريدهم بجواره.. يجب أن يلقـوا عليـه النظرة الأخيرة قبل أن يموت.. أحضروا لإبراهيم أباه حتـى يبادله الضحك قبل أن يموت.. أحضروه فلقد تذكّره أمامى.. أحضروا له هدى: روحه المختبئـة فـي أركـان روحـه.. أحضروها له فلقد ناجاها أمامى.. أحضروا له أولاده حتـى يراهم في نظرة هي الأولى وربما تكون الأخيرة فإن لم نودع أحبابنا وذوينا ونحن على فـراش المـوت.. تـرى متـى سنودعهم؟..

ها هو الدكتور شرابي يجلس بعيداً ورأسه بين يديه.. لـو كان إبراهيم قد تحدث معه لأتى لها شرابي بوجه متهلـل.. ولو كان إبراهيم قد مات لما كان هنا الآن جالساً في صمت.. لم أكن أظن أن الحزن هو الشئ الذى سيكسو وجهك اللطيف يا دكتور شرابي عند لقائنا وأنت الـذى وعـدتنا أن تقابلنـا بالشموع.. وها هو إبراهيم قد أقام في غرفة منفصـلة عـن غرفتى كما قال لك.. لقد كذب عليك يا دكتور.. يومها أطلق كذبة نبيلة وقال لك إنها رغبتى أن أنفرد بعيداً عنه بغرفتى.. لقد استولى يومها على عجبى وإعجابي لأنه كـان يحـاول الانتصار على نفسه ولا يلقى بها تحت أقدام رغبتـه التـى تقول إنه يتمنانى جسداً وروحاً وقلباً وحياة.. هل تعلـم أيهـا الرجل الطيب أن صديقك إبراهيم قد حقق انتصـاراً مبهـراً عندما تمادى في كذبته النبيلة وانفصل عنى بجسـده طـوال رحلتنا الشائقة التى اقتربت من العامين؟.. لا أعتقد أنه حقق مثل هذا الانتصار في حياته.. ولا أعتقد أن أنثى ذاقت مثـل هذا الانكسار في حياتها.. ولكننى تجرعته بكل الحب واثقـة أنه يدخر لي كل ما حباه ا به من فـورة الجسـد وثـورة الروح.. فهما لي.. هما ملكى وملكوتى الذي كان يهيئنى إلى

فتحهما القريب.. آهٍ يا أولجا.. يا تلك الطفلة القوية التى تلقت أنفاس بركان فيزوف وسحبه الرمادية بـلا خـوف.. آهٍ يـا إبراهيم يا من مررت على المدن والنسـاء مـرور الطـائر الشارد فوق بساتين الحزن.. آهٍ يا هذا الرجل الذي ادخـرتَ لي نفسك قرب خط النهاية.. آهٍ يا ألق الهمة وقد أغفيت في صمت الصحراء!.. ترى ما الذى يطوف حول ذاكرتك الآن من صور حياتك التى تدنو من النهاية؟.. لعل ذاكرتك تقبض بأحدث ما انطبع فيها من مشـاهد.. لعلـك تسـتخرج الآن صورتى من زحام المشاهد الأخيرة.. لعل صورتنا تمر عليك الآن ونحن وقوف على شـاطئ الـدانوب الأزرق يغمرنـا حضن واحد ويلقى كل منا برأسه على كتف الآخر.. لعلـك ترانا وأنت تقفز معى راقصاً في ساحة أوبرا " فيينا " تغمرنا سعادة الآخرين بنا..

لماذا اخترت أن تطير إلينا شارداً من أودية الملوك وأبهاء الفراعنة لتقدم لنا نفسك الجديدة أيها الفرعون الشارد؟..

ما الذى أقض مضجعك في وطنك ففررت إلينا بحثاً عـن الحب والسعادة؟.. ما الذي جعلك تفر مـن فـوق أغصـان النخيل الملكى لتقف فوق أغصان أشجارنا المزدحمة؟.. إننـا

لم نتعود أن نهش الطيور الغريبة بعيداً عن أغصاننا.. ولكننا لم نتعود أن نرى طائراً غريباً يجمـع حولـه كـل طيـور الوطن.. لقد جذبتنى بعيداً عن صومعتى وهجرتها حباً فـي الحياة معك في قلب صومعتك.. ترى هل دعاك الوطن لتعود إليه؟.. تُرى يا فتاي هل نادتك الطيور القلقة من فوق ذؤابات النخيل الملكى؟.. وهل استجبت لندائها؟.. ألا تتمهـل قلـيلاً حتى نهذب ريشك الغجـرى المنفـوش ونقـوى أجنحتـك المهيضة؟.. لو طرت إلى هناك يا طـائرى فسـوف أطيـر خلفك.. فما أنا بأقل قدرة منك على الطيران.. وما أنا بأقـل قدرة منك على هجر الأغصان إلى غصن بعينه ينادينى.. أما لو فقدتك يا طائرى النبيل فلسوف يبقـى لـي منـك الشـئ الكثير.. سيبقى لي منك أن أطل على عالمك الغامض بكـل الحب والدهشة.. سأنسلخ من فوجى السياحى علـى مقعـدى المتحرك وأتركهم يلوكون عبارات الـذهول حـول مقـابر الملوك المذهلة لأذهب إلى معبدى الوحيد الذي أعرفه لملـك آخر يملك ما يدعو إلى الذهول.. ملك لن أراه فـي قبـره.. ولكنى سأراه في قسمات وملامح أولاده.. سأجلس بينهم فـي موقف معكوس لا يستزاد فيه السائح علماً عن تاريخ الملوك

من أحفادهم.. ولكن ليزيد أبناء الملـك علمـاً عـن ملكهـم الراحل.. وسأحمل لهم صورك الأخيرة.. وسأقول لهـم كـم كنت مدهشاً وأنيقاً.. أجل.. ها هو ذا يخطو معـى خطواتـه الملكية ونحن في ساحة الدخول إلى أوبرا فيينا.. وها نحـن نطل على مدينة ميونيخ من برجهـا العـالي فـي القريـة الأولمبية.. وها نحن نستلقى تحت الشمس الدافئة على سطح باخرة كالبللور فوق سطح مياه نهر الدانوب الأزرق.. وهـا نحن نتجول في القصور الملكية القديمة.. ها هـو يضـاحك سائحة جميلة.. وها هو يسجل وجهى النائم تعباً فـي لقطـة مضحكة.. وها نحن هنا على مقاهي ميونيخ.. أجـل.. لقـد ألبسته هذا الطرطور ووضعت له تلك الكرة الحمراء علـى أنفه حتى أُخرجه من كآبته.. أجل.. لقد كان مكتئباً كأنه كان يحس بساعاته الأخيرة.. لم يكن الحزن هـو الزائـر الـذي يناسبه.. الحزن لا يليق بالملائكة.. لا.. ليس شيطاناً.. مـن قال هذا..؟.. إنه ملاك متمرد.. إنه ملاك ضل طريقه إلـى درب الغواية.. لا.. لا.. صدقونى.. أنا التى سمعت كلماتـه الأخيرة.. أنا التى جئت أحمل لكم قوله الأخير عن ا .. لولا أن داهمه الموت.. صدقونى كانـت كـل ملامحـه تنضـح

بالجلال والرهبة وهو يتهيأ لقول مقدس عن علاقته بربـه.. صدقوني لقد كان قبلها يتحدث عن هدى.. لقد قال عنها إنها طاقة من الروح مختبئة في أركان روحه.. ولقد عرجت بـه بعدها إلى الحديث عن روح ا في قلبه.. هز لي رأسه وكاد ينطق بقول به جلال وقوة وإشادة وإكبار.. صدقوني.. لقـد قرأت كل ذلك في ملامحه.. وعرفت أنـه عنـدما تعلـم أن يجلس مع نفسه ليحاسبها فإنمـا كـان يستحضـر روح ا ليعترف أمامها بضعفه ويستمد منها قوته وروحه الجديـدة.. لعلكم لو كشفتم الغطاء عن وجهه الوسيم لوجـدتموه قريـراً مليئاً بالحزن.. طافحاً بالأسى ومرارة غيبة الرجاء المنشود.. الرجاء الذي رفع به وجهه السادر في دهشة بعد نجاتنا مـن حادث طريق سالزبورج وقال إنه واثق أن ا سيؤخر موتنا حتى ننهل معاً من كأس السعادة وبعدها قال لي إن ا يعيش في داخله ولا ينساه.. رغم انشغاله بنفسه عن أداء طقـوس العبادة..

لا تلمني يا أبي.. فقد كنت سـترانى سـعيدة.. لـولا أن الموت هو الذي أفسد خطتى.. فالموت يا أبـي يفسـد كـل الخطط الجاهزة لامتلاك السعادة.. لقد تأثر طائرى بحـديثى

عنك وركن إلى الصمت والتريث.. وراح يجهـز لطريقـه الجديد معى.. تحدث لأول مـرة عـن المـال.. وملايـين الريالات.. والعمل على الفوز بالمسابقة.. ولم أكـن أنانيـة عندما رحت أجهز له طريقه القديم الذي كنت سأشـده إليـه ليعبره من جديد.. فما أقل سـعادتنا بالحاضـر إذا هاجمتنـا مثالب الماضي.. وأنا ما فكرت لحظـة أن تكـون سـعادته منقوصة لأن سعادتى أنا الأخرى سـتكون مثـل سـعادته.. منقوصة.. لقد كشفت له عن غايتى النبيلة قبل أن يكشر لنـا الموت عن أنيابه.. واعترف لي بقسوته أنه لم يصـب إلـى مثل هذه الغاية..

أيها الحظ القاسـي.. يـامن اختـرت أن تطـارده فـي حضرتى.. وتضبطه في حضن السعادة معى.. كانت لـديك السنين الطوال لتنشر عباءتك الظالمة على أكتافه المرهقـة.. لماذا اخترت أن تؤخر لطمتك كل هذه السنين؟..

" أنا لم أؤخر لطمتى.. ولكنـى كنـت أنتظـر موعـدها المكتوب.. لقد فر منى إلى هنـاك.. إلـى كـورنيش نهـر الراين.. وقد كان موعده هناك فـي أمـاكن أخـرى.. لقـد دوخنى.. أنزلنى خلفه مغتاظاً ولم يسقط من الشجرة ونجـح

في تحمل لذعات النحل حتى يلتقى بعصا والده في سـلام.. عصا والده؟.. هل كان يضربه.. أجل.. لقـد كنـت أغـذى علاقتهما بكل السوء حتى أقوى من شكيمته ويشب منتصـراً على القسوة وسوء الحال لتكون نشأته المعذبة سبباً في قـوة روحه مثل ذلك الشاب الرقيق الذي نال قوتـه مـن سـوء عذابه.. اسمه عبد الحليم حافظ.. لقد فر إبراهيم منى ومـن والده وذهب إلى نعيم هيأته له في منزل خاله.. هو لم يحـك لك عن خاله.. اخترت له أن ينسى بعض عذابه ويكتشف ما منحته له من براعة في لعب الكرة.. هيأت له الدنيا ليخـرج منها على الناس نجماً مثل واحد استجاب لدوافعى وأصبح هو صالح سليم.. ولكنه تمرد على وعلى خاله وهرب منى إلـى بعيد.. كدت أتخلص منه وأتركه للموت وهو يمهـد لعالمـه الجديد في البلطجة مواجهاً كبار القوم أعداء حبيبتـه هـدى ولكنه نجا من ضربة كادت تقتله.. ولكنها بـدلاً مـن ذلـك منحته القوة وحب هدى في وقت واحد.. لقد نال منها الحـب والعلم والمال وهنئ بشهادته.. خِلته سيختار الفيزياء عالمـه الأثير في العلم حتى أعيد للناس شخص مصطفى مشرفة في ثوبٍ عصرى جديد.. ولكنه لم يسـتجب لهـاتفى المتكـرر

واختار العمارة.. ثم أفلت منى بعيداً عن موتة لائقة اخترتها له لأنهى معه مشروعى الفاشل في تمجيده.. قلت فليهنأ بميتة الشهيد في الحرب.. ولكنه أفلت منى وهرب من الجـيش.. أعدته مرة أخرى ليهنـأ بموتتـه المثالـى تحـت قصـف المطارات.. ولكنه أفلت منى ومنهم.. طرت خلفه إلى ليبيا.. واستعديت عليه الوجهاء.. فأهانهم ثم أفلت.. طرت خلفه في بيروت واستعديت عليه الغرماء.. فأخرج لهم ولي لسانه ثـم هرب.. كنت أحس دائماً أنه يرانى.. ويهرب منى.. وأتساءل كيف يرانى هذا البشرى العجيب ويتفادى مواقعى الشـائكة.. لقد رفض منى المجد.. ورفض منى الموت في آن واحد..

لقد سمعتك ترسمين طريق رحلتك معه وتصببينها في أذن الدكتور شرابي.. فقررت أن أضع له كميناً في كل طريق.. حتى إذا نجا من كمين.. وقع في الكمين الذي يليه.. ولما قال لك الدكتور شرابي إنه سيسـتقبلكما بالشـموع عرفـت أن كمينكما المنشود هو الكمين الأخير.. على كـورنيش نهـر الراين.. لقد كنت يا أولجا في الطرف البعيد عـن اللـورى الذي شق طريقه إلى مؤخرة السيارة حيـث كـان يجلـس إبراهيم قبالتك.. كدت أن تجلسي في هذا المكان في اللحظـة

الأخيرة.. لولا أنه استجاب هو بكل دماثتـه إلـى دواعـى التحضر والمدنية وأجلسك أولاً وجلس هو خلف السائق.. إنه المكان الذي نال حظه الوافر من التهشم.. ذلك أننى عرفـت أنك أمامك الكثير في طريق الحياة.. وها أنا الآن أنظر إليك وأنت محاطة في المتحف المصرى بميدان التحرير - حـول كرسيك المتحرك - بسيدة وقورة اسمها هدى وثلاثة رجـال أقوياء يصافحونك بإعزاز ويدفعون بك الكرسي حتى تتمتعى بضيافتهم في منازلهم العامرة.. ستدخلين يا أولجا كل منـزل لترى واحداً يشبه والده.. أو حفيداً يشـبه جـده.. وسـترين صورة فرعونك الجميل معلقة فوق جدار الـذكرى الغاليـة مؤطرة بالحب الذي غرستْه هدى النبيلة في كل النفوس التى نالت شهقة الحياة قادمة إلـى الـدنيا مـن صـلب ظهـره الفاتن..سوف ترين يا أولجا اسم معبودك الحـزين محاطـاً بالعز فوق لافتة الشركة الكبرى التى يديرها أولاده.. ولـده إبراهيم الفنان الذي اختار العمارة مثل والده.. ووليد الوسـيم الذي اختار إدارة الأعمال.. ويوسف الهادئ الوديـع الـذي اختار المحاسبة.. سأجعلك تبتسمين الآن.. فهاهم حولك.. ألا ترينهم؟.. ألا ترين نفسك؟.. أجل.. إنه أنت تجلسـين علـى

مقعدك المتحرك.. لأنك ستصبحين مرهونة بالجلوس عليـه والحركة به بسبب الحادث.. مالي أراك قد ألم بك الحزن؟.. لا تخشى ذلك.. فسوف تتفوقين وتنجحين رغم إنك قعيـدة.. عودى معى إلى الابتسام.. وتأملى تلك اللقطة التى جذبتها لك من سجلات المستقبل المكتوب.. أنت الآن تتـأملين اسـماء أبناء فرعونك الرائع.. وتحدثينهم..

- : أنت إبراهيم؟.. تحمل شبها كبيراً من أبيك.. وهـذا ابنك.. ما اسمه..؟ موسى..

- : وانت يوسف؟.. ما أجملك!.. جمعـت بـين رقـة أمك.. وجمال أبيك.. وهذا ابنك.. ما اسمه: محمد؟.. وانت وليد؟.. متزوج أيضاً.. لم تنجـب بعـد.. لـو أنجبت ولداً ماذا ستسميه.. أوه.. قولوا لـي.. هـل هناك نبى اسمه وليد..

إنهم يضحكون..

- : لا.. لا.. يا سيدتى.. لا يوجد في الأديان كلها نبى اسمه وليد..

ها هي هدى تسألهم عن سبب تلك الضـحكات العاليـة.. قالوا لها عن سؤال الخوجاية أولجا المضحك عن نبى اسـمه

وليد.. ولكنها بكل رزانتها تقول لهم اسألوها عن سـر هـذا السؤال.. وها هم يتوجهون إليك يا أولجا بسؤال أمهم.. وها هم يترجمون لها إجابتك.. ويقولون لها.. إنها لاحظت أن كل أسمائنا تحمل الشبه بأسماء الأنبياء.. إبـراهيم.. ويوسـف.. وموسى.. ومحمد.. ما عدا وليد..

ها هى هدى تنهض بجسدها الممتلئ لتقترب من مقعـدك الرصين وتنهال عليك بالقبلات.. ها هي تقول لهم:

- : هذه الخوجاية كلها بركة.. وإنهـا الوحيـدة التـى لاحظت حلاوة أسمائكم وسرها الذي وضـعته فـي قلبي.. إنها شاطرة تفهم كل الأديان.. وتفهم أسـماء كل الأنبياء عندنا وعندهم.. لو كانت فاطمة استجابت لطلبي وأسمت وليد بالاسم الذي اخترته له؟.. لكنهـا لم تفعل.. قولوا لها إننا سنطلق على ابن وليـد اسـم عيسى.. وسوف ندعوها في عيد ميلاده الأول..

ها هم يبادلونك الضحكات.. وهـا أنـت تغيبـين عـنهم للحظات سرقتك منهم فيها تلك الصورة التى يطل عليك مـن إطارها ذلك الرجل الوسيم الذي أخذك الاسـتغراب وأنـت تنظرين إليه.. إنه يدقق النظر في وجهك.. ويرسـل إليـك

ابتسامته.. ثم ما لبث أن تخلت عنه الابتسامة وكست ملامحه علامات الحزن.. إنه يهمس لك.." ليتنى كنت معك هنـا يـا أولجا ".. وها أنت ترديـن عليه.." وليتنى كنت معك هناك يا إبراهيم "..

***

استمعت الممرضات إلى ندائها الأخير.. ولكن قد لاحظن أنها تهذى وتتحدث وتتمدد ملامحهـا علـى إثـر ابتسـامة واسعة.. وتنكمش ملامحها أيضاً على أثـر مسـحة حـزن عابرة.. وها هي تتحدث لأول مرة وتنادى:

" ليتنى كنت معك هناك يا إبراهيم.. خذنى معك.. خـذنى معك.."

ورحن يتبادلن النظرات الحائرة.. ويتذكرن كلمة الرجـل الوقور الذي كان هنا منذ قليل.. واقتـرب منهـا.. وحـاول التحدث إليها.. ووجدها قد هجعت إلى النـوم بعـد خـروج الطبيب الذي كان يفحصها..

لقد خرج الرجل.. ثم عاد مرة أخرى.. ثم خرج مهرولاً.. ثم عاد مرة أخرى وهمس لهن متسائلاً: هل مازالت نائمة؟..

فأجبنه: أجل.. وستظل كذلك حتى الصباح فقد نالت منوماً حتى لا تحس بآلام ساقيها.. ولكنها تهذى كثيراً.. وتتحـدث مع أناس كثيرين.. وآخر ما قالته كانت كلمات تتمنى فيها أن تكون معه..

سألهن:

- : من هو..؟

أجبنه: إبراهيم.. أليس هو المصاب الذي كان معها ويرقد في الغرفة المجاورة..؟

أجابهن: نعم.. ولكنه فارق الحياة.. ظل ينزف من صدره حتى مات منذ دقائق قليلة.. أرجوكم لا تخبروها بذلك الآن.. فلعلى أتمكن من إخبارها بنفسى.. فـي الصـباح.. ولعلـى أجعلها تلقى عليه النظرة الأخيرة..

تبادلت الممرضات النظرات الحائرة.. إذ أن ما سـمعنه من " أولجا " منذ دقائق قليلة وهى تهذى هو رغبتها أن تكون معه.. إذن فهى قد علمت قبلهن.. وقبـل كـل الأطبـاء أن حبيبها.. قد مات.. وذهب إلى هناك.. وقد تمنت أن تـذهب معه..

***

أرض الجولاف

١٢/ ١/ ٢٠٠٣

أحمد ماضي

- مهندس معمارى
- خريج كلية الفنون الجميلة
- عضو اتحاد الكتاب المصرى
- عضو نادى القصة
- عضو جمعية الأدباء
- يقيم صالونه الثقافي بقريته (القرضا - كفر الشـيخ) الإثنين الأخير من كل شهر.

إصداراته:

1. " الممر " الجائزة الأولى عن أحسن عمـل أدبـى لحرب أكتوبر.. وبها القصص القصيرة " الـدم " الجائزة الثانية مـن القوات المسلحة ـ " العودة " الجائزة الأولى مـن مجلة الهلال ـ " مأمورية " الجائزة الأولى من نادى القصة.
2. اسكات الماضي ـ (مجموعة قصص قصيرة)

3. الخروج من عالم الأربعة في خمسة ـ (قصـص قصيرة)
4. الناى الحزين ـ (ديوان شعر بالعامية المصرية... حول الشاعر عبد العليم عيسى)
5. أوراق شاعر من الزمن الجميل ـ (حـول حيـاة وتجربة الشاعر عبد العليم عيسى)
6. جمال عبد الناصر..أمير الفقراء.. ـ (تأملات فـي حياة زعيم)
7. صحوة الموت وغفوة الحياة ـ (إضاءة نقدية)
8. الظلام الدافئ ـ (رواية)
9. طائر الشوك ـ (رواية)

تحت الطبع:

1. لست أنا.. لكنه اسمى ـ (رواية)
2. دموع النوارس ـ (رواية)
3. الفلاح.. بطل الفـيلم ـ (ديـوان شـعر العاميـة المصرية)

4. أقوال صياد.. طيب ـ (ديـوان شـعر بالعاميـة المصرية)

5. كانت هنا أنثى ـ (ديوان شعر بالفصحى)